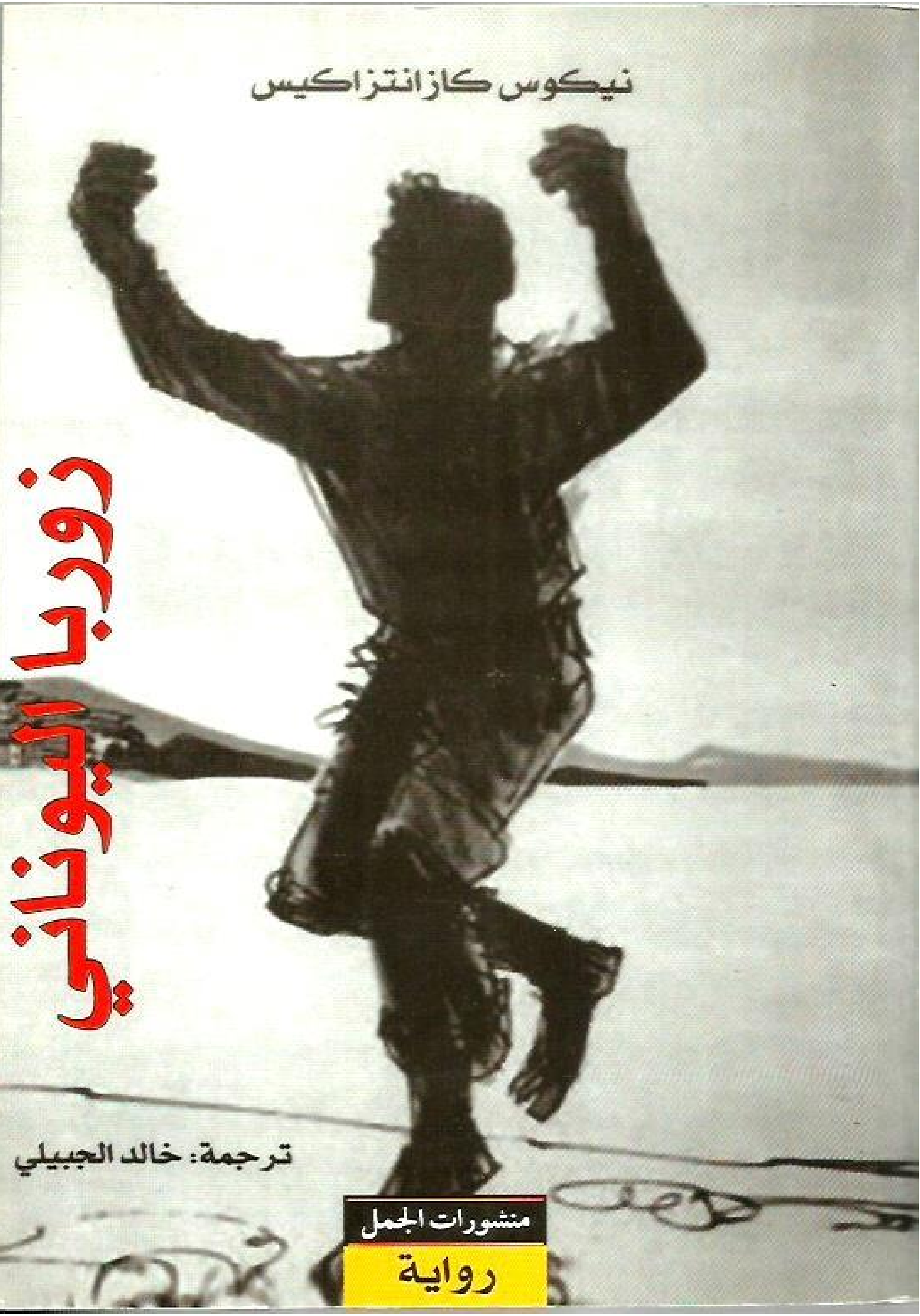

نيكوس كازانتزاكيس

زوربا اليوناني

ترجمة: خالد الجبيلي

منشورات الجمل

رواية

زوربا اليوناني

نيكوس كازانتزاكيس

زوربا اليوناني

رواية

ترجمة: خالد الجبيلي

منشورات الجمل

نيكوس كازنتزاكيس(١٨٨٣ ـ ١٩٥٧)، كاتب يوناني تأثر بالأديان القديمة وبكتّاب مثل هوميروس، دانتيّ، شكسبير ونيتشه. نشر العديد من المسرحيات والروايات والأشعار والأعمال النثرية التي كتبها أثناء سفره وتجواله في العديد من البلدان. له روايات عديدة، منها: **الحرية أو الموت** (١٩٥٣)، **ألكسي زوربا**، (١٩٤٦)، **المحاولة الأخيرة**، (١٩٥٥)، **الأخوة الأعداء**، (١٩٦٥). يصدر له قريباً عن منشورات الجمل: **القديس فرانسيس الأسيزي: الفقر لله**.

نيكوس كازانتزاكيس، زوربا اليوناني، رواية
ترجمة: خالد الجبيلي
الطبعة الأولى، جميع حقوق الطبع والنشر والاقتباس باللغة العربية محفوظة
لمنشورات الجمل، كولونيا (ألمانيا) ــ بغداد ٢٠٠٩

© *Al-Kamel Verlag* 2009
Postfach 210149 50527 Köln Germany
Tel: 0221 736982 . Fax: 0221 7326763
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: info@al-kamel.d

[1]

التقيت به لأول مرة في بيرايوس. كنت قد هبطت إلى الميناء لأستقل المركب المتجه إلى جزيرة كريت. كانت خيوط الفجر قد بدأت تبزغ، وبدأ الرذاذ يهمي. وكانت رياح شرقية عاتية تدفع الأمواج بعنف، فيتناثر منها الرذاذ ويصل حتى المَقهى الصغير الذي أغلق بابه الزجاجي. وكانت تملأ المقهى رائحة الميرمية، وروائح البشر الذين ينبعث من أنفاسهم بخار غشي زجاج النوافذ بسبب شدة البرودة في الخارج. وكان خمسة أو ستة بحّارة قد أمضوا الليلة في المقهى، متدثرين بسترات بنية مصنوعة من جلد الماعز، يحتسون القهوة أو الميرمية، ويحدقون في البحر من وراء زجاج النوافذ المغبشة. ولاذ السمك الذي أذهلته ضربات المياه الهائجة، بالأعماق، وأخذ ينتظر العاصفة في الأعلى كي تهدأ. وكان صيّادو السمك المحتشدون في المقاهي ينتظرون أيضاً العاصفة كي تهدأ، كي تعود الطمأنينة إلى نفوس السمك، ويصعد إلى السطح، بعد أن ينهي سمك موسى وسمك الخنزير وسمك الترس جولاته الليلية. لقد بدأت تبزغ الآن خيوط الفجر الأولى.

فُتح الباب الزجاجي ودخل عامل من عمال حوض السفن. كان مربوع القامة، متين البنية، ملطخاً بالطين، حاسر الرأس، حافي القدمين.

«مرحبا يا قسطندي!» صاح بحّار عجوز متدثر بعباءة زرقاء، «كيف حالك؟»

بصق قسطندي، وأجاب بحنق شديد: «وماذا تظن؟» ثم أضاف: «صباح الخير أيتها الحانة! وعمت مساء يا مسكني! هكذا هي الحياة التي أحياها. لا يوجد عمل على الإطلاق!».

أخذ بعض رواد المقهى يقهقهون، فيما هزّ آخرون رؤوسهم وراحوا يطلقون اللعنات.

«إن هذا العالم مجرد سجن مؤبد»، قال رجل ذو شارب، مكتسباً فلسفته هذه من مسرح كراكوز، «نعم، إنه سجن مؤبد. لعنه الله».

تسلل ضوء أخضر باهت مائل إلى الزرقة من زجاج نوافذ المقهى المتسخة، وانصب على الأيدي والأنوف والجباه. ووصل النور إلى المنضدة فأضاء القناني، وبهت الضوء الكهربائي، فمدّ صاحب المقهى نصف النائم، بعد أن سهر طوال الليل، يده وأطفأ النور.

سادت لحظة صمت، واتجهت جميع العيون نحو السماء التي بدت ملطخة في الخارج. كان صوت هدير الأمواج لا يزال يُسمع، وصوت قرقرة النراجيل يغمر المقهى.

أطلق البحّار العجوز تنهيدة وقال: «إني أتساءل ماذا حلّ بالقبطان ليموني؟ فليساعده الرب!» ورمق البحر غاضباً، ودمدم: «لعنة الله عليك يا هادم البيوت!» وعضّ على شاربه الذي يكسوه الشيب.

كنت منزوياً في إحدى زوايا المقهى. وقد اعتراني إحساس بالبرد فطلبت كوباً آخر من الميرمية. كنت أريد أن أغفو قليلاً، لكني قاومت الرغبة في النوم، وكافحت شعوري بالإعياء وبكآبة ساعات الفجر الأولى. ومن خلال النوافذ المكسوة بالبخار، رحت أنظر إلى الميناء الذي بدأ يستيقظ وتدب فيه الحياة، فبدأت صافرات السفن تلعلع، وتعالت نداءات الحمالين وأصحاب القوارب. وفيما كنت أجيل النظر، أحكمت شبكة خفية منسوجة من البحر والهواء ورحيلي، شباكها الضيّقة حول قلبي.

كانت عيناي مثبتتين على أقواس إحدى السفن الكبيرة السوداء. كان الظلام لا يزال يغلّف هيكل السفينة برمته، والمطر لا يزال يهطل، ورأيت أعمدة المطر وهي تربط السماء بالوحل.

عندما أخذت أنظر إلى السفينة السوداء وإلى الظلال والمطر، غمرني شعور بالحزن. فقد بدأت تراودني الذكريات. فأعاد إليّ المطر وكآبتي، في هذا الجوّ الماطر، ملامح صديقي العظيم. هل كان ذلك في السنة الماضية؟ في حياة أخرى؟ البارحة؟ متى هبطت إلى هذا الميناء بالذات كي أودّعه؟ تذكّرت كيف كانت السماء تمطر في ذلك الصباح أيضاً، والبرد، ونور الصباح الباكر. كان قلبي آنذاك مثقلاً بالهموم أيضاً.

يا له من شيء مؤلم حقاً أن تنفصل رويداً رويداً عن أصدقائك المخلصين! فمن الأجدى أن تأخذ فترة استراحة وتنعزل عن الناس ـ المناخ الطبيعي للإنسان. ورغم ذلك، وفي ذلك الفجر الماطر، لم يكن بوسعي أن أترك صديقي. (وقد فهمت سبب ذلك لاحقاً، لكن للأسف، بعد فوات الأوان). فقد كنا على متن السفينة ذاتها، وكنت أجلس في مقصورته وسط الحقائب المتناثرة هنا وهناك. كنت أحدق فيه ملياً، عندما شرد انتباهه إلى مكان آخر، وكأني أرغب في أن أسجل ملاحظة عقلية عن قسمات وجهه، الواحدة تلو الأخرى ـ عيناه المشعتان الخضراوان المائلتان إلى اللون الأزرق، ووجهه الفتي المستدير، وقسماته المتغطرسة والذكية، وفوق كل هذا وذاك، يداه الأرستقراطيتان، بأصابعهما الطويلة الرشيقة.

باغتني ذات يوم وأنا أحدّق فيه بإمعان وقلق. التفت إليّ وقد ارتسم على وجهه ذلك التعبير الساخر الذي كان يبديه عندما يشاء ليخفي حقيقة مشاعره. نظر إليّ وفهم. ولكي نتحاشى كآبة الفراق وحزنه، سألني بابتسامة ساخرة:

«إلى متى؟».

«ماذا تقصد إلى متى؟».

«إلى متى ستستمر في مضغ الأوراق وتلطيخ نفسك بالحبر؟ لماذا لا تأتي معي؟ ففي القوقاز آلاف من أبناء شعبنا المعرضين للخطر لنذهب إليهم

وننقذهم». بدأ يضحك وكأنه يهزأ من خطته النبيلة، «ربما لن نتمكن من إنقاذهم. لا تلق عليّ مواعظ: فالسبيل الوحيد لكي تنقذ نفسك هو أن تسعى لإنقاذ الآخرين؟». حسناً، هيا تابع يا سيدي. فإنك تجيد إلقاء المواعظ. لم لا تأتي معي!

لم أجب. فكّرت بأرض الشرق المقدّسة، أمّ الآلهة القديمة، صراخ بروميثيوس

الصاخب وهو مسمّر إلى الصخرة. مثبت بالمسامير فوق هذه الصخور ذاتها، كان شعبنا يصيح. وقد أصبح عرضة للخطر ثانية، وهو يطلب العون من أبنائه. رحت أستمع بسلبية، وكأن الألم حلم والحياة مأساة لا يهرع فيها إلا فلاح بسيط أو ساذج إلى خشبة المسرح ليشارك في هذه التمثيلية.

دون أن ينتظر رداً مني، استوى صديقي واقفاً. أطلق المركب صفارته للمرّة الثالثة. مد لي يده، ومرة أخرى أخفى مشاعره ساخراً.

«إلى اللقاء، يا دودة الكتب!».

كان صوته مرتعشاً. كان يعرف أنه من العار ألا يتمكن من أن يتحكم بمشاعره. إذ كانت الدموع، والكلمات الرقيقة، والسلوك غير المنضبط، ورفع الكلفة بيننا، تبدو جميعها له مواطن ضعف لا تليق بالرجال. ولم نتبادل، نحن اللذين كان أحدنا مولعاً بالآخر، كلمة رقيقة واحدة. كنا نلعب ويخمش أحدنا الآخر مثل وحشين بريين. فقد كان هو الرجل المتحضّر الذكي المتهكم، وكنت أنا الرجل البربري. كان يتمالك نفسه، ويعبّر عن مشاعره ودماثته بابتسامة. أما أنا فقد كنت أطلق بغتة ضحكة همجية، وفي غير محلها.

كنت أحاول أيضاً أن أموّه عن مشاعري بكلمة قاسية. إلا أنني كنت أشعر بالخجل. لا، ليس خجلاً بكل معنى الكلمة، لكن لم يكن بوسعي أن أتدبر الأمر. أمسكت يده. أمسكتها ولم أتركها. نظر إليّ مندهشاً.

«هل أنت متأثر جداً؟» قال، محاولاً أن يبتسم.

«نعم»، أجبت بهدوء.

«لماذا؟ الآن، ماذا قلنا؟ ألم نتفق على هذا منذ سنوات؟ ماذا يقول أحباؤك اليابانيون؟ قلب يخلو من المشاعر! التحرر من القلق، هدوء أوليمبي، الوجه قناع مبتسم غير مؤثّر. أما ما يحدث وراء القناع، فهذا من شأننا».

«نعم»، أجبت مرة أخرى، محاولاً ألا أغامر بقول جملة طويلة. فلم يكن بوسعي أن أتحكم بصوتي.

ثم بدأت السفينة تقرع ناقوسها، فخرج الزوّار من مقصوراتهم. كان الرذاذ يهمي ناعماً. وامتلأ الهواء بكلمات الوداع الشجية، وبالوعود، وبالقبلات الطويلة، وبالنصائح المتعجلة بأنفاس متقطعة. وهرعت الأمهات نحو أبنائهن، والزوجات نحو أزواجهن، والأصدقاء نحو أصدقائهم. وكأنهم سيغادرون إلى الأبد. وكأن هذا الفراق الصغير ذكّر الآخرين بالفراق العظيم. وفجأة، وفى الهواء الرطب، تردّد صوت الناقوس برفق من مقدمة السفينة إلى مؤخرتها، كناقوس جنائزي. اعترتني رعدة.

مال صديقي إلى الأمام.

«اسمع»، قال بصوت منخفض. «هل تتوجس وقوع شرّ؟»

«نعم».

«هل تؤمن بمثل هذا الهراء؟».

«لا»، أجبت مؤكداً.

«جيد، إذن؟».

لم يكن هناك «جيد» لم أكن أؤمن بها، لكنني كنت خائفاً

لمس صديقي ركبتي بيده اليسرى برفق، وكأنه كان معتاداً على ذلك في لحظات حماسه الشديدة. كنت أحثّه على أن يحسم أمره، وكان يعارض،

يصيخ السمع، ويرفض؛ وفي النهاية كان يقبل، ثم يلمس ركبتي، وكأنه يريد أن يقول: «حسناً، سأفعل ما تقوله، بحق الصداقة. . ».

رمش عينيه مرتين أو ثلاث مرات، ثم حدّق فيّ ثانية. عرف أني كنت مكتئباً وتردّدت في استخدام أسلحتنا المعتادة: الضحك والابتسامات والمزاح.

«حسناً»، قال، «أعطني يدك. إذا وجد أحدنا نفسه أنه معرض لخطر الموت. . ».

توقّف، وكأنه شعر بالخجل. نحن اللذان كنا نسخر ولسنوات كثيرة من «التهويمات» الغيبية ونصنف معاً النباتيين ومستحضري الأرواح والصوفيين

«حسناً؟» سألت، محاولاً أن أحزر.

«لنفكر بالأمر وكأنه لعبة»، قال فجأة، ليخلص نفسه من الجملة المحفوفة بالخطر التي بدأها، «إذا وجد أحدنا نفسه معرضاً لخطر الموت، فليفكّر بالآخر بقوة كي يحذره أينما كان. . حسناً؟» حاول أن يضحك، لكن شفتيه ظلتا ساكنتين، كما لو كانتا مجمدتين.

«حسناً»، قلت.

وخشية أن يكون قد فضح مشاعره، استدرك صديقي وقال:

«انتبه، فأنا لا أؤمن بتوارد الخواطر وكلّ هذه الأمور على الإطلاق. . ».

«لا تبال بذلك»، غمغمت، «دع الأمر على حاله. . ».

«حسناً، إذن، فلندع الأمر على حاله. اتفقنا؟».

«اتفقنا»، أجبت.

كانت تلك كلماتنا الأخيرة. تشابكت أيدينا بصمت، وتلاحمت أصابعنا بحماس، وفجأة أرخيت يدي وابتعدت عنه بسرعة دون أن أنظر إلى الوراء، وكأن أحداً يلاحقني. أحسست بدافع مفاجئ لأن ألقي نظرة أخيرة على صديقي، لكني كبحت هذه الرغبة. وقلت لنفسي: «لا تنظر إلى الوراء! امض قدماً!».

إن الروح الإنسانية ثقيلة، خرقاء، عالقة في طين الجسد. ولا تزال تصوراتها ومفاهيمها فظة وبهيمية. ولا يمكنها أن تتنبأ بأي شيء بوضوح، لا شيء بشكل مؤكد. وإن استطاعت أن تتنبأ، فكم سيكون هذا الفراق مختلفاً.

لقد امتزج الصباحان. كنت لا أزال أرى قسمات وجه صديقي الجميلة بمزيد من الوضوح الآن، ولبثت واقفاً بائساً تحت المطر في الميناء. فُتح باب المقهى، فسمع هدير البحر، ودخل بحّار ضخم الجثة، ذو ساقين منفرجتين وشاربين متهدلين.

تعالت الأصوات في حبور:

«أهلاً بك، يا كابتن ليموني!».

انزويت في ركن المقهى، وحاولت أن أعيد تركيز أفكاري. إلا أن وجه صديقي تلاشى وذاب في المطر.

بدأ الضوء يزداد حدة. أخرج الكابتن ليموني، المتجهم والصموت، سبحته العنبرية وبدأ يسبّح بها. بذلت ما بوسعي كي لا أرى، لا أسمع، وأن أحافظ على الرؤية التي أخذت تتلاشى لفترة أطول بقليل. كم تمنيت أن تعود تلك اللحظة التي غضبت فيها عندما أطلق عليّ صديقي اسم دودة كتب! فقد تذكّرت آنذاك أن اشمئزازي من الحياة التي أعيشها تجلى في تلك الكلمات. كيف أمكنني، أنا الذي أحبّ الحياة بقوة، أن أدع نفسي تتشابك لفترة طويلة في هراء الكتب والورق الذي يسوّده الحبر! في يوم الفراق ذاك، ساعدني صديقي على أن أرى بجلاء. شعرت بالراحة. وبعد أن بدأت أعرف الآن اسم مأساتي، فربما أصبح بإمكاني أن أتغلب عليها بسهولة أكبر. فلم تعد شيئاً غير ملموس ومراوغاً، بل أصبح لها اسم وشكل، وسيسهل عليّ أن أقارعها

لا بد أن كلمته حققت تقدّماً صامتاً فيّ. كنت أبحث عن ذريعة كي أتخلى عن أوراقي وأثبت نفسي في حياة مليئة بالحركة. لقد بدأت أكره حمل هذا المخلوق البائس فوق رأسي. وحانت في الشهر الماضي الفرصة المطلوبة. فاستأجرت

منجم فحم مهجوراً على شاطئ كريت، قبالة ليبيا، وقررت أن أذهب لأعيش مع أناس بسطاء وعمّال وفلاحين، بعيداً عن قوم دودة الكتب!

كنت شديد الحماس للذهاب إلى هناك، كما لو كانت لهذه الرحلة أهمية غامضة. قرّرت أن أغيّر أسلوبي في الحياة. قلت لنفسي: «لم تر حتى الآن سوى الظلّ الذي تجلس في ربوعه قانعاً؛ أما الآن، فإني سأقودك إلى الجوهر».

أخيراً أصبحت مستعداً. وفي عشية الانطلاق، وفيما كنت أبحث بين أوراقي، عثرت على مخطوطة غير منتهية. أخرجتها ونظرت إليها بتردد. فمنذ سنتين، كانت تحتدم في أعماق أعماق كينونتي رغبة جامحة، بذرة أخذت تنمو بسرعة، كنت أشعر بها طوال الوقت وهي تمور في أحشائي، تتغذى عليّ وتكبر. كانت تنمو، تتحرّك، ثم أخذت تركل جدار جسدي كي تخرج وتتحرر. ولم أعد أمتلك الشجاعة لأحطمها. لم يكن بوسعي أن أفعل ذلك. لقد فات الآوان للقيام بمثل هذا الإجهاض الروحي.

وفجأة، فيما أمسكت المخطوطة بتردد، أدركت ابتسامة صديقي في الهواء، ابتسامة تمتزج فيها السخرية بالرقة. قلت ملسوعاً: «سآخذها! لست بحاجة لأن تبتسم!» لففتها بعناية، وكأنني أقمّط طفلاً رضيعاً، وأخذتها معي.

كان صوت الكابتن ليموني العميق الأجش مسموعاً. أرهفت السمع. كان يتكلم عن أرواح الماء التي تتسلّق صواري مركبه وتلعقها أثناء هبوب العاصفة.

قال: «إنها ناعمة ولزجة. فعندما تمسك عدداً كبيراً منها، تشتعل يداك. كنت أمسّد شاربي، لذلك بدأتا تسطعان في الظلام كالشيطان. حسناً، غمر الماء مركبي وتبللت حمولة الفحم. أصبح مشبعاً بالماء. وبدأ المركب يميل إلى أحد الجانبين. وفي تلك اللحظة بالذات، أخذ الله الأمر على عاتقه. فأرسل صاعقة، وانشقت الأغطية، وملأ الفحم البحر. أصبح المركب خفيفاً، وعدّل مساره، وهكذا أنقذت أرواحنا. هذا كلّ ما في الأمر!».

أخرجت من جيبي طبعة صغيرة من كتاب دانتي، رفيقي في السفر أشعلت

الغليون، استندت إلى الجدار واسترخيت. ترددت لحظة. في أية أبيات سأغوص؟ في قار جهنم المحترق، أم في ألسنة لهيب المطهر؟ أم أنتقل مباشرة إلى وادي أمل البشرية الأكثر سمواً وارتقاء؟ كان بوسعي أن أختار. وعندما كنت أمسك كتاب دانتي في يدي، غمرني شعور بالبهجة بحريتي. فالأشعار التي سأختارها في الصباح الباكر، سيظل إيقاعها معي طوال النهار

انحنيت فوق هذه الرؤية الحادّة كي أقرّر، إلا أنه لم يكن لديّ وقت. رفعت رأسي فجأة بانزعاج. وعلى نحو ما أحسست وكأن عينين تخترقان أعلى جمجمتي؛ نظرت بسرعة ورائي باتجاه الباب الزجاجي. وومض أمل مجنون في رأسي: «سأرى صديقي ثانية». كنت مستعداً للمعجزة، لكن المعجزة لم تقع. رأيت شخصاً غريباً يقارب الستين من العمر، طويلاً ونحيفاً، بعينين محدقتين، يضغط أنفه على لوح الزجاج وينظر إليّ. كان يحمل حزمة صغيرة مسطحة تحت ذراعه.

كان ما أثار انتباهي، نظرته المتلهّفة، وعيناه الساخرتان المتقدتان. على أي حال، هكذا بدتا لي.

ما أن تلاقت عينانا ـ بدا أنه يتأكّد من أنني الشخص الذي يبحث عنه ـ حتى فتح الغريب الباب بدفعة واثقة بذراعه. مرّ بين الطاولات بخطوات متقافزة سريعة، ووقف أمامي.

سألني: «هل أنت مسافر؟» وأضاف: «إلى أين بإذن الله »

«إني مسافر إلى كريت. لماذا تسأل؟».

«أتصحبني معك؟».

رحت أحدق فيه. كان خداه غائرين، فكّ قوي، عظام خدّ ناتئة، شعر أشيب مجعّد، عينان لامعتان ثاقبتان.

«لماذا؟ ماذا يمكنني أن أفعل من أجلك؟».

هز كتفيه.

«لماذا! لماذا!» قال بازدراء، «ألا يستطيع الرجل أن يفعل شيئاً بدون لماذا؟ لمجرد ذلك، لأنه يريد أن يفعل ذلك؟ حسناً، خذني، لنقل للعمل كطاه. يمكنني أن أحضّر لك أنواعاً من الحساء لم تسمع بها من قبل، أو لم تخطر ببالك قط. . ».

بدأت أضحك. فقد أدخلت أساليبه المخادعة وكلماته الصريحة السرور في نفسي. كما كانت أنواع الحساء تدخل السرور في نفسي. قلت لنفسي لن تكون فكرة اصطحاب هذا الرجل المهلهل إلى ذلك الساحل الموحش النائي سيئة. أنواع الحساء والقصص. بدا وكأنه طرق أبواب العالم كثيراً، كالسندباد البحري. لقد وقع في قلبي.

«بماذا تفكّر؟» سألني بأسلوب يتسم برفع الكلفة، وهو يهز رأسه الكبير، «إنك تحمل ميزانين أيضاً، أليس كذلك؟ إنك تزن كلّ شيء حتى أدق ذرة، أليس كذلك؟ هيا يا صديقي، احسم أمرك. اعزم وتوكل!».

كان هذا الأخرق الطويل الضامر يقف فوقي، وقد تعبت من النظر إلى الأعلى لأكلمه. أغلقت كتاب دانتي وقلت: «اجلس، هل تريد كأساً من الميرميّة؟».

«الميرميّة؟» قال بازدراء، «أيها النادل، أحضر لي شراب الرم».

أخذ يجرع شراب الرم في رشفات صغيرة، وكان يبقيها طويلاً في فمه ليتذوقها جيداً، ثم يدعها تنزلق ببطء لتدفئ جوفه. قلت في نفسي: «إنه شخص حسيّ، ذوّاق. . ».

«ما نوع العمل الذي تجيده؟» سألته.

«كلّ أنواع الأعمال. بالقدمين، باليدين، أو بالرأس ـ جميعها. هذا يتوقف على ما سنفعله!»

«أين كنت تعمل آخر مرة؟».

«كنت أعمل في منجم. فأنا عامل منجم جيد. أعرف شيئاً أو شيئين عن المعادن، أعرف كيف أجد العروق وأشق الأنفاق. أنزل إلى الحفر، فأنا لا أخاف. كان عملي جيداً. كنت أشرف على العمال، ولا يوجد لديّ شيء أتذمر منه. لكن الشيطان أخذ الأمر على عاتقه. ففي ليلة السبت الماضي، ولمجرد أني شعرت بالرغبة في القيام بذلك، أوقفته فجأة عند حدّه، أمسكت بالرئيس، الذي كان قد جاء في ذلك اليوم ليفتش المكان، وأوسعته ضرباً. . »

«لكن لماذا؟ ماذا فعل لك؟».

«لي؟ لا شيء على الإطلاق، أقول لك! كانت تلك هي المرّة الأولى التي أراه فيها. حتى أن ذلك الشيطان المسكين، كان قد قدم لي سكائر».

«حسناً؟».

«أوه، إنك تجلس ولا تفعل شيئاً سوى أن تطرح أسئلة! لقد خطر ببالي ذلك، هذا كلّ ما في الأمر. هل تعرف حكاية زوجة الطحّان؟ حسناً، إنك لا تتوقّع أن تتعلم أحرف الأبجدية من ظهرها، أليس كذلك؟ ظهر زوجة الطحّان، هكذا هو عقل الإنسان».

كنت قد قرأت تعريفات كثيرة عن عقل الإنسان. وقد بدا لي هذا التعريف أكثرها إدهاشاً، وقد أعجبني. نظرت إلى رفيقي الجديد باهتمام شديد. كان وجهه مليئاً بالتجاعيد، وقد بلي بتأثير الطقس، مثل قطعة خشب نخرها الدود. بعد سنوات قليلة منحني وجه آخر انطباع الخشب البالي والمعذّب نفسه: وهو وجه بانيت إستراتي[(١)]

«وماذا يوجد في صرتك؟ طعام؟ ثياب؟ أو أدوات؟»

هزّ رفيقي كتفيه وضحك.

---

(١) كاتب روماني عانى من السلّ. وكتب باللغة الفرنسية ـ م.

قال: «إنك تبدو رجلاً حساساً، المعذرة»، وراح يمسّد صرته بأصابعه الطويلة الخشنة.

ثم أضاف: «لا إنها آلة السنتوري».

«السنتوري؟ هل تعزف على السنتوري؟».

«عندما لا يكون لديّ عمل، فإني أدور على الحانات وأعزف على السنتوري» أغنّي ألحان كليفتيك المقدونية القديمة. ثم أحمل قبعتي وأدور بها على الناس ـ هذه القلنصوة ـ وتمتلئ بالنقود.

«ما اسمك؟».

«أليكسيس زوربا». أحيانا يطلقون عليّ اسم «مجرفة الخباز»، لأني نحيف جداً ورأسي مفلطح مثل كعكة مسطحة. أو أنهم يسمونني باسا تمبو لأني كنت أحمّص بذر اليقطين. ويسمونني كذلك «عفن الزرع»، لأنهم يقولون إني أمارس أعمالي الملتوية أينما ذهبت. ليتهدم كل شيء. إنهم يطلقون عليّ ألقاباً أخرى أيضاً، لكننا سنتركها لوقت آخر

«وكيف تعلّمت العزف على السنتوري؟».

«عندما كنت في العشرين من عمري، سمعت عزف السنتوري لأول مرة في أحد الاحتفالات في قريتي التي تقع على سفح جبل الأولمب. لقد أدهشتني ألحانه. لم أتمكن من تناول شيء طوال ثلاثة أيام». سألني أبي، تغمده الله برحمته، «ما خطبك» أريد أن أتعلّم العزف على السنتوري «ألا تخجل من نفسك؟ هل أنت غجري؟ هل تعني أنك تريد أن تصبح عازفاً؟» أريد أن أتعلّم العزف على السنتوري! كنت قد ادخرت مبلغاً صغيراً من المال من أجل زواجي. كانت فكرة طفولية، لكنني لم أكن قد نضجت تماماً بعد، كان دمي حاراً. أردت أن أتزوج، أنا الأبله المسكين! على أية حال، أنفقت كلّ شيء معي ومبلغاً أكثر بقليل، واشتريت آلة السنتوري. أخذته إلى سالونيكا وعثرت على شخص تركي، يدعى ريتسيب أفندي، كان يعلّم الجميع العزف على

السنتوري. ألقيت بنفسي عند قدميه. فقال: «ماذا تريد أيها الكافر الصغير؟» فقلت: «أريد أن أتعلّم العزف على السنتوري»، فقال: «حسناً، لكن لماذا تلقي بنفسك عند قدميّ؟» فقلت لأنني لا أملك نقوداً أدفعها لك! «وهل أنت حقاً مغرم بالعزف على السنتوري؟» «نعم». «حسناً، يمكنك أن تبقى، يا بني. لا أريد أن تدفع لي». مكثت سنة وتعلمت على يده. فليتغمد الله رفاته برحمته! لا بد أنه مات الآن. إذا ترك الله الكلاب تدخل جنته، فليفتح بابه لريتسيب أفندي. «ومنذ أن تعلّمت العزف على السنتوري، أصبحت شخصاً مختلفاً فعندما تتملكني الكآبة، أو عندما أكون مفلساً، وأعزف على السنتوري فإن روحي تمتلئ بهجة. وإذا كلمتني وأنا أعزف، فإنني لا أسمع شيئاً، وحتى إذا سمعت، فإنني لا أستطيع أن أتكلم. لا فائدة من اختاري. لا أستطيع!».

«لكن لماذا يا زوربا؟».

«ألا ترى؟ الشغف، إنه هو!»

فُتح الباب. وتسلل صوت البحر إلى المقهى مرة أخرى. كانت أيدينا وأقدامنا مجمدة من شدة البرد. انزويت أكثر في ركني وتدثرت بمعطفي. كنت أتلذذ بنعمة هذه اللحظة.

«إلى أين سأذهب؟» قلت لنفسي. «فأنا على خير ما يرام هنا فلتدم هذه الدقيقة سنوات عديدة»

نظرت إلى الرجل الغريب أمامي. كانت عيناه مثبتتين في عينيّ. كانتا عينين صغيرتين، مدورتين فيهما بؤبؤان شديدا السواد، تتخلل بياضهما عروق حمراء. أحسست بهما تخترقاني، تفحصاني بنهم.

قلت: «حسناً؟ واصل كلامك».

هز زوربا كتفيه النحيفتين مرة أخرى.

قال: «لندع الأمر هل يمكنك أن تعطيني سيكارة؟»

أعطيته سيكارة. أخرج حجر قداح من جيبه وفتيلة وأشعلها. أغمض عينيه نصف إغماضة باطمئنان.

«هل أنت متزوّج؟».

«ألست رجلاً؟» قال حانقاً، «ألست رجلاً؟ أقصد أعمى. مثل جميع الرجال الآخرين الذين سبقوني، سقطت بتهور في الحفرة. تزوّجت. سلكت طريق الانحدار. أصبحت ربّ أسرة، بنيت بيتاً، أنجبت أطفالاً ـ مشكلة. لكن شكراً لله بفضل السنتوري».

«هل كنت تعزف لتنسى همومك؟».

«انظر، أرى أنك لا تعزف على أي آلة موسيقية. عم تتكلم؟ ففي البيت توجد جميع همومك. الزوجة، الأطفال. ماذا سنأكل؟ كيف سنتدبر الملابس؟ ماذا سيحصل لنا؟ الجحيم! لا، أما إذا أردت أن تعزف على السنتوري، فيجب أن تكون في نفسية جيدة، يجب أن تكون نقياً. إذا رددت زوجتي كلمة واحدة كثيراً، فكيف يمكنني أن أكون في مزاج يجعلني أعزف على السنتوري؟ إذا كان أطفالك جائعين ويصرخون من حولك، فإنك تحاول أن تعزف فقط! لكن لكي تعزف على السنتوري، يجب أن تتخلى عن كلّ شيء من أجله، هل تفهم؟».

نعم، فهمت. إن زوربا هو الرجل الذي أبحث عنه منذ زمن بعيد. فله قلب ينبض بالحياة، وفم كبير شره، وروح فظة عظيمة، لم أنقطع بعد عن أمّنا الأرض.

لقد توضح لي الآن معنى هذه الكلمات: الفنّ، الحبّ، الجمال، النقاء، الشغف، بأكثر الكلمات البشرية بساطة التي ينطقها هذا العامل.

نظرت إلى يديه اللتين تستطيعان أن تعملا بالمعول وتعزفان على السنتوري. كانتا صلبتين، مشققتين، مشوهتين ومفتولتين. بعناية ورقة كبيرتين، وكأنهما تنزعان ثياب امرأة عن جسدها، فتحت يداه الكيس وأخرجتا آلة سنتوري قديمة، صقلتها السنون. كان فيه أوتار عديدة، مزداناً بالنحاس والعاج وفي طرفه شرّابة حريرية حمراء. وراحت تلك الأصابع الكبيرة تداعبه ببطء، بحنو،

تلامسه وكأنها تداعب امرأة. ثم لفتّها ثانية، وكأنها تُلبس جسد المحبوبة كي لا تبرد.

«هذا هو السنتوري!» غمغم، وهو يضعه بعناية على الكرسي.

أخذ البحّارة يقرعون كؤوسهم الآن وينفجرون بالضحك. وربت البحّار العجوز بوّد على ظهره

«كان ينتابك خوف شديد، الآنْ أليس كذلك أيها الكابتن؟ يعلم الله كم عدد الشموع التي أوقدتها للقديس نيقولا!»

قطّب الكابتن حاجبيه الكثيفين

«لا، أقسم لك، عندما رأيت ملاك الموت أمامي، لم أفكّر بالقديسة مريم، ولا بالقديس نيقولا! بل استدرت نحو جزيرة سلامي وفكّرت بزوجتي، ورحت أصيح آه يا كاثرينا، كم أتمنى أن أكون معك في السرير في هذه اللحظة!»

مرة أخرى أخذ البحّارة بضحكون، وشاركهم الكابتن ليموني الضحك

قال: «إن الرجل حيوان حقيقي»، وأضاف، «إن عزارنيل يقف فوق رأسه شاهراً سيفه، وعقله معلق هناك. هناك فقط وليس في أي مكان آخر! فليأخذ الشيطان العنزة العجوز!»

صفّق بيديه.

«قدم مشروباً للجميع» صاح.

كان زوربا ينصت باهتمام شديد بأذنيه الكبيرتين. التفت، نظر إلى البحّارة، ثمّ إليّ.

«أين هناك؟» سأل، «عم يتحدث هذا الرجل؟» لكنه فهم فجأة وبدأ يقول.

«برافو يا صديقي!» صاح معجباً «هؤلاء البحّارة يعرفون السرّ على الأرجح لأنهم واقعين في قبضة الموت ليلاً نهاراً».

ولوّح بقبضته الكبيرة في الهواء.

قال: «صحيح! إنها مسألة أخرى. لنعد إلى عملنا. هل أبقى، أم أذهب؟ هيا احسم أمرك».

«زوربا»، قلت، وكان عليّ أن أكبح نفسي من أن أرتمي بين ذراعيه، «اتفقنا! ستأتي معي. عندي منجم فحم في كريت. وتستطيع أن تشرف على العمّال. وفي المساء سنتمدد فوق الرمل - ففي هذا العالم، لا توجد لديّ زوجة، ولا أطفال ولا كلاب - سنأكل ونشرب معاً. ثم ستعزف السنتوري».

«لو كنت في مزاج رائق، هل تسمع؟ لو كنت في المزاج. فسأعزف لك كما تشاء. سأكون رجلك هناك. أما السنتوري، فهو شيء مختلف. إنه حيوان بري، إنه يحتاج إلى حرية. عندما أكون في مزاج رائق، فإني سأعزف. بل حتى سأغني. وسأرقص رقصة زيمبكيكو[١] وهاسابيكو[٢] وبينتوزالي[٣] لكني سأقول لك بصراحة منذ البداية، يجب أن أكون في المزاج. ليكن ذلك واضحاً. إذا أرغمتني على ذلك، هذا كل ما في الأمر. بالنسبة لهذه الأشياء، يجب أن تدرك أني رجل».

«رجل؟ ماذا تقصد؟».

«حسناً، حرّ!».

طلبت كأساً آخر من شراب الرم.

«اجعلهما كأسين!» صاح زوربا، «ستشرب واحداً، لكي نشرب نخب هذا. الميرميّة وشراب الرم لا يتوافقان. إنك ستشرب شراب الرم أيضاً، لنوثق اتفاقنا».

---

(١) رقصة الزيمبيكس، قبيلة ساحلية من آسيا الصغرى.

(٢) رقصة الجزّارين.

(٣) رقصة المحاربين في جزيرة كريت.

قرعنا كأسينا الصغيرتين. كان ضوء النهار قد بدأ يشع الآن. وأخذت السفينة تطلق صافرتها. وأشار إليّ الحمّال الذي كان قد نقل حقائبي إلى ظهر المركب.

عندما وقفت قلت: «ليكن الله معنا لنذهب»

«الله والشيطان!» أضاف زوربا بهدوء.

انحنى، تأبط السنتوري، فتح الباب، وخرج أولاً.

[2]

البحر، رقّة الخريف، الرذاذ الناعم الذي يهمي فوق هذه الجزر وينشر غلالة رقيقة شفافة تكسو عريّ اليونان الخالد. قلت في نفسي طوبى لمن يتيح له الحظّ السعيد أن يبحر إلى بحر إيجه قبل أن توافيه المنية.

كثيرة هي متع الحياة ـ النساء، الفاكهة، الأفكار ـ لكن أن تمخر عباب هذا البحر في فصل خريفي لطيف، وتدمدم شفتاك اسم كلّ جزيرة تمر بها، لهي في رأيي أعظم المتع التي تنقل قلب الإنسان إلى الجنة. فلا يوجد ثمة مكان آخر يستطيع فيه المرء أن يعبر من الواقع إلى الحلم بيسر وصفاء. فالحدود تتضاءل، وتنبثق من صواري أقدم السفن أغصان وثمار. وعندما يكون المرء هنا في اليونان، فإن الضرورة تكون أمّ المعجزات.

توقّف المطر قبيل الظهيرة، وشقت الشمس الغيوم ومدّت رأسها من بينها لطيفة، رقيقة، مغسولة ونقية ومنعشة، وأخذت تداعب بأشعتها حبيبتيها الماء واليابسة. وقفت في مقدمة السفينة، وغاصت نفسي في نشوة المعجزة التي بدأت تتكشف على مد البصر.

كان على متن السفينة يونانيون، شياطينُ مخادعون بعيون مليئة بالجشع، وعقول أشبه بسلع لا قيمة لها يبيعها تجّار السوق، بالتحايل والشجار. بيانو تنبعث منه أصوات نشاز. رجال صادقون، وآخرون شرسون يقطرون سماً وأول ما يعتري المرء، الرغبة في أن يمسك بالسفينة من كلتا جانبيها، ويقذف بها إلى البحر، ويهزّها بشدة حتى تسقط منها جميع المواشي التي لوّثتها ـ الرجال والجرذان والعث ـ ثم يعيدها إلى السطح ثانية، مغسولة وفارغة.

إلا أنه كان يعتريني أحياناً إحساس بالشفقة. شفقة بوذية، باردة مثل نتيجة يتوصل إليها استدلال منطقي غيبي. شفقة لا على الرجال فقط، بل على الحياة كلها التي تكافح، تصيح، تبكي، تأمل، ولا تدرك أنّ كلّ شيء مجرد أضغاث أحلام من العدم. الشفقة على اليونانيين، وعلى منجم الفحم، وعلى مخطوطتي التي لم تكتمل بعد عن بوذا، وعلى جميع تلك التراكيب العقيمة من الضوء والظلّ التي تعكر بغتة صفو الهواء النقي وتلوثه.

نظرت إلى وجه زوربا المرهق الشاحب. كان يجلس متكوراً فوق كومة من الحبال الملفوفة في مقدمة السفينة. يشمّ ليمونة، وينصت بأذنيه الكبيرتين إلى بعض المَسافرين الذين يتشاجرون، بعضهم يقف إلى جانب الملك، وبعضهم الآخر يقف إلى جانب رئيس الوزراء فينيزيلوس. كان يهز رأسه ويبصق.

«حثالة قديمة!» غمغم بازدراء، وأضاف «ألا يخجلون من أنفسهم!»

«ماذا تعني بحثالة قديمة يا زوربا؟»

«إن هذه الأشياء جميعها ـ الملوك والديمقراطيات والاستفتاءات الشعبية والنوّاب، ليست إلا غشاً وخداعاً»

لقد تجاوز زوربا الأحداث المعاصرة واعتبرها مجرد قمامة أكل الدهر عليها وشرب. ومن المؤكد أن البرق والبواخر والمحركات، والمبادئ الأخلاقية السارية والدين تشبه جميعها البنادق القديمة الصدئة. كان عقله يتجاوز العالم كثيراً.

كانت الحبال تصدر صريراً فوق الصواري، والشواطئ تتراقص، وأضحى لون النساء على متن السفينة أصفر، أشد اصفراراً من الليمون. وكن قد ألقين بأسلحتهن ـ زينتهن، حمالات صدورهن، دبابيس شعرهن، أمشاطهن. وشحبت شفاههن، وازّرقت أظافرهن. وبدأت العجائز الثرثارات السليطات اللسان يفقدن حليهن وزينتهن المستعارة ـ الأشرطة التي تزين شعرهن، والحواجب والشامات الزائفة، وحمالات الصدر ـ وما إن تراهنّ وهنّ على وشك أن يتقيأن، حتى تشعر بالتقزز منهن، وبشفقة كبيرة عليهن.

بدأ لون زوربا يصبح أصفر وأخضر أيضاً. وانطفأ البريق المتوهج في عينيه المتلألئتين. ولم تعد عيناه تومضان إلا قبيل حلول المساء. وأشار إلى دولفينين يتقافزان خارج الماء قرب السفينة.

«دلافين!» صاح مبتهجاً.

للمرة الأولى، ألاحِظ أن نصف سبابته يده اليسرى تكاد تكون مبتورة. أحسست بالدوار.

«ماذا حدث لإصبعك يا زوربا؟» صحت.

«لا شيء»، أجاب، مبدياً انزعاجه لأنني لم أبدِ فرحة أكبر برؤية الدلافين.

«هل علقت في آلة؟» سألته بإصرار.

«لماذا تريد أن تتحدث دائماً عن الآلات؟ لقد قطعتها أنا بنفسي».

«أنت؟ لماذا؟».

«لن تستطيع أن تفهم، يا معلم!» قال، وهزّ كتفيه، ثم أضاف: «قلت لك إني لم أترك حرفة إلا ومارستها. وفي أحد الأيام كنت أعمل خزّافاً. كنت مهووساً بتلك الحرفة. هل تعرف ماذا يعني أن تأخذ كتلة من الطين وتصنع منها ما تشاء؟ فرررر! تدير العجلة ويدور الطين، كما لو كان مجذوباً وأنت تقف فوقه وتقول: سأصنع دورقاً، سأصنع صحناً، سأصنع مصباحاً والشيطان يعرف ماذا يمكنني أن أصنع أكثر! هذا ما يمكنك أن تسميه: الحرية!».

كان قد نسي البحر، وتوقف عن قضم الليمونة، وعاد الصفاء إلى عينيه مرة أخرى.

سألته: «حسناً؟ وماذا عن إصبعك؟».

«أوه، لقد وقف في طريقي وأنا أعمل في العجلة. كانت تعيقني دائماً في وسط الأشياء وتربك خططي. لذلك، في أحد الأيام، أخذت فأساً...».

«ألم تؤلمك؟».

«ماذا تقصد؟ أنا لست جذع شجرة. أنا رجل. بالطبع آلمتني. لكنها كانت تعيق طريقي في العجلة، لذلك قطعتها».

مالت الشمس نحو الغروب، وسكن البحر. وتبددت الغيوم. وأضاءت نجمة المساء، نظرت إلى البحر، ثم رفعت رأسي إلى السماء وغرقت في التفكير أن تكون هكذا، أن تأخذ فأساً وتقطع وتتألم. لكنني أخفيت مشاعري.

«إنها طريقة سيئة يا زوربا!» قلت باسماً، «إنها تذكّرني بالراهب المتنسك الذي، حسب ما تقوله الأسطورة الذهبية، رأى امرأة أزعجته جسدياً، فأخذ فأساً. .».

«لم يفعل ذلك الشيطان!» تدّخل زوربا، وقد خمّن ما سأقوله، «توقف! فليذهب هذا الأحمق إلى الجحيم! هذا الساذج المسكين المتخلف، إن ذلك الشيء ليس عقبة على الإطلاق!».

فقلت بإلحاح: «لكن قد يكون عقبة كبيرة للغاية!»

«في وجه ماذا؟».

«في وجه ولوجك مملكة السماوات».

نظر زوربا إليّ من طرف عينه، وقال هازئاً: «لكنه، أيها الغبي، المفتاح إلى الجنة!»

رفع رأسه، ونظر إليّ مباشرة، وكأنه يريد أن يرى ماذا يدور في خلدي: الحياة في المستقبل، مملكة السماء، النساء، الكهنة. لكن بدا أنه لم يستطع أن يجمع الكثير هزّ رأسه الكبير المكسو بالشعر الأشيب بتعقل.

«المعوّقون لا يدخلون إلى الجنة»، قال، ثم لاذ بالصمت.

ذهبت لأستلقي في مقصورتي وأخذت كتاباً. كان بوذا لا يزال يشغل تفكيري. قرأت الحوار الذي دار بين بوذا والراعي الذي كان قد ملأ عقلي لبضع سنوات بالسكينة والأمن.

الراعي: وجبة طعامي جاهزة، فقد حلبت نعاجي. باب كوخي موصد، وناري موقدة. وأنتِ، أيتها السماء، تستطيعين أن تمطري قدر ما تشائين!

بوذا: لم أعد بحاجة إلى طعام أو حليب. الرياح ملاذي، وناري مطفأة. وأنتِ، أيتها السماء، تستطيعين أن تمطري قدر ما تشائين!

الراعي: لديّ ثيران، لديّ أبقار. لديّ مروج أبي وثور يغطي أبقاري. وأنتِ، أيتها السماء، تستطيعين أن تمطري قدر ما تشائين!

بوذا: لا يوجد لديّ ثيران، ولا أبقار، ولا أملك مروجاً. لا أملك شيئاً، لا أخشى شيئاً. وأنتِ، أيتها السماء، تستطيعين أن تمطري قدر ما تشائين!

الراعي: عندي راعية طيّعة ومخلصة. وهي زوجتي منذ سنوات؛ وأنا سعيد عندما أداعبها في الليل. وأنتِ، أيتها السماء، تستطيعين أن تمطري قدر ما تشائين!

بوذا: عندي روح حرّة وطيّعة. ولسنوات درّبتها وعلّمتها أن تداعبني. وأنتِ، أيتها السماء، تستطيعين أن تمطري قدر ما تشائين!

كان صدى هذين الصوتين لا يزال يتردد في داخلي عندما غلبني النعاس. هبّت الريح ثانية، وكانت الأمواج تتكسر على زجاج كوّة المقصورة السميك. رحت أتأرجح مثل خيط من الدخان بين النوم واليقظة. هبّت عاصفة قوية، واختفت المروج تحت المياه، وابتلعت العجول والأبقار والثور. وجرفت الريح سقف الكوخ، وأطفئت النار، وانطلقت شهقة من المرأة وسقطت ميتة في الوحل، وأخذ الراعي يبكي ويولول. لم أسمع ما كان يقوله، لكنه كان يجهش في البكاء، وبدأت أغرق في النوم بعمق، أنزلق في أعماق الماء مثل سمكة.

وعند بزوغ الفجر صحوت، وكانت تقبع إلى اليمين الجزيرة المهيبة الجامحة والشامخة. وكانت الجبال الوردية الباهتة تبتسم من وراء السحب تحت الشمس الخريفية. وكانت مياه البحر المحيطة بسفينتنا، الزرقاء الداكنة، لا تزال هائجة.

كان زوربا المتدثر ببساط بني اللون، يحدّق بشوق في كريت. وكانت عيناه تتنقلان بسرعة من الجبل إلى السهل، تتابعان الشاطئ، تستكشفانه وكأنه يعرف الساحل واليابسة. كان سعيداً لأنه سيعود ويطوف في عقله هناك مرة أخرى.

توجهت إليه، ولمسته على كتفه وقلت:

«زوربا من المؤكد أن هذه ليست المرة الأولى التي تأتي فيها إلى كريت! إنك تحدّق فيها مثل صديق قديم».

تثاءب زوربا، كما لو كان ضجراً. شعرت أنه لم يكن يرغب في التحدث.

ابتسمت وقلت: «أيضجرك الحديث يا زوربا؟».

«ليس تَماماً يا معلم»، أجاب، «أجد صعوبة في التحدث»

«صعوبة؟ لماذا؟».

لم يجب في الحال. جالت عيناه ثانية بتؤدة فوق الشاطئ. كان قد نام فوق سطح السفينة، وكان الندى يقطر من شعره الرمادي المجعّد. والتمعت الشمس المشرقة في الشقوق العميقة التي تعبر خديه وذقنه ورقبته.

وأخيراً حرّك شفتيه. كانتا غليظتين ومتهدلتين، مثل مشفري عنزة.

«في الصباح أجد صعوبة في فتح فمي. صعوبة كبيرة   أنا آسف».

لاذ بالصمت ثانية، وثبّت عينيه المستديرتين الصغيرتين مرة أخرى -لى كريت.

قُرع الجرس معلناً موعد الإفطار. وبدأت الوجوه المتجهمة، التي يكسوها لون أصفر مائل إلى الأخضر، تغادر مقصوراتها، وسارت النساء بتثاقل، ورحن يتنقلن من طاولة إلى أخرى، وقد أفلتت لفافات شعرهن، وفاحت منهن رائحة القيء والكولونيا. كانت عيونهن غائمة وخائفة وغبية.

أخذ زوربا الجالس أمامي يتنشق قهوته بطريقة حسّية شرقية للغاية. ودهن قطعة من الخبز بقليل من الزبدة والعسل وتناولها. وشيئاً فشيئاً، بدأ وجهه يزداد

إشراقاً وهدوءاً، وأضحت خطوط فمه أكثر نعومة. راقبته خلسة وهو يخلع رداء النوم ببطء، ورأيت كيف أن عينيه بدأتا تزدادان لمعاناً وبريقاً.

أشعل سيكارة، وأخذ نفساً عميقاً بمتعة، ثم نفث الدخان الأزرق من فتحتي أنفه المشعرتين. طوى ساقه اليمنى تحته، وتربّع على الطريقة الشرقية. أصبح بوسعه الآن أن يتكلم.

«هل هذه هي أول مرة آتي فيها إلى كريت؟» بدأ كلامه. (كانت عيناه مغمضتين نصف إغماضة، وهو ينظر عبر الكوّة إلى جبل إدا، الذي بدأ يختفي بعيداً خلفنا) «لا، إنها ليست المرة الأولى. ففي عام ١٨٩٦، كانت رجولتي قد اكتملت. عندما كان شاربي وشعري لا يزالان بلونهما الحقيقي، أسود كالغراب. وكانت لديّ أسناني الاثنتان والثلاثون كلها، وعندما كنت أسكر كنت أزدرد المقبلات أولاً ثم أتناول الطبق الرئيسي. نعم، كنت أمتّع نفسي حتى الثمالة. لكن فجأة دّس الشيطان يده في سير الأحداث. فاندلعت ثورة جديدة في كريت».

«في تلك الأيام كنت بائعاً متجولاً وكنت أتنقل من قرية إلى قرية في مقدونيا وأبيع نثريات وخردوات، وبدلاً من النقود كنت آخذ بعض الجبن والصوف والزبدة والأرانب والذرة. ثم كنت أبيعها جميعها وأحقق أرباحاً مضاعفة. وفي كلّ قرية أصل إليها عندما يهبط الظلام، كنت أعرف أين أمضي الليلة. ففي كلّ قرية كانت توجد دائماً أرملة رقيقة القلب، فليباركها الله! وكنت أعطيها بكرة من الخيطان أو مشطاً أو وشاحاً ـ أسود، بالطبع، من أجل المرحوم ـ المأسوف عليه ـ وكنت أنام معها. لم يكن يكلّفني ذلك كثيراً!».

«لا، لم يكن يكلّفني ذلك كثيراً يا معلّم، الوقت الرائع الذي كنت أحصل عليه! لكن، كما قلت لك، حشر الشيطان رأسه في أمور كثيرة، وحملت كريت السلاح ثانية. آه، فليذهب مصيرها إلى الجحيم! كنت أقول، ألا يمكن

لكريت اللعينة أن تتركنا وشأننا؟ ووضعت قطني وأمشاطي جانباً، وحملت بندقيتي وانضممت إلى الثوّار في كريت».

صمت زوربا. كنّا نتبع الآن منحنى خليج رملي هادئ. وكانت الأمواج تنتشر بلطف دون أن تتكسر وتخلّف خطّاً رفيعاً من الرغوة على طول الشاطئ. وتبددت السحب، وبدأت الشمس تشرق، وبرزت منحنيات كريت الوعرة.

التفت زوربا وألقى إليّ نظرة ساخرة.

«سيخيّل إليك يا معلّم، أنني سأخبرك كم رأساً من الأتراك قطعت، وكم أذناً وضعت في الكحول ـ هكذا جرت العادة في كريت. حسناً، لن أفعل ذلك! لا أحبّ أن أفعل ذلك، إني أخجل من هذا. أي نوع من الجنون يتملكنا؟ لكنني أصبحت اليوم أكثر تعقلاً، وأسأل نفسي: أي نوع من الجنون يتملكنا ويجعلنا نلقي بأنفسنا فوق رجل آخر، حتى لو لم يفعل لنا شيئاً، ونعضّه، ونجدع أنفه، ونقطع أذنه، ونقتلع أحشاءه، وندعو الله دائماً أن يساعدنا! هل يعني هذا أنّنا نريد أن يذهب الله ويجدع أنوف الناس ويقتلع آذانهم ويمزّقهم إرباً؟»

«لكن كانت تجري في عروقي آنذاك دماء حارة! كيف يمكنني أن أكّف عن السؤال: كيف ولماذا؟ ولكي يفكر المرء بهذه الأمور بإنصاف وبشكل صحيح، يجب أن يكون هادئاً وعجوزاً وبلا أسنان: فعندما تكون عجوزاً بلا أسنان، يسهل عليك أن تقول: اللعنة، أيها الفتيان، يجب ألا تعضّوا! لكن عندما يكون لديك أسنانك الاثنتان والثلاثون كلها إن الإنسان وحش ضار عندما يكون شاباً؛ نعم، يا معلّم، وحش يأكل لحم البشر!».

هزّ رأسه.

«أوه، إنه يأكل الخراف أيضاً، والدجاج والخنازير، لكنه إذا لم يأكل رجالاً فإن بطنه تظل جائعة»

أضاف وهو يسحق سيكارته في صحن القهوة: «لا، إن بطنه لا تشبع الآن، الآن ماذا يجب أن تقول البومة العجوز لهذا، ايه؟».

لم ينتظر ردّي.

«أتساءل ماذا تستطيع أن تقول؟» واصل كلامه وهو يرمقني من الأعلى إلى الأسفل.

«حسب ما أرى، فإنك لم تعرف الجوع في حياتك، لم تقتل أبداً، لم تسرق، لم تزنِ. ماذا تعرف عن هذا العالم؟ إن عقلك بريء، بل حتى إن الشمس لم تلمس جلدك»، تمتم بازدراء واضح.

أحسست بالخجل بسبب يديّ الناعمتين، ووجهي الشاحب، وحياتي التي لم يلطخها الطين والدم.

«حسناً!» قال زوربا، وهو يمرر يده الثقيلة على الطاولة وكأنه يجفف قطعة إسفنج فوقها. «حسناً! ومع ذلك، فثمة شيء أريد أن أسألك إياه. لا بد أنك قرأت مئات الكتب، وربما تعرف الجواب. . ».

«هيا تابع كلامك يا زوربا، ما هو؟».

«تحدث هنا معجزة يا معلّم. معجزة مضحكة تحيّرني. كلّ هذه الأعمال ـ تلك الخدع السيئة والسرقات وأعمال الذبح والقتل التي نقوم بها ـ أعني نحن الثوار ـ كلّ ما جلبه الأمير جورج إلى كريت. الحرية!».

نظر إليّ مندهشاً بعينين مفتوحتين على وسعيهما.

دمدم: «إنه لغز. إنه لغز عظيم. لذلك إن كنا نريد أن نحقق الحرية في هذا العالم القبيح، فيجب أن نرتكب كلّ جرائم القتل، جميع الخدع والألاعيب الدنيئة، أليس كذلك؟ أقول لك، إذا رويت لك كلّ هذه الأعمال الحقيرة وجميع جرائم القتل التي ارتكبناها، لوقف شعر رأسك. ومع ذلك، ما نتيجة كلّ هذا؟ الحريّة! فبدلاً من أن يمحقنا الله بصاعقة، يمنحنا الحريّة! إني لا أفهم ذلك».

نظر إليّ وكأنه يطلب العون. رأيت أن هذه المشكلة أرّقته كثيراً ولم يتوصل إلى جوهر القضية.

«هل تفهم؟» سألني بحزن.

أفهم ماذا؟ أخبره بماذا؟ فإما أن ما ندعوه الله غير موجود، أو أن ما نسميه جرائم القتل والنذالة ضرورية للكفاح ولتحرير العالم.

حاولت جاهداً أن أجد وسيلة أخرى لأوضح الفكرة لزوربا.

«كيف يتبرعم النبات وينمو في الروث والوحل؟ اعتبر يا زوربا أن الروث والوحل هما الإنسان، والحرية هي الزهرة».

«لكن البذرة؟» صاح زوربا، وخبط بقبضته على الطاولة، «لكي يتبرعم النبات يجب أن تكون هناك بذرة. من وضع هذه البذرة في أحشائنا؟ ولماذا لا تنتج هذه البذّرة أزهاراً من المحبة والصدق؟ لماذا يجب أن تكون ملوثة بالدم والقذارة؟».

هززت رأسي.

«لا أعرف»، قلت.

«من يعرف؟»

«لا أحد».

«لكن بعد ذلك»، صاح زوربا بيأس، وتطلع حوله بنظرات متوحشة، «ماذا تتوقع مني أن أفعل بجميع مراكبك وآلاتك وربطات عنقك؟».

انتعش الآن مسافران أو ثلاثة مسافرين كانوا قد أصيبوا بالدوار بسبب البحر، وكانوا يجلسون إلى طاولة قريبة يحتسون القهوة. شعروا أن ثمة شجاراً يدور حولهم فشنّفوا آذانهم.

خفض زوربا صوته.

قال: «غيّر الموضوع، عندما أفكّر بذلك أشعر برغبة في أن أحطم أيّ شيء تقع عليه يدي ـ كرسي، مصباح، أو أن أضرب رأسي بالحائط. لكن ما فائدة ذلك بالنسبة لي؟ يجب أن أدفع ثمن الأشياء المحطمة وأذهب إلى طبيب

لأضمّد رأسي. وإذا كان الله موجوداً، حسناً، فهذا أسوأ: إننا مستعدون لذلك تماماً! لا بد أنه ينظر إليّ من السماء، وتكاد خاصرتاه تنفجران من الضحك».

فجأة حركَ يده وكأنه يريد أن يهّش ذبابة ملحاحة.

«لا تهتم بالأمر!» قال آسفاً، «كلّ ما أردت أن أقوله إنه عندما وصلت السفينة الملَكيَة والأعلام ترفرف عليها، أُطلقت المدافع، ووطء الأمير بقدمه تراب جزيرة كريت. هل رأيت شعباً كاملاً يفقد عقله لأنه رأى حريته؟ لا؟ آه، يا معلّم، إذن فقد ولدت أعمى وستموت أعمى. لو عشت ألف سنة، حتى لو كلّ ما تبقى مني مجرد قطعة من اللحم الحيّ، فلن أنسى ما حييت ما رأيته في ذلك اليوم! وإذا كان بوسع كلّ منّا أن يختار جنته في السماء، حسب ما يريد ـ وهذا ما يجب أن يكون، وهذا ما أدعوه الجنة ـ فإني سأقول لله العلي القدير: إلهي، لتزدان جنتي كريت بنبات الآس والأعلام، ولتدم الدقيقة التي وطئت فيها قدما الأمير جورج تربة كريت قروناً عديدة! هذا يكفيني».

سكت زوربا مرة أخرى. رفع شاربه، وأترع كأسه حتى الحافة بالماء المثلج، ورشفه بجرعة واحدة.

«ماذا حدث في كريت يا زوربا؟ أخبرني!».

«هل يجب أن نقول عبارات طنانة؟» قال زوربا منزعجاً، «انظر، أقول لك ـ إن هذا العالم لغز والإنسان مجرد وحش كبير».

«وحش كبير وإله. رافقني أحد الثوار من مقدونيا ـ كانوا يدعونه يورغا، مجرم يستحق الشنق، خنزير حقيقي، كما تعرف ـ حسناً، راح يبكي. سألته: لماذا تبكي يا يورغا، أيها الحقير؟ كانت الدموع تنهمر من عينيّ أيضاً. لماذا تبكي أيها الخنزير العجوز؟ لكنه ضمني إليه وراح يبكي مثل طفل. ثم أخرج ذلك اللقيط البخيل محفظته، وأفرغ في حضنه القطع النقدية الذهبية التي كان قد نهبها من الأتراك، ورمى حفنات منها في الهواء! أترى، يا معلّم، هذه هي الحرية».

نهضت وصعدت إلى سطح السفينة، لأستمتع بهبات نسيم البحر اللطيفة. هذه هي الحرية، قلت في نفسي. أن تمتلك رغبة جامحة، أن تجمع قطعاً من الذهب وتتغلب على تلك الرغبة الجامحة، وتنثر الكنز في الرياح.

حرّر نفسك من العواطف الجامحة إلى أن تهيمن عليك عاطفة أخرى أكثر نبلاً لكن أليس هذا أيضاً أحد أشكال العبودية؟ أن يضحي المرء بنفسه في سبيل فكرة أو شعب أو في سبيل الله؟ أم أنه كلما كان المثال أعلى، أصبح حبل عبوديتنا أطول؟ وعندها نستطيع أن نستمتع ونمرح في مجال أكثر رحابة، ونموت دون أن نبلغ نهاية الحبل. هل هذا هو ما ندعوه الحرية؟

عندما اقترب العصر، رست السفينة عند الشاطئ الرملي، ورأينا رملاً أبيض ناعماً، ونباتات الدفلى المزهرة، وأشجار التين والخروب، وإلى اليمين كانت تقوم هضبة رمادية منخفضة عارية من الأشجار، تشبه وجه امرأة مستلقية، وتحت ذقنها، وعلى طول عنقها، تجزي عروق الفحم البنية الداكنة.

بدأت تهب ريح خريفية، وعبرت السماء سحب متفرقة لطّفت جوانب الأرض بظلّها. وكانت هناك غيوم أخرى تصعد إلى السماء بشكل منذر. وبزغت أشعة الشمس ثم اختفت، وأضاء سطح الأرض، ثم أظلم مثل وجه حيّ قلق.

وقفت برهة فوق الرمل ورحت أتطلع حولي. كانت تقبع أمامي عزلة تامة، مميتة ومع ذلك ساحرة، كالصحراء. وانبثقت الأغنية البوذية من تحت التراب ووجدت طريقها إلى أعماق كينونتي، «متى سألوذ أخيراً للعزلة، وأصبح وحيداً، دون رفاق، دون بهجة، ودون أسى، وأتوصل إلى الحقيقة المقدّسة بأن كلّ شيء مجرد حلم؟ عندما أصبح بدون رغبات، هل أنسحب قانعاً وأنكفئ إلى الجبال؟ عندما أرى أن جسدي مجرّد مرض وجريمة وعمر وموت، هل أنسحب ـ حراً، ودون وجل وفي هناءة ـ إلى الغابة؟ متى؟ متى، أوه متى؟».

تقدم زوربا نحوي، متأبطاً آلة السنتوري. كانت خطواته لا تزال غير ثابتة.

«هناك منجم الفحم!» قلت لأخفي مشاعري، وأشرت بيدي إلى الهضبة التي تشبه وجه امرأة.

قطّب زوربا جبينه دون أن يلتفت.

«في ما بعد. ليس هذا هو الوقت المناسب يا معلم»، قال، «يجب أن ننتظر حتى تتوقف الأرض. فهي لا تزال تنحدر، ليأخذها الشيطان، مثل ظهر سفينة. هيا لنذهب إلى القرية».

ما إن قال هذه الكلمات، حتى انطلق بخطوات واسعة ثابتة، في محاولة لإنقاذ ماء وجهه.

جرى صبيان حافيان، أسمران كالعرب، وحملا الحقائب. كان ضابط جمارك ضخم الجثة، جالساً في الظل، يدخّن نرجيلة. نظر إلينا من طرفيّ عينيه الزرقاوين متفحصاً. رمق الحقائب، وتحرك قليلاً فوق كرسيه، وكأنه يريد أن ينهض. لكن ذلك كان جهداً عظيماً بالنسبة له. رفع أنبوب النرجيلة ببطء، وقال بصوت ناعس: «أهلا بكما».

اقترب مني أحد الصبيين. غمز بعينيه السوداوين الزيتونيتين وقال بنبرة هازئة:

«إنه ليس من سكان كريت. إنه شيطان كسول».

«أليس سكان كريت شياطين كسالى أيضاً؟»

«إنهم. نعم، إنهم كذلك»، أجاب الشاب الكريتي، «لكن بطريقة أخرى».

«هل القرية بعيدة؟»

«إنها على مرمى حجر من هنا. انظرا، وراء البساتين، في الوادي. إنها قرية جميلة يا سيدي. فيها الكثير من كلّ شيء ـ أشجار الخروب، فاصولياء، حبوب، زيت، نبيذ. وفيها رمل أيضاً، وينمو الخيار فيها في وقت مبكر جداً،

وتوجد في كريت بندورة (طماطم) وباذنجان وبطيخ أحمر. إن الريح التي تهب من أفريقيا هي التي تجعلها تنضج بسرعة ويمكنك أن تسمعها في الليل، في البستان، وهي تتشقق وتكبر».

سار زوربا في المقدمة. كان رأسه لا يزال يسبح. بصق.

قلت له: «ارفع رأسك يا زوربا. لقد نجونا وكلّ شيء على ما يرام. لم يعد ثمة شيء نخشاه».

بدأنا نغذ الخطى. كان التراب ممزوجاً بالرمل وأصداف القواقع، وكانت تتناثر هنا وهناك أشجار الطرفة الرفيعة، وأشجار التين البري، وأعواد القصب، وبعض نَباتات البوصير المرّة. كان الطقس حاراً خانقاً، وكانت الغيوم تزداد انخفاضاً، ثم بدأت الريح تتلاشى.

كنّا نمرّ أمام شجرة تين ضخمة ذات جذع مزدوج ملتو بدأ يصبح مجوفاً مع الزمن. توقف أحد الصبيين وبهزّة من ذقنه أشار إلى الشجرة القديمة.

«شجرة تين سيدتنا الشابة!» قال.

لكلّ حجرة، ولكلّ شجرة فوق أرض كريت هذه، تاريخها المأساوي.

«سيدتنا الشابة؟ لماذا أطلق عليها هذا الاسم؟».

«في زمن جدّي، وقعت ابنة أحد أصحاب أراضينا في حبّ فتى راع، لكن أباها رفض أن يزوجه إياها. أخذت الشابّة تبكي وتصرخ وتتوسل. لكن أباها لم يغيّر رأيه! وذات ليلة اختفى الفتى والشابة. وراحوا يبحثون عنهما في الريف، لكن بعد يوم، يومين، ثلاثة أيام، أسبوع كامل، لم يعثر عليهما. ثم بدأت تنبعث منهما رائحة كريهة، فتعقبوا الرائحة الكريهة ووجدوا جثتيهما متفسختين تحت شجرة التين هذه، وقد شبك أحدهما ذراعه بذراع الآخر لقد اكتشفوا جثتيهما من الرائحة النتنة».

بدأ الصبي يضحك. بدأت تتناهى إلينا أصوات القرية. أصوات نباح

الكلاب، وأصوات النساء اللاتي كن يتحدثن بصوت عال، وصياح الديوك وهي تعلن تغيّر الطقس. وفاحت في الهواء رائحة العنب التي هبت من الدوارق التي يقطّر فيها العرق.

«ها هي القرية!» صاح الصبيان، وانطلقا

ما إن استدرنا حول الهضبة الرملية حتى تجلت أمامنا القرية الصغيرة. بدا أنها تتسلّق جانب الوادي. كانت البيوت البيضاء المنتصبة فوق المصاطب تصطف إلى جانب بعضها بعضاً. وكانت نوافذها المفتوحة مثل بقع داكنة، تشبه جماجم طليت باللون الأبيض وحشرت بين الصخور.

لحقت بزوربا.

قلت له: «انتبه، تصرّف جيداً، فقد بدأنا ندخل القرية الآن. يجب ألا يعرفوا بأمرنا يا زوربا. سنتصرف وكأننا رجلا أعمال جدّيان. أنا المدير وأنت رئيس العمال. إن سكان كريت لا يستخفون بالأمور. فما إن تقع عيونهم عليك، حتى يلتقطوا أيّ شيء غريب فيك، ويطلقون عليك ألقاباً، لا يمكنك أن تتخلص منه لاحقاً. وعندها تبدأ تجري مثل كلب وقد عُلِق في ذيله قِدْر».

أمسك زوربا شاربه بيده وغاص في مرحلة من التأمل. ثم قال أخيراً:

«اسمع يا معلّم، إن كانت توجد أرملة هنا، فلا تخش شيئاً. وإن لم يكن توجد.

عند ذاك، وما إن دخلنا القرية، حتى هرعت إلينا متسولة ترتدي أسمالاً بالية ومدت يدها. كانت داكنة البشرة، وسخة، ولها شارب أسود صغير خشن.

«مرحباً أيها الأخ!» قالت لزوربا بطريقة تخلو من الكلفة، «مرحباً، أيها الأخ، هل عندك روح؟».

توقّف زوربا.

«عندي»، أجاب بجدية.

«إذن.أعطني خمس دراخمات!».

أخرج زوربا من جيبه محفظة جلدية مهترئة، وقال لها: «خذي»، واسترخت شفتاه اللتان كان يبدو عليهما شيء من المرارة، ثم تحولتا إلى ابتسامة. تطلع حوله وقال:

«يبدو أن الأرواح رخيصة في هذه البقاع يا معلم! خمس دراخمات ثمن الروح».

توجهت كلاب القرية نحونا، وانحنت النساء من فوق الشرفات ليحدقن فينا، وجرى وراءنا الأطفال وهم يتصايحون. كانت تنبعث من بعضهم أصوات كالعواء، وتنبعث من آخرين أصوات مثل أبواق السيارات، فيما جرى آخرون أمامنا وهم يتلفتون إلينا بعيونهم الكبيرة المليئة بالدهشة.

وصلنا إلى ساحة القرية، حيث تنتصب شجرتا حور ضخمتان لونهما أبيض، تحيط بهما جذوع أشجار مقطوعة بهمجية جعلت مقاعد. وقبالة الساحة يوجد مقهى علّقت فوقه لافتة ضخمة بهت لونها كتب عليها: **مقهى الاحتشام ـ ودكان جزّار**.

«لماذا تضحك؟» سأل زوربا.

لم يتح لي الوقت لأجيبه. فقد اندفع من باب المقهى ودكان الجزّار خمسة أو ستة عمالقة يرتدون سراويل زرقاء داكنة، مزمومة تحت الركبتين، ذات نطاق أحمر. وصاحوا: «أهلاً بكما، أيها الصديقان! ادخلا واحتسيا العرق. إنه لا يزال طازجاً من دورق التقطير».

نقر زوربا لسانه، وقال: «ما رأيك يا معلم؟» التفت وغمزني، «هل نحتسي كأساً؟».

احتسينا كأساً، واحترقت أحشاؤنا. وأحضر لنا صاحب المقهى ـ دكان الجزّار، الذي كان رجلاً عجوزاً، مربوع القامة، فظاً، سريع الحركة، كرسيين.

سألت أين يمكننا أن نجد مسكناً.

«اذهبا إلى بيت مدام هورتينس»، صاح أحدهم.

«هل توجد امرأة فرنسية هنا؟» قلت مندهشاً

«لا يعرف الشيطان من أين أتت؛ فهي لم تترك بقعة إلا وزارتها لقد جابت جميع الجزر التي يمكن أن تخطر على بال، وحطّ بها المقام هنا أخيراً، وفتحت نزلاً صغيراً».

«وهي تبيع حلوى أيضاً!» صاح طفل.

«إنها تكسو وجهها بالمساحيق وتتبرج»، قال شخص آخر، «إنها تلف رقبتها بوشاح ولديها ببغاء».

«أرملة؟» سأل زوربا، «هل هي أرملة؟»

أمسك صاحب المقهى لحيته الرمادية الكثة.

«كم عدد الشعرات التي يمكنك أن تعدّها هنا، يا صديقي؟ كم عددها؟ حسناً، إنها أرملة عدد كبير من الأزواج. هل فهمت؟»

«فهمت»، أجاب زوربا، وهو يلعق شفتيه.

«قد تجعلك أرملاً أيضا!».

«انتبه أين تضع خطوتك أيها الصديق!» صاح رجل عجوز، وانفجر الجميع ضاحكين.

جلب لنا صاحب المقهى كؤوساً جديدة من العرق على صينية، ورغيف خبز من الشعير، وقطعة جبن عنز وأجاصة.

«الآن دعوهما وشأنهما. يجب ألا يحلما بالذهاب إلى بيت السيدة! إنهما سيقضيان الليلة هنا!».

«سأستضيفهما يا كوندومانوليو!» قال العجوز، «فأنا ليس لديّ أطفال. وبيتي كبير، ويوجد مكان واسع».

«آسف، يا عمّ أنغنوستي»، صاح صاحب المقهى في أذن العجوز، «أنا قلت أولاً».

فقال أنغنوستي العجوز: «أنت تأخذ واحداً، وأنا آخذ الآخر، الأكبر سناً».

«أيّ أكبر سناً؟» قال زوربا ملسوعاً.

«سنبقى معاً»، قلت، وأشرت إلى زوربا بألا ينزعج، «سنمكث معاً وسنذهب إلى بيت السيدة هورتينس. . .».

«أهلاً بكما! أهلاً بكما!».

برزت امرأة بدينة، قصيرة، ذات شعر بلون الكتان المبيّض، من تحت أشجار الحور، تتهادى بساقيها المقوستين. وكانت تزّين أسفل ذقنها شامة نبت منها شعر خشن كشعر الخنزير. كانت تلف رقبتها بوشاح مخملي أحمر، وكان خداها الذابلان مطليين بمسحوق بنفسجي. وكانت خصلة صغيرة من الشعر تتراقص بمرح فوق حاجبها مما جعلها تبدو أشبه بسارة بيرناردت في شيخوختها، وهي تؤدي دور لايغلون.

«إنني سعيد بلقائك، يا مدام هورتينس!» أجبت، وأنا أتهيأ لتقبيل يدها، وقد اعتراني فجأة شعور بالمرح والدعابة.

بدت الحياة فجأة مثل إحدى حكايات الجنّ، أو مثل المشهد الافتتاحي من مسرحية «العاصفة». فلم نكد نضع أقدامنا على أرض الجزيرة، حتى تبللنا حتى العظم بعد أن تحطمت بنا سفينة خيالية. كنّا نستكشف السواحل الرائعة، ونحيّي سكان القرية بطريقة احتفالية. وبدت لي هذه المرأة، هورتينس، بأنها ملكة الجزيرة، نوع يشبه حيوان الفظّ[1] الأشقر والمتألّق الذي لفظه البحر، وكاد يتفسخ، على هذا الشاطئ الرملي. وبرزت وراءها وجوه وسخة مشعرة يشع منها حسّ الفكاهة لدى الناس ـ أو كالي بان وهو يحدّق في الملكة بكبرياء واحتقار.

---

(١) حيوان ثديي بحري شبيه بالفقمة ـ م.

وراح زوربا، الأمير متنكراً، يحدّق فيها أيضاً، وكأنها رفيقة قديمة، فرقاطة قديمة حاربت في بحار بعيدة، عرفت النصر والهزيمة، حُطمت أبواب مقصوراتها، وتكسرت صواريها، وتمزّقت أشرعتها ـ وأصبح وجهها الآن، مليئاً بالأخاديد والشقوق التي ملئت بالمساحيق والكريمات، وعادت كي تتقاعد على هذا الشاطئ وتنتظر لا بد أنها تنتظر زوربا، القبطان ذا الألف ندبة. ولقد سعدت برؤية هذين الممثلين وهما يلتقيان أخيراً على جزيرة كريت، في لوحة رسمت ببضع ضربات عريضة ملونة بالفرشاة.

«سريران يا مدام هورتينس»، قلت، منحنياً أمام هذه الاختصاصية العريقة في فنّ تمثيل مشاهد الحبّ. «سريران لا يوجد فيهما عث».

«لا يوجد فيهما عث! لا أظن أنه يوجد لدينا عث» صاحت، ورمتني بنظرة معاتبة.

«أوه، لا»، صاحت أفواه كالي بان الساخرة.

«لا يوجد! لا يوجد!» ردّت، وهي تدق بقدميها المتورمتين فوق الحصى. كانت ترتدي جورباً نسائياً سميكاً أزرق، وتنتعل حذاء نسائياً مهترئاً ذا أقواس حريرية.

«هيا بنا، يا مغنية الأوبرا الأولى! فليأخذك الشيطان»، زأر كالي بان مرة أخرى.

وبكبرياء شديد، سارت السيدة هورتينس أمامنا تقود الطريق، وتضوعت منها رائحة المسحوق والصابون الرخيص.

وسار زوربا وراءها، يكاد يلتهمها بعينيه.

«انظر جيداً يا معلم»، همس لي، «انظر كيف تهزّ هذه الغانية ردفيها، بلاف، بلاف! مثل نعجة ذات إلية مليئة بالدهن».

هطلت قطرتان أو ثلاث قطرات كبيرة من المطر، وتلبّدت السماء بالغيوم.

وظهر وميض أزرق من البرق فوق الجبل. فهرعت الفتيات الشابات، وقد سترن رؤوسهن بأغطية بيضاء صغيرة من جلد الماعز، في طريق عودتهن من المرعى، يعدن العنزات والخراف إلى بيوت أسرهن. وأخذت النساء المقرفصات أمام مواقدهن، يوقدن نار المساء.

عضّ زوربا على شاربه بنفاد صبر، دون أن يرفع عينيه عن ردفيّ المرأة المترجرجين.

«همم» تمتم فجأة متنهداً. «لتذهب الحياة إلى الجحيم! إنها مليئة بالمفاجآت».

[3]

كان نزل السيدة هورتينس يتكون من صف من الأكواخ القديمة التي جمعت معاً وكان بإمكانك أن تشتري من الكوخ الأول قطع الحلوى والسكائر والفستق وفتائل المصابيح وحروف الأبجدية والشموع، ومرهماً لعلاج التهاب البشرة. في حين كانت أربعة أكواخ متجاورة تشكل غرف النوم ويوجد في الخلف. في الفناء، مطبخ وغرفة غسيل، وقن دجاج وأقفاص أرانب. وزرع في الرمل الناعم، حول المنطقة كلها، قصب الخيزران ونبات الصبار وكانت تفوح من المكان رائحة البحر والغائط والبول. لكن ما إن كانت السيدة هورتينس تمرّ بين الحين والآخر، حتى تتغير رائحة الهواء ـ وكأن أحداً أفرغ طاسة الماء التي يستخدمها الحلاق تحت أنفك.

ما أن أُعِدت الأسرّة، حتى استلقينا وغطنا في النوم على الفور حتى الصباح لا أتذكّر الحلم الذي حلمته، لكنني نهضت نشيطاً رشيقاً كما لو أني غطست في البحر

كان يوم أحد، وكان من المقرر أن يأتي العمال من القرى المجاورة ليباشروا العمل في المنجم يوم الاثنين، لذلك كان أمامي متسع من الوقت اليوم لأتجول وأتعرّف على الشواطئ التي ألقت بي الأقدار إليها وعندما بدأت رحلتي، كان الفجر قد بدأ يلوح رحت أتمشى على حافة البحر، متجاوزاً البساتين، وسرعان ما بدأت أتعرف على الماء والأرض والهواء في هذه المنطقة، ثم قطفت نباتات بريّة، فعبقت من راحتيّ يدي رائحة لذيذة من الصعتر والميرميّة والنعناع

ارتقيت تلة ورحت أتطلع حولي. أرض جرداء يكسوها حجر الصوان وأحجار كلسية شديدة الصلابة، تناثرت فيها أشجار الخروب الداكن وأشجار الزيتون وأشجار التين والعنب. وفي الأغوار المحمية، امتدت بيارات البرتقال، وأشجار فاكهة المشمش والليمون؛ وبالقرب من الشاطئ، كانت تمتد حقول صغيرة مزروعة بالخضراوات. وإلى الجنوب، امتدت منطقة بالقرب من البحر الذي كان لا يزال غاضباً وهادراً وهو يزحف من أفريقيا ليقتطع جزءاً من ساحل كريت. وفي موقع قريب، تقبع جزيرة رملية واطئة مال لونها إلى اللون الوردي تحت أشعة الشمس الأولى.

وتراءى لي أن الريف الكريتي هذا يشبه قطعة نثر جميل، منظّم بعناية فائقة، رصين يخلو من العبارات المنمقة، قوي وجزل، يعبّر عن كلّ ما هو ضروري بقدر كبير من الدقة، ويخلو من الحذلقة أو التهكم أو الخداع. بل يقول كلّ ما يريد أن يقوله بصرامة ودقة رجولية. إلا أن المرء يستطيع أن يعثر بين السطور القاسية على حساسية ورقة غير متوقعتين. وفي الأغوار المحمية، تعطّر أشجار الليمون والبرتقال الهواء، وتنبثق من رحابة البحر واتساعه معين لا ينضب من الشعر

دمدمت: «كريت، كريت. . » وبدأ قلبي يخفق بسرعة.

هبطت من التلة الصغيرة، واقتربت من حافة الماء. ظهرت فتيات يثرثرن ويعقدن حول أعناقهن مناديل بيضاء كالثلج، وينتعلن أحذية طويلة صفراء، ويرتدين تنورات لملمن أطرافها وشمرّنها. كن في طريقهن لحضور القداس في الدير القابع هناك، الذي يتلألأ لونه الأبيض الناصع قريباً من شاطئ البحر.

توقّفت. وما إن رأينني حتى توقفن عن الثرثرة والضحك. فما إن يرين رجلاً غريباً حتى تكتسي وجوههن تعابير تنم عن ارتياب فظ. وفجأة اتخذن موقفاً دفاعياً من قمة رؤوسهن حتى أخمص أقدامهن، وتشبثت أصابعهن بتوتر شديد ببلوزاتهن المزرّرة بإحكام. لقد سرى الخوف في دمائهن. فمنذ قرون عديدة،

كان قراصنة البحر يشنون هجمات مفاجئة على طول ساحل كريت قبالة أفريقيا، ينهبون ويسلبون النعاج والنساء والأطفال، ويقيدونهم بأحزمتهم الحمراء، ويلقون بهم في قعر سفنهم ويبحرون بهم ويبيعونهم في الجزائر، وفي الإسكندرية، وفي بيروت. ولقرون عديدة، كانت المياه التي تحيط بهذه الشواطئ التي تزينها خصلات سوداء تهدر بالنواح والعويل. رحت أراقب هؤلاء الفتيات الخائفات وهن يتقدّمن، وقد التصقت إحداهن بالأخرى ليشكلن حاجزاً منيعاً كان ردّ فعل فطرياً، لا غنى عنه في الأزمان السالفة، والذي تكرر اليوم بلا مبرر فالضرورة الغابرة هي التي تملي عليهن إيقاع حركاتهن.

ما إن مرت الفتيات أمامي حتى انتحيت جانباً بهدوء وارتسمت ابتسامة على وجهي وفي الحال، كما لو أنهن شعرن بغتة بأن الخطر الذي كن يخشينه منذ قرون قد زال، وأنهن قد استيقظن في عصرنا هذا الذي يسوده الأمن، أشرقت وجوههن، وتبعثر الرتل المتلاحم المهيأ للمعركة، وتمنين لي جميعهن يوماً سعيداً بنبرات واضحة ومرحة. وفي الوقت نفسه، ملأت أجراس الدير البعيد الفرحة الهواء بأصوات مفعمة بالبهجة.

كانت الشمس قد أشرقت، وأصبحت السماء صافية. قبعت بين الصخور، وجثمت مثل طائر نورس فوق نتوء صخرة، ورحت أتأمّل البحر أحسست بأن جسدي مطيع ومنتعش وقوي. وأصبح عقلي الذي راح يتتبع الأمواج، موجة مطواعة، غير مقاومة، مستسلمة لإيقاع البحر

امتلأ قلبي بهجة. وانبعثت من داخلي أصوات غامضة، متوسلة، وملحة. كنت أعرف من يناديني. فما إن أختلي بنفسي برهة، حتى يبدأ هذا الكائن يصيح، في كرب من الهواجس المروّعة، ويبث فيّ مخاوف مجنونة، بانتظار أن أنقذه.

وعلى الفور فتحت كتاب دانتي، رفيقي في حلي وترحالي، لكي لا أسمع، ولكي أطرد من داخلي الشيطان الخائف. رحت أقلّب الصفحات، أقرأ سطراً

هنا وسطراً هناك، أو مقاطع شعرية ثلاثية، مستحضراً أنشودة كاملة من الذاكرة. ومن بين هذه الصفحات المتقدة، كانت الأرواح اللعينة تظهر لي وهي تجأر. وفي وسط الصخور، كانت أرواح جريحة تريد أن تتسلق سفح جبل شديد الانحدار. وإلى الأعلى، كانت الأرواح المباركة تتحرّك بين الحقول الزمرّدية، مثل يراعات رائعة. ورحت أطوف من أكثر المناطق علواً إلى أكثرها انخفاضاً من بيت القدر الفظيع؛ وأخذت أطوف بحرية في أرجاء الجحيم والمطهر والجنة، وكأني كنت في بيتي أنا. عانيت، انتظرت أو ذقت طعم السعادة، وجرفتني أبيات الشعر الرائعة هذه.

وفجأة أغلقت كتاب دانتي وأخذت أتطلع إلى البحر. فرأيت طائر نورس، صدره يلامس سطح الماء، يعلو ويهبط مع ارتفاع وهبوط الأمواج، مستسلماً لها، مستمتعاً باسترخاء ولامبالاة. وظهر عند حافة الماء شاب حافي القدمين وقد سفعته الشمس، ينشد أغاني حبّ. فربما كان يفهم الألم الذي تعبّر عنه، لأن صوته أصبح أجشاً، مثل صوت ديك صغير.

ولمئات السنين، كانت أشعار دانتي تغنى في بلاد الشاعر، كما كانت أغاني الحبّ تهيّئ الفتيان والفتيات للحبّ، كما كانت أشعار فلوريتين الحماسية تهيئ الشباب الإيطاليين ليوم خلاصهم. ومن جيل إلى جيل، كانوا جميعهم يتعلقون بروح الشاعر، لذلك حوّلوا عبوديتهم إلى حرية.

تناهى إليّ صوت ضحكة من ورائي، وعلى الفور هويت من ذرى دانتي الشاهقة. تطلعت حولي ورأيت خلفي زوربا الذي ارتسمت على وجهه ضحكة.

صاح: «حسناً يا معلّم، هذه طريقة جيدة لبدء العمل!» وأضاف، «إني أبحث عنك منذ ساعات، لكن كيف لي أن أعرف أين يمكنني أن أجدك؟».

وعندما رأى أني لبثت صامتاً، واصل كلامه:

«لقد أصبحنا في منتصف النهار وقد طهوت هذه الدجاجة المسكينة التي سرعان ما أصبحت قطعاً ونتفاً، كما تعرف».

«نعم أعرف، لكنني لست جائعاً»

«لست جائعاً!» صاح زوربا، وصفع فخذيه، «لكنك لم تتناول شيئاً منذ الصباح. ففي الجسم روح أيضاً، ارحمها. امنحها شيئاً لتتناوله يا معلّم، أطعمها. إنها دابتنا التي نحمل عليها أعباءنا، كما تعرف. وإذا لم تطعمها، فإنها ستتخلى عنك في منتصف الطريق».

لسنوات عديدة، كنت أمقت متع الجسد، ، وكنت أتناول طعامي سراً عندما كنت أستطيع ذلك، وكأني أرتكب عملاً مشيناً لكن لكي لا يتذمّر زوربا قلت:

«حسناً، إني قادم».

اتجهنا نحو القرية. لقد مرت الساعات التي أمضيتها بين الصخور بسرعة كما يمّر الوقت بين العشاق، كالبرق.

«هل كنت تفكّر بالفحم؟» سأل زوربا بشيء من التردد.

«وبماذا تتوقّع أن أفكّر؟» أجبت، ضاحكاً، «سنبدأ العمل غداً. يجب أن أجري بعض الحسابات».

«وما هي نتيجة حساباتك؟» سأل، وهو يشقّ طريقه بعناية.

«بعد ثلاثة أشهر، يجب أن نستخرج عشرة أطنان من الفحم في اليوم لنتمكن من تغطية النفقات»

نظر إليّ زوربا مرة أخرى، بقلق هذه المرة. وبعد قليل قال:

«ولماذا بحق الشيطان يجب أن تذهب إلى البحر لتجري حساباتك؟ اعذرني يا معلّم على سؤالي هذا، لكنّي لا أفهم. فعندما يتعين عليّ أن أتصارع مع الأرقام، أشعر بأنّني أريد أن أحشر نفسي في حفرة في الأرض، لكي لا أرى شيئاً. وإذا رفعت عينيّ ورأيت البحر، أو شجرة، أو امرأة ـ حتى لو كانت هرمة، فإن جميع المبالغ والأرقام تتلاشى وتصبح هباء منثوراً. تنبت لها أجنحة ويتعين عليّ أن أطاردها».

«لكن هذا عيبك يا زوربا»، قلت أستثيره، «إنك لا تركّز».

«ربما كنت محقاً يا معلّم. فكلّ شيء يتوقف على الطريقة التي تنظر فيها إلى الأمور». فهناك أمور حتى سليمان الحكيم. انظر، ذات يوم ذهبت إلى قرية صغيرة. ورأيت رجلاً عجوزاً يناهز التسعين من العمر، منهمكاً في غرس شجرة لوز. صحت مستغرباً: «ماذا أيها الجدّ، أتغرس شجرة لوز؟» فالتفت، وهو لا يزال محنياً، وقال: «يا بني، إني أواصل العيش وكأني لن أموت أبداً»، فأجبت: «وأنا أواصل العيش وكأني سأموت في أيّ لحظة». من منّا على حقّ يا معلّم؟

نظر إليّ بزهو وقال: «لقد غلبتك هنا».

لذتُ بالصمت. دربان يتساويان في وعورتهما وانحدارهما قد يؤديان إلى القمة ذاتها أن نتصرف وكأن الموت غير موجود، أو أن نتصرف ونحن نفكر في الموت في كلّ لحظة، سيان. لكن عندما سألني زوربا هذا السؤال، لم أعرف ماذا أجيبه.

«حسنا؟» قال زوربا هازئاً، «لا تقلق يا معلّم، لن تستطيع أن تصل إلى نتيجة. فلنتكلّم عن شيء آخر فأنا أفكّر الآن بالدجاجة والرزّ المزيّن بالقرفة. تتصاعد من دماغي أبخرة مثل الرز. دعنا نأكل أولاً، نملأ معدتينا أولاً، ثم نرى. كلّ شيء في أوانه. أمامنا الآن الرزّ، فلنركز على الرز. وغداً عندما يصبح الفحم أمامنا، فلنركز على الفحم! لا أنصاف حلول، كما تعرف».

دخلنا القرية. كانت النساء يجلسن أمام بيوتهن يثرثرن. أما الرجال المسنون، فقد كانوا منحنين على عكازاتهم، صامتين. وتحت شجرة رمان محمّلة بثمار قليلة، كانت امرأة عجوز تفلّي حفيدها من القمل.

وأمام المقهى وقف رجل عجوز ارتسمت على وجهه قسمات جادة مركّزة، وأنف معقوف. كانت تبدو عليه سيماء شخص هام. إنه مافراندوني، شيخ القرية الذي أجّرنا منجم الفحم. وكان قد اتصل بنا مساء البارحة عند السيدة هورتينس ليرافقنا إلى بيته. قال:

«عيب عليكما أن تمكثا في نزلها وكأنه لا يوجد رجال في القرية».

كان رزيناً. وكان يزن كلماته بعناية شأن وجهاء القرويين. رفضنا، فشعر بالإهانة، لكنه لم يلّح.

«قمت بواجبي»، قال وهو يغادر، «إنكما حرّان».

بعد قليل، أرسل لنا قطعتين من الجبن، وسلة مليئة بالرمان، وجرّة من الزبيب والتين، ودمجانة عرق. قال لنا خادمه، وهو يفرغ هذه الأشياء من على ظهر حماره الصغير

«مع تحيات الكابتن مافراندوني. إنها ليست أشياء كثيرة، كما طلب مني أن أقول لكما، لكنه يتمنى لكما كلّ الخير»

حيّينا الآن شيخ القرية بوّد ومحبة شديدتين.

«أطال الله عمريكما!» قال، وهو يضع يده على صدره، ثم صمت.

«إنه لا يحبّ أن يتكلّم كثيراً»، دمدم زوربا، «إنه شخص بليد قاسي الطباع».

«إنه شخص متفاخر، إنه يعجبني»

كنّا على وشك أن نصل كانت فتحتا أنف زوربا ترتعشان من السعادة. وما إن رأتنا السيدة هورتينس عند العتبة حتى أطلقت صيحة وهرعت إلى المطبخ.

وضع زوربا الطاولة في الباحة تحت عريشة العنب الخالية من الأوراق. وقطع الخبز شرائح سميكة، وأحضر النبيذ، ورتّب المائدة، ثم رمقني بخبث وأشار إلى المائدة. فقد أعدّها لثلاثة أشخاص!

«ألا ترى يا معلّم؟» همس.

«نعم، أرى، أيها المتهتك العجوز!» أجبت.

«إن الطيور المسنّة هي التي يصنع منها أفضل حساء»، قال متلمظاً، «خذها مني».

تحرّك برشاقة، عيناه مشعتان، وهو يدندن أناشيد حبّ قديمة.

«هكذا يجب على المرء أن يعيش يا معلّم. استمتع بوقتك والتهم الطير. كما ترى، فإني أتصرف الآن وكأني سأموت بعد لحظة. وها أنا أسرع كي لا أموت قبل أن أتناول الطير!».

«إلى المائدة!» قالت السيدة هورتينس.

رفعت القدر ووضعته أمامنا. لكنها وقفت فاغرة الفم، عندما رأت الصحون الثلاثة. تورّد وجهها من الفرحة. نظرت إلى زوربا ورمشت بعينيها الزرقاوين الحادتين الصغيرتين اللتين تشبهان حلزون البحر

«إن النار تتقد في سروالها الداخلي الآن»، همس زوربا

ثم التَفت إلى السيدة وقال بأدب شديد «حورية الأمواج الجميلة، لقد غرقت سفينتنا وألقى بنا البحر في عالمك هلا شرفتنا، أيتها الفاتنة، وشاركتنا طعامنا»

فتحت مغنية الملاهي العجوز ذراعيها واسعاً ثم أغلقتهما ثانية وكأنها كانت ستعانقنا نحن الاثنين. تمايلت برشاقة، لامست زوربا، ثم لامستني وجرت إلى غرفتها وهي تضحك. وبعد قليل ظهرت ثانية، وهي تزقزق من البهجة، تستعرض مفاتنها بتباه، بعد أن ارتدت أجمل ثوب لديها: فستان مخملي براق قديم، مزدان بضفيرة صفراء بالية. وبقيت صدارتها مفتوحة بسخاء وثبتت عليها وردة اصطناعية كبيرة. وكانت تمسك بيدها قفص الببغاء الذي علّقته على عريشة العنب.

أجلسناها بيننا. زوربا إلى يمينها وأنا إلى يسارها.

ورحنا نلتهم نحن الثلاثة الطعام بنهم شديد. ولوهلة طويلة لم يفه أحدنا بكلمة. فقد كنّا نطعم الوحش، ونروى ظمأه بالنبيذ. وسرعان ما تحول الطعام إلى دم، وازداد العالم جمالاً، وأخذت المرأة الجالسة بيننا تزداد شباباً مع كلّ دقيقة، وبدأت الخطوط في وجهها تتلاشى. ومال الببغاء المعلق أمامنا في سترته الخضراء وصدريته الصفراء إلى الأمام يراقبنا، وبدا مثل شخص غريب

واقع تحت سحر، أو روح مطربة الملاهي العجوز التي ترتدي فستاناً أخضر وأصفر. وعلى حين غرة، اكتست عريشة العنب فوق رؤوسنا بعناقيد ضخمة من العنب الأسود.

كانت عينا زوربا مشعتين، وفتح ذراعيه وكأنه يريد أن يعانق العالم بأسره.

«ماذا يحدث، يا معلّم؟» صاح بدهشة. نحتسي كأساً صغيراً من النبيذ ويفقد العالم صوابه. آه، يا معلّم، إن الحياة غريبة الأطوار. بشرفك قل لي، هل هذه عناقيد عنب التي تتدلى فوق رؤوسنا، أم هي ملائكة؟ لا أعرف. أم أنها لا شيء على الإطلاق، ولا يوجد ثمة شيء، لا دجاج، ولا فاتنة، ولا كريت! تكلّم يا معلّم، قل شيئاً، لكي لا أفقد صوابي!

بدأ زوربا يستعيد حيويته. فقد انتهى من التهام الدجاجة وأخذ ينظر إلى السيدة هورتينس بشراهة. كانت عيناه تلتهمانها بشراهة ونهم. كانتا تنظران إلى الأعلى والأسفل، ثم تنزلقان إلى صدرها الممتلئ وكأنهما تلمسانه. وكانت عينا سيدتنا الصغيرة مشعتين أيضاً. لقد أحبّت النبيذ وأفرغت في جوفها كؤوساً عديدة. لقد أعادها الشيطان اللعين بواسطة النبيذ إلى أيام زمان الطيبة. فأصبحت مرة أخرى أكثر مرحاً ورقة وصراحة. نهضت وأغلقت الباب الخارجي بمزلاج كي لا يراها القرويون ـ «هؤلاء البربر»، كما دعتهم. أشعلت سيكارة، وراحت أكاليل من الدخان تنبعث من أنفها بأرنبته الفرنسية الصغيرة.

في أوقات كهذه، تكون جميع أبواب كينونة المرأة مشرّعة، ويكون جميع حراسها في حالة استرخاء، بانتظار كلمة رقيقة قوية بقوة الذهب أو الحبّ. لذلك أشعلت غليوني وقلت الكلمة الرقيقة.

«السيدة هورتينس، إنك تذكّرينني بساره بيرنهاردت. في صباها فلم أكن أتوقّع أن أجد مثل هذه الأناقة، مثل هذه الكياسة، ومثل هذا الجمال، في هذا المكان المتوحش. أيّ شكسبير أرسلك إلى هذا المكان الموحش في وسط البرابرة؟»

«شكسبير؟» سألت، وفتحت عينيها الصغيرتين الشاحبتين، «أيّ شكسبير؟»

وحلقت ذاكرتها بسرعة إلى المسارح التي كانت تؤمها. وبلمح البصر، جالت في المقاهي والملاهي والحانات من باريس إلى بيروت، ومن هناك على طول ساحل الأناضول. وفجأة تذكّرت. كان ذلك في الإسكندرية، مسرح عظيم تتدلى فيه الثريات، وعلى مقاعده الفاخرة، يجلس رجال ونساء عاريات الظهور، تتضوع منهن روائح عطرة. وبغتة، ترتفع الستار ويظهر رجل أسود خائف.

«أيّ شكسبير؟» سألت مرة أخرى باعتزاز، بعد أن تذكّرت، «ذاك الذي يطلقون عليه عطيل أيضاً؟»

«بلحمه ودمه. أيّ شكسبير يا زنبقتي البيضاء، ألقى بك فوق هذه المنطقة الصخرية الموحشة المتوحشة؟»

تطلعت حولها كانت الأبواب مغلقة، وكان الببغاء نائماً، وكنا وحدنا لقد تأثرت وفتحت لنا قلبها كان مثل صندوق قديم ملئ بالتوابل، وبالرسائل الغرامية التي بهتت وحال لونها إلى الأصفر، وبالثياب القديمة.

كانت تتحدث اللغة اليونانية بركاكة، تلحن في الكلمات، وتخلط مقاطع الكلمات. لكننا كنا نفهمها جيداً. وكنا أحياناً نجد صعوبة كبيرة في كبت ضحكاتنا، وفي أحيان أخرى، عندما نشرب كثيراً ـ كنا ننفجر في البكاء.

«حسنا» ـ هذا ما قالته هذه الغانية الفتانة العجوز المعطّرة في فناء بيتها ـ «حسناً، فالمرأة التي تنظران إليها الآن، لم تكن في حياتها مغنية في حانة، لا! بل كنت فنانة مشهورة وكنت أرتدي ثياباً تحتية حريرية موشاة بالدانتيل الحقيقي. لكن الحبّ.

وزفرت زفرة عميقة، وأشعلت سيكارة أخرى من سيكارة زوربا

كنت أحبّ أميرالاً كانت الثورة قد اندلعت في كريت ثانية، وألقت أساطيل القوى العظمى مراسيها في ميناء سودا. وما هي إلا أيام قليلة حتى حط بي

المقام هنا أيضاً. يا له من شيء رائع! كان يجب أن تريا الأميرالات الأربعة: الإنكليزي والفرنسي والإيطالي والروسي. كانت تزين صدورهم شارات ورتب ذهبية، وينتعلون أحذية جلدية لامعة، ويعتمرون قبعات مزدانة بالريش، كالديوك. ديوك ضخمة يتراوح وزنها بين ثمانين كيلو غرام ومائة كيلو غرام. ويا لها من لحى! لحى حمراء مجعدة، حريرية، غامقة، جميلة، رمادية ـ وكانت تعبق منهم روائح لذيذة! وكانت تعبق من كلّ واحد منهم رائحة عطر تميّزه ـ ومن روائحهم كنت أميّزهم في الظلام. فقد كنت أميّز إنكلترا من رائحة الكولونيا، وفرنسا من رائحة البنفسج، وروسيا من رائحة المسك، وإيطاليا، آه، إيطاليا التي تعبق منها رائحة العنبر. يا إلهي، كم كانت لحى رائعة، يا لها من لحى!

«وفي كثير من الأحيان، عندما كنا نلتقي جميعنا على متن سفينة القيادة، كنا نتحدّث عن الثورة. وكانت عرى بدلاتهم مفكوكة، وقميصي الداخلي الحريري يلتصق بجسدي، لأنهم كانوا يدلقون عليّ الشمبانيا. كنا في الصيف. وكنّا نتحدث عن الثورة، حديثاً جدياً، وذات يوم أمسكت بلحية كلّ واحد منهم ورجوتهم ألا يقصفوا كريت وسكانها المساكين الأعزاء الذين كنا نراهم عبر المنظار من فوق صخرة بالقرب من كانيا. كانوا يبدون لنا صغاراً، صغاراً جداً، كالنمل في سراويل زرقاء وأحذية طويلة صفراء. وكانوا لا يتوقفون عن الصياح، وهم يرفعون الراية».

سمعنا صوت حركة بين أعواد الخيزران المحيطة بالفناء. توقفت المحاربة العجوز عن الكلام، خائفة. فقد كانت تلمع من بين الأوراق، عيون صغيرة لئيمة. فقد عرف أطفال القرية بأننا نحتفل فراحوا يتلصصون علينا.

حاولت مغنية الملاهي أن تقف على قدميها، لكنها لم تستطع. فقد تناولت طعاماً كثيراً، واحتست الكثير من الشراب، فعادت وجلست وهي تتصبب عرقاً. التقط زوربا حجرة، فابتعد الأطفال وهم يصرخون.

«تابعي كلامك يا فاتنتي! تابعي يا كنزي!» قال زوربا، ودفع كرسيه مقترباً منها.

«لذلك قلت للأميرال الإيطالي ـ كنت أرفع الكلفة معه أكثر من الآخرين ـ أمسكت لحيته وقلت له: عزيزي كانافارو كان ذلك اسمه أرجوك، يا عزيزي كانافارو الصغير، لا بوم بوم! لا بوم بوم!».

«كم مرّة أنقذت المرأة التي تريانها أمامكما سكان كريت من الموت! كم مرّة أمسكت لحية الأميرال فيما كانت المدافع محشوة ومستعدة للقصف وهي تتوسل إليه ألا يفعل ذلك. بوم بوم! لكن ماذا كان جزاء صنيعها؟ انظرا كيف أحصل على أوسمة منهم. .»

كانت السيدة هورتينس غاضبة بسبب جحود الرجال. وخبطت المنضدة بقبضتها الناعمة والمجعّدة. مدّ زوربا يديه الخبيرتين وأمسك ركبتيها المنفرجتين، متظاهراً بأن مشاعراً جارفة قد تملكته، وصاح: «عزيزتي بوبولينا[١]! بحق السماء، لا بوم، بوم!».

«ارفع يدك عني!» قالت سيدتنا الطيبة، وهي تضحك، «ماذا تظنني؟» ورمقته بنظرة واهنة.

فقال الفاسق المحتال: «إن الله موجود في السماء. لا تنزعجي يا عزيزتي بوبولينا. إننا هنا يا حبيبتي، لا تخشي شيئاً».

رفعت الفاتنة العجوز عينيها الزرقاوين الحادتين إلى الأعلى، ورأت ببغائها الأخضر نائماً في قفصه.

«عزيزي كانافارو، عزيزي كانافارو الصغير!» هدلت بطريقة غرامية.

بعد أن عرف الببغاء صوتها، فتح عينيه، وتشبث بقضبان قفصه، وأخذ يصيح بصوت أجش يشبه صوت رجل يغرق: «كانافارو! كانافارو».

---

(١) كانت بوبولينا إحدى بطلات حرب الاستقلال (١٨٢١ـ١٨٢٨). وقد حاربت ببسالة في البحر.

«حاضر» صاح زوربا، ووضع يديه مرة أخرى على هاتين الركبتين الهرمتين اللتين قدمتا خدمات جليلة، وكأنه يريد أن يتملكهما هذه المرة. تململت الغانية العجوز في كرسيها، وفتحت شفتيها المتغضنتين قليلاً

«أنا أيضاً، كافحت ببسالة، صدراً لصدر. لكن الأيام السيئة حلّت. فقد تحررت كريت، وصدرت الأوامر بانسحاب الأساطيل. وماذا سيحّل بي؟ قلت، سمسكة باللحى الأربع. أين ستتركونني؟ فقد تعوّدت على العظمة والفخامة، وعلى الشمبانيا والدجاج المشوي؛ وتعوّدت على البحّارة الصغار الوسيمين وهم يحيّونني؛ سأصبح أرملة أربع مرات! ماذا سيحّل بي، أعزائي اللوردات، أعزائي الأميرالات؟».

«أوه، أخذوا يضحكون ـ يا لهم من رجال ـ فقد أغرقوني بجنيهات إنكليزية وبليرات إيطالية، وبالروبلات والفرنكات. حشوتها جميعها في جوربي، وفي صدريتي وفي حذائي. وفي المساء الأخير، بكيت ونشجت كثيراً حتى أشفق عليّ الأميرالات. فملؤوا حوض الحمّام بالشمبانيا، وغطسوني فيه ـ كنا معتادين على ذلك، وشربوا الشمبانيا من حوض الحمّام تكريماً لي. ثملوا وأطفؤوا الضوء. .».

«وفي الصباح، كنت أستطيع أن أشمّ رائحة عطر كلّ واحد منهم، الواحد تلو الآخر البنفسج والكولونيا والمسك والعنبر كنت أضع القوى العظمى الأربعة إنكلترا وفرنسا وروسيا وإيطاليا ـ هنا، هنا على ركبتيّ، وكنت أفعل ذلك معهم

مدت السيدة هورتينس ذراعيها الصغيرين المكتنزين وحرّكتهما إلى الأعلى والأسفل، كما لو كانت تهزّ طفلاً فوق حضنها.

«هكذا! مثل هذا!»

«وعندما أشرقت الشمس أخذوا يطلقون نيران مدافعهم. أقسم بشرفي أنهم

أطلقوا نيران مدافعهم، وجاء مركب أبيض على متنه اثنا عشر جندياً وجلبوني إلى الشاطئ»

أخرجت منديلها الصغير وراحت تنشج على نحو يثير الشفقة.

«عزيزتي بوبولينا»، صاح زوربا جذلاً، «أغمضي عينيك، أغمضي عينيك يا كنزي. أنا كانافارو!»

«قلت لك لا تلمسني!» قالت سيدتنا الطيبة وهي تبتسم، «انظري إلى ذاتك الأنيقة! أين ذهبت الكتفيّات الذهبية، والقبعات المثلثة الزوايا، واللحى المعطّرة؟ آه، حسناً وبعد ذلك. . .».

ضغطت على يد زوربا بلطف، وأجهشت بالبكاء مرة أخرى.

بدأ الطقس يزداد برودة. ساد الصمت برهة. كان البحر القابع وراء قصبات الخيزران يتنهد. فقد أصبح أخيراً لطيفاً ومسالماً. وسكنت الريح، وغابت الشمس كي تخلد إلى الراحة. ومرّ غرابان فوق رؤوسنا، وصفقا جناحيهما وكأن قطعة من الحرير تُمَزّق ـ قميص المغنية الحريري.

حلّ نور المساء مثل رذاذ الغبار الذهبي فوق الفناء. واشتعلت شفتا السيدة هورتينس المبهرجتين، وارتعشتا في نسيم المساء وكأنهما تريدان أن تحلقا وتحملا النار إلى رؤوس جيرانها وهبط الضوء الذهبي على صدرها النصف عار، وعلى ركبتيها المنفرجتين اللتين ازدادتا اكتنازاً مع تقدم العمر، وعلى التجاعيد في رقبتها، وحذائها المتهرئ.

انتابت فاتنتا العجوز رعشة. وبنصف إغماضة من عينيها الصغيرتين، اللتين احمرتا بسبب دموعها والنبيذ، نظرت إليّ أولاً، ثم إلى زوربا الذي جفت شفتاه، والذي افتتن بصدرها نظرت إلى كلّ واحد منّا بطريقة متسائلة، تحاول أن ترى من منّا كانافارو.

«عزيزتي بوبولينا»، هدل زوربا بحماس شديد، وهو يضغط بركبته على

ركبتيها، «لا تقلقي، فلا يوجد الله ولا الشيطان. ارفعي رأسك الصغير، وأرخي خدك على يدك وغني لنا أغنية. فليذهب الموت إلى الجحيم!»

كان زوربا متقداً. وفيما كانت يده اليسرى تفتل شاربه، راحت يده اليمنى تجوس فوق المغنية المنتشية. كانت كلماته تنبعث بأنفاس متقطعة، وعيناه واهنتين. ومن المؤكد أنها لم تعد المرأة العجوز المحنّطة المليئة بالأصباغ على نحو شنيع، هي التي كان يراها أمامه الآن، بل كان يرى «نوع الأنثى» كله كما اعتاد أن يطلق على النساء. فقد اختفى الفرد، وزالت القسمات، سواء كانت شابة أم عجوزاً، جميلة أم قبيحة ـ فلم تكن سوى فروق لا أهمية لها. فوراء كلّ امرأة ينبثق وجه إلهة الجمال أفروديت الصارم والمقدّس والغامض.

كان ذلك هو الوجه الذي يراه زوربا ويتحدث إليه ويشتهيه. ولم تكن السيدة هورتينس سوى قناع عابر شفّاف مزّقه زوربا ليقبّل الفم الأبدي.

«ارفعي رقبتك البيضاء بياض الثلج، يا كنزي»، قال ثانية بصوت لاهث متوسل. «ارفعي رقبتك البيضاء بياض الثلج وغني لنا أغنية!»

أسندت الغانية العجوز خدها على يدها المكتنزة، التي تشققت بسبب غسيل الثياب، وأسبلت عينيها. وأطلقت صيحة وحشية وحزينة، ثم أخذت تغني أغنيتها المفضّلة، وراحت تكررها وهي تحدّق في زوربا بعينين منتشيتين نصف مغمضتين ـ لقد اختارت وحزمت أمرها.

في آخر عمري

لماذا التقيت بك

قفز زوربا من كرسيه، وذهب ليأتي بالسنتوري. جلس على الأرض كما يجلس الأتراك، وأخرج السنتوري، وأسنده إلى حضنه، ومدّ يديه العظيمتين.

«أوه! أوه! »راح يغني، «خذي سكيناً واذبحيني يا بوبولينا!».

عندما هبط الليل، وبدأت نجمة المساء تطوف في السماء، وارتفع صوت السنتوري الرائع، أسندت السيدة هورتينس، التي ملأت بطنها بالرزّ والدجاج، واللوز المحمّص والنبيذ، رأسها على كتف زوربا وتنهّدت. وراحت تفرك نفسها بلطف على خاصرتيه الناتئتي العظام، وراحت تتثاءب وتتنهّد مجدداً.

أشار زوربا إليّ، وهمس بصوت منخفض، «إنها في المزاج يا معلّم. كن رجلاً واتركنا».

[4]

فتحت عيني عند الفجر ورأيت زوربا جالساً أمامي عند طرف سريره طاوياً ساقيه كان يدخّن مستغرقاً في تأمل عميق. وكانت عيناه الصغيرتان المستديرتان مثبتتين على النافذة فوق الباب قبالته، التي أضفى عليها بريق بزوغ الفجر لوناً أبيض حليبياً كانت عيناه متورمتين، وكانت رقبته العارية الطويلة والنحيفة مثل رقبة طير جارح، ممطوطة بشكل غير اعتيادي.

في مساء الليلة الفائتة، كنت قد أويت إلى فراشي مبكراً، وتركته وحيداً مع الغانية العجوز.

قلت له: «إني ذاهب. استمتع بوقتك يا زوربا، وأتمنى لك حظاً سعيداً».

«طابت ليلتك يا معلّم»، أجاب زوربا، «دعنا نسوّي أمورنا الصغيرة. طابت ليلتك يا معلّم أتمنى لك نوماً مريحاً».

يبدو لي أنهما سوّيا أمورهما الصغيرة، لأنني سمعت في نومي أصوات هديل مكتومة، وفي وقت من الأوقات، اهتزت الغرفة المجاورة، وارتعشت. ثم غلبني النعاس ثانية. وبعد منتصف الليل، دخل زوربا حافي القدمين وتمدد على سريره بهدوء شديد، وكأنه لم يكن يريد أن يوقظني.

خلال تباشير الفجر الأولى، رأيته يحدّق بعيداً بعينيه اللتين خفت بريقهما. كنت لا أزال أستطيع أن أرى أنه كان غارقاً في نوع من السبات، ولم يكن صدغاه قد تخلّصا بعد من النوم. وبهدوء ورقة، ترك نفسه ينجرف في تيار غامض سميك كالعسل. وكان الكون كله المكوّن من الأرض والماء والأفكار

والبشر. ينجرف ببطء نحو بحر بعيد، وكان زوربا ينجرف معه، مستسلماً وسعيداً.

وبدأت القرية تستيقظ من سباتها ـ فقد كانت تُسمع همهمات مختلطة مشوّشة تصدر عن الديوك والخنازير والحمير والرجال. أردت أن أقفز من سريري وأصيح: «هيه! زوربا! لدينا عمل يجب أن ننجزه اليوم!» لكني أحسست أيضاً بسعادة كبيرة في أن أستسلم بصمت، إلى أشعة الشمس الوردية. وفي تلك الدقائق السحرية، بدت الحياة كلها خفيفة كالفجر وبدا أن الأرض لا تكف عن تغيير شكلها في الريح، وكأنها سحابة ناعمة موارة.

مددتَ يدي. وأحسست أنا أيضا برغبة في التدخين. تناولت غليوني. نظرت إليه بشجن. كان غليوناً كبيراً وثميناً، «صنع في إنكلترا». كان هدية من صديقي ـ الصديق ذو العينين الخضراوين الرماديتين والأصابع النحيلة. كان ذلك منذ سنوات. كان قد أنهى دراسته وكان على وشك أن يغادر إلى اليونان. قال لي: «توقف عن تدخين السكائر»، وأردف: «إنك تشعل سيكارة، تدخّن نصفها، وترمي الباقي. حبّك لا يدوم سوى دقيقة. إنه شيء مخز من الأفضل أن تدّخن الغليون. فهو مثل الزوجة الوفية. عندما تذهب إلى البيت، تجده هناك، ينتظرك بهدوء. تشعله، وتراقب الدخان يتصاعد منه وستتذكرني!»

حلّت الظهيرة. كنّا خارجين من متحف برلين، حيث ألقى نظرة أخيرة على لوحته المفضّلة ـ المحارب لرامبراندت، بخوذته البرونزية، وخديه الضامرين، وقسماته الحزينة التي تشي بإرادة قوية. غمغم قائلاً: «إذا أنجزت في حياتي عملاً جديراً برجل»، وهو يحدّق في المحارب العنيد والبائس، «فسأكون مديناً له بذلك».

كنّا في باحة المتحف، متكئين على عمود. وكان ينتصب أمامنا تمثال برونزي لرجل أمازوني عاري الجسد، يمتطي حصاناً برّياً بسمو يتعذر وصفه. وجثم طير

رمادي صغير، أم عجلان، لبرهة فوق رأس الأمازوني، واستدار نحونا، ورفع ذيله، وصاح هازئاً مرتين أو ثلاث مرات، وطار بعيداً.

اعترتني رعشة، نظرت إلى صديقي وسألته:

«هل سمعت ذلك الطير؟ بدا أنه قال شيئاً لنا، ثم طار»

ابتسم صديقي وقال: «إنه طير، دعه يغرد؛ إنه طير، دعه يتكلّم»، مقتبساً سطراً من إحدى أغانينا الشعبية.

كيف تخطر لي في هذه اللحظة بالذات، عند بزوغ الشمس، وعلى هذا الساحل الكريتي، هذه الذكرى، وذلك الشعر الوفي، ويملآن عقلي بالمرارة؟

رحت أحشو غليوني بالتبغ ببطء وأشعلته. لكلّ شيء في هذا العالم معنى خفي، قلت في نفسي. الإنسان، الحيوانات، الأشجار، النجوم، جميعهم أحرف هيروغليفية؛ والويل لمن يبدأ بفك رموزها وتخمين معناها. عندما تراهم، فإنك لا تفهمهم. تظن أنهم حقاً بشر وحيوانات وأشجار ونجوم. ولن تفهم حقيقتهم إلا بعد سنوات، بعد فوات الأوان.

المحارب ذو الخوذة البرونزية، وصديقي مستند إلى العمود، وطائر أم عجلان يغرد لنا، وذلك الشطر من الأغنية الشعبية الكئيبة. قلت لنفسي ربما كان لكلّ ذلك معنى خفي، لكن ماذا يمكن أن يكون؟

تابعت عيناي الدخان الذي أخذ يتشكل في دوائر، ثم بدأ يتفكك ويتحلل تحت الضوء. وامتزج عقلي بالدخان وبدأ يختفي رويداً رويداً في أكاليل زرقاء. وبعد مدة طويلة، ودون أن ألجأ إلى المنطق، بدأت أرى، أصل العالم ونموه واختفاءه بحقيقة مطلقة. كنت وكأني انغمست مرة أخرى في بوذا، لكن هذه المرة بدون كلمات العقل الوهمية والخدع البهلوانية الوقحة. إن هذا الدخان هو جوهر تعاليمه، هذه اللوالب المتلاشية هي الحياة التي تصل بعد لأي إلى نهاية سعيدة في النيرفانا الزرقاء.

أطلقت تنهيدة خفيفة. وكأن هذه التنهيدة هي التي أعادتني إلى اللحظة

الراهنة، نظرت حولي ورأيت الكوخ الخشبي البائس، وقد علقت على الحائط مرآة صغيرة جعلت أشعة الشمس الأولى تنطلق منها شرارات. وكان زوربا يجلس أمامي على فراشه، يدخّن، مولياً لي ظهره.

وفجأة خطر لي البارحة، بمقاديره المضحكة ـ المبكية. رائحة عطر بنفسج مبتذلة ـ كولونيا البنفسج، والمسك والعنبر، والببغاء، الذي ربما كان إنساناً ثم تحوّل إلى ببغاء يصفق بجناحيه فوق قضبان قفصه الحديدية، ينادي اسم عشيق سابق، وبارجة قديمة، البارجة الوحيدة التي نجت من بين قطع أسطول كامل، تروي حكايات المعارك البحرية القديمة.

سمع زوربا صوت تنهيدتي، فهزّ رأسه ونظر حوله.

دمدم قائلاً: «لم نحسن التصرف»، «لم نحسن التصرف يا معلّم. لقد ضحكت، وكذلك ضحكت أنا، وقد رأتنا. والطريقة التي غادرت بها، دون أن تقول أيّ كلمات جميلة، وكأنها كيس قديم عمره مائة سنة. يا للعار! لم يكن ذلك ينم عن تهذيب يا معلّم. لا يتصرف الرجال هكذا، اسمح لي أن أقول لك ذلك. فهي رغم كلّ شيء امرأة، أليس كذلك؟ مخلوق ضعيف، وعصبي. لقد أحسنت التصرف عندما بقيت لأواسيها».

«لكن ماذا تقصد يا زوربا؟» أجبت، «هل تظن حقاً أنه لا يوجد شيء في عقول النساء إلا هذا الشيء؟».

«نعم يا معلّم، لا يوجد في عقولهن شيء سوى هذا. استمع إليّ الآن لقد رأيت نساء من جميع الأصناف، وفعلت كلّ شيء يخطر ببالك. فليس في رأس المرأة شيء سوى هذا إنها مخلوق مريض، أقول لك، ونزق. إذا لم تقل لها إني أحبك وأريدك، فإنها ستبكي. وربما كانت لا تريدك على الإطلاق، وربما كنت تثير اشمئزازها، وربما قالت لك لا، فهذه قصة أخرى. لكن يجب على كل رجل يراها أن يشتهيها. هذا ما تريده، هذه المخلوقة المسكينة، لذلك قد تحاول وتدخل البهجة إلى نفسها!».

«كانت جدتي، لا بد أنها كانت في الثمانين من عمرها. كانت حياة هذه العجوز حكاية بحد ذاتها! لا تلق بالاً لذلك، فهذه قصة أخرى، أيضاً حسنا، لا بد أنها كانت في الثمانين من عمرها، وكانت تقيم أمام بيتنا فتاة شابة نضرة مثل زهرة. اسمها كريستالو وفي مساء كلّ يوم سبت، كنا نحن شباب القرية نلتقي لنحتسي الشراب، وكان النبيذ يبعث الحيوية في نفوسنا. وكنا نضع غصيناً من الريحان خلف آذاننا، وكان ابن عم لي يأخذ غيتاره، وننطلق لنغني تحت شرفات الفتيات يا له من حبّ! يا لها من عواطف جياشة! كنا نجأر كالثيران! كنا جميعنا نريدها، وكنا في كلّ يوم سبت نتجه إليها في قطيع كي تختار واحداً منا»

«حسناً، هل تصدق ذلك، يا معلّم ؟ إنه لغز! للنساء جرح لا يلتئم أبداً جميع الجروح تلتئم، أما هذا، لا تلق بالاً لما تقوله كتبك، فإنه لا يلتئم أبداً ماذا، فقط لأن المرأة في الثمانين؟ فالجرح لا يزال ناكئاً»

«ففي كلّ يوم سبت، كانت العجوز المتصابية تسحب فرشتها وتضعها بالقرب من النافذة، تأخذ مرآتها الصغيرة وتمشّط قطع القش الصغيرة المتبقية على رأسها، وتفرقها في الوسط بعناية». كانت تتطلع حولها بدهاء، خشية أن يراها أحد. وإذا ما اقترب أحد، كانت تتراجع وتتظاهر بالوداعة المتناهية، وتتظاهر بأنها نائمة. لكن كيف كان لها أن تنام؟ فقد كانت تنتظر مناجاة الحبيب تحت شرفة الفتاة. في الثمانين! أترى أي لغز هي المرأة يا معلّم! إن ذلك يجعلني أرغب في البكاء الآن. ولم أكن آنذاك سوى شاب طائش، ولم أكن أفهم، وكان ذلك يضحكني. وذات يوم أثارت غضبي. فقد زجرتني لأنني ألاحق الفتيات، فصارحتها بلا تردد عن حقيقة أمرها: «لماذا تدعكين شفتيك بأوراق الجوز كلّ يوم سبت، وتفرقين شعرك من الوسط؟ هل تظنين أننا نأتي لنعزف ونغني تحت شرفتك؟ إننا نقصد كريستالو. أما أنت فلست سوى جثّة هرمة نتنة!».

«هل تصدّق يا معلّم ! كان ذلك اليوم أول يوم أعرف فيه حقيقة المرأة» إذ طفرت دمعتان من عينيّ جدتي، وتكورت على نفسها مثل كلب، وأخذت ذقنها ترتعش. وصرخت «كريستالو!» واقتربت منها كي تسمعني على نحو أفضل، «كريستالو!» إن الشباب وحوش فظة، ليسوا إنسانيين، إنهم لا يفهمون. رفعت جدتي ذراعيها النحيلتين إلى السماء وصاحت: «إني ألعنك من صميم قلبي! ومنذ ذلك اليوم بدأت تذوي». وبعد شهرين، أضحت أيامها معدودة. وعندما رأتني وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة، هسهست مثل سلحفاة وحاولت أنْ تمسكني بأصابعها الذاوية، وقالت: «أنت الذي قتلتني. فلتحلّ عليك اللعنة يا أليكسيسِ، وليعذبك الله ويجعلك تعاني كما أتعذب أنا الآن».

ابتسم زوربا

«آه، لقد تحققت لعنة الساحرة العجوز!» قال وهو يمسّد شاربه، «أظن أني في الخامسة والستين من عمري، لكن حتى لو قيض لي أن أعيش حتى المائة فلن أتوقف عن ذلك. سأظل أحمل في جيبي مرآة صغيرة، وسأظل أجري وراء الأنثى من كلّ صنف ونوع»

ابتسم مرة أخرى، وألقى سيكارته من النافذة، ومدّ ذراعيه وقال:

«لديّ عيوب كثيرة أخرى، لكن هذا العيب هو الذي سيقتلني»، وقفز من سريره.

«هذا يكفي. توقف عن الثرثرة. اليوم سنعمل!».

ارتدى ثيابه بسرعة كبيرة، وانتعل حذاءه ومضى.

رحت أجترّ كلمات زوربا وأنا مطرق الرأس، وفجأة لمعت في رأسي صورة بلدة بعيدة يكسوها الثلج كنت في معرض لأعمال رودان، وكنت قد توقفت لأتأمل يداً برونزية ضخمة، «يد الله». كانت هذه اليد نصف مغلقة، وكان يوجد في راحة اليد رجل وامرأة يعانق أحدهما الآخر، تغمرهما النشوة.

اقتربت مني فتاة ووقفت إلى جانبي. راحت تنظر أيضاً وقد حركّ العناق

الأبدي المقلق للرجل والمرأة شجونها. كانت ممشوقة القد، أنيقة الثياب، وكان شعرها أشقر غزيراً، ولها ذقن قوية وشفتان رقيقتان. كان فيها شيء يشي بالعزم. إني أكره أن أدعو أحداً للحديث، لكني لا أعرف ما الذي دفعني لأن ألتفت إليها وأسألها

«بماذا تفكّرين؟»

«أتمنى لو نتمكن من الهرب»، دمدمت بامتعاض.

«وإلى أين نذهب؟ إن يد الله في كل مكان. لا يوجد ثمة خلاص. هل تأسفين على ذلك؟».

«لا ربما كان الحبّ أكثر الأشياء التي تدعو إلى البهجة على وجه الأرض. ربما كان ذلك. لكني أرى الآن هذه اليد البرونزية، وأريد أن أنجو بنفسي».

«هل تفضّلين الحرية»

«نعم»

«لكن، لنفترض أننا لا نصبح أحراراً إلا عندما نطيع هذه اليد البرونزية؟ لنفترض أنه لا يوجد لكلمة الله ذلك المعنى المعروف الذي تضفيه عليها الجماهير؟».

رمقتني بنظرة يشوبها القلق. كانت عيناها رماديتين بلون المعدن، وشفتاها جافتين ساخرتين.

«إني لا أفهم»، قالت، ومضت.

اختفت. منذ ذلك الحين لم أعد أفكّر فيها. لكن لا بد أنها لا تزال تعيش في أعماق قلبي، واليوم، على هذا الشاطئ الفارغ، ظهرت لي مرة أخرى، شاحبة وحزينة، من أعماق كياني.

نعم، لم أحسن التصرف. كان زوربا محقاً كانت تلك اليد البرونزية ذريعة جيدة. لقد نجح الاتصال الأول، وتم تبادل الكلمات اللطيفة الأولى، ولعلنا

شيئاً فشيئاً، ودون أن يدرك أحدنا، عانق أحدنا الآخر واتحدنا، دون أن يزعجنا أحد، في يد الله. لكنني انطلقت بغتة من الأرض إلى السماء، وقد أجفلت المرأة وهربت.

أخذ الديك العجوز يصيح في فناء منزل السيدة هورتينس. كان ضوء النهار الأبيض قد بدأ يتسلل الآن عبر النافذة الصغيرة. قفزت من السرير

بدأ العمّال يتقاطرون وهم يحملون فؤوسهم ومخلهم ومعاولهم. سمعت زوربا يصدر أوامره لهم. فقد بدأ العمل مباشرة. ويمكن للمرء أن يرى أنه رجل يعرف كيف يأمر الرجال، رجل يحبّ تحمل المسؤولية.

مددت رأسي من النافذة ورأيته واقفاً، مثل أخرق عظيم يحدّق في وسط رجال تتجاوز أعمارهم الثلاثين، نحيفين ذوي خصور ضامرة وقد برى الطقس وجوههم. كانت ذراعه ممدودة بطريقة آمرة، وكلماته مقتضبة ومباشرة. وذات مرة أمسك شاباً من قفا رقبته لأنه كان يهمس ويتقدم بتردد.

«هل لديك شيء تريد أن تقوله؟» صاح به زوربا، «حسناً، قل ما تريد بصوت عال! فأنا لا أحبّ من يدمدمون. يجب أن تكون في مزاج العمل لكي تعمل. وإذا لم تكن، فعد إلى الحانة!».

في تلك اللحظة ظهرت السيدة هورتينس بشعرها المشعّث وخديها المنتفخين. لم تكن تضع مكياجاً، وكانت ترتدي رداء قذراً طويلاً، وتجرّ قدميها منتعلة خفين مهترئين طويلين. وكانت تسعل ذلك السعال الخشن الذي يميّز المغنيات العجائز، مثل حمار ينهق. وقفت ونظرت باعتداد إلى زوربا، وقد غشي عينيها ضباب. سعلت ثانية، كي يلاحظها، ومشت بالقرب منه، تتمايل، وتهز ردفيها. كاد ردنها الواسع يلامسه، لكنه لم يلتفت أو ينظر إليها. أخذ كعكة من الشعير وحفنة من الزيتون من أحد العمال وصاح:

«الآن، أيها الرجال، باسم الله، ارسموا شارة الصليب»، ومشى، وقاد المجموعة في أقصر طريق باتجاه الجبل.

لن أصف هنا العمل في المنجم. إذ إن ذلك يحتاج إلى صبر، وأنا لا أملك منه شيئاً. وكنا قد بنينا بالقرب من البحر كوخاً من أعواد الخيزران، ومن أغصان شجر الصفصاف وصفائح البنزين. وكان زوربا يصحو عند الفجر، يحمل معوله، وينطلق إلى المنجم قبل الرجال، يحفر نفقاً، يتركه، ويكتشف طبقة من الفحم، فيرقص فرحاً. لكنه بعد بضعة أيام، كان يفقد طبقة الفحم فيرتمي على الأرض ويرفع ساقيه في الهواء، ويحرّك قدميه ويديه في إشارة ساخرة إلى السماء.

كان يعمل بكلّ جوارحه. بل ولم يعد يستشيرني. وخلال الأيام القليلة الأولى، انتقلت الرعاية والمسؤولية كلها من يدي إلى يده. وأصبح يتخذ القرارات وينفذها، وانحصرت مهمتي في تسديد النفقات. ولم أجد غضاضة في ذلك، لأني شعرت أن هذه الشهور ستكون أكثر الشهور سعادة في حياتي. وعندما كنت أتمعن في الأمر، كنت أشعر بأنني أشتري سعادتي بثمن رخيص.

كان جدّي لأمي الذي عاش في قرية كبيرة في جزيرة كريت، يأخذ فانوسه مساء كلّ يوم ويطوف في الشوارع ليرى إن كان قد جاء غريب بالصدفة. فيصحبه إلى بيته، ويقدم له الطعام والشراب، ثم يجلس على أريكته، يشعل غليونه التركي الطويل، «الشيبوك»، ويلتفت إلى ضيفه ـ الذي حان الوقت ليسدد دينه لقاء حسن الضيافة هذه ويقول بنبرة آمرة:

«تكلّم!»

«عما أتكلّم، يا أبي موستيورغي؟»

«ماذا أنت، من أنت، من أين أتيت، ما المدن والقرى التي رأيتها ـ كلّ شيء، حدثني عن كلّ شيء. الآن، تكلّم!».

ويبدأ الضيف يتكلم كيفما اتفق، يروي حقائق وأكاذيب، فيما يجلس جدّي هادئاً على أريكته، يدخن الشيبوك، ينصت باهتمام شديد ويتابع الغريب في رحلاته. وإذا أحبّ الضيف، كان يقول:

«ستمكث غداً أيضاً. لن تذهب. لا يزال لديك أشياء تريد أن تقولها».

لم يغادر جدّي قريته على الإطلاق. حتى أنه لم يذهب إلى كانديا أو إلى كانيا. «لماذا أذهب إلى هناك؟» كان يقول، «يوجد فيهما سكان كانديا وكانيا، فليحفظهم الله، الذين يأتون إلى هنا، إن كانديا وكانيا تأتيان إلى هنا، فلماذا أذهب إليهما؟».

هنا، على هذا الساحل الكريتي أواصل اليوم عادة جدّي التي كنت مهووساً بها. فأنا أيضاً عثرت على ضيف يضيء فانوسي. ولم أدعه يغادر. وهو يكلّفني أكثر من عشاء بكثير، لكنه يستحق ذلك. وفي كلّ مساء، كنت أنتظره بعد انتهاء العمل، أجلسه أمامي ونتناول الطعام. وعندما يحين الوقت ليفي بما عليه، أقول له: «تكلّم»، وأدخّن غليوني وأنصت له. فقد استكشف هذا الضيف الأرض برمتها وسبر الروح البشرية. ولم أكن أملّ أبداً من الاستماع إليه.

«تكلّم يا زوربا، تكلّم!».

وما إن يبدأ يتكلّم، حتى تنبسط مقدونيا أمامي في الحال في الحيّز الضئيل الذي يفصل بيني وبين زوربا، بجبالها، وغاباتها، وسيولها، ومحاربيها، ونسائها اللاتي لا يتوقفن عن العمل ورجالها العظماء الأشداء. وكذلك جبل آثوس بأديرته الواحد والعشرين، وترساناته والمقيمين فيه ذوي المؤخرات العريضة. وكان زوربا يهزّ رأسه، عندما ينهي حكاياته عن الرهبان ويقول وهو ينفجر ضحكاً: «حماك الله يا معلّم من مؤخّرات البغال ومن مقدمات الرهبان»

وكان زوربا يصحبني في كلّ مساء إلى اليونان وإلى بلغاريا وإلى القسطنطينية. كنت أغمض عيني وأرى. فقد زار جميع دول البلقان الخربة والفوضوية، ورأى كلّ شيء بعينيه الصغيرتين الحادتين كالصقر، اللتين كان يفتحهما دوماً بدهشة. أشياء تعودنا عليها، نمرّ بها بلا مبالاة، لكنها تنتصب فجأة أمام زوربا وتصبح كالألغاز المرعبة. فعندما يرى امرأة تمرّ بجانبه، كان يتوقّف وجلاً.

«ما هو ذلك اللغز؟» يسأل، «ما هي المرأة، ولماذا تدير رؤوسنا؟ أخبرني فقط، إني أسألك، ماذا يعني ذلك؟».

ويتساءل بالدهشة ذاتها عندما يرى رجلاً، شجرة تتبرعم أزهارها، كأساً من الماء البارد. كان زوربا يرى كلّ شيء كلّ يوم وكأنه يراه للمرة الأولى.

البارحة، كنّا جالسين أمام الكوخ. وبعد أن احتسى كأساً من النبيذ، التفت إليّ فزعاً وقال: «الآن ما هو ذاك الماء الأحمر يا معلّم، فقط أخبرني! جذع قديم تنمو منه أغصان، وفي البداية لا يكون هناك شيء سوى عنقود حامض يتدلى. ويمرّ الوقت، وتجعله الشمس ينضج، ويصبح حلواً كالعسل، ثم نسميه عنباً. نطأه بأقدامنا، ونستخرج منه العصير ونملأ به جرارنا يتخمّر وحده، ونفتحها في يوم عيد القديس جون السكير[1]، وقد أصبح نبيذاً! إنها معجزة! إنك تشرب العصير الأحمر، وانظر ماذا يحدث، فإذ بروحك تكبر وتعظم، ولا تعود تسعها هذه الجثة الهرمة، وتتحدّى الله وتدعوه إلى المبارزة. قل لي الآن يا معلّم، كيف يحدث ذلك؟».

لم أحر جواباً. كنت أشعر وأنا أستمع إلى زوربا بأن العالم يستعيد نقاء عذوبته. وأن جميع الأشياء اليومية الباهتة تستعيد ألقها كما كانت في البداية عندما خرجنا من بين يدي الله. فقد عادت الماء والنساء والنجوم والخبز إلى أصلها البدائي الغامض وتنطلق الزوبعة الإلهية مرة أخرى في الهواء.

لهذا السبب، كنت في كلّ مساء، وأنا مستلق على الأحجار، أنتظر زوربا بنفاد صبر. وأراه يخرج فجأة من باطن الأرض ويقترب بجسده المهلهل وبخطواته الطويلة. ومن بعيد كنت أعرف كيف كان العمل يسير في ذلك اليوم، من مشيته، من الطريقة التي يرفع فيها رأسه عالياً أو يكون مطرقاً، من تلويح ذراعيه.

---

(١) عيد كليدوناس، يقام في ١٥ آب. ويمكن مقارنته بعيد الهلاوين.

في البداية كنت أذهب معه أيضاً. كنت أراقب الرجال. بذلت جهداً لأن أعيش نوعاً مختلفاً من الحياة، أن أبدي اهتماماً بشيء عملي، أن أعرف وأحبّ الجوهر الإنساني الذي وقع بين يدي، أن أشعر بالبهجة التي طالما تمنيتها، أن أتوقف عن التعامل مع الكلمات، بل مع حياة البشر. ووضعت خططاً رومانسية ـ إذا نجح استخراج الفحم ـ بأن أقيم مجتمعاً يتقاسم فيه الجميع كل شيء، ونتناول الطعام ذاته معاً، ونرتدي الثياب نفسها، كالأخوة. وخلقت في مخيلتي ديناً جديداً، خميرة حياة جديدة.

لكنني لم أكن قد قرّرت بعد أن أطلع زوربا على مشروعي. كان يتزعج عندما يراني رائحاً غادياً بين العمال، أسأل، أتدخّل وأقف دائماً إلى جانب العمال.

وكان زوربا يزمّ شفتيه ويقول:

«يا معلّم، ألا تريد أن تذهب وتتمشى في الخارج؟ في الشمس والبحر».

في بادئ الأمر كنت أصرّ، ولم أكن أذهب. كنت أطرح أسئلة وأثرثر، وتعرّفت على تاريخ جميع العمال ـ عدد الأطفال الذين يجب أن يقيموا بأودهم، وعدد الأخوات اللاتي سيتزوّجن، والأقارب المسنين العجزة؛ همومهم وأمراضهم وقلقهم.

«لا تسبر عميقاً في تاريخهم الشخصي يا معلّم»، كان زوربا يقول عابساً، «فسيحنّ قلبك الرقيق لهم، وستحبّهم بطريقة ليست لصالح عملنا. فمهما فعلوا، فإنك ستجد الأعذار لهم. وبعد ذلك، فلتساعدنا السماء، سيهملون عملهم، ولن يكترثوا به. وكان الله بعونهم أيضاً، يجب أن تدرك ذلك. فعندما يكون صاحب العمل قاسياً، فإنهم يحترمونه، ويعملون. وعندما يكون لطيفاً ورقيقاً، فإنهم سيتركون كلّ شيء ليفعله هو، ويأخذون الأمور بروية. أتفهم ما أقوله؟».

وفي مساء آخر، بعد انتهاء العمل، ألقى بمعوله أمام الكوخ وصاح وقد عيل صبره:

«انظر يا معلّم ، توقّف عن التدخّل في أمور العمل. إنك تهدم بالسرعة التي أبني فيها ما هذه الأشياء التي كنت تحدثهم عنها اليوم؟ الاشتراكية وكلّ هذا الهراء! هل أنت واعظ أم رأسمالي؟ يجب أن تقرّر».

لكن كيف يمكنني أن أختار؟ كنت مستغرقاً في الرغبة الساذجة في توحيد هذين الشيئين، لإيجاد توليفة تجمع المتناقضات التي يتعذر تآخيها، والفوز بالحياة الدنيوية ومملكة السماء معاً. لقد بدأ ذلك منذ سنوات، منذ طفولتي المبكرة. فعندما كنت لا أزال في المدرسة، نظّمت مع عدد من أصدقائي «جمعية سرية للتآخي» ـ كان هذا هو الاسم الذي أطلقناه عليها ـ وفي غرفة نومي، أقسمنا بأن نكرس أنفسنا طوال حياتنا لمحاربة الظلم. وانسابت أنهار من الدموع على وجوهنا عندما أقسمنا وأيدينا مشبوكة على قلوبنا.

مُثُل عليا صبيانية! لكن الويل لكل من يضحك عندما يسمعها! فعندما أرى ماذا أصبح أعضاء جمعية التآخي ـ أطباء مشعوذين، محامين تافهين، بقالين، سياسيين مخادعين، صحفيين مأجورين ـ فإن هذا يمزّق نياط قلبي. يبدو أن مناخ هذا العالم قاس وفظ. وأثمن البذور فيه لا تنبت، أو أن النباتات الأخرى أو الأشواك تخنقها. يمكنني أن أرى بوضوح تام اليوم، فيما يتعلق بي، بأن العقل لم يخنقني، والحمد لله! فأنا لا أزال أبدو مستعداً لأنطلق في رحلات خيالية.

وفي أيام الأحد، كنا نعتني بنفسينا، كما لو كنا عريسين على وشك الزواج. فقد كنا نحلق ذقنينا، ونرتدي قمصاناً بيضاء نظيفة، وننطلق بعد الظهر لزيارة السيدة هورتينس، التي كانت تذبح لنا طيراً كلّ يوم أحد. وكنا نجلس نحن الثلاثة معاً، نأكل ونشرب؛ وكانت يدا زوربا الطويلتان تمتدان إلى صدر مضيفتنا الطيبة العامر والسخي وتلامسانه. وعندما كنا نعود في المساء إلى مكاننا على الشاطئ، كانت الحياة تبدو بسيطة ومفعمة بالنوايا الطيبة، القديمة، لكنها كانت مقبولة ولطيفة ومضيافة مثل السيدة هورتينس.

وفي أحد أيام الأحد تلك، وفيما كنا عائدين من وليمتنا الفاخرة، قرّرت أن أتكلم وأن أحدّث زوربا عن خططي. راح ينصت، فاغراً فمه ومرغماً نفسه على أن يتحلى بالصبر. إلا أنه كان بين الحين والآخر، يهز رأسه الكبير غاضباً. فقد جعلته كلماتي الأولى يفيق من غفلته، وجعلت الأبخرة تتصاعد من رأسه. وعندما انتهيت، اقتلع بعصبية شعرتين أو ثلاث شعرات من شاربه.

«أرجو ألا تؤاخذني على قولي هذا يا معلّم، لكني لا أظن أن عقلك قد نضج تماماً بعد. كم عمرك؟».

«خمس وثلاثون».

«إذن لم ينضج أبداً».

ثم انفجر ضاحكاً. وهنا شعرت بأنني جرحت في الصميم.

«ألا تؤمن بالإنسان؟» سألته.

«الآن، لا تغضب يا معلّم. لا، فأنا لا أؤمن بأيّ شيء. فلو كنت أؤمن بالإنسان، لآمنت بالله، ولآمنت بالشيطان أيضاً. وهذه مشكلة بحد ذاتها وعندها تختلط الأشياء جميعها يا معلّم، وتسبب لي تعقيدات كثيرة».

لاذ بالصمت، نزع قبعته، وحكّ رأسه باهتياج شديد وراح يشد شاربه ثانية، وكأنه ينوي أن يقتلعه من جذوره. كان يريد أن يقول شيئاً، لكنّه أمسك عن ذلك. نظر إليّ من طرف عينه. نظر إليّ مرة أخرى وقرّر أن يتكلم.

«إن الإنسان متوحش»، قال وهو يضرب الأحجار بعصاه، «إنه وحش كبير. وحضرتك لا تدرك هذا. يبدو أن كلّ شيء يسير بسهولة معك، لكنك تسألني! متوحش، أقول لك! فإذا كنت فظاً معه، فإنه يحترمك ويخشاك. وإذا كنت لطيفاً معه، فإنه سيفقأ عينيك. تحاشى الاختلاط كثيراً يا معلّم! لا تجعل الرجال جريئين جداً، لا تقل لهم إننا جميعنا متساوون، وأن لدينا الحقوق نفسها، وإلا لذهبوا فوراً وداسوا على حقوقك. سيسرقون خبزك ويتركونك تموت جوعاً. لا تختلط بهم كثيراً يا معلّم، لأني أتمنى لك الخير».

«لكن ألا تؤمن بأيّ شيء؟ »صحت غاضباً.

«لا، إني لا أؤمن بشيء. كم مرّة يجب أن أقول لك هذا؟ إني لا أؤمن بأيّ شيء، أو بأيّ شخص. لا أؤمن إلا بزوربا. لا لأن زوربا أفضل من الآخرين، لا، على الإطلاق، أبداً! بل هو فظ كالآخرين! لكنّي أؤمن بزوربا لأنه الكائن الوحيد الذي أستطيع أن أسيطر عليه، الكائن الوحيد الذي أعرفه. أما الآخرون فجميعهم أشباح. فأنا أرى بهاتين العينين، أسمع بهاتين الأذنين، أهضم بهذه الأحشاء. وكلّ ما تبقى فهم أشباح، أقول لك. وعندما أموت، سيموت كلّ شيء. وسيذهب العالم الزرباوي كله إلى القاع»

«يا لها من أنانية!» قلت ساخراً.

«ليس بيدي يا معلّم ! هكذا هو الأمر إني أتناول فاصولياء، وأتحدث عن الفاصولياء. وأنا زوربا، وأتكلم كما يتكلم زوربا».

لم أفه بكلمة. فقد أصابتني كلمات زوربا كلسعات السوط. لقد أثار إعجابي لأنه قوي، لأنه يحتقر البشر إلى هذه الدرجة، وفي الوقت نفسه يريد أن يعيش ويعمل معهم. إما أن أكون قد أصبحت زاهداً، أو أنني أصبحت أزيّن البشر بريش زائف كي أتمكن من تحملهم.

نظر زوربا إليّ. وبضوء النجوم تمكنت من رؤيته يبتسم ابتسامة عريضة من الأذن إلى الأذن.

«هل أسأت إليك يا معلّم؟» قال وتوقّف فجأة. كنا قد وصلنا إلى الكوخ. نظر زوربا إليّ برقة وبقلق.

لم أحر جواباً. عرفت أن عقلي يتفق مع زوربا، لكن قلبي كان يقاوم، ويرغب في أن يقفز ويهرب من هذا الفظ، ويسير في طريقه.

«لا أشعر بالنعاس هذا المساء يا زوربا»، قلت، «اذهب ونم».

كانت النجوم تتلألأ في السماء، والبحر يتنهد ويلعق القواقع، وأضاءت

حشرة سراج الليل تحت بطنها فانوسها الإيروتيكي الصغير. كان شعر الليل يسبح في الندى.

أطرقت برأسي، لبثت صامتاً، لا أفكّر بشيء. لقد أصبحتِ الآن جزءاً من الليل والبحر؛ وأصبح عقلي الآن مثل سراج الليل الذي أضاء فانوسه الصغير وجلس على الأرض المظلمة، الرطبة، ورحت أنتظر.

كانت النجوم تسير، والساعات تمر ـ وعندما نهضت، كنت قد حفرت في رأسي، دون أن أعرف ذلك، المهمة المضاعفة التي كان عليّ أن أنجزها على هذا الشاطئ: أن أهرب من بوذا، أخلّص نفسي بالكلمات من جميع همومي الغيبية وأخلّص عقلي من القلق العقيم؛

أن أتواصل بشكل مباشر مع الرجال، بدءاً من هذه اللحظة بالذات.

قلت لنفسي: «لعله لم يفت الآوان بعد».

[5]

«العمّ أناغنوستي يحيّيكما ويدعوكما إلى تناول الطعام في بيته، ويقول إن الطوشي سيأتي إلى القرية اليوم ليخصي الخنازير». إنها مناسبة طيبة، وستقوم كيريا ماروليا، زوجة المختار بطهي تلك «الأعضاء اللذيذة خصيصاً لكما وسيكون بإمكانكما أن تتمنيا لحفيدهما ميناس عيد ميلاد سعيداً اليوم».

إن زيارة بيت فلاح كريتي مصدر سرور عظيم. فكلّ شيء يحيط بك يشي بوجود نظام أبوي: الموقد، مصباح النفط، الجرار الفخارية المصفوفة على امتداد الحائط، الكراسي القليلة، المنضدة. وعندما تدخل، ترى إلى اليسار، في فتحة في الحائط، إبريقاً من الماء العذب. وتتدلى من الأعمدة خيوط من السفرجل والرمان والنباتات العطرية: الميرميّة والنعناع والفلفل الأحمروإكليل الجبل والزعتر

وفي أحد أركان الغرفة، ستجد سلماً أو بضع درجات خشبية تفضي إلى مصطبة مرتفعة، عليها فراش، وتوجد فوقها أيقونات مقدسة ومصابيح ومع أن البيت يبدو خاوياً، فإنه يضم كلّ ما هو ضروري، مع أن الضروريات الحقيقية قليلة حقاً بالنسبة للبشر

كان يوماً رائعاً، وقد جعلته شمس الخريف لطيفاً ومعتدلاً جداً. جلسنا أمام البيت في حديقة الفلاح الصغيرة، تحت شجرة زيتون مليئة بالثمار. وبين الأوراق الفضية، كنت تستطيع أن ترى البحر وهو يلمع ويشع من بعيد، رائقاً وهادئاً تماماً. وكانت السحب تحجب الشمس فتجعل الأرض تبدو حزينة حيناً، وبهيجة حيناً آخر، وكأنها كانت تتنفس.

وفي نهاية الحديقة الصغيرة، وفي حظيرة صغيرة، كان الخنزير المخصي يئنّ من الألم على نحو يصمّ آذاننا، ووصلت إلى خياشيمنا روائح الطعام المنبعثة من القِدْر التي كانت تطهوه كيريا ماروليا فوق الجمر.

وانحصرت أحاديثنا في المواضيع الأبدية: محاصيل الذرة والكرمة والمطر. وكنا نضطر للتحدث بصوت مرتفع لأن المختار يعاني من ثقل في السمع. إن حياة سكان كريت بسيطة وهادئة، مثل شجرة تنتصب في واد مقفر. وكان قد ولد ونشأ وكبر وتزوّج، وأصبح لديه أطفال، ومكنّته الظروف من رؤية أحفاده الذين مات عدد منهم، لكن عدداً آخر كان لا يزال حياً يرزق: وهكذا ضمن استمرار نسل العائلة.

يتذكر هذا الكريتي العجوز أيام زمان، أيام الحكم التركي، وأقوال أبيه، والمعجزات التي حدثت في تلك الأيام عندما كانت النساء يخفن الله ويملؤهن الإيمان.

«انظرا إليّ، أنا العمّ أناغنوستي العجوز الذي يكلمكما! لقد كانت ولادتي معجزة. نعم، أقسم لكما، كانت معجزة! وإذا أخبرتكما بما حدث، فإنكما ستندهشان، وستقولان فليرحمنا الله، وتتوجهان إلى دير مريم العذراء وتوقدان شمعة لها».

رسم شارة الصليب، وبصوت رقيق وبطريقة لطيفة، أخذ يروي حكايته.

«في تلك الأيام، كانت تعيش في قريتنا امرأة تركية غنية ـ لعن الله روحها! وذات يوم جميل حملت هذا المرأة البائسة، وحان موعد وضعها. مددوها على السرير ولم تتوقف عن الصراخ والعويل مثل عجل طوال ثلاثة أيام ولياليها». لكن الطفل لم يخرج. فقدمت لها إحدى صديقاتها ـ لعن الله روحها أيضاً ـ بعض النصائح، «زافر هانوم، يجب أن تنادي الأم مريم لكي تساعدك». هكذا يسمي الأتراك العذراء أمدّها الله بقوته! «لماذا؟» صاحت زافر الكلبة. «أناديها؟ إني سأموت قريباً» لكن آلامها اشتدت، ومرّ يوم وليلة أخريان، وهي لا تزال

تصيح، والطفل لا يخرج. ما العمل؟ لم تعد تحتمل أكثر من ذلك. لذلك بدأت تصرخ «أيتها الأم ماري! الأم ماري»، لكن بدون جدوى، فلم تتوقف آلامها ولم يولد الطفل. فقالت لها صديقتها: «لعلها لا تفهم اللغة التركية» لذلك أخذت الكلبة تصيح: «يا عذراء الروم! يا عذراء الروم!» اللعنة على الروم! لكن آلامها ازدادت، فقالت لها صديقتها: «إنك لا تنادينها كما يجب، لذلك فلن تأتي لنجدتك». وعندما رأت هذه الكلبة الوثنية أنها في خطر، راحت تصرخ حتى كادت رئتاها تنفجران: «يا مريم العذراء» وعلى الفور انزلق الطفل من رحمها كما ينزلق سمك الأنكلس من الطين.

«كان ذلك في يوم أحد، وفي يوم الأحد التالي جاءت أمي آلام المخاض». وألّم بها وجع شديد، تلك المسكينة البائسة. كانت تشعر بألم حقيقي، أمّي المسكينة، وراحت تصرخ: «يا مريم العذراء! أيتها القديسة مريم!» لكنّها لم تلد. جلس أبي على الأرض وسط الفناء، ولم يكن يستطيع أن يأكل أو يشرب بسبب آلامها لم يكن مسروراً أبداً من القديسة مريم. فكما ترى، في المرة الأخيرة، عندما نادتها تلك الكلبة زافر، كسرت العذراء رقبتها وأتت وجعلتها تلد. أما الآن. وعندما حلّ اليوم الرابع، لم يعد أبي يتحمل أكثر من ذلك. وبدون تردّد أخذ معوله وتوجه إلى دير العذراء الشهيدة. فلتغثنا. وصل إلى هناك، ودخل إلى الكنيسة حتى دون أن يرسم شارة الصليب، وكان يستشيط غضباً، أغلق الباب وأوصده بالرتاج، وتوجه مباشرة إلى الأيقونة، وصاح «انظري، أيتها القديسة مريم. هذه زوجتي، كرينيو - إنك تعرفينها، أليس كذلك. لا بد أنك تعرفينها، إنها تجلب لك الزيت كلّ يوم سبت، وتوقد مصابيحك هنا - إن زوجتي تتألم منذ ثلاثة أيام وليال ولم تكف عن مناداتك. ألا تسمعينها؟ لا بد أن تكوني صماء إن كنت لا تسمعينها! طبعاً لو كانت الكلبة زافر إحدى تلك الفاسقات التركيات، لكسرت رقبتك وهرعت لنجدتها. لكن لأن زوجتي، كرينيو، مسيحية، فقد أصبحتِ صماء ولم تعود تسمعينها! لو لم تكوني القديسة مريم، للقنتك درساً بمقبض هذا المعول!».

«وبدون مزيد من الجلبة، ودون أن يحني رأسه لها، أدار لها ظهره، وكان على وشك أن يغادر. لكن الله عظيم، عندها فقط صدر صرير شديد من الأيقونة وكأنها تتمزق. دعني أخبرك إذا كنت لا تعرف ذلك، فالأيقونات تصدر ضجيجاً كهذا عندما تُصنع معجزات. وفهم أبي على الفور». استدار وجثا على ركبتيه ورسم شارة الصليب وقال: «لقد ارتكبت خطيئة بحقك، أيتها القديسة مريم. لقد قلت أشياء كثيرة لم يكن عليّ أن أقولها، لننس الأمر».

«ولم يكد يصل إلى القرية حتى سمع البشرى السارة الجيدة».

«أطال الله عمره يا قسطندي. لقد أنجبت زوجتك صبياً! وكنت أنا، أناغنوستي العجوز الذي ترونه أمامكم. لكني ولدت بأذن ضعيفة. كما تريان فقد كفر أبي. لقد قال إن العذراء صماء لا تسمع».

«حسناً، هكذا كان الأمر. لا بد أن العذراء قالت لنفسها. حسناً، انتظر فإني سأجعل ابنك أصم، كي تتعلم كيف تكفر».

ورسم العمّ أناغنوستي شارة الصليب.

«لكن هذا لا شيء، الشكر لله! فقد كان بإمكانها أن تحولني إلى فتى أعمى أو أبله أو أحدب، أو حتى ـ فليحفظنا الله القدير! كان بإمكانها أن تخلقني فتاة. هذا لا شيء على الإطلاق، إني أسجد أمام قدسيتها!».

ملأ الكؤوس.

«فلتساعدنا!» قال ورفع كأسه.

«بصحتك يا عمّ أناغنوستي. أتمنى أن تعيش حتى تبلغ المائة سنة وترى أحفاد أحفادك!».

جرع العجوز نبيذه جرعة واحدة ومسح شاربه.

فقال: «لا، يا بني. إن هذا كثير. فقد رأيت أحفادي، وهذا يكفيني. يجب على المرء ألا يطلب الكثير. لقد أزفت ساعتي. لقد كبرت في السن يا

صدبقيّ، وأصبحت ضعيفاً، لا أستطيع ـ أن أفعل ما أريد ـ ولم أعد أستطيع أن أبذر مزيداً من الأطفال. لذلك ماذا أفعل بالحياة؟».

ملأ الكؤوس ثانية، وأخرج من حزامه قليلاً من الجوز والتين المجفف الملفوف بأوراق الغار وقدمها لنا

وقال «لقد أعطيت كلّ شيء أملكه لأطفالي. لقد أصبحنا فقراء، نعم فقراء، لكنني لا أتذمر إن الله يملك كلّ ما يلزم»

«ربما كان الله يملك كلّ ما يلزم يا عمّ أناغنوستي»، صاح زوربا في أذن الرجل العجوز «ربما كان الله يملك، لكن ليس نحن. إن هذا البخيل العجوز لا يعطينا شيئاً!»

لكن القرويّ العجوز قطّب جبينه، وتجهم وجهه.

«لا تقل ذلك» قال موبخاً إياه بحدة، «لا تلمه! فالمسكين يعتمد علينا أيضاً، كما تعرف!».

في هذه اللحظة دخلت الجدة أناغنوستي صامتة ومستسلمة وهي تحمل الطعام الشهي المشهور في صحن من الفخار، ودورقاً كبيراً مليئاً بالنبيذ. وضعتهما على المائدة وظلت واقفة، ويداها مشبوكتان، مطرقة رأسها إلى الأرض.

شعرت بشيء من النفور عندما تذوقت هذه المقبلات، لكنني لم أكن أمتلك الشجاعة لأن أرفض. كان زوربا يراقبني من طرف عينه مستمتعاً بحيرتي

«إنه ألذّ طبق يمكن للمرء أن يشتهيه، يا معلم»، قال جازماً، «لا تقرف بسرعة»

أطلق أناغنوستي العجوز ضحكة صغيرة.

«هذه هي الحقيقة، بالفعل إنها كذلك، جرّبها وانظر بنفسك. إنها تذوب في الفم! عندما زارنا الأمير جورج ـ باركه الله ـ في ديرنا في الجبال هناك، أعدّ له

الرهبان وليمة على شرفه تليق بالملوك، وقدموا اللحم للجميع ما عدا الأمير الذي قدموا له صحناً من الحساء. أخذ الأمير ملعقته وبدأ يحرّك حساءه. ما هذا؟ فاصولياء؟ سأل بدهشة. فاصولياء جافة بيضاء؟ جربها، يا صاحب السمو، قال رئيس الدير العجوز. جربها وستتحدّث عنها بعد ذلك، أخذ الأمير ملعقة، معلقتين، ثلاث ملاعق، وأفرغ صحنه ولعق شفتيه. ما هذا الطبق اللذيذ؟ قال، يا لها من فاصولياء لذيذة! إنها لذيذة كالأدمغة! إنها ليست فاصولياء يا صاحب السمو: أجاب رئيس الدير ضاحكاً، إنها ليست فاصولياء! لقد خصينا جميع ديوك الحيّ!».

وانفجر ضاحكاً، وغمد العجوز شوكته في لقمة أخرى.

قال: «إنه طبق يليق بالأمراء. افتح فمك».

فتحت فمي وتناولت اللقمة.

ملأ الكؤوس ثانية وشربنا نخب حفيده. تلألأت عينا أناغنوستي العجوز.

سألته: «ماذا تريد أن يصبح حفيدك يا عمّ أناغنوستي؟ هيا قل لنا لكي نقدم لك تمنياتنا».

«ماذا يمكنني أن أتمنّى يا بني؟ حسناً، أن يسلك الطريق القويم؛ أن يصبح رجلاً طيباً، ربّ أسرة؛ وأن يتزوّج أيضاً، وأن ينجب أطفالاً ويصبح له أحفاد. وأتمنى أن يشبهني أحد أطفاله، لكي يقول العجائز: انظروا، ألا يشبه أناغنوستي ـ تغمد الله روحه الطاهرة برحمته ـ لقد كان رجلاً طيباً».

«ماروليا!» نادى زوجته دون أن ينظر إليها، «ماروليا، أحضري لنا مزيداً من النبيذ، املئي الدورق ثانية!».

في تلك اللحظة دفع الخنزير باب الحظيرة بقوة وفتحه وانطلق إلى الحديقة وهو يشخر.

«إنه يتألم، الحيوان المسكين» قال زوربا مشفقاً.

«طبعاً إنه يتألم»، قال الكريتي العجوز ضاحكاً، «لنفترض أنهم فعلوا ذلك بك، ألن تتألم؟».

تململ زوربا في كرسيه.

«فلْيقطع لسانك أيها العجوز الأصمّ»، دمدم زوربا مذعوراً.

راح الخنزير يجري أمامنا وينظر إلينا بشراسة.

«أظن أنه يعرف أننا نتناولها!» قال العمّ أناغنوستي، الذي كان منتشياً وثملاً من قطرة النبيذ التي احتساها.

لكننا واصلنا تناول خصيتي الخنزير مثل أكلة لحوم البشر، بهدوء ورضاء، ونحتسي النبيذ الأحمر، ونحدّق بين أغصان شجرة الزيتون الفضية إلى البحر، الذي جعلته شمس الغروب وردي اللون.

عندما بدأ الظلام يهبط، غادرنا بيت العجوز. وأراد زوربا، الذي أصبح الآن منتشياً أيضاً، أن يتكلم.

«ماذا كنت تقول أول البارحة، يا معلّم؟ كنت تقول إنك تريد أن تفتح عيون الناس. حسناً، يكفيك أن تذهب وتفتح عينيّ العمّ العجوز أناغنوستي! أرأيت كيف تتصرف زوجته أمامه، تنتظر أوامره، مثل كلب يستجدي. اذهب الآن وعلّمهم أن للنساء حقوقاً متساوية مع الرجال، وأنه من الفظاظة أن يتناول المرء قطعة الخنزير فيما لا يزال الخنزير ذبيحاً ويئن أمامك، وأنه من الجنون أن تشكر الله لأنه يملك كلّ شيء وأنت تتضور جوعاً! ماذا يمكن أن يفهم ذلك الشيطان المسكين أناغنوستي من كلّ هذا الهراء الذي تقوله؟ إنك لن تفعل شيئاً سوى أن تزعجه. وماذا ستستفيد الأمّ أناغنوستي العجوز من كلّ ذلك؟ إنها ستقع في مصيبة: ستبدأ الخلافات العائلية، وسترغب الدجاجة في أن تصبح ديكاً، وسينتف الزوج والزوجة ريش أحدهما الآخر دع الناس كما هم يا معلّم؛

لا تفتح عيونهم. ولنفترض أنك فعلت ذلك، فماذا سيرون؟ تعاستهم! أبق عيونهم مغمضة، يا معلّم، ودعهم يحلمون!».

لبث صامتاً برهة وأخذ يحكّ رأسه. كان يفكر.

ثم قال أخيراً: «وإلا وإلا .».

«وإلا ماذا؟ هيا قلها!».

«وإلا، عندما يفتحون عيونهم، يمكنك أن تريهم عالماً أفضل من الظلام الذي يرزحون فيه الآن أليس كذلك؟».

لا أعرف. كنت أعرف تماماً ماذا سيتهدم. لا أعرف ماذا يمكن أن يُبنى فوق هذا الخراب. لا أحد يمكنه أن يعرف بدقة، قلت لنفسي. إن العالم القديم راسخ، ملموس، نعيش فيه ونتصارع معه كلّ لحظة ـ إنه موجود. أما عالم المستقبل، فلم يولد بعد، إنه مراوغ، سائل، مصنوع من الضوء الذي تنسج منه الأحلام. إنه سحابة تقاوم الرياح العنيفة ـ الحبّ، الكراهية، الخيال، الحظّ، الله. لا يمكن لأعظم نبي على وجه الأرض أن يمنح البشر أكثر من شعار، وكلما كان الشعار مبهماً وغامضاً، كان النبي أعظم.

رمقني زوربا وعلى وجهه ابتسامة هازئة أغاظتني.

«يمكنني أن أريهم عالماً أفضل!» أجبت.

«هل يمكنك ذلك؟ حسناً، دعنا نسمع عن ذلك!».

«لا أستطيع أن أشرح لك، فلن تفهم ما سأقوله».

«هذا يعني أنه لا يوجد لديك شيء تظهره لهم!» ردّ زوربا ثانية، وهو يهز رأسه، «لا تحسبني ساذجاً يا معلّم. فإذا قال لك أحد إني بليد، فهم مخطئون». قد لا أكون قد حصلت على تعليم أكثر مما حصل عليه العمّ العجوز أناغنوستي، لكني لست على هذه الدرجة من الغباء! حسناً، إذا لم يكن بوسعي أن أفهم، فماذا تتوقّع من ذلك المسكين وزوجته الحمقاء؟ وماذا عن

جميع أناغنوستي الآخرين في العالم؟ هل لديك مزيد من الظلام لتريهم إياه؟ وهم يتدبرون أمورهم جيداً حتى الآن؛ لديهم أطفال، بل وحتى أحفاد. يجعلهم الله عميان وطرشان، وهم يقولون: «شكراً لله! إنهم مرتاحون في تعاستهم. لذلك اتركهم هكذا ولا تقل لهم شيئاً».

لذت بالصمت. كنّا نمر بجانب حديقة الأرملة. توقّف زوربا برهة وتنهّد، لكنه لم يقل شيئاً كان قد هطل المطر، وملأت الهواء رائحة التراب المنعشة. وبدأت تظهر النجوم الأولى. كان القمر الجديد مشعاً، ظلاً رقيقاً من اللون الأصفر المائل إلى اللون الأخضر كانت السماء تفيض حلاوة.

لم يذهب ذلك الرجل إلى المدرسة، قلت لنفسي، ولم يفسد عقله. فقد مرّ في تجارب مختلفة؛ وهو منفتح العقل وأصبح قلبه أكثر اتساعاً، دون أن يخسر ذرة واحدة من جرأته وصراحته البدائية. فجميع المشاكل التي نجدها معقّدة أو متعذرة على الحل يقطعها وكأنه يفعل ذلك بالسيف، مثل ألكساندر الكبير وهو يفك العقدة المستعصية. من الصعب أن يخطئ هدفه، لأن قدميه مثبتتان بقوة فوق الأرض بوزن جسمه كله. إن الهمجيين الأفريقيين يعبدون الثعبان لأن جسمه كله يلامس الأرض، ولذلك لا بد أنه يعرف جميع أسرار الأرض. يعرفها من بطنه، وذيله، ورأسه. إنه دائماً على احتكاك بها، أو أنه يمتزج بالأمّ. الشيء ذاته ينسحب على زوربا وما نحن المثقفين سوى طيور ذات عقول فارغة تحلق في الهواء.

بدأ عدد النجوم يتزايد في السماء، وكانت جميعها عنيفة، فظة، عديمة الرحمة وتحتقر الإنسان.

توقفنا عن الكلام. بدأنا نحدق برعب في السماء. فقد كانت تظهر من الشرق نجوم جديدة متلألئة في كل ثانية، وتنشر ذلك اللهيب.

وصلنا إلى كوخنا لم تكن لديّ أدنى رغبة في تناول الطعام، وجلست على

صخرة بالقرب من البحر. أشعل زوربا النار، وأكل، وكان على وشك أن يأتي ويجلس بقربي، لكنه غيّر رأيه ومدّ فراشه ونام.

كان البحر هادئاً تماماً. وتحت وابل الشهب كانت الأرض ساكنة وصامتة أيضاً. لم يكن هناك كلب ينبح، ولا طير يصيح. ساد صمت شامل شبحي خطير، مكوّن من آلاف النداءات البعيدة أو من هذه الأعماق في داخلنا إلى حد أننا لم نعد نستطيع أن نسمعها. لا يمكنني إلا أن أميّز نبضات دمي في صدغيّ وفي عروق رقبتي.

أغنية النمر! قلت لنفسي، وأخذتني رعدة.

في الهِند، عندما يهبط الليل، تنشد أغنية رتيبة حزينة بصوت منخفض، أغنية برّية بطيئة، مثل التثاؤب البعيد لحيوان مفترس ـ أغنية النمر يرتعد قلب الرجل ويبحث عن منفذ وهو ينتظر بتوقع متوتر.

فيما كنت أفكّر بهذه الأغنية المخيفة، بدأ الفراغ في صدري يمتلئ رويداً رويداً. دبت الحياة في أذني، وأصبح الصمت صيحة. كان كما لو أن الروح نفسها تتألف من هذه الأغنية وهي تهرب من الجسم لتستمع.

انحنيت، ملأت راحتيّ بماء البحر، بلّلت حاجبي وصدغي. انتعشت. وفي أعماق كياني، كانت تتردّد صيحات، مهدّدة، مشوشة، برمة ـ كان النمر في داخلي يزأر.

وفجأة سمعت الصوت بوضوح. كان صوت بوذا.

بدأت أغذ الخطى على طول حافة الماء، وكأني كنت أرغب في الهرب. فمنذ مدّة، عندما أكون وحدي في الليل والصمت مطبق، كنت أسمع صوته ـ في البدء حزيناً ومتلهفاً، مثل لحن حزين، ثم يصبح غاضباً، موبخاً وآمراً. كان يركل داخل صدري مثل طفل عندما يحين موعد مغادرته رحم أمه.

لا بد أن الليل قد انتصف. وتجمّعت الغيوم السوداء في السماء، هطلت

قطرات كبيرة من المطر فوق يديّ. لكني لم أكترث لذلك. لقد غصت إلى أجواء تحترق؛ يمكنني أن أشعر بلهب في صدغيّ.

لقد آن الأوان، قلت لنفسي، وسرت في جسدي قشعريرة. إن العجلة البوذية تجرفني بعيداً، وقد حان الأوان كي أحرر نفسي من هذا العبء الخارق.

عدت بسرعة شديدة إلى الكوخ وأشعلت المصباح. عندما سقط الضوء على زوربا، ارتعش جفناه، وفتح عينيه وراح يراقبني منحنياً فوق الورقة وأكتب. همهم شيئاً لم أفهمه، فاستدار بحدة نحو الحائط وغطّ في النوم مرة أخرى.

كتبت بسرعة. كنت في عجلة من أمري. كان بوذا جاهزاً في داخلي وكان بوسعي أن أراه ينبعث من دماغي مثل شريط أزرق مغطّى برموز. كان ينطلق بسرعة، وحاولت مستميتاً أن أجاريه. كتبت؛ أصبح كلّ شيء بسيطاً، بسيطاً جداً. لم أكن أكتب، بل كنت أنسخ. عالم كامل بدأ يتضح أمامي، مكوّناً من العطف والنكران والهواء: قصور بوذا، النساء في الحرملك، الحافلة الذهبية، اللقاءات الثلاثة المقدّرة ـ مع الرجل العجوز، مع الرجل المريض، مع الموت. الهرب، حياة الزهد، النجاة، إعلان الخلاص. كانت الأرض تغطيها أغصان صفراء؛ شحاذون وملوك يرتدون عباءات زعفرانية اللون، الأحجار، الأشجار والجسد أصبحت أكثر خفة. تحولت الأرواح إلى بخار، وتحول البخار إلى روح، وأصبحت الروح لا شيء. بدأت أصابعي تؤلمني، لكني لم أتوقف، لم أستطع أن أتوقّف. كانت الرؤية تمرّ بسرعة شديدة وتتلاشى؛ عليّ أن أجاريها.

في الصباح وجدني زوربا نائماً، ورأسي على المخطوطة.

[6]

كانت الشمس قد أشرقت عندما استيقظت، وأحسست بخدر يسري في مفاصل يدي اليمنى بسبب إمساكي القلم لمدة طويلة.

لم أتمكن من إغلاق أصابعي. فقد هبّت عليّ رياح البوذية وجعلتني متعباً وخاوياً.

انحنيت لألتقط الصفحات المبعثرة على الأرض. لم تكن لديّ القوة أو الرغبة في أن ألقي نظرة إليها. وكأن ذلك الدفق المفاجئ من الإلهام كان مجرد حلم لم أعد أرغب في أن أراه حبيساً في كلمات أصبح ذليلاً لها.

كان الرذاذ يهمي بصمت. وكان زوربا قد أشعل الموقد قبل أن يغادر، فأمضيت الصباح كله وأنا متكور أمام النار، ويداي فوقها، لا أتناول شيئاً، هامداً لا آتي بحركة، لا أفعل شيئاً سوى أن أستمع إلى صوت قطرات أول مطرة تهطل بلطف في هذا الفصل.

لم أفكّر بشيء. جلست متكوراً مثل كرة، مثل خلد قابع فوق التراب الرطب، عقلي مسترخ ومرتاح. وكنت أسمع أصوات حركات وقضم وهمهمة خفيفة تنبعث من الأرض، وصوت المطر الهاطل، والبذور وهي تتفتح. اعتراني شعور بأن السماء والأرض تتزاوجان كما كانتا تتزاوجان في العهود القديمة كرجل وامرأة وتنجبان أطفالاً وكنت أسمع البحر الممتد على طول الشاطئ، يهدر مثل وحش برّي ويلعق بلسانه ليروي عطشه.

كنت سعيداً، كنت أعرف ذلك. لكننا عندما نشعر بالسعادة، نجد صعوبة في

إدراكها. فما إن تنقضي السعادة وننظر إليها إلى الوراء، حتى ندرك فجأة ـ أحياناً بدهشة ـ كم كنا سعيدين لكني كنت سعيداً على هذا الساحل الكريتي، وكنت أعرف أنني في غاية السعادة.

ذلك البحر العطش الهائل، الأزرق الداكن الممتد حتى شواطئ أفريقيا. ريح الليفاس الجنوبية الحارة تهبّ من الرمال البعيدة اللاهبة. وفي الصباح، تنبعث من البحر رائحة تشبه رائح البطيخ الأحمر. وعند الظهيرة يغشاه سديم، وتصبح موجاته الخفيفة تشبه نهوداً لم تكتمل استدارتها بعد، وفي المساء يتنهّد ويصبح لونه بلون الورد، بلون الباذنجان، بلون النبيذ، أزرق داكناً.

عند العصر، رحت ألهو بأن أملأ يدي بالرمل الناعم بلون الضوء وأدعه يتسرب من بين أصابعي. كان حاراً وناعماً. اليد ـ ساعة رملية ـ تتسرب حياتنا من خلالها وتصبح هباء منثوراً. رحت أنظر إلى البحر، وعندما سمعت صوت زوربا، أحسست بأنني مفعم بالسعادة.

تذكّرت كيف أنني كنت ذات يوم برفقة ابنة أختي ألكا عندما كانت فتاة صغيرة في الرابعة من عمرها، وكنا ننظر في محل للألعاب ـ كان ذلك في ليلة رأس السنة الجديدة ـ عندما التفتت إليّ وقالت هذه الملاحظة غير الاعتيادية: «يا عمي الغول، إني سعيدة جداً بأن تنبت لي قرون!» فوجئت. كيف أن الحياة معجزة، وكيف تلتقي أرواحنا جميعنا لتصبح روحاً واحدة عندما تغوص في الأعماق! لأنني تذكّرت على الفور تمثال بوذا المصنوع من خشب الأبنوس الذي رأيته في أحد المتاحف في بلد بعيد. فقد حرّر بوذا نفسه واغتسل ببهجة عارمة بعد سنوات سبع من المعاناة. كانت العروق تبرز من جانبي جبهته، وبدت مثل قرنين قويين، منحنيين مثل نابضين فولاذيين.

توقّف المطر الخفيف عن الهطول في أواخر العصر، وصحت السماء وأصبحت صافية. أحسست بالجوع، وغمرتني البهجة لأني كنت جائعاً، لأن زوربا سيأتي الآن ويوقد النار، ويبدأ طقوس الطهي اليومية.

«ثمة شيء آخر لا يدعك وشأنك أبداً»، كان زوربا يقول غالباً، وهو يضع القدر على النار، «إنها ليست المرأة فقط، لعنها الله ـ إنه مسألة لا تنتهي ـ فهناك مسألة تناول الطعام أيضاً».

على هذا الشاطئ، شعرت لأول مرة كم هو ممتع أن تتناول وجبة طعام. ففي كل مساء، كان زوربا يوقد النار بين قطعتي حجر ويبدأ يطهو الطعام. وكنا نأكل ونشرب، ويزداد حديثنا حيوية وحماساً. وأدركت أخيراً أن تناول الطعام وظيفة روحية، وأن اللحم والخبز والنبيذ ما هي إلا مواد أولية يُصنع منها العقل.

كان زوربا بعد عمله الشاقّ طوال النهار، وقبل أن يأكل ويشرب، يصبح بليداً، فاتر الهمة، ويبدى ملاحظات مشاكسة برمة، وكان عليّ أن أسحب منه الكلمات بصعوبة. وتصبح حركاته متوانية وفظة. لكنه ما إن يذكي محركه، كما كان يقول، حتى تعود آلة الطحن كلها، المرهقة من جسمه، فتدب فيها الحياة مرة أخرى، وتسرع ويبدأ العمل مرة أخرى. فتشع عيناه، ويطفح بالذكريات، وتنبت أجنحة على قدميه ويبدأ يرقص.

«قل لي ماذا تفعل بالطعام الذي تتناوله أقل لك من أنت. فالبعض يحوّلون طعامهم إلى دهن وروث، والبعض الآخر يحوّلونه إلى عمل وخفة روح، ويقال لي إن آخرين يحوّلونه إلى الله. لذلك لا بد أن هناك ثلاثة أنواع من البشر وأنا لست واحداً من أسوأ هذه الأنواع يا معلّم، بل ولست واحداً من أفضلها. إني في مكان ما في الوسط، فما أتناوله أحوّله إلى عمل وخفة روح. وهذا ليس بالأمر السيئ!».

نظر إليّ بخبث وراح يضحك ثم قال:

«أما أنت يا معلّم، فإني أظن أنك تبذل ما بوسعك كي تحوّل ما تأكله إلى الله. لكنك لا تستطيع أن تفعل ذلك، وهذا ما يعذّبك. إن ما يحدث لك كان قد حدث للغراب».

«وماذا حدث للغراب يا زوربا؟».

«حسناً، كان يمشي بوقار واحترام، كما يمشي الغراب عادة. لكن وقر في نفسه ذات يوم أن يحاول ويتهادى في مشيته كما تمشي الحمامة. ومنذ ذلك الحين، نسي المسكين مشيته. واختلط عليه الأمر، ألا ترى ذلك؟ وراح يعرج في مشيته».

رفعت رأسي. سمعت خطوات زوربا وهو يصعد خارجاً من النفق. وسرعان ما رأيته يقترب بوجهه المتجهم، وذراعاه تتأرجحان على جانبيه.

«مساء الخير يا معلّم»، قال بنبرة خالية من الحياة.

«مرحباً يا زوربا. كيف حال العمل اليوم؟».

لم يجب.

قال: «سأوقد النار، وسأعدّ وجبة الطعام».

حمل قليلاً من الحطب بين يديه. خرج ورتّب حزم الحطب بطريقة فنية بين قطعتي الحجر وأشعلها ثم وضع القدر الفخاري على النار، ودلق فيه قليلاً من الماء، ثم ألقى فيه قليلاً من البصل والبندورة والرزّ، وبدأ يطهو. وفي هذه الأثناء، وضعت قطعة من القماش فوق منضدة مستديرة واطئة، وقطّعت شرائح سميكة من خبز الحنطة، وأفرغت قليلاً من النبيذ من الدمجانة في قرعة مزّينة بأشكال ورسوم، كان العمّ أناغنوستي قد أعطانا إياها عندما وصلنا.

جثا زوربا أمام القِدر، وراح يحدّق في النار صامتاً

«هل لديك أطفال يا زوربا؟» سألته فجأة.

نظر حواليه.

«لماذا تسألني هذا السؤال؟ لديّ ابنة».

«متزوجة؟».

ضحك زوربا.

«لماذا تضحك يا زوربا؟».

فقال: «يا له من سؤال! طبعاً إنها متزوّجة. إنها ليست حمقاء. كنت أعمل في منجم نحاس بالقرب من برافيشتا في كالسدايس. وذات يوم، تلقيت رسالة من أخي ياني. أوه، نعم! لقد نسيت أن أخبرك أنه يوجد لديّ أخ. إنه رجل عاقل، يمكث في البيت لا يغادره، يُقرِض المال، ويرتاد الكنيسة. إنه منافق، وأحد أعمدة المجتمع الحقيقيين. إنه بقال في سالونيكا. وكتب لي أخي العزيز ألكسيس، لقد ضلّت ابنتك فروسو الطريق. لقد مرّغت سمعتنا بالتراب. فهي تحبّ شاباً وأنجبت منه طفلاً. لقد تلوثت سمعتنا. سأذهب إلى القرية لأذبحها».

«وماذا فعلت يا زوربا؟».

هزّ زوربا كتفيه.

«تباً لهؤلاء النساء قلت ومزّقت الرسالة»، وأخذ يحرّك الرزّ، ثم وضع قليلاً من الملح، وابتسم ابتسامة عريضة.

«لكن انتظر لترى الجانب المضحك من هذه القصة. فقد تلقيت بعد شهرين أو ثلاثة أشهر رسالة ثانية من أخي الغبي، أرجو لك الصحة والسعادة يا أخي العزيز، كتب لي هذا الأحمق. لقد أصبح شرفنا في مأمن، وأصبح باستطاعتك أن تمشي مرفوع الرأس الآن ثانية، فقد عقد الرجل المذكور قرانه على فروسو!».

نظر زوربا إليّ، ومن وهج سيكارته رأيت عينيه المتلألئتين. هزّ كتفيه ثانية وقال بازدراء شديد: «تباً لهؤلاء الرجال!».

وبعد لحظة صمت تابع كلامه:

«ماذا يمكنك أن تتوقّع من المرأة؟ فهي ستهرع إلى أول رجل يأتيها وينجب منها أطفالاً وماذا يمكنك أن تتوقّع من الرجل؟ إنه يقع في الفخ. تذكّر كلماتي يا معلّم!».

رفع القِدر من النار ورحنا نتناول وجبة طعامنا المسائية.

غرق زوربا في التفكير بعمق مرة أخرى

كان ثمة شيء يشغل باله. نظر إليّ وفتح فمه وأغلقه ثانية. ومن خلال نور مصباح الكيروسين، رأيت النظرة القلقة والمتلهّفة في عينيه.

لم أتحمّل رؤيته هكذا.

قلت: «زوربا، ثمة شيء تريد أن تخبرني إياه. حسناً، أخبرني هيا، الآن، بقّ البحصة؛ ستشعر بالتحسّن بعد ذلك»

لبث زوربا صامتاً. التقط حصاة صغيرة ورماها بقوة من النافذة

«اترك الحصى في شأنه! هيا تكلّم!»

مطّ زوربا رقبته المليئة بالتجاعيد

«هل تثق بي يا معلّم ؟»سألني بقلق، وهو ينظر في عينيّ.

«نعم يا زوربا»، أجبت، «فمهما فعلت، لا يمكنك أن تغلط. حتى لو أردت ذلك، فإنك لا تستطيع. لنقل إنك تشبه الأسد، أو بالأحرى الذئب. فهذه الأنواع من الحيوانات لا تتصرف كالنعاج أو الحمير مطلقاً؛ إنها صادقة دائماً في طبيعتها أما أنت، فإنك زوربا حتى النخاع ».

هزّ زوربا رأسه وقال:

«!كنني لم أعد أرى بوضوح إلى أين نمضي!»

«أنا أعرف، لا تقلق. امض إلى الأمام بدون خوف!»

«أعد ما قلته يا معلّم، لتمنحني الشجاعة!» صاح

«امض!»

برقت عينا زوربا.

قال: «الآن أستطيع أن أقول لك. خلال الأيام القليلة الماضية كنت أفكّر بخطة كبيرة، فكرة مجنونة. هل نمضي بها؟»

«وهل أنت بحاجة لتسألني؟ لقد جئنا إلى هنا لهذا السبب: لننفذ الأفكار التي تدور في رأسينا».

مطّ زوربا رقبته، ونظر إليّ ببهجة وخوف وصاح:

«تكلّم بوضوح يا معلّم! ألم نأت إلى هنا لاستخراج الفحم؟».

«إن استخراج الفحم ذريعة، كي لا نجعل السكان فضوليين كثيراً، لذلك اعتبرونا مقاولين جيدين، ولم يحيّونا بإلقاء حبات البندورة علينا. هل فهمت يا زوربا؟».

ذُهل زوربا. حاول جاهداً أن يفهم. لم يستطع أن يصدق كلّ هذه السعادة. وبغتة، اقتنع. اندفع نحوي وأمسكني من كتفيّ.

«هل ترقص؟» سألني بحدّة، «هل ترقص؟».

«لا».

«لا؟».

دُهش، وترك ذراعيه تلوحان على جانبيه.

«أوه، حسناً»، قال بعد لحظة، «إذن سأرقص يا معلّم. إجلس بعيداً قليلاً كي لا أرتطم بك».

وبقفزة واحدة اندفع خارج الكوخ، خلع حذاءه ومعطفه وسترته، وشمّر بنطاله حتى ركبتيه، وبدأ يرقص. كان سواد الفحم لا يزال يكسو وجهه، وبياض عينيه يشع.

بدأ يرقص، يصفّق بيديه، يقفز، ويدور في الهواء، يهبط على ركبتيه، ويثب ثانية وساقاه مثنيتان وكأنه مصنوع من المطاط. وفجأة وثب وثبات واسعة في الهواء، وكأنه يريد أن يخترق قوانين الطبيعة ويحلق بعيداً. ويخيل للمرء أنه توجد في هذا الجسد العجوز روح تسعى لأن تحمله وتلقي به في الظلام كنيزك، وأنها هزّت الجسد الذي عاد أدراجه إلى الأرض، لأنه لم يتمكن من

البقاء طويلاً في الهواء؛ لقد هزّته ثانية بلا رحمة، هذه المرة أعلى قليلاً، لكن الجسد المسكين سقط ثانية، منقطع الأنفاس.

عقد زوربا حاجبيه، وبرزت قسمات جادة على وجهه بشكل مفزع. لم يعد يطلق صيحات، بل أخذ يضغط على أسنانه ساعياً لإنجاز المستحيل.

صحت: «زوربا! زوربا! هذا يكفي!».

كنت أخشى ألا يتحمل جسده العجوز مثل هذا العنف ويتحطم إلى ألف قطعة ويتناثر في جميع أطراف السماء.

لكن ما الفائدة من صياحي؟ كيف يمكن لزوربا أن يسمع صراخي من الأرض؟ فقد أضحت أعضاؤه مثل أعضاء طير

رحت أتتبع رقصته الهمجية واليائسة بقلق. فعندما كنت طفلاً كنت أطلق العنان لخيالي وأخبر أصدقائي أكاذيب شنيعة كنت أصدقها أنا نفسي.

«كيف مات جدّك؟» سألني زميل لي في المدرسة ذات يوم. وعلى الفور اختلقت أسطورة، وكلما اختلقت حكايات أكثر، ازداد تصديقي لها.

«كان لجدّي لحية بيضاء، وكان ينتعل حذاء مطاطياً. وفي أحد الأيام، قفز من سطح بيتنا، لكن ما إن لامست قدماه الأرض حتى قفز ككرة ووثب أعلى من البيت، وطار أعلى وأعلى حتى اختفى في الغيوم. هكذا مات جدّي».

«بعد تلفيق هذه الأسطورة، كنت كلما دخلت كنيسة القديس ميناس الصغيرة ورأيت في أسفل الهيكل صورة صعود المسيح، كنت أشير إليه وأقول لرفاقي:».

«انظروا، إنه جدّي بحذائه المطاطي!».

الآن، في هذا المساء، وبعد سنوات عديدة، وبعد أن رأيت زوربا يثب في الهواء، رحت أعيش حكايتي الطفولية مرة أخرى برعب، وخشيت أن يختفي زوربا بين السحب.

«زوربا! زوربا!»، رحت أصيح، «كفى، كفى!».

جثم زوربا أخيراً على الأرض، منقطع الأنفاس. كان وجهه مشرقاً وسعيداً. وكان شعره الأبيض يلتصق بجبهته والعرق يمتزج بغبار الفحم، يسيل على خديه وذقنه.

انحنيت فوقه بقلق.

«إني أشعر بأني أفضل حالاً هكذا»، قال بعد دقيقة، «كما لو كنت أنزف. الآن أستطيع أن أتكلّم».

عاد إلى الكوخ، جلس أمام الموقد ونظر إليّ وقد تألق وجهه.

«ما الذي جعلك ترقص هكذا؟».

«ماذا يمكنني أن أفعل يا معلّم؟ كادت بهجتي تخنقني. كان لا بد أن أجد منفذاً لها. وأي منفذ؟ كلمات؟ تباً».

«أيّ بهجة؟».

تجهم وجهه، وبدأت شفته ترتعش.

«أيّ بهجة؟ حسناً، هل كلّ ما قلته لي قبل دقيقة. كان مجرد كلام، طار في الهواء؟ إنك لم تفهمه أنت نفسك؟ إننا لم نأت إلى هنا من أجل الفحم، هذا ما قلته لي، أليس كذلك؟ لقد أتينا إلى هنا لنزجي الوقت ونذر الرماد في عيونهم كي لا يظنوا أننا مجانين ويرموننا بحبات البندورة! لكن عندما نكون وحدنا، ولا يرانا أحد، يمكننا أن نضحك ونستمتع بوقتنا! صحيح؟ أقسم بأن هذا ما كنت أريده أيضاً، لكنني لم أدركه جيداً. ففي بعض الأحيان أفكّر بالفحم، وفي أحيان أخرى أفكّر ببوبولينا العجوز، وأحياناً أفكّر بك. إنها مزيج من الفوضى. عندما كنت أختار نفقاً، كنت أقول إن الفحم هو ما أبحث عنه! وكان الفحم يملؤني من رأسي حتى كاحليّ. لكن عندما ينتهي العمل، وعندما أداعب تلك الخنزيرة العجوز ـ ليرافقها الحظ السعيد! ـ فإنني أقول إني

أتخلى عن الفحم وعن جميع أرباب العمل ـ من أجل ذلك الوشاح الصغير الذي يحيط بعنقها ـ وزوربا معهم! ثم عندما أصبح وحدي، ولا يوجد لديّ شيء أفعله، أفكّر بك يا معلّم، ويذوب قلبي. ويثقل على ضميري وأقول عيب يا زوربا، عيب أن تمضي وتخدع هذا الرجل الطيب وتلتهم كلّ نقوده. متى ستكف عن خبثك يا زوربا، أنت؟ لقد تحملتك كثيراً! أقول لك يا معلّم، لم أكن أعرف أين أنا. كان الشيطان يجرني من طريق، والله يجرني من الطريق الآخر، وبين هذا وذاك، أتمزق إلى نصفين. الآن بارك الله بك يا معلّم، فقد قلت شيئاً عظيماً ويمكنني أن أراه بوضوح شديد الآن. لقد رأيت لقد فهمت! اتفقنا. لنكن صريحين! ماذا تبقى لديك من المال؟ أعطني إياه! ولنلتهمه!».

قوّس زوربا حاجبيه ونظر حوله. كانت بقايا طعام العشاء لا تزال على المائدة الصغيرة. مدّ إليها ذراعه الطويلة وقال: «بعد إذنك يا معلم، لقد جعت ثانية».

تناول قطعة من الخبز وبصلة وحفنة من الزيتون.

راح يأكل بنهم، ورفع القرعة المجوفة، ودلق النبيذ الأحمر في فمه دون أن تلمس القرعة شفتيه.

تمطّق زوربا بلسانه. فقد شبع وأحس بالرضا وقال: «هكذا أفضل».

ثم غمزني بعينه وسأل:

«لماذا لا تضحك؟ لماذا تنظر إليّ هكذا؟ هكذا أنا. يوجد شيطان في داخلي يصيح، وإني أفعل ما يطلبه مني. فعندما أشعر بغصة من شيء، يقول لي: ارقص فأرقص. وأشعر بالتحسّن! ذات مرة، عندما توفي ديميتراكي الصغير، في شالديس، نهضت كما فعلت منذ لحظة ورقصت. الأقارب والأصدقاء الذين رأوني أرقص أمام الجثمان هرعوا إليّ ليوقفوني عن الرقص. لقد جنّ زوربا! أخذوا يصيحون، لقد جنّ زوربا! لكني لو لم أرقص في تلك اللحظة، لجننت حقاً من شدة الحزن. لأنه كان ابني البكر وكان عمره ثلاث سنوات، ولم أقو على تحمّل فقدانه. إنك تفهم ما أقول يا معلم، أليس كذلك، أم أنني أكلّم نفسي؟»

«أفهم يا زوربا، أفهم. إنك لا تكلّم نفسك».

«وفي مرة أخرى. كنت في روسيا. نعم، كنت أعمل هناك في منجم أيضاً. كان منجم نحاس آنذاك، بالقرب من نوفو روسيسك. كنت قد تعلّمت خمس أو ست كلمات باللغة الروسية، كانت تكفيني لأتدبر أمري في عملي: لا؛ نعم؛ خبز؛ ماء؛ أحبّك؛ تعال؛ كم؟ لكني صادقت روسياً بلشفياً متعصباً. وكنا نرتاد حانة في الميناء كلّ مساء. كنا نجرع عدداً كبيراً من قناني الفودكا، حتى نشعر بالانتشاء».

وما إن بدأ أحدنا يحس بالارتياح تجاه الآخر، حتى بدأنا نرغب في التحدث. كان يريد أن يحدثني عن كلّ شيء حدث له خلال الثورة الروسية، وكنت أريد أن أقول له ما كنت أنوي أن أفعله كنا نسكر معاً، كما ترى، وأصبحنا أخوة.

«كان علينا أن نتوصل إلى اتفاق بقدر ما كنا نستطيع بالحركات والإيماءات. فقد كان هو يتكلّم أولاً وعندما لم أكن أستطيع أن أتابعه، كنت أصيح: توقّف! ثم كان ينهض ويرقص. هل تفهم ما أقوله يا معلّم؟ كان يرقص ما يريد أن يقوله لي. وكنت أنا أفعل الشيء ذاته. فالشيء الذي لم نكن نستطيع أن نقوله بفمنا، كنا نقوله بأقدامنا، بأيدينا، ببطوننا أو بصرخات برية: هاي! هاي! هوب لا! هو هيه».

«كان الروسي قد بدأ يتكلم. كيف حمل بندقية، وكيف اندلعت الحرب، وكيف وصلوا إلى نوفو روسيسك. وعندما لم أكن أستطيع أن أتابعه أكثر، كنت أصيح: توقّف فينهض الروسي مباشرة، ويبدأ يرقص! كان يرقص مثل مجنون. وكنت أراقب يديه وقدميه وصدره وعينيه، وكنت أفهم كلّ شيء. كيف دخلوا إلى نوفو روسيسك؛ كيف نهبوا الدكاكين؛ كيف اقتحموا البيوت وحملوا النساء. في بادئ الأمر، كانت تلك الزانيات يبكين ويخدشن وجوههن بأظافرهن ويخدشن الرجال أيضاً، لكنهن كن يهدأن شيئاً فشيئاً، ويغمضن عيونهن وهن مسرورات. كنّ نساء، في الحقيقة. .».

«وبعد ذلك، جاء دوري في الحديث. لم أتمكن من قول سوى بضع كلمات ـ ربما كان غبياً نوعاً ما ولم يكن دماغه يعمل جيداً ـ صاح الروسي: توقّف! هذا كلّ ما كنت أنتظره. قفزت واقفاً، وأزحت الكراسي والطاولات ورحت أرقص. آه، يا صديقي المسكين، فقد انحدر الرجال كثيراً، وليأخذهم الشيطان! تركوا أجسامهم تصبح خرساء ولا يتحدثون إلا بأفواههم. لكن ماذا يتوقعون أن يقوله الفم؟ بماذا يمكنه أن يخبرك؟ كم أتمنى أن ترى كيف كان الروسي ينصت إليّ من قمة رأسه حتى أخمص قدميه، وكيف كان يتابع كلّ شيء! لقد رقصت مصائبي، رحلاتي، وكم مرّة تزوّجت، والحرف التي تعلمتها ـ عامل في محجر، عامل في منجم، بائع متجول، خزّاف، مقاتل في حرب عصابات، عازف على السنتوري، بائع يقطين، حداد، مهرّب ـ وكيف زُجّ بي في السجن، وكيف هربت، وكيف وصلت إلى روسيا. .».

«حتى هو، بغبائه، استطاع أن يفهم كلّ شيء، كلّ شيء. كانت قدماي ويداي تتحدث، وكذلك شعري وملابسي. كما كانت المدية التي تتدلى من وسطي تتكلم أيضاً. وعندما انتهيت، ضمني ذلك الأبله العظيم بين ذراعيه وراح يعانقني؛ ملأنا كأسينا بالفودكا مرة أخرى. بكينا وضحكنا ونحن نضم بعضنا. وعند بزوغ الفجر، افترقنا وذهب كلّ منا مترنحاً إلى سريره. وفي المساء التقينا ثانية».

«هل تضحك؟ ألا تصدق ما أقوله لك يا معلّم؟ إنك تقول لنفسك: ما هذه الأكاذيب التي يحيكها السندباد البحري هذا؟ هل يمكن للمرء أن يتحدث بالرقص؟ ومع ذلك فإني أجرؤ وأقسم بأنه لا بد أن الآلهة والشياطين يكلّمون بعضهم البعض بهذه الطريقة».

«لكنني أستطيع أن أرى أنك بدأت تنعس. إنك رجل مرهف للغاية. لا تملك حيوية. هيا، نم، وسنتكلّم غداً في هذا الأمر ثانية. لديّ خطة، خطة رائعة. سأخبرك عنها غداً. سأدخّن سيكارة أخرى. وقد أغطس غطسة في البحر. إني أحترق. يجب أن أطفئ النار. طابت ليلتك!».

جافاني النوم طويلاً. قلت في نفسي لقد هدرت حياتي. كم كنت أتمنى أن آخذ ممسحة وأمحو كلّ ما تعلمته، كلّ ما رأيته وسمعته، وأن أرتاد مدرسة زوربا وأبدأ أتعلم الأبجدية الحقيقية، العظيمة! كنت سأختار طريقاً مختلفاً. يجب أن أدرّب حواسي الخمس جيداً، وجسدي كله أيضاً، حتى يستمتع ويفهم. يجب أن أتعلّم كيف أركض، أصارع، أسبح، أركب الخيل، أجذف قارباً، أقود سيارة، أطلق النار من بندقية. يجب أن أملأ روحي بالجسد. يجب أن أملأ جسدي بالروح. في الحقيقة، يجب أن أوفق في داخلي بين الخصمين الأبديين.

جلستِ على فراشي ورحت أفكّر بحياتي المهدورة تماماً. ومن خلال الباب المفتوح كنت أرى زوربا من خلال ضوء النجوم. كان يجثم فوق صخرة مثل طير ليلي. حسدته، وقلت في نفسي إنه الشخص الذي اكتشف الحقيقة، وهو يسلك الدرب الصحيح.

في عصور أخرى أكثر بدائية وإبداعاً، كان من الممكن أن يكون زوربا رئيس قبيلة. فهو سيمضي في المقدمة، ويفتح الطريق بفأس. أو ربما كان شاعراً متجولاً مشهوراً يتنقل بين القلاع، والجميع يصغون إلى كلماته ـ اللوردات والسيدات والخدم. أما في عصرنا الجاحد، الناكر للجميل، فإن زوربا يطوف جائعاً يبحث عن لقمة طعام مثل ذئب، أو يهوي ويصبح مهرجاً لكاتب مغمور.

رأيت زوربا ينهض فجأة. خلع ثيابه وألقى بها فوق الصخور وغاص في البحر. ولبضع لحظات، وتحت ضوء القمر الشاحب، كنت أرى رأسه الكبير وهو يظهر ويختفي. ومن حين لآخر، كان يطلق صيحة، ينبح، يحمحم، ينعق، يصيح مثل ديك ـ فقد وجدت روحه في هذا الليلة الخاوية ألفة مع الحيوانات.

دون أن أدرك، غططت في النوم بهدوء. وفي فجر اليوم التالي، رأيت زوربا مبتسماً ومرتاحاً، جاء إليّ وأخذ يشدني من قدميّ.

قال: «انهض يا معلم، ودعني أعترف لك بخطتي. هل تسمعني؟».

«إني أنصت»

جلس متربعاً على الأرض كما يفعل الأتراك وبدأ يشرح كيف أنه سيمّد سلكاً من قمة الجبل حتى الشاطئ، وبهذه الطريقة نستطيع أن نجلب الخشب الذي نحتاج إليه من أجل دعائم الحفرة، ويمكننا أن نبيع الباقي كخشب للبناء. فقد قرّرنا أن نستأجر غابة الصنوبر التي يملكها الدير، لكن النقل مكلف ولن نستطيع أن نجد عدداً كافياً من البغال. لذلك ارتسمت في مخيلة زوربا فكرة بأن نمدّ خطاً عليه سلك ثقيل وأبراج وبكرات.

«هل أنت موافق؟» سألني عندما أنهى شرحه، ثم أضاف، «هل ستوقّع؟».

«سأوقّع يا زوربا، اتفقنا».

أشعل الموقد، ووضع الإبريق على النار وأعدّ قهوتي، ثم ألقى ببساط على قدميّ كي لا أبرد، وخرج سعيداً.

قال: «سنفتح نفقاً جديداً اليوم. لقد وجدت عرقاً جميلاً من الماس الأسود الحقيقي!».

فتحت مخطوطة بوذا، ورحت أنا أيضاً، أشقّ طريقي إلى نفقي الخاص. كتبت طوال النهار، وكنت كلما تقدّمت أكثر، شعرت بأني أتمتع بحرية أكبر اعترتني مشاعر تمتزج فيها الراحة بالكبرياء والقرف. لكنني تركت نفسي أستغرق في العمل، لأني كنت أعرف أني سأصبح حراً حالما أنهي هذه المخطوطة وأجمعها وأختمها.

أحسست بالجوع. تناولت بضع حبات من الزبيب، وبضع حبات من اللوز وقطعة من الخبز كنت أنتظر زوربا حتى يعود، حاملاً معه كلّ ما يبهج قلب الإنسان: الضحك الصافي، والكلمة الرقيقة، والأطباق اللذيذة.

عاد في المساء وهيّأ وجبة الطعام. أكلنا، لكن عقله كان شارداً في مكان

آخر. جثا على ركبتيه، وغرس قطعاً خشبية صغيرة في الأرض، وصلها بخيط، وعلّق عود ثقاب من بعض البكرات الصغيرة، وحاول أن يختبر الانحدار الصحيح، لكي لا ينهار كل شيء.

شرح لي: «إذا كان المنحدر شديداً انتهى أمرنا. يجب أن نعرف درجة الانحدار بدقة. لذلك، يا معلّم فإننا نحتاج إلى قليل من الأدمغة والنبيذ»

قلت: «عندنا الكثير من النبيذ». ضحك وقال: «لكن ماذا عن الأدمغة.

وراح زوربا يضحك، ثم قال:

«هناك بعض الأشياء التي تعرفها يا معلم»، قال وهو ينظر برقة.

جلس ليستريح، وأشعل سيجارة.

عاد إلى روحه المرحة وإلى ثرثرته.

قال: «إذا نجح هذا الخطّ، استطعنا أن ننزل أشجار الغابة كلها. يمكننا أن نفتتح مصنعاً، نصنع ألواحاً خشبية وأعمدة وسقالات؛ سيطمرنا المال. ويمكننا أن نبني قارباً بثلاث صواري، ونحزم أمتعتنا، ونلقي قطعة حجر وراءنا ونبحر حول العالم!».

وبرقت أمام عينيّ زوربا نساء في موانئ ومدن بعيدة، أنوار متلألئة، ومبان ضخمة، وآلات، وسفن.

«لقد وخط الشيب شعري يا معلّم وتخلخلت أسناني. لا يوجد لدي وقت أضيعه. إنك شاب، لا يزال بوسعك أن تتحلى بالصبر، أما أنا فلا أستطيع لكنني أقول لك إنه كلما تقدم بي العمر، ازددت وحشية! لا تقل لي إن الشيخوخة تجعل الرجل عاقلاً أكثر! ولا تقل لي إنه عندما يرى الموت قادماً إليه فإنه يمطّ رقبته ويقول: هيا اقطع رأسي، أرجوك، لكي أذهب إلى الجنّة! فكلما عشت أكثر، ازددت تمرداً. لن أستسلم. أريد أن أغزو العالم!»

نهض وأخرج السنتوري، وقال:

«تعال أيها الشيطان. ماذا تفعل بحقّ الجحيم وأنت معلق على الحائط دون أن تنبس بكلمة؟ هيا لنسمعك تغنّي!»

لم أملّ من رؤية الدقة المتناهية، والرقة الهائلة، التي كان يخرج بهما زوربا السنتوري من غلافه القماشي. كان يبدو وكأنه يقشّر تينة أرجوانية، أو يجرّد امرأة من ثيابها

أسند السنتوري إلى حضنه، انحنى فوقه، وتلمس أوتاره ـ كما لو كان يستشيرها ليعرف اللحن الذي تريد أن تعزفه، كما لو كان يتوسل إليها بأن تفيق، كما لو كان يحاول أن يقنعها بأن ترافق روحه المتجوّلة التي سئمت من الوحدة. حاول أن يغني أغنية. لم تخرج بطريقة جيدة. هجرها وبدأ أخرى، وراحت الأوتار تصرّ وكأنها تتألم، وكأنها لم تكن تريد أن تغني. اتكأ زوربا على الجدار، ومسح جفنه الذي بدأ ينضح عرقاً فجأة.

«إنه لا يريد. » تمتم، وهو ينظر إلى السنتوري بوجل، «إنه لا يريد!».

لفّه ثانية بعناية، كما لو كان حيواناً برياً يخشى أن يعضه. نهض ببطء وعلّقه على الجدار

«إنه لا يريد .»، دمدم ثانية، «إنه لا يريد ويجب ألا نرغمه على ذلك!».

عاد وتربّع على الأرض، ودّس عدداً من حبات الكستناء بين الجمرات، وأترع الكؤوس بالنبيذ. شرب، شرب ثانية، قشّر حبة كستناء وأعطاها لي.

سألني: «هل تستطيع أن تفهمه يا معلّم؟ إنه يتجاوز قدرتي على الفهم. يبدو أن لكلّ شيء روحاً ـ الخشب، الأحجار، النبيذ الذي نحتسيه، والأرض التي نطأها. كلّ شيء يا معلّم، كلّ شيء!».

رفع كأسه وقال: «بصحتك»

جرعه وملأه ثانية ودمدم:

«إن الحياة عاهرة! عاهرة! مثل بوبولينا العجوز!».

بدأت أضحك.

«استمع إليّ يا معلّم، لا تضحك. إن الحياة تشبه بوبولينا العجوز. إنها عجوز، أليس كذلك؟ حسناً، لكن لا تنقصها التوابل. إنها تعرف حيلة أو حيلتين تجعلك تفقد عقلك. إذا أغمضت عينيك، فإنه سيخيّل إليك أنك تضم بين ذراعيك فتاة في العشرين من عمرها. إنها في العشرين، أقسم، عندما تنهمك في العمل وتطفئ الضوء».

«لا تقل لي إنها ناضجة أكثر مما ينبغي، فقد عاشت حياة حافلة، وأمضت وقتاً ممتعاً مع الأدميرالات والبحّارة والجنود والفلاحين ومع بائعين جوّالين وقساوسة ورجال دين ومع رجال شرطة ومديري مدارس وقضاة! وما الضير في ذلك؟ وماذا في ذلك؟ فسرعان ما نسيت ما فعلته هذه المومس العجوز. إنها لا تستطيع أن تتذكر أياً من عشاقها القدامى. وتصبح في كلّ مرة ـ إني لا أمزح ـ تصبح حمامة صغيرة حلوة، بجعة بيضاء نقية، يمامة جميلة، ويتضرج وجهها خجلاً ـ نعم، إنها تحمّر خجلاً، ويرتعش جسدها كله، كما لو كانت المرة الأولى! إن المرأة لغز يا معلّم! حتى لو سقطت ألف مرة، فهي تنهض ألف مرة وتعود عذراء. لكنك ستقول كيف يتم ذلك؟ لأنها لا تتذكر!».

«حسناً، الببغاء يتذكّر، يا زوربا»، قلت لأستثيره، «فهو يردد دائماً اسماً ليس اسمك. ألا يزعجك أن تسمع ذلك الببغاء وهو يصيح في كلّ مرّة تصل فيها إلى السماء السابعة: كانافارو! كانافارو! ألا تشعر بالرغبة في أن تدق عنقه وتخنقه؟ لقد آن الأوان لتعلّمه أن يصيح: زوربا! زوربا!».

«أوه، كلّ هذا الهراء!» صاح زوربا، ممسكاً أذنيه بيديه الكبيرتين، «تقول أدق عنقه؟ لكني أحبّ أن أسمعه وهو يصرخ هذا الاسم! وفي الليل، تعلقه تلك الآثمة العجوز فوق السرير، وتوجد لهذا الشيطان الصغير عين يستطيع أن يرى فيها في الظلام، وما إن تبدأ عملك معها حتى يبدأ يصيح: كانافارو! كانافارو!».

«وفي الحال، أقسم لك يا معلّم ـ لكن كيف يمكنك أن تفهم ذلك وقد أفسدتك كلّ تلك الكتب؟ ـ أقسم بأنني أشعر في الحال بحذاء من الجلد الأصلي في قدمي، وريش على رأسي، ولحية حريرية ناعمة تعبق منها رائحة البتشولي في ذقني. صباح الخير! مساء الخير! هل تأكل معكرونة! وأصبح كانافارو حقاً. وأصعد إلى سفينتي التي ثقبتها ألف طلقة وطلقة. أشعلوا النار في المرجل! وتبدأ المدافع تقصف!».

ضحك زوربا بحرارة. أغمض عينه اليسرى ونظر إليّ بعينه الأخرى وقال:

يجب أن تغفر لي يا معلم. لكنني مثل جدّي أليكسيس ـ رحم الله عظامه! كان يجلس في المساء أمام باب بيته عندما بلغ المائة من عمره ويحدّق في الصبايا الذاهبات إلى البئر. لم يكن يستطيع أن يرى جيداً، ولم يكن يستطيع أن يتبين الأشياء بوضوح، لذلك كان ينادي الفتيات ليأتين إليه. أقول، أي واحدة أنت؟ إكسينيو، ابنة ماستراندوني اقتربي أكثر ودعيني ألمسك. تعالي، لا تخافي! كانت تقترب من وجه جدّي، الذي يرفع يده إلى وجهها ويتحسسه ببطء، بشكل حسّي، وتتدفق دموعه. لماذا تبكي يا جدّي؟ سألته ذات يوم آه، ألا تظن أنه يوجد لدي ما أبكي عليه يا بني، عندما أموت ببطء وأترك ورائي تلك الفتيات الجميلات؟

تنهّد زوربا، ومضى يقول: «آه يا جدّي العجوز المسكين كم أتعاطف معك! وغالباً ما أقول في نفسي: آه، يا للتعاسة! كم أتمنى أن تموت جميع النساء الجميلات عندما أموت أنا! لكن العاهرات سيواصلن الحياة. سيمضين وقتاً ممتعاً، وسيطوقهن الرجال بأذرعهم ويقبّلونهن، في الوقت الذي أصبح فيه أنا مجرّد حفنة من التراب يطأن عليه!»

أخرج عدداً من حبات الكستناء من النار، قشرّها، وقرعنا كأسينا. وظللنا نشرب طويلاً ونمضغ مثل أرنبين كبيرين ببطء شديد، وكان يتناهى إلينا صوت هدير البحر.

[7]

جلسنا إلى جانب الموقد صامتين حتى وقت متأخر من الليل. ومرة أخرى أحسست كم أن السعادة بسيطة ولا تكلف شيئاً: كأس نبيذ وحبة كستناء مشوية وموقد صغير وصوت تلاطم مويجات البحر. لا شيء آخر. أما كلّ ما أحتاج إليه الآن كي أشعر بالسعادة فهو قلب بسيط قانع.

سألته: «كم مرّة تزوّجت يا زوربا؟».

كان كلانا في مزاج رائق، لا لأننا شربنا كثيراً، بل لأن سعادة يتعذر وصفها كانت تغمرنا. وكان كلّ منا يدرك أننا لسنا سوى حشرتين صغيرتين زائلتين، نتمسك بقشرة الأرض، وأننا عثرنا على بقعة ملائمة قريبة من البحر، خلف أعواد القصب وألواح الخشب وعلب البنزين الفارغة، حيث كنا نجلس معاً، ولدينا بعض الأشياء اللطيفة، والمأكولات الشهية التي جعلتنا نشعر بالصفاء والمودّة والأمان.

لم يسمع زوربا سؤالي. من يعرف في أي محيط من محيطات الكون التي لا يصلها صوتي كان عقله مبحراً؟ مددت ذراعي ولمسته بأطراف أصابعي.

«كم مرّة تزوجت يا زوربا؟» سألته ثانية. أجفل. سمع سؤالي هذه المرة، وأجاب وهو يلوّح بيده الضخمة:

«ما الذي تريد أن تعرفه الآن؟ هل تظن أنني لست رجلاً؟ فمثل جميع الرجال، ارتكبت الحماقة العظيمة. هذا ما أدعوه الزواج ـ وليغفر لي المتزوجون! نعم، لقد ارتكبت الحماقة العظيمة، فقد تزوّجت!».

«نعم، لكن كم مرّة؟».

حكّ زوربا رأسه بقوة، وقال أخيراً:

«كم مرّة؟ بصدق مرة واحدة. كانت المرة الأولى والأخيرة. وبصدق مرّتين. وبدون صدق ألف، ألفين، ثلاثة آلاف مرة. كيف تتوقع أنه بإمكاني أن أحسب كم مرة؟».

«حدثني قليلاً عن زيجاتك يا زوربا. فغداً يوم الأحد، وسنحلق ذقنينا ونرتدي أجمل ما لدينا من الثياب ونذهب لزيارة بوبولينا لنمضي معها وقتاً ممتعاً! أما الآن، فحدثني!».

«عم أحدثك! هل هذه حقاً أشياء يمكن التحدث عنها يا معلّم؟ فالزيجات المخلصة لا طعم لها؛ إنها طبق يخلو من التوابل. ماذا أخبرك! عندما يحدّق القديسون بك من أيقوناتهم ويمنحونك بركاتهم، هل تسمي هذه قبلة؟ في قريتنا نقول إن اللحم المسروق هو اللحم اللذيذ فقط. أما زوجتك فهي ليست لحماً مسروقاً. لكن كيف يمكنك أن تتذكر الزيجات المخادعة؟ هل يوجد لديك سجلّ؟ أتراهن! ولماذا يجب أن تفعل ذلك على أي حال؟ عندما كنت شاباً، كنت أحتفظ للذكرى بخصلة شعر من كلّ امرأة كنت أتعرف عليها، وكنت دائماً أحمل مقصاً. حتى عندما كنت أذهب إلى الكنيسة، نعم، كان مقصّي في جيبي! فنحن رجال قبل كلّ شيء، وما أدراك ماذا ستصادف في طريقك؟».

«وهكذا، جمعت مجموعة مختلفة من خصلات الشعر: سوداء وشقراء وبلون الزنجبيل، بل حتى كان فيها خصلات بيضاء. لقد جمعت عدداً كبيراً منها، إلى درجة أنني حشوت وسادة منها. وكنت أنام عليها ـ في الشتاء فقط. أما في الصيف، فقد كنت أشعر بالحرارة. وبعد فترة وجيزة، مللت من ذلك أيضاً ـ وبدأت تفوح منها رائحة نتنة فأحرقتها».

أخذ زوربا يضحك.

وتابع كلامه: «كان ذاك سجلّي يا معلّم ثم أحرقته. فقد مللت من عمل ذلك. لقد خيّل إليّ أنني لن أتمكن من جمع الكثير منها، ثم تبين لي أن هذا الأمر لن ينتهي. فألقيت بمقصّي».

«وماذا عن الزيجات نصف الصادقة يا زوربا؟».

فتنهد وقال: «أه، لهذه الزيجات سحر خاص. فيا لروعة تلك السلافية، امدّ الله في عمرها ألف سنة! كانت رمزاً للحرية! فلم يكن لديها أسئلة مثل: أين كنت؟ لماذا تأخرت؟ أين نمت؟ فهي لا تسألك، وأنت لا تسألها إنها الحرية!».

أخذ كأسه، جرعه وقشّر حبة كستناء. أخذ يمضغها وهو يتكلّم.

«كان اسم إحداهن سوفينكا، واسم الأخرى نوسا. التقيت بسوفينكا في قرية صغيرة جميلة بالقرب من نوفو روسيسك. كان الوقت شتاء والثلج يهطل. ذهبت لأبحث عن عمل في منجم، وتوقّفت في هذه القرية. كان يوم السوق، وكان قد أتى رجال ونساء من جميع القرى المجاورة للبيع والشراء. كان هناك جوع فظيع وبرد قارس. وليشتري الناس خبزاً، كانوا يبيعون كلّ ما يملكون، حتى أيقوناتهم!».

«كنت أسير في السوق عندما رأيت فلاحة شابة تنزل من عربتها ـ فتاة طويلة عيناها زرقاوان بزرقة البحر، ويا لروعة هذين الفخذين والردفين ـ كانت حقاً فرساً أصيلة حقيقية! وقفت فجأة مذهولاً زوربا المسكين، أوه، زوربا المسكين اللعين! قلت»

«ورحت أتبعها وأنظر. لم أتمكن من إبعاد عينيّ عنها! كان عليك أن ترى ردفيها وهما يتأرجحان مثل أجراس الكنيسة في عيد الفصح! قلت لنفسي: لماذا تذهب وتبحث عن مناجم أيها المغفّل؟ لماذا تضيّع وقتك الثمين هناك، أيها المتقلب اللعين؟ هذا هو منجمك: ادخله وافتح فيه أنفاقاً!».

«وقفت الفتاة، راحت تساوم، اشترت كمية من الحطب، رفعتها إلى الأعلى

ـ يا إلهي، يا لجمال هاتين الذراعين! وألقت بالحطب في عربتها! اشترت قليلاً من الخبز وخمس أو ستّ سمكات مدخّنة. بكم هذا؟ سألت. بكذا. نزعت قرطيها الذهبيين لتسدد ثمنها. ولأنها لا تملك نقوداً، قدمت قرطيها. قفز قلبي إلى فمي. لست أنا من يدع امرأة تسدد الثمن بقرطيها، بحليها، وبصابونها المعطّر، وبزجاجاتها الصغيرة من ماء الخزامى؟ إذا أعطت كلّ هذه الأشياء، فتباً للعالم! إن ذلك مثل اقتلاع ريشة من طاووس. هل تطاوعك نفسك وتقتلع ريشة من طاووس؟ أبداً! لا، ما دام زوربا على قيد الحياة، قلت لنفسي، فلن يحدث ذلك. أخرجت محفظتي ودفعت الثمن. كانوا آنذاك قد جعلوا من الروبلات عملة ورقية. وبمائة دراخما كان بإمكانك أن تشتري بغلاً وعشر نساء»

«وهكذا سددت المبلغ. التفتت الفتاة وألقت إليّ نظرة بطرف عينها. أخذت يدي لتقبلها، لكني سحبت يدي. من تظنني؟ رجلاً عجوزاً؟ سباسيبا! سباسيبا! صاحت ـ أي شكراً! شكراً! وقفزت إلى عربتها. أمسكت بالرسن ورفعت سوطها»

زوربا، قلت لنفسي، انتبه يا صديقي، إنها ستنسل من بين أصابعك! وبقفزة واحدة، أصبحت الى جانبها في العربة. لم تقل شيئاً. حتى أنها لم تتطلع إلى جانبها. وبضربة سوط واحدة انطلقنا

«في الطريق، أدركت أنني أريدها أن تكون لي. كان كلّ ما يمكنني أن أقوله باللغة الروسية لا يتجاوز ثلاث كلمات، لكنك في أمور كهذه لا تحتاج إلى قول الكثير تحدثنا بعينينا، بأيدينا، بركبنا. لم يكن ثمة داع للف والدوران حول الموضوع. وصلنا إلى القرية. نزلنا. وفتحت الفتاة بوابة الباحة بكتفها ودخلنا. أفرغنا الحطب في الباحة، وأخذنا السمك والخبز ودخلنا إلى الغرفة. كانت هناك امرأة عجوز ضامرة الجسم تجلس بالقرب من الموقد الخاوي. كانت ترتجف. ومع أنها كانت متدثرة بأكياس وخرق وجلد غنم، كانت

ترتجف. كان البرد قارساً إلى حد أن أظافرك تكاد تسقط من أصابعك. انحنيت، ووضعت قليلاً من الحطب في الموقد وأشعلت النار. نظرت المرأة العجوز الضامرة إليّ وابتسمت. قالت لها ابنتها شيئاً، لكني لم أفهم ما قالته. أشعلت النار. تدفأت المرأة العجوز بها، واستردت شيئاً من عافيتها»

«في هذه الأثناء، كانت الفتاة تعدّ المائدة. أخرجت قليلاً من الفودكا، وشربناه. أشعلت السماور وأعدّت قليلاً من الشاي. أكلنا وقدمت حصتها للمرأة العجوز، ثمّ رتّبت الفراش بسرعة، ووضعت ملاءات نظيفة، وأشعلت مصباح أيقونة القديسة مريم ورسمت شارة الصليب ثلاث مرات. ثم أشارت إليّ. جَثونا معاً أمام المرأة العجوز وقبّلنا يدها. وضعت المرأة العجوز يديها المعروقتين على رأسينا وهمست شيئاً. ربما كانت تباركنا. سباسيبا! سباسيبا! قلت، وبقفزة واحدة، كنت في السرير مع الفتاة!».

صمت زوربا. رفع رأسه وحدّق بعيداً في البحر.

وقال بعد قليل: «كان اسمها سوفينكا. . »، ثم صمت ثانية.

«حسناً؟» سألت نافد الصبر، «حسناً؟».

«لا يوجد حسناً! كم أنت مهووس يا معلّم بكلمة حسناً وبعد ذلك فهل يتكلم المرء عن هذه الأشياء؟ إن المرأة ينبوع متجدد. تنحني فوقه، وترى انعكاس صورتك على صفحته وأنت تشرب. تشرب حتى تشعر بأن عظامك بدأت تتصدع. ثم يأتي آخر، وهو عطشان أيضاً. ينحني، ويرى انعكاس صورته وهو يشرب. ثم ثالث. . إنها نبع متجدد، هكذا هي، وهي امرأة، أيضاً . ».

«وهل تركتها بعد ذلك؟».

«ماذا تتوقّع؟ قلت لك إنها نبع، وأنا عابر سبيل. عدت إلى الترحال. أمضيت ثلاثة أشهر معها. فليحمها الله، لا يوجد ما أقوله ضدها! لكنني بعد ثلاثة أشهر تذكّرت أنني أبحث عن منجم. سوفينكا قلت لها ذات صباح، لديّ بعض الأعمال التي يجب أن أقوم بها. يجب أن أذهب. حسناً اذهب، قالت

سوفينكا، سأنتظر شهراً. إذا لم تعد بعد شهر، فسأكون حرّة. وكذلك أنت. فليباركك الرّب! وذهبت»

«وهل عدت بعد شهر. ؟».

«هل أنت غبي يا معلّم، لا تؤاخذني على قولي هذا»، صاح زوربا، «هيا! وهل النساء اللعوبات يتركنك في حال سبيلك؟ فبعد عشرة أيام، التقيت بنوسا في كوبان»

«حدثني عنها! حدثني!»

«في مرة أخرى يا معلّم. يجب ألا نخلط بينهن، تلك المسكينات! بصحتك يا سوفينكا!»

وجرع كأساً من النبيذ، ثم استند إلى الحائط وقال:

«حسناً! سأحدثك الآن عن نوسا في رأسي شيء روسي هذه الليلة. لننكس العلم! ونفرغ الدنان!».

مسح شاربه وحرّك الجمرات.

«حسناً كما قلت لك، التقيت بهذه الفتاة في قرية كوبان. كان الوقت صيفاً. تلال من البطيخ الأصفر والبطيخ الأحمر كنت أنتقي واحدة أحياناً ولا يقول لي أحد شيئاً أقطعها إلى نصفين وأضع وجهي فيها».

«يوجد كلّ شيء بوفرة في روسيا يا معلّم، كلّ شيء في أكوام. شمّر عن ساعديك واختر ما تشاء! لا البطيخ الأصفر والبطيخ الأحمر فقط، بل السمك والزبدة والنساء أيضاً. تمرّ في السوق وترى بطيخة حمراء فتأخذها ليس كما هو الحال في اليونان، فما أن تخدش قطعة صغيرة من قشرة بطيخة حتى يجرّونك إلى المحكمة، وما إن تلمس امرأة حتى يهرع أخوها ويستل سكيناً ويجعل منك لحم نقانق! تباً! فليذهب هذا الحشد التافه من الشحاذين إلى الجحيم! اذهب إلى روسيا فقط إن كنت تريد أن ترى كيف يمكنك أن تعيش مثل لورد».

إذن، عندما كنت أعبر قرية كوبان شاهدت امرأة في حديقة تزرع فيها الخضراوات. أعجبني شكلها. دعني أقول لك يا معلّم، إن النساء السلافيات لسن كالنساء اليونانيات الهزيلات الطماعات اللاتي يبعنك الحبّ قطرة قطرة، ويفعلن كلّ ما بوسعهن ليقدمن لك أقل من حقّك، ويخدعنك في الوزن. لا، يا معلّم، فالسلافيات يعطينك حقك. في النوم، في الحبّ، وفي الطعام. ربما كنّ قريبات من الوحوش في الحقول ومن الأرض نفسها. إنهن يعطين ويمنحن بسخاء، إنهن لسن بخيلات مثل اليونانيات اللاتي يساومنك. سألتها: ما اسمك؟ فكما تعرف كنت قد تعلمت قليلاً من الروسية بواسطة النساء. نوسا! وأنت؟ أليكسيس. لقد أعجبتني كثيراً يا نوسا. رمقتني بعينيها كما تتفحص حصاناً قبل أن تشتريه. يبدو أنك رجل جيد، قالت، لديك أسنان سليمة، وشارب كبير، وظهر عريض، وذراعان قويتان. لقد أعجبتني. لم نقل أكثر من ذلك، لم يكن ضرورياً. تفاهمنا في لحظة. وكان عليّ أن أذهب إلى بيتها في ذلك المساء مرتدياً أزهى ثيابي. سألتني نوسا: هل عندك عباءة مبطنة بالفراء؟ فقلت نعم، لكن في هذا الحرّ لا يهم. أحضرها، ستبدو أنيقاً.

«وهكذا ارتديت ثيابي في ذلك المساء مثل عريس، ووضعت عباءتي على ذراعي، وأخذت أيضاً عصا ذات قبضة من الفضة، وذهبت. كان بيتاً ريفياً واسعاً فيه حظائر أبقار، ومعاصر زيت. وكان في الباحة نيران موقدة وقدور على النار. ماذا يغلي هنا؟ سألت. عصير البطيخ الأحمر، وهنا؟ عصير البطيخ الأصفر، يا لها من بلاد! قلت في نفسي. هل سمعت بهذا؟ عصير البطيخ الأحمر وعصير البطيخ الأصفر! هذه هي أرض الميعاد! الوداع أيها الفقر! ها أنت هنا يا زوربا، لقد وقعت على قدميك، مثل فأر في رطل من الجبن!»

«صعدت الدرج. كان درجاً خشبياً ضخماً يصدر صريراً. وعلى رأس الدرج كان يقف أبوها وأمها كانا يرتديان نوعاً من السروال الأخضر ونطاقاً أحمر ذا شرابات كبيرة ـ كان يبدو أنهما موسران. وبوجهيهما اللذين يشبهان وجه قرد

فتحا ذراعيهما وراحا يعانقاني ويقبلاني. امتلأ وجهي باللعاب الذي سال عليّ. تكلّما معي بسرعة كبيرة. لم أفهم الكثير، لكن ما أهمية ذلك؟ كان واضحاً من سلوكهما أنهما لم يكونا يضمران لي شراً».

دخلت إلى الغرفة وماذا رأيت؟ طاولات تئن تحت الطعام والشراب، مثل سفن ضخمة على وشك الإبحار. كان الجميع واقفين ـ أقارب، نساء، رجال، وفي المقدمة كانت تقف نوسا، متبرجة، ترتدي ثوب سهرة، كاشفة عن صدرها، مثل مقدمة السفينة.

كانت تتمتع بشباب وجمال رائعين. كانت تضع منديلاً أحمر على شعرها، وقد طرزت عند قلبها صورة مطرقة ومنجل. زوربا، أيها الآثم مرتين، دمدمت لنفسي، هل هذا اللحم لك؟ هل هذا هو الجسد الذي ستضمه هذه الليلة؟ فليغفر الله لأبيك وأمّك اللذين أنجباك إلى هذا العالم! «ألقينا بأنفسنا جميعاً على الطعام بهمة وعزم، نساء ورجالاً جرعنا واحتسينا، أكلنا كالخنازير وشربنا كالسمك. وماذا عن الكاهن؟ سألت والد نوسا، الذي كان جالساً إلى جانبي والذي كانت تنبعث من جسده أبخرة من كثرة ما تناول من طعام. أين الكاهن ليباركنا؟ لا يوجد كاهن، همهم، لا يوجد قساوسة هنا إن الدين أفيون الشعوب».

«عند ذلك نهض ونفخ صدره، وحلّ نطاقه الأحمر ورفع ذراعه ليصمت الجميع. كان يحمل كأساً مترعة حتى الحافة، وراح ينظر في عينيّ مباشرة. وأخذ يتكلم ويتكلم. كان يلقي خطاباً من أجلي. ماذا كان يقول؟ الله أعلم! تعبت من الوقوف. وكنت في ذلك الوقت قد ثملت قليلاً جلست وضغطت بركبتيّ على ركبتيّ نوسا. كانت جالسة إلى يميني».

«لم يكن أبوها، الذي أخذ يتصبب منه العرق، يريد أن يتوقف عن إلقاء خطابه. لذلك اندفع الجميع إليه وعانقوه، يرجونه أن يتوقّف عن الكلام. توقّف. أشارت إليّ نوسا، يجب أن تتكلّم الآن!».

«وهكذا نهضت وألقيت خطاباً، نصفه بالروسية، ونصفه باليونانية. ماذا قلت؟ لعنني الله إن كنت أعرف. كلّ ما أتذكره أني رحت في النهاية أغني أغاني قطاع الطرق الكلفتيين. وبدون قافية أو معنى، بدأت أجأر:».

من التلال، هبط الكلفتيون
ليسرقوا الخيول
لكنهم لم يجدوا خيولاً،
بل وجدوا نوسا!

«كما ترى، يا معلّم، فقد حوّرت الأغنية لتلائم الظرف:».

ذهبوا بعيداً، ذهبوا بعيداً
(بعيداً ذهبوا يا أماه!).
آه، يا حبيبتي نوسا!
آه يا حبيبتي نوسا!
آي!

«وبينما كنت أجأر كلمة آي ألقيت بنفسي على نوسا وقبّلتها».

«كان هذا كلّ ما كنت أريد. وكأنني أعطيت الإشارة التي كانوا ينتظرونها، وكانوا بالفعل ينتظرون ذلك، فاندفع عدد من الرجال الضخام ذوي اللحى الحمراء وأطفؤوا النور».

«وأخذت النساء يصرخن وكأنهن يعوين، يصرخن وكأنهن خائفات. لكن فجأة، في الظلام، أخذن يضحكن: هي هي هي! . كن يحببن أن يدغدغن ويضحكن»

«ما الذي حدث يا معلّم، لا يعرف إلا الله. لكنني لا أظن أنه كان يعرف

أيضاً، لأنه لو كان يعرف، لأرسل صاعقة وأبادهم جميعهم. كانوا هناك جميعهم يختلط فيهم الحابل بالنابل، رجالاً ونساء، يتدحرجون على الأرض. بدأت أبحث عن نوسا، لكن أين بإمكاني أن أجدها؟ وجدت فتاة أخرى، وأديت الواجب معها»

«عند الفجر، نهضت لأغادر مع امرأتي. كان الظلام لا يزال مخيماً، ولم أستطع أن أرى بوضوح. أمسكت قدماً وسحبتها. لا، لم تكن قدم نوسا. أمسكت قدماً أخرى ـ لا! سحبت قدماً ثالثة ـ لا! أمسكت قدماً رابعة، وخامسة، وفي النهاية، بعد عدد لا نهاية له من الأقدام، وجدت قدم نوسا، سحبتها، وخلّصتها من شيطانين أو ثلاثة شياطين ضخام كانوا يتمدّدون فوق الفتاة المسكينة، وأيقظتها. قلت لها: نوسا، هيا لنذهب! لا تنسِ معطف الفرو! فأجابت، هيا لنذهب! وغادرنا».

«حسناً؟» قلت لزوربا ثانية، بعد أن عاد إلى صمته.

«ها أنت تعود إلى حسناً، ثانية»، قال زوربا، متبرماً من هذه الأسئلة.

تنهّد وقال:

«عشت معها ستّة أشهر. ومنذ ذلك اليوم ـ والله يشهد على ما أقول ـ أصبحت لا أخشى شيئاً. لا شيء، إلا شيئاً واحداً: أن يمسح الشيطان أو الله تلك الأشهر الستّة من ذاكرتي. هل تفهم؟».

أغمض زوربا عينيه. بدا في غاية الحماس. كانت هذه هي المرّة الأولى التي أراه فيها متأثراً بقوة بذاكرة مضى عليها زمن بعيد.

«إذن هل كنت تحبّ نوسا تلك كثيراً؟» سألته بعد بضع لحظات.

فتح زوربا عينيه وقال:

«إنك ما زلت شاباً يا معلّم، إنك لا تزال شاباً، يمكنك أن تفهم! وعندما يبيضّ شعرك مثلي، سنتحدث عن هذا الشيء مرة أخرى ـ الشيء الأبدي»

«وما هو ذلك الشيء الأبدي؟».

«النساء طبعاً! كم مرّة يجب أن أقول لك إن المرأة شيء أبدي أما الآن، فإنك مثل ديك صغير يغطّي دجاجاته في هزتين ثم ينفش ريشه، ويصعد إلى قمة تلّ الروث ويبدأ يصيح متبجحاً إنه لا ينظر إلى الدجاجات، بل ينظر إلى أعرافهن! حسناً، ماذا يمكنه أن يعرف عن الحبّ؟ فليأخذه الشيطان!»

بصق على الأرض بازدراء.

ثم أشاح بوجهه. لم يرغب في أن ينظر إليّ.

«حسناً يا زوربا»، سألته ثانية، «وماذا عن نوسا؟».

أجاب زوربا، وهو يحدق بعيداً في البحر

«عندما عدت إلى البيت ذات مساء، لم أجدها كانت قد ذهبت. فقد جاء جندي وسيم إلى القرية وهربت معه. وهكذا انتهى كلّ شيء! لقد انشطر قلبي إلى شطرين. لكن الوغد عاد والتصق بسرعة. لا بد أنك رأيت تلك الأشرعة المرقعة بالأسود والأصفر والأحمر، التي خيطت بجدائل سميكة، لا تتمزّق أبداً حتى في أعتى العواصف. حسناً، هكذا هو قلبي. فيه ثقوب لا تعدّ ولا تحصى، ورقع لا تعدّ ولا تحصى إنه لم يعد يخشى شيئاً!».

«وألم تحقد على نوسا يا زوربا؟».

«لماذا؟ يمكنك أن تقول ما يحلو لك، المرأة شيء مختلف يا معلّم شيء مختلف. إنها لا تنتمي إلى البشر! لماذا أحقد عليها؟ إن المرأة شيء عصي على الفهم، وجميع قوانين الدولة والدين لا تفقه ذلك. يجب ألا تتصرف بهذه الطريقة مع المرأة. إنها قاسية جداً يا معلّم، ظالمة جداً لو كنت أنا من يسنّ القوانين، لما وضعت القوانين ذاتها للرجال وللنساء. عشر وصايا، مائة وصية، ألف وصية للرجل. لكن الرجل رجل، ويستطيع أن يواجهها. لكن يجب ألا يكون هناك قانون واحد يخص المرأة. لأنـ كم مرّة يجب أن أقول لك هذا يا معلّم؟ المرأة مخلوق لا حول له ولا قوة. لنشرب نخب نوسا يا معلّم!

ونخب المرأة! وليمنحنا الله، نحن الرجال مزيداً من الإحساس!».

شرب، ورفع ذراعه وأنزلها بقوة، وكأنه يستخدم فأساً.

وقال: «إما أن يمنحنا، نحن الرجال، مزيداً من الإحساس، أو أن يجري لنا عملية جراحية. وإلا، صدقني، فقد قضي علينا».

[8]

في اليوم التالي، هطلت الأمطار ثانية، وامتزجت السماء بالأرض بعذوبة لا متناهية. وتذكّرت نقشاً هندوسياً على قطعة حجر رمادي داكن: صورة رجل يطوق امرأة بذراعيه، متحداً بها برقة وعذوبة شديدتين إلى درجة أنه قد يتكون لدى المرء ذات الانطباع ـ بأن العناصر تمتزج في الأجساد ـ لدى رؤيته حشرتين تتسافدان، ملتصقتين ومتحدتين، والرذاذ الناعم يتهاطل فوقهما. وبهذا الالتصاق والاتحاد، يبدو أنهما يذوبان رويداً رويداً في حوصلة الأرض الشرهة.

كنت جالساً أمام الكوخ أراقب الأرض التي خيّم عليها الظلام، والبحر الذي بدأ لونه يصبح أخضر فوسفورياً. ولم تكن ترى مخلوقاً على الشاطئ كله، ولا شراعاً، ولا طيراً. بل كنت تشمّ رائحة الأرض وقد نفذت من خلال النافذة.

نهضت ومددت يدي إلى المطر مثل متسول. وبغتة اعترتني رغبة في البكاء. فقد بدأ ينبعث من الأرض الرطبة حزن، ليس حزني، بل حزن أشد عمقاً وأكثر غموضاً: ذلك الرعب الذي يتملك حيواناً يرعى بسلام، ثم يدرك بغتة دون أن يرى شيئاً، بل يرفع رأسه ويشمّ في الهواء أنه وقع في فخ ولم يعد يستطيع الهروب.

أردت أن أطلق صيحة، مدركاً أنها ستخفّف من حدة مشاعري، لكني خجلت من أن أفعل ذلك.

بدأت السحب تنخفض. نظرت من النافذة، وبدأ قلبي يخفق برقة.

كم تبعث فيك ساعات الرذاذ الناعم الذي يهمي فوقك متعة حزينة تثير حواسك! إذ تعود جميع الذكريات المرّة التي كانت متوارية في أعماق خلايا دماغك وتطفو إلى السطح: فراق الأصدقاء، ابتسامات النساء الباهتة، الآمال التي فقدت أجنحتها كالعثّ ولم يتبق منها سوى يرقة - وقد زحفت هذه اليرقة إلى ورقة قلبي، وراحت تلتهمه.

وبدأت صورة صديقي المنفي في القوقاز تظهر رويداً رويداً من خلال قطرات المطر والأرض الندية. تناولت قلمي وانكببت فوق الورقة، ورحت أكلّمه كي أقطع شبكة المطر الرفيعة، لأتمكن من التنفس.

صديقي العزيز،

أكتب إليك من شاطئ مهجور في كريت حيث اتفقنا أنا والقدر على أن أمكث عدّة أشهر كي أؤدي - ألعب دور الرأسمالي. وإذا نجحت لعبتي، فإني سأقول إنها ليست لعبة، بل إنني اتخذت قراراً عظيماً، وغيّرت أسلوب حياتي.

لا بد أنك تتذكّر كيف أنك أطلقت عليّ اسم «دودة كتب»، أثناء وداعك لي. وقد أغاظني ذلك كثيراً إلى حد أني قرّرت أن أتوقف عن الخربشة على الورق لفترة من الزمن - أو ربما إلى الأبد؟ - وأن ألقي بنفسي في آتون حياة العمل. فاستأجرت سفح تل فيه منجم فحم. واستأجرت عمالاً، وأحضرت معاول ومجارف، ومصابيح أسيتيلين، وسلالاً، وشاحنات. وحفرت أنفاقاً وولجتها. فقط لمناكدتك. وبسبب الحفر، وشق ممرات تحت الأرض، أضحى دودة الكتب هذا خلداً. أرجو أن تصدّق هذا التغير.

إني أجد متعة كبيرة هنا، لأن الحياة هنا بسيطة للغاية وتنبثق من العناصر الأبدية: الهواء النقي والشمس والبحر ورغيف الحنطة. وفي المساء، يتربع

أمامي السندباد البحري الرائع، على الطريقة التركية، ويبدأ يتكلّم. يتكلّم ويضخّم العالم. وعندما لا تعود الكلمات تكفي، ينهض ويبدأ يرقص. وعندما لا يعود الرقص يكفي، يسند آلة السنتوري إلى ركبته، ويبدأ العزف.

وهو يعزف أحياناً لحناً همجياً وتشعر بأنك تختنق لأنك تدرك بغتة أن حياتك بائسة لا لون لها، وليست جديرة بحياة إنسان. وفي أحيان أخرى، يعزف لحناً حزيناً وتشعر أن حياتك تمرّ، تجري وتنسل بين أصابعك كالرمل، وبأنه لا يوجد ثمة خلاص.

إن قلبي تتجاذبه الأنواء ويتحرك مثل مكوك حائك. إنه ينسج هذه الشهور القليلة التي أمضيتها في كريت ـ وليغفر لي الله ـ فإنه يخيّل لي أني سعيد.

يقول كونفوشيوس: «إن الكثيرين يبحثون عن سعادة أعلى من الإنسان، وآخرون يبحثون عن سعادة أدنى منه. لكن السعادة تكمن في ارتقاء الإنسان ذاته». هذا صحيح. لذلك لابد أن تكون هناك سعادة تلائم قوام كلّ إنسان. وهنا تكمن يا تلميذي ويا أستاذي العزيز، سعادتي اليوم. فأقيسها وأنا قلق، ثم أعود لأقيسها كي أرى ما حقيقة قوامي في تلك اللحظة. لأنك تعرف جيداً أن قوام الإنسان لا يبقى نفسه دائماً

كيف تتغير روح الإنسان حسب تغير المناخ، أو الصمت، أو الخلوة، أو الصحبة التي تعيشها!

وبسبب عزلتي هذه، لم يعد البشر يبدون لي كالنمل، بل على العكس، أصبحوا يبدون لي وحوشاً كاسرة ـ ديناصورات، زواحف مجنحة تعيش في جوّ مشبع بحامض الكاربونيك، ونباتات غليظة متعفنة. غابة عبثية لا يمكن إدراك كنهها. إنّ أفكار «الأمة» و«العرق» المولع بها أنت، وأفكار «الدولة العظمى» و«الإنسانية» التي أغوتني، تكتسب هنا القيمة ذاتها التي تميّز التدمير الشامل. نشعر بأننا طفنا إلى السطح كي نقول بضعة مقاطع، وأحياناً لا نقول ولا حتى مقطعاً واحداً، بل مجرّد أصوات مبهمة: ثم نتحطم. وإذا ما شرّحنا حتى أكثر

الأفكار سمواً، فإنها تبدو وكأنها ليست سوى دمى محشوة بالقش، وثمة نابض حديدي في هذا القش.

إنك تعرفني تمام المعرفة لتدرك أن هذه التأملات القاسية لا تجعلني أهرب، بل بالعكس، فهي مادة ملتهبة لا غنى عنها لتشعل ناري الداخلية. وكما قال معلمي بوذا: «لقد رأيت»، وما إن بدأت أرى، وبلمح البصر، حتى تصالحت مع الخالق المرح والنزواتي اللا مرئي، لذلك يمكنني أن أؤدي دوري على الأرض حتى النهاية، بمعنى آخر، بشكل متماسك وبدون إحباط. لأنه تبين لي، أنني أشارك أيضاً في تمثيل المسرحية التي تؤدى على خشبة مسرح الله.

وهكذا، فما إن أجيل بصري وأنا على خشبة مسرح العالم، حتى أتمكن من رؤيتك هناك، في القوقاز الأسطوري، وأنت تؤدي دورك أيضاً. إذ يمكنني أن أرى أنك تكافح لإنقاذ آلاف الأرواح من أبناء جنسنا الذين يتعرضون لخطر الموت. بروميثيوس مزيّف يعاني من عذابات حقيقية وهو يحارب قوى الظلام المتمثلة في الجوع والبرد والمرض والموت. ولكن بما أنك تشعر بالفخر، يجب أن تبتهج أحياناً بأنّ قوى التدمير السوداء كثيرة ومنيعة: ولهذا السبب فإن هدفك بالعيش بدون أمل تقريباً يصبح بطولياً وتكتسب روحك عظمة أكثر مأساوية.

لا بد أنك تعتبر الحياة التي تعيشها سعيدة. وبما أنك تراها هكذا، فهي كذلك. كما أنك فصّلت سعادتك حسب مقاسك وقوامك. وقوامك الآن ـ حمداً لله ـ أعظم من قوامي. فالأستاذ الجيد لا يريد مكافأة أعظم من هذه: أن يفوقه تلميذه.

لكنني أنسى في معظم الأحيان، أبخس نفسي قدرها، أضلّ طريقي، ويضحى إيماني مجرد فسيفساء من الكفر. وأشعر أحياناً بأني أريد أن أعقد صفقة: أن أعيش دقيقة واحدة قصيرة وأقايضها بباقي سنوات حياتي. لكنك تسيطر على سير الأمور بقوة ولا تنسى أبداً، حتى في أحلى لحظات هذه الحياة، الطريق الذي رسمته لنفسك.

أتذكر ذلك اليوم الذي كنا نعبر فيه إيطاليا ونحن في طريقنا إلى اليونان؟ إذ قرّرنا الذهاب إلى منطقة بونتوس التي كانت تتعرض للخطر آنذاك. ونزلنا من القطار بسرعة في بلدة صغيرة ولم يكن أمامنا سوى ساعة واحدة كي نلحق بالقطار الآخر. دخلنا إلى حديقة كبيرة مليئة بالأشجار بالقرب من المحطة. كانت تنتصب فيها أشجار عريضة الأوراق ينمو فيها الموز، والقصب يتماوج بألوانه الفضية الداكنة، ويطير النحل فوق غصن مزهر اهتز عندما رأى النحل يمتصّ رحيقه.

رحنا نمشي في نشوة صامتة، وكأننا كنا في حلم. وفجأة، وعند منعطف الدرب الذي تحفه الأزهار، برزت فتاتان، تقرآن كتاباً أثناء سيرهما. لم أعد أتذكّر إن كانتا جميلتين أم متوسطتي الجمال. ولا أذكر إلا أن واحدة منهما كانت شقراء، والثانية سمراء، وكانتا كلتاهما ترتديان بلوزات ربيعية

وبالجرأة التي يتحلى بها المرء في الأحلام، اقتربنا منهما وقلت لهما أنت: «مهما كان الكتاب الذي تقرآنه، فإننا سنناقشه معكما». كانتا تقرآن غوركي. ثم مضينا بسرعة لعدم توفر متسع من الوقت لدينا، ورحنا نتحدث عن الحياة، وعن الفقر، وعن ثورة العقل، وعن الحبّ.

ولن أنسى ما حييت بهجتنا وحزننا وسرعان ما أصبحنا نحن وهاتان الفتاتان المجهولتان أصدقاء قدامى، أحباء قدامى، وأصبحنا مسؤولين عن روحيهما وجسديهما، وأسرعنا، لأننا كنا سنغادرهما بعد دقائق قليلة إلى الأبد. وفي الهواء المنعش، شممنا رائحة النشوة والموت.

وصل القطار وأطلق صافرته. أجفلنا، وكأننا كنا نصحو من حلم. صافح أحدنا الآخر. كيف يمكنني أن أنسى قبضة أيدينا القوية والبائسة، الأصابع العشرة التي لم تكن تريد أن تنفصل. كانت إحدى الفتاتين شاحبة، والأخرى تضحك وترتعش.

وقلت لك آنذاك، لاكما أذكر: ماذا تعني اليونان وبلدنا والواجب؟ إنّ الحقيقة

هنا»، فأجبت: «اليونان وبلدك والواجب لا تعني شيئاً. ومع ذلك، ومن أجل ذلك اللا شيء، فإننا نسعى بإرادتنا إلى الدمار».

لكن لماذا أكتب لك كلّ هذا؟ كي أريك أنني لم أنس أياً من تلك اللحظات التي عشناها معاً. وكي تتاح لي الفرصة لأن أعبّر عما لا أستطيع أن أبوح به لك أبداً عندما نكون معاً بسبب عادتنا الجيدة (أو السيئة) في كبح مشاعرنا

والآن، وبما أنك لم تعد أمامي، ولا تستطيع أن ترى وجهي، ولم أعد أجازف الآن بأن أبدو ضعيفاً أو سخيفاً، يمكنني أن أقول لك إني أحبك من أعماق قلبي.

أنهيت رسالتي. تحدّثت مع صديقي، وشعرت بالارتياح. ناديت زوربا. كان جاثماً تحت صخرة كي لا يتبلّل، وكان يختبر المخطط الذي وضعه لإقامة المصعد.

ناديته «تعال يا زوربا. هيا نتمشى إلى القرية».

«إنك تمزح يا معلّم. ألا ترى أن السماء تمطر. ألا تستطيع أن تذهب وحدك؟».

«لا أريد أن أفقد إحساسي بالسعادة. فإذا ذهبنا معاً، لن أفقد إحساسي بالسعادة. هيا».

ضحك وقال:

«إني سعيد لأنك بحاجة إليّ. هيا إذن».

ارتدى معطفه الكريتي الصوفي الصغير ذي القلنسوة المدبّبة الذي كنت قد أعطيته له، وراح يخوض في الوحل، وسرنا باتجاه الطريق.

كان الرذاذ يهمي. وتوارت قمم الجبل. لم تكن هناك ريح تهب، وكانت

الأحجار تلمع. وكان الضباب قد غطى تلّ الفحم. وكأن وجه التلّ الذي يشبه وجه امرأة قد اكتسى بالحزن، كما لو أنها فقدت وعيها تحت رذاذ المطر

«إن قلب الرجل يعاني عندما يهطل المطر»، قال زوربا، «ولا يجب أن تحمّله أيّ نية سيئة يا معلّم. فلهذا المسكين التعيس روح أيضاً»

انحنى بالقرب من سياج وقطف أزهار نرجس برّية صغيرة. نظر إليها طويلاً، وكأنه يرى النرجس لأول مرة. أغمض عينيه وراح يشمّها، تنهد، ثم أعطاها لي.

«كم أتمنى لو كنا نعرف يا معلّم ما الذي تقوله الأحجار والمطر والأزهار. فلعلها تنادي ـ تنادينا ـ ولا نسمعها. متى سُتفتح آذان الناس يا معلّم ؟ متى ستُفتح عيوننا حتى ترى؟ متى سنفتح أذرعنا لنعانق كلّ شيء ـ الأحجار والمطر والأزهار والبشر؟ ما رأيك بهذا يا معلّم؟ وماذا تقول كتبك عن كلّ هذا؟»

«فليأخذها الشيطان!» قلت، مستخدماً عبارة زوربا المفضّلة، «فليأخذها الشيطان! هذا ما تقوله، ولا شيء آخر!».

أمسك زوربا بذراعي.

«سأحدثك عن فكرة خطرت ببالي يا معلّم، لكنّك يجب ألا تغضب. كوّم كتبك جميعها وأضرم النار فيها، وبعد ذلك من يعرف، فلن تعود أحمق، بل ستصبح إنساناً سوياً. وعندها قد نستطيع أن نصنع منك شيئاً!».

«إنك محقّ!» قلت لنفسي، «إنه محقّ، لكنني لا أستطيع».

تردّد زوربا وأطرق مفكراً، ثم قال:

«هناك شيء واحد يمكنني أن أراه. . ».

«ما هو؟ هيا قل!».

«لا أعرف، لكني أظن أني أراه فقط. لكنني إذا حاولت أن أخبرك، فإني سأخلط الأمور. عندما أكون في نفسية جيدة ذات يوم، سأرقص لك».

بدأ المطر يشتد. وصلنا إلى القرية. كانت الفتيات الصغيرات يسقن الخراف عائدات من المرعى، وكان الفلاحون قد حلّوا الثيران من نيرها وغادروا الحقول نصف المحروثة؛ وكانت النساء يجرين وراء أطفالهن في الشوارع الضيّقة. لقد دّب الرعب في أرجاء القرية عندما بدأ المطر يهطل بغزارة. وأطلقت النساء صيحات عالية، وكانت عيونهن تضحك على لحى الرجال وشواربهم المعقوفة التي علقت عليها قطرات كبيرة من المطر. وانبعثت من الأرض والأحجار والأعشاب رائحة لاذعة.

دلفنا إلى مقهى الاحتشام ـ ودكان الجزّار. كنا مثل جرذين مبللين. كان المقهى مكتظاً. وكان بعض الرجال يلعبون الورق، ويتجادلون بصوت مرتفع وكأن أحدهم ينادي الآخر من وراء الجبال. وفي الطرف الآخر من المقهى، تحلّق شيوخ القرية حول منضدة صغيرة: العمّ أناغنوستي مرتدياً قميصاً أبيض ذا أكمام واسعة؛ ومافراندوني، متجهماً وصامتاً، يدخّن نرجيلته، وعيناه مطرقتان في الأرض؛ ومدير المدرسة الضامر، المهيب نوعاً ما، المتوسط العمر، يتكئ على عكازه الغليظ وينصت بابتسامة متعالية إلى عملاق يكسو جسده الشعر عاد لتوه من كنديا ويصف أعاجيب تلك البلدة العظيمة. أما صاحب المقهى، فكان واقفاً وراء النضد، يصغي ويضحك فيما عيناه تراقب ركوات القهوة المصطفة فوق الموقد.

عندما رآنا نهض العمّ أناغنوستي وقال:

«تعالا وانضما إلينا يا إبني بلدي»، وأضاف، إن سفاكيانونيكولي يحدثنا عما رآه وسمعه في كنديا. إنه شيء مسل للغاية. هيا تعالا!

والتفت إلى صاحب المقهى وقال:

«أحضر كأسيّ عرق يا مانولاكي!».

جلسنا عندما رأى الراعي المتوحش غريبين موجودين، انكفأ إلى قوقعته ولاذ بالصمت.

«حسناً، يا معلّم نيكولي، ألم تذهب إلى المسرح أيضاً؟» سأل مدير المدرسة يحثه على الكلام. ما رأيك به؟

مدّ سفاكيانونيكولي يده الكبيرة، رفع كأس النبيذ، جرعها، واستجمع شجاعته وصاح:

«لم أذهب إلى المسرح؟» وأضاف، «طبعاً ذهبت! كان الجميع يتحدثون عن كوتوبولي هذه وكوتوبولي تلك. لذلك رسمت علامة الصليب وقلت: حسناً، لماذا لا أذهب وأرى بأم عيني؟ عمن يتحدثون بحق الشيطان ويحدثون كلّ هذه الجلبة عن كوتوبولي؟»[1]

«إذن مَاذا رأيت أيها الشاب؟» سأله العمّ أناغنوستي، «ماذا كانت؟ هيا أخبرنا، بحق الله».

«حسناً، وحق روحي لم يكن هناك شيء يذكر. فعندما تسمعهم جميعهم يتكلمون عن هذا المسرح، فإنك تقول لنفسك، الآن سأرى شيئاً. لكني أقول لكم، إنك تهدر نقودك. فهناك مكان كبير كالحانة، لكنه مستدير ويشبه أرض البيدر، مليء بالكراسي والأضواء والناس. لم أعرف أين أنا، وقد بهرتني الأضواء ولم أعد أستطيع أن أرى. يا للشيطان، قلت لنفسي، إنهم سيسحرونني بعد ذلك. لذلك قررت أن أخرج. لكن في تلك اللحظة، أتت فتاة وديعة ومرحة، وأمسكتني من يدي، وقالت: أهلاً بك! فصحت بها: إلى أين تأخذينني؟، لكنها شدتني ثم التفتت وطلبت مني أن أجلس، فجلست. فقط فكّروا بهذا الأمر. لم يكن هناك شيء إلا أناس من أمامي ومن ورائي وعلى كلا الجانبين، وحتى في الأعلى، حتى السقف. سأختنق، قلت لنفسي، سأنفجر. لا يوجد هواء على الإطلاق. ثم التفت إلى جاري وسألته هل لك أن تخبرني يا صديقي من أين تخرج تلك الراقصات؟».

---

(١) كوتوبولي ممثلة يونانية، وبولي تعني دجاجة.

فقال «من هناك وأشار إلى الستارة. وكان محقّاً أيضاً، لأنه بعد ذلك قرع جرس، وانفتحت الستارة وخرجت كوتوبولي تلك كما يقولون، أمامك على خشبة المسرح. لكن لا تسألوني لماذا يسمونها دجاجة: إنها امرأة، حسناً، ولديها كل تلك الأعضاء، ثم استدارت وراحت تهّز مؤخرتها إلى الأعلى والأسفل، وعندما لم يعودوا قادرين على التحمل، أخذوا يصفّقون، فهرعت إلى الداخل ثانية».

انفجر القرويون بالضحك. انزعج سفاكيانونيكولي وشعر بالخجل. والتفت نحو الباب وقال ليغيّر الموضوع: «انظروا إلى المطر الهاطل».

توجهت عيون الجميع إلى حيث ينظر. وفي تلك اللحظة كانت امرأة تركض، وشعرها يتناثر على كتفيها، وقد رفعت تنورتها السوداء حتى ركبتيها. كانت ذات قوام ممشوق، وثيابها مشدودة عليها، مبرزة جسداً مشدوداً فاتناً.

قلت في نفسي: «يا لها من حيوان مفترس، فقد بدت لي لدنة رشيقة وخطيرة، مفترسة الرجال».

التفتت المرأة، وألقت نظرة سريعة إلى المقهى.

«أيتها القديسة مريم!» دمدم شاب ساذج ذو لحية ناعمة من الزغب، كان يجلس قرب النافذة.

«فلتحل اللعنة على غاوية الرجال تلك!» هدر مانولاكاس، شرطي القرية، «اللعنة عليك، تضرمين النار في الرجل وتتركينه يحترق».

بدأ الشاب الجالس بالقرب من النافذة يدمدم، في البدء بهدوء وبتردد، ثم أصبح صوته أجشاً:

يفوح من وسادة الأرملة أريج سفرجلة عطرة

وأنا أيضاً عرفت ذلك الأريج ولم يعد يغمض لي جفن

«اخرس»، صرخ مافراندوني، ملوحاً بأنبوب نرجيلته.

سكت الشابّ. انحنى رجل عجوز إلى مانولاكاس، الشرطي.

همس: «بدأ عمك يغضب، وإذا وقعت بين يديه فإنه سيقطّع هذه المسكينة التعيسة إرباً. فلتحل رحمة الله علينا!».

قال مانولاكاس: «آه، يا أندروليو العجوز، أظن أنك تجري وراء تنورة الأرملة أيضاً. وأنت شمّاس! ألا تخجل من نفسك؟».

«استمع إليّ، وليحلّ الله رحمته بها! لعلك لم تلاحظ نوع الأطفال الذين ولدوا في القرية مؤخراً؟ وأنا أقول فليبارك الله في الأرملة! فهي، لعلي أستطيع أنَ أقول، عشيقة القرية كلها: فما إن تطفئ الضوء، حتى لا تعود ترى أنك تضم زوجتك بين ذراعيك، بل تلك تضم الأرملة. ولهذا السبب، بدأت قريتنا تنجب إلى العالم مثل هؤلاء الأطفال الجميلين!»

بعد لحظة من الصمت، همس أندروليو العجوز:

«أسعد الله الأفخاذ التي تعانقها! آه يا صديقي، كم أتمنى لو كنت في العشرين من عمري مثل بافلي الشاب، ابن مافراندوني!»

«سنراها الآن عائدة إلى البيت!» قال أحدهم وضحك.

التفتوا جميعهم نحو الباب. كان المطر ينهمر بغزارة. وكانت قطرات المطر تهطل على الأحجار وتصدر غرغرة. وكان البرق يضيء السماء بين الحين والآخر. أخذ زوربا يلهث عندما مرت الأرملة. ولم يتمالك نفسه. فقال لي متنهداً:

«إن المطر على وشك أن يتوقف يا معلم».

ظهر صبي صغير، مشعّث الشعر، حافي القدمين، ذو عينين كبيرتين وحشيتين عند الباب. بهذه الطريقة يصوّر الرسامون أيقونة القديس يوحنا المعمدان مجسماً الجوع والصلاة.

«مرحبا يا ميميكو!»صاح عدد من الرجال في المقهى وهم يضحكون».

يوجد في كلّ قرية شخص مجذوب، وإذا لم يكن يوجد أحد، فإنهم يخترعون واحداً لتزجية الوقت. وكان ميميكو مجذوب هذه القرية.

«أيها الأصدقاء»، قال ميميكو متلعثماً بصوته المخنث، «أيها الأصدقاء، لقد أضاعت الأرملة سورميلنا نعجتها. وهناك جائزة غالون من النبيذ لمن يعثر عليها».

«اخرج» صاح مافراندوني العجوز، «اخرج من هنا».

تكوّر ميميكو خائفاً في زاوية بجانب الباب.

«اجلس، يا ميميكو، واحتسِ كأساً من العرق كي لا تصاب بالزكام!» قال العمّ أناغنوستي، وقد شعر بالحزن عليه. «ماذا سيحدث لقريتنا لو لم يكن فيها مجذوب؟».

ظهر عند الباب شاب نحيل، ذو عينين زرقاوين دامعتين. كان منقطع الأنفاس وشعره، الذي يفترش جبهته، يقطر ماء.

«أهلاً يا بافلي»، صاح مانولاكاس، «أهلاً بابن العم! اجلس».

التفت مافراندوني إلى ابنه وعبس.

«هل هذا ابني؟» تمتم لنفسه، «هذا التافه الصغير! من يشبه بحق الشيطان؟ كم أتمنى أن أمسكه من قفا رقبته وأخبطه على الأرض مثل أخطبوط صغير».

كان زوربا مثل قطة تجلس على طوب حارّ. فقد ألهبت الأرملة أحاسيسه، ولم يعد يستطيع أن يحتمل المكوث بين هذه الجدران الأربعة.

«لنذهب يا معلّم، هيا لنذهب»، كان يهمس في كل ثانية، «إننا سننفجر هنا!»

نظر إليه وكانت الغيوم قد تناثرت، وأشرقت الشمس.

التفت إلى صاحب المقهى وسأله:

«من هي تلك الأرملة؟» متظاهراً بعدم الاكتراث.

«فرس أصيلة»، أجابه كوندومانوليو.

وضع إصبعه على شفتيه وألقى نظرة ذات مغزى إلى مافراندوني، الذي أطرق برأسه ثانية على الأرض.

وكرّر كلامه: «فرس. دعنا لا نتكلّم عنها كي لا تصيبنا اللعنة!».

نهض مافراندوني ولفّ الأنبوب حول عنق النرجيلة وقال:

«اعذرني، إني ذاهب إلى البيت يا بافلي، الحقني».

أخذ ابنه. سارا أمامنا واختفيا على الفور في المطر نهض مانولاكاس أيضاً وتبعهما

جلس كوندومانوليو في الكرسي الذي كان يجلس عليه مافراندوني.

«مافراندوني العجوز المسكين»، قال بصوت منخفض لم يسمعه الجالسون إلى الطاولات المجاورة، «إنه سيموت حنقاً. لقد أصابت بيته بلية عظيمة. فقد سمعت بافلي البارحة بأذنيّ هاتين، يقول لأبيه: إن لم تصبح زوجتي، فإني سأنتحر! لكن تلك الساقطة لا تريد أن تقيم أي علاقة معه. وهي تقول له أن يجري بعيداً ويمسح أنفه».

«هيا لنذهب»، كرّر زوربا. فبعد كلّ كلمة تقال عن الأرملة كان يزداد شوقاً ولهفة.

بدأت الديوك تصيح. وخفت حدة المطر. قلت: «هيا، إذن»، وأنا أنهض.

قفز ميميكو من الزاوية التي يجلس فيها وخرج وراءنا.

كانت الأحجار تلمع؛ وبدت الأبواب التي يسيل منها الماء سوداء؛ وخرجت النساء العجائز الضامرات يحملن سلالهن للبحث عن الحلزون.

اقترب مني ميميكو ولمس ذراعي وقال:

«سيكارة يا سيد»، إنها ستجلب لك حظاً سعيداً في الحب. أعطيته سيكارة. مدّ يداً نحيلة سفعتها الشمس، «أشعلها لي أيضاً!».

أشعلتها له. سحب الدخان إلى رئتيه، وبعينين نصف مغمضتين، نفث الدخان من خياشيمه، وهمهم: «الباشا سعيد!».

«إلى أين أنت ذاهب؟».

«إلى حديقة الأرملة. قالت إنها ستقدم لي قليلاً من الطعام إذا ما أذعت خبر نعجتها».

بدأنا نغذّ الخطى. كانت الغيوم قد تبددت، والقرية بأكملها غُسلت وبدت جديدة وباسمة.

«هل تحبّ الأرملة، يا ميميكو؟» سأله زوربا بتنهدة.

ضحك ميميكو ضحكة خافتة.

«صديقي، لماذا لا أحبّها؟ ألم أخرج من البالوعة كالآخرين؟».

«بالوعة؟» قلت مندهشاً، «ماذا تقصد يا ميميكو؟».

«حسناً، أقصد من أحشاء أمي».

دُهشت. وقلت في نفسي إن أحداً لا يستطيع أن يجد عبارة بمثل هذه الواقعية الصريحة لتصوير لغز الولادة المظلم والكريه سوى شكسبير في أكثر لحظاته الإبداعية.

نظرت إلى ميميكو. كانت عيناه كبيرتين منتشيتين، وفيهما حول طفيف.

«كيف تمضي أيامك يا ميميكو؟».

«ماذا تظن؟ إني أعيش مثل لورد! أستيقظ في الصباح، آكل كسرة خبز ثم أقوم بأعمال صغيرة عديدة للناس، في أي مكان، أيّ شيء، أؤدي مهاماً للآخرين، أنقل الروث في العربة، أجمع روث الحصان، وعندي صنارة سمك. وأنا أعيش مع عمتي، الأمّ لينيو، النادبة المحترفة. لا بد أن تتعرف عليها، فالجميع يعرفونها حتى أنهم التقطوا لها صورة. في المساء أعود إلى البيت، أشرب طاسة من الحساء، وقطرة من النبيذ إن كان يوجد منه شيء وإن

لم يكن يوجد منه شيء، فإني أشرب ما يكفيني من ماء الله حتى تنتفخ بطني وتصبح مثل طبل. ثم طابت ليلتك!».

«ألن تتزوّج يا ميميكو؟».

«ماذا، أنا؟ لست مجنوناً! ما الذي تسأله الآن يا صديقي؟ هل عليّ أن أقيّد نفسي بالمتاعب؟ فالمرأة بحاجة إلى حذاء! أين يمكنني أن أجد لها حذاء؟ أنظر، فأنا أمشي حافي القدمين!».

«ألا يوجد لديك حذاء؟».

«من تحسبني؟ بالطبع لديّ! فقد توفي أحد الرجال في العام الماضي وسحبت عمتي لينيو الحذاء من قدميه. أنتعله في عيد الفصح وعندما أذهب إلى الكنيسة وأحدّق في الكاهن. ثم أخلعه وأعلقه حول رقبتي وأعود إلى البيت».

«ما أكثر شيء تحبّه يا ميميكو؟».

«أولاً، الخبز. آه، كم أحبّه! هشّاً وساخناً، وخاصة إذا كان خبز حنطة. ثم النبيذ. ثم النوم».

«وماذا عن النساء؟».

«أففف! آكل وأشرب وأنام. أما ما تبقى فهو مجرد متاعب!».

«وماذا عن الأرملة؟».

«آه، فليأخذها الشيطان، أقول لك، إن كنت تعرف ما هو مفيد لك! امشي خلفي أيها الشيطان!».

وبصق ثلاث مرات ورسم شارة الصليب.

«هل تجيد القراءة؟».

«تلآن، انظر هنا، فأنا لست أحمق إلى هذه الدرجة! فعندما كنت صغيراً ذهبت إلى المدرسة، لكنني كنت محظوظاً. فقد أصبت بالتيفوئيد وأصابني البله. وهكذا تمكنت من ترك المدرسة!».

لم يعد زوربا يحتمل أسئلتي لهذا المجذوب. فلم يكن بإمكانه أن يفكّر بشئ سوى الأرملة.

«يا معلّم. .»، قال وأمسك بذراعي. ثم التفت إلى ميميكو وطلب منه أن يسير أمامنا، وقال له: «ثمة شيء نريد أن نتحدث عنه».

قال: «يا معلّم، أريد أن أعتمد عليك في هذا الأمر. لا تخذل جنس الرجال! فقد أرسل لك الله ـ الشيطان، هذه اللقمة الشهية. ولديك أسنان. حسناً، استخدم أسنانك. مدّ ذراعك وخذها! لماذا أعطانا الخالق أيادي؟ كي نتناول الأشياء بها! لذلك خذها! لقد رأيت أكداساً من النساء في حياتي. لكن تلك الأرملة اللعينة تجعل أبراج الكنائس تهتزا».

«لا أريد متاعب!» أجبت غاضباً.

غضبت لأنني كنت في أعماق قلبي أشتهي ذلك الجسد القوي الذي مرّ بالقرب مني مثل حيوان بري شبق، يقطر مسكاً.

«لا تريد متاعب!» قال زوربا منشدهاً، وأضاف، «بحق الله، وماذا تريد إذن؟».

لم أحر جواباً.

وتابع زوربا قائلاً: «إن الحياة متاعب، أما الموت فلا أن تعيش ـ هل تعرف ماذا يعني هذا؟ أن تفك حزامك وتبحث عن المتاعب!».

لم أقل شيئاً. كنت أعرف أن زوربا على حق، كنت أعرف ذلك، لكن لم تكن لديّ الجرأة. إني أعرف أن حياتي كانت تسير في الطريق الخطأ، ولم يعد اتصالي مع الرجال الآن سوى مجرّد مناجاة للنفس. لقد سقطت إلى الحضيض إلى حد أنه إذا تعين عليّ أن أختار بين الوقوع في حبّ امرأة وقراءة كتاب عن الحبّ، فإني سأختار الكتاب.

«لا تحسبها كثيراً يا معلّم»، تابع زوربا، «وأقول لك دع أرقامك وشأنها،

حطّم كفتيّ الميزان، أقفل دكانك. والآن إما أن تنقذ روحك أو أنك ستفقدها. اسمع يا معلّم، خذ منديلاً، وضع فيه أونصتين أو ثلاث أونصات من الذهب، لأن الأوراق لا تبهر، وأرسلها إلى الأرملة بواسطة ميميكو. علّمه ما سيقول: إن صاحب المنجم يرسل لك أطيب تحياته وهذا المنديل الصغير إنه يقول إنه مجرد شيء صغير، لكن حبّه كبير ويقول أيضاً لا تقلقي على النعجة؛ لا تنزعجي إذا ضاعت، فأنا هنا، لا تخافي! ويقول إنه رآك تمرين من أمام المقهى وقد وقع مريضاً ولا يستطيع أحد أن يشفيه من مرضه سواك!

«والآن! اذهب إليها في المساء واقرع باب بيتها. يجب أن تطرق الحديد وهو حام. قل لها إنك ضللت طريقك. والطريق معتم، واطلب منها أن تعيرك فانوساً. أو قل لها إنك أصبت بدوار وتريد كأساً من الماء. بل الأفضل من ذلك، اشترِ نعجة أخرى وخذها لها، وقل لها: انظري يا سيدتي، ها هي النعجة التي أضعتها، وقد عثرت عليها من أجلك! والأرملة ـ اسمع ما سأقول يا معلم ـ ستكافئك الأرملة وتدخل إلى. الله القدير، كم أتمنى أن أمتطي فرسك خلفك ـ أقول لك يا معلّم، إنك ستدخل الجنة على ظهر فرس. لو كنت تبحث عن جنة غير هذه، فهي ليست موجودة يا رفيقي المسكين! لا تنصت إلى ما يقوله لك القساوسة، لا توجد جنة غيرها!».

لا بد أننا كنا نقترب من حديقة الأرملة، لأن ميميكو تنهّد وبدأ يغني حزنه بصوته المتلعثم:

النبيذ للكستناء، والعسل للجوزا

الفتاة للفتى، والفتى للفتاة.

سار زوربا بساقيه الطويلتين، وفتحتا أنفه ترتعشان. توقّف فجأة، أخذ نفساً طويلاً. وحدّق في عينيّ مباشرة، وقال: «حسناً؟ .».

وانتظر متلهفاً.

«سأفعل ذلك!» أجبت بفظاظة.

ورحت أغذّ الخطى.

هزّ زوربا رأسه ودمدم شيئاً لم أفهمه.

عندما وصلنا إلى الكوخ، جلس القرفصاء وأسند السنتوري إلى ركبتيه وخفض رأسه، واستغرق في تأمل عميق. بدا وكأنه ينصت، ورأسه على صدره، إلى عدد لا يحصى من الأغاني ويحاول أن يختار واحدة منها، أجملها وأكثرها يأساً. وأخيراً وقع اختياره على أغنية وبدأ يعزف لحناً يمزق نياط القلب. وكان ينظر إليّ بطرف عينه بين الحين والآخر. وأحسست أن الأشياء التي لم يجرؤ أن يقولها لي في كلمات، قالها عزفاً على السنتوري. إنني أضيّع حياتي سدى، وإنني أنا والأرملة حشرتان تعيشان للحظات تحت أشعة الشمس، ثم تموتان إلى الأبد. لا أكثر! لا أكثر!

هبّ زوربا واقفاً. فقد أدرك فجأة أنه يتعب نفسه دون جدوى. استند إلى الحائط، وأشعل سيكارة، ثم بدأ يتكلّم.

«سأفضي إليك بسر يا معلم، شيء قاله لي خوجا ذات يوم عندما كنت في سالونيكا. وسأقوله لك، حتى لو لم يكن ذا فائدة».

«وقتئذ، كنت بائعاً متجولاً في مقدونيا. وكنت أجوب القرى وأبيع بكرات خيطان، وإبراً، وحياة القديسين، والحشيشة المباركة، وبهارات. كان لديّ صوت جميل، كنت آنذاك عندليباً حقيقياً يجب أن تعرف أن النساء يستسلمن للصوت الجميل أيضاً. لكن ما الشيء الذي لا يستسلمن له ـ هؤلاء المغناجات! لا يعرف أحد إلا الله ما يدور في أعماقهن! فقد تكون قبيحاً كالإثم، أعرجاً أو أحدب، وإذا كنت تتمتع بصوت جميل وتجيد الغناء، عندها تفقد النساء عقولهن تماماً».

«كنت أطوف أيضاً في سالونيكا، بل وكنت أذهب إلى المناطق التركية. وبدا أن امرأة مسلمة غنية، ابنة باشا أُعجبت بصوتي، فلم يعد يغمض لها جفن.

واستدعت خوجا عجوزاً وملأت يديه بالمجيديات. وقالت له: أمان اذهب وقل لهذا البائع المتجوّل الكافر أن يأتي إلى هنا. أمان، يجب أن أراه. لم أعد أحتمل!»

«جاء الخوجا يبحث عني وقال: اسمع أيها الرومي الشاب، تعال معي، قلت: لا إلى أين تريد أن تأخذني؟ إن ابنة الباشا التي تشبه مياه النبع الصافية تنتظرك في غرفتها. هيا تعال أيها الرومي الصغير! لكنني سمعت أنهم يقتلون المسيحيين الكفار في المناطق التركية. قلت: لا، لن آتي. ألا تخاف الله، أيها الكافر؟ لماذا يجب عليّ؟ لأنه، أيها الرومي الصغير، من يستطيع أن ينام مع امرأة ولا يفعل ذلك، فإنه يرتكب إثماً عظيماً. يا ولدي، إذا دعتك امرأة إلى فراشها ولم تلب دعوتها، تحطمت روحك! وستتنهّد تلك المرأة يوم القيامة أمام الله، ومهما كنت تقياً ومهما كانت أعمالك صالحة، فإن الله سيلقي بك في نار جهنم!».

ثم قال زوربا متنهداً:

«وقال إذا كانت هناك جهنم، فإني سأذهب إلى جهنم، وسيكون ذلك هو السبب. لا لأني سرقت، أو قتلت أو زنيت، لا! كلّ هذه الأمور لا تعني شيئاً. لكنني سأذهب إلى الجحيم لأن امرأة كانت تنتظرني في فراشها ذات ليلة في سالونيكا ولم أذهب إليها. . .».

نهض، أوقد النار وبدأ يطهو طعامنا. نظر إليّ من زاوية عينه وابتسم بازدراء، وتمتم: «يمكنك أن تقرع باب رجل أصمّ إلى الأبد».

ثم انحنى وراح ينفخ على الحطب الرطب بغضب ليطفئ النار.

[9]

بدأ النهار يقصر، وأصبح ضوء النهار يزول بسرعة. وفي الساعات الأخيرة من عصر كلّ يوم، يبدأ القلب يشعر بالاضطراب.

كان يتملكنا رعب بدائي ـ الرعب الذي كان يتملك أسلافنا وهم يراقبون الشمس في الشتاء وهي تميل إلى الغروب في وقت أبكر في كلّ يوم. ولا بدّ أنهم كانوا يعتقدون أن الشمس «ستغيب إلى الأبد في الغد»، لذلك كانوا يمضون الليلة بأكملها فوق المرتفعات خائفين مرتجفين.

وكان هذا الشعور يعتري زوربا بعمق وعلى نحو بدائي أكثر مما كان يعتريني. ولتحاشي ذلك، لم يكن يغادر أنفاق المنجم حتى يهبط الظلام وتمتلئ السماء بالنجوم.

وكان زوربا قد اكتشف خطاً من الفحم الممتاز الذي لم يكن يصدر كثيراً من الرماد، والذي لم يكن شديد الرطوبة وغنياً بالحريرات. كان سعيداً باكتشافه هذا، لأنه رأى أن أرباحنا ستمر في مرحلة من التحولات الرائعة التي تتألف من رحلات ونساء ومغامرات جديدة. فقد كان ينتظر بفارغ الصبر اليوم الذي يصبح فيه ثرياً، عندما يكبر جناحاه ـ فقد كان «الجناح» الاسم الذي يطلقه على المال ـ كي يحلّق بعيداً. لذلك كان يمضي ليالي كاملة وهو يختبر نموذج سكة الحديد المعلقة بالكابل، ولا يكف عن البحث عن المنحدر الملائم الذي ستهبط عليه جذوع الأشجار ببطء، وكأن الملائكة تحملها، على حد قوله.

وذات يوم، أخذ ورقة كبيرة وبضع أقلام تلوين ورسم الجبل والغابة والخطّ

والجذوع المعلقة من الكابل وهي تنحدر، وقد أعطى كلاً منها جناحين أزرقين. وفي الخليج الصغير المستدير، رسم قوارب سوداء، وبحّارة بلون أخضر، مثل ببغاوات صغيرة، وزوارق تحمل جذوع أشجار صفراء. ورسم راهباً في كلّ زاوية من الزوايا الأربع، تخرج من أفواههم أشرطة وردية كُتب عليها بحروف كبيرة سوداء: «عظيم هو الله وأعماله رائعة!».

ومنذ أيام قليلة، أوقد زوربا النار على عجل، وأعدّ وجبة العشاء، وما إن أنهينا طعامنا، حتى هرع إلى القرية، وعاد بعد قليل متجهماً.

سألته: «إلى أين ذهبت في المرة الثانية يا زوربا؟».

فقال: «لا تهتم بذلك يا معلّم»، وغيّر الموضوع.

وعندما عاد ذات مساء، سألني بقلق: «هل الله موجود ـ أجبني بنعم أم لا؟ ماذا تظن، يا معلّم؟ وإذا كان الله موجوداً ـ إذ إن أي شيء ممكن ـ فما شكله في رأيك؟»

هززت كتفي.

إني لا أمزح يا معلّم. إني أعتقد أن الله يشبهني تماماً. مع فارق أنه أكبر مني حجماً، وأشد قوة، وأكثر جنوناً. ولكي تكتمل القصة كلها فهو خالد، يتربع فوق كومة من جلد الغنم الناعم، وكوخه السماء، بفارق أنها ليست مصنوعة من صفائح بنزين قديمة، مثل الصفائح التي لدينا، بل مصنوعة من السحب. ولا يحمل في يده اليمنى سكيناً أو ميزاناً ـ فهذا الشيء لا يستخدمه إلا الجزّارون والبقالون فقط ـ لا، بل يحمل إسفنجة كبيرة مليئة بالماء، مثل سحابة مطر. وعلى يمينه الجنة، وعلى يساره النار. وإلى هنا تأتي الروح، المسكينة الصغيرة، عارية تماماً، لأنها فقدت عباءتها ـ أقصد جسدها ـ وهي ترتعش. ينظر الله إليها، ويضحك في سريرته، لكنه يؤدي دور الغول ويقول مزمجراً تعالي إلى هنا أيتها النفس التعيسة اللعينة

«ويبدأ يستجوبها. ثم تلقي الروح العارية بنفسها عند قدميّ الله وتصيح

رحماك! لقد أثمت، وتبدأ تسرد ذنوبها. تردد كلاماً غير مفهوم لا نهاية له. ويعتري الله الملل، فيتثاءب ويقول: بحق السماء توقفي! لقد سمعت ما يكفي! وبضربة واحدة يعصر الإسفنجة، ويمسح جميع ذنوبها، ويقول للروح هيا اذهبي، اذهبي، أسرعي إلى الجنة! ويضيف، يا بطرس، أدخل هذا المخلوق المسكين أيضاً!».

«وبما أن الله، كما تعرف، رب عظيم، فهذا يعني أنه إله حقيقي أي أنه يغفر!».

أذكر أني ضحكت كثيراً في ذلك المساء، فيما كان يتدفق من فم زوربا كل هذا الهراء العميق. لكن «عظمة» الله بدأت تتشكل وتنضج في نفسي، بأن الله رحيم وكريم وقدير.

وفي أمسية أخرى، عندما كنا متربعيّن في الكوخ بجانب الموقد نشوي حبات من الكستناء، والمطر يهطل بغزارة، التفت زوربا إليّ ورمقني طويلاً وكأنه يحاول أن يكشف لغزاً عظيماً. وأخيراً، بعد أن لم يعد قادراً على تمالك نفسه، قال:

«يا معلّم، أريد أن أعرف ما هو الشيطان الذي تراه في داخلي». لماذا لا تشدني من أذني وتلقي بي إلى الخارج؟ لقد قلت لك إنهم أطلقوا عليّ اسم «عفن»، لأني حيثما حللت، لا أترك قطعة حجر فوق أخرى. إن أمورك ستخرب وتفسد. إني أنصحك بأن تطردني!

«لكن ألا تدرك يا معلّم أنّ وزن دماغي ليس هو الوزن الذي يجب أن يكون حقاً؟ فربما كان وزنه أكثر قليلاً، أو أقل قليلاً، لكنه بالتأكيد ليس هذا وزنه الصحيح! انظر، أرجو أن تفهم ما سأقوله لك: فأنا لم أنعم بالراحة منذ أيام وليال بسبب تلك الأرملة. لا، لا أعني بسببي. لا، أقسم لك. فليأخذها الشيطان. من المؤكد أني لن ألمسها. فهي لا تناسبني. لكنني لا أريد أن نخسرها للآخرين. ولا أريدها أن تنام وحدها، فهذا غير لائق يا معلّم. لا

أستطيع أن أتحمّل هذه الفكرة. لذلك أطوف في الليل حول حديقة بيتها ـ لهذا تراني أختفي وتسألني أنت إلى أين ذهبت. لكن هل تعرف لماذا؟ لأرى إن كان أحد سيذهب إلى فراشها، وعندها يرتاح بالي».

ضحكت.

«لا تضحك يا معلّم! إذا نامت المرأة في الفراش وحدها، فهذا خطأنا نحن الرجال. وسنكون جميعنا مسؤولين عن ذلك أمام الله يوم القيامة. إنّ الله يغفر الذنوب جميعاًـ كما قلنا ـ فقطعة الإسفنج جاهزة. أما هذا الذنب فلا يغفره. ويل للرجل الذي يستطيع أن ينام مع امرأة ولا يفعل ذلك! ويل للمرأة التي تستطيع أن تنام مع رجل ولا تفعل ذلك! تذكّر كلمات الخوجا!».

لاذ بالصمت لوهلة، ثم سأل فجأة:

«عندما يموت الإنسان، هل يمكن أن يعود إلى الحياة مرة أخرى؟».

«لا أظن يا زوربا».

«ولا أنا. لكنه لو عاد، فإن جميع هؤلاء الرجال الذين ذكرناهم، الذين رفضوا أن يخدموا الآخرين، الهاربين، سيعودون إلى الأرض، تصوّر كيف؟ كالبغال!».

صمت ثانية وراح يفكّر. ثم تألقت عيناه بغتة، وقال مستثاراً من اكتشافه هذا:

«من يدري، فربما البغال التي نراها اليوم في عالمنا هذا كانت هؤلاء الناس: المعوّقون والهاربون الذين كانوا في حياتهم رجالاً ونساء ـ وفي الوقت نفسه لم يكونوا كذلك. لذلك فهم لا يتوقفون عن الركل والرفس. ما رأيك يا معلّم؟»

«أن وزن دماغك أقل من المطلوب يا زوربا»، أجبت، ضاحكاً، «هيا أحضر السنتوري».

«لا تغضب يا معلّم، لكنني لن أعزف على السنتوري الليلة. إذا تابعت الكلام، الكلام السخيف، هل تعرف لماذا؟ لأنه توجد في رأسي هموم كثيرة.

إن النفق الجديد ـ فليأخذه الشيطان ـ يضغط على أعصابي. وها أنت تحدثني عن السنتوري .».

ثم أبعد حبات الكستناء من فوق الرماد، وقدم لي حفنة منها، وملأ كأسينا بالعرق.

«أرجو من الله أن يرجح كفة الميزان اليمنى!» قلت، وأنا أقرع كأسي بكأسه.

«الكفة اليسرى!» قال زوربا مصححاً، «الكفة اليسرىٰ! حتى الآن، لا تعطي الكفة اليمنى شيئاً جيداً».

جرع السائل الناري بجرعة واحدة وتمدد على سريره.

وقال: «سأكون غداً بحاجة إلى كامل قواي. يجب أن أحارب ألف شيطان وشيطان. طابت ليلتك!».

مع بزوغ فجر اليوم التالي، اختفى زوربا في المنجم. وحقق الرجال تقدّماً في حفر النفق على امتداد العرق الجيد. أخذ الماء يرشح من السقف فانهمك الرجال في سدّ الثغرات بالطين الأسود.

كان زوربا قد طلب قبل يومين جذوع أشجار لتعزيز دعائم النفق. لكنه كان قلقاً. فلم تكن الدعائم كبيرة كما يجب، وبغريزته العميقة التي جعلته يحسّ بكلّ ما يجري في تلك المتاهة تحت الأرض وكأنها جسده، كان يعرف في قرارة نفسه أن الدعائم لم تكن آمنة. إذ كان يسمع أصوات صرير وطقطقة خافتة، لم يكن يسمعها الآخرون ـ وكأن دعامات السقف تئنّ تحت عبء ثقيل.

وثمة شيء آخر جعل زوربا يزداد قلقاً في ذلك اليوم. فعندما كان يستعد للهبوط إلى النفق، مرّ بالقرب منه بابا ستيفانوس، كاهن القرية، يمتطي دابته، مسرعاً إلى الدير في القرية المجاورة ليمنح السرّ المقدس الأخير لراهبة كانت على فراش الموت. ومن حسن الحظ، كان لدى زوربا وقت كاف ليبصق على الأرض ثلاث مرات، ويقرص نفسه قبل أن يكلمه الكاهن.

«صباح الخير يا أبتي!» أجاب بتجهم محيياً الكاهن، ثم أضاف بصوت أخفض:

«لتحلّ لعنتك عليّ».

لكنه أحسّ أن هذا الدعاء لم يكن كافياً، وهبط حانقاً إلى النفق الجديد.

كانت هناك رائحة ثقيلة من الفحم والأسيتيلين. وكان الرجال قد شرعوا في تدعيم الأعمدة التي تسند سقف النفق. ألقى عليهم زوربا تحية الصباح بطريقة فظّة، عنيفة، وشمّر عن أكمامه وبدأ يعمل.

وكان اثنا عشر رجلاً قد بدأوا يحفرون ويكوّمون الفحم عند أقدامهم، فيما أخذ آخرون ينقلونه بمجارفهم إلى عربات صغيرة.

توقّف زوربا بغتة، وأشار إلى الرجال أن يتوقفوا أيضاً، وشنّف أذنيه. وكما يتماهى الفارس مع حصانه، والقبطان مع سفينته، تماهى زوربا مع المنجم. فقد كان يشعر بالسراديب في النفق وكأنها عروق تسري في جسده، والشيء الذي لم تكن تشعر به كتل الفحم السوداء، كان زوربا يشعر بها بوضوح إنساني واع.

بعد أن أنصت باهتمام شديد بأذنيه الكبيرتين المشعرتين، نظر إلى النفق. وصلت في تلك اللحظة. وكنت قد استيقظت مجفلاً، وكأن هاجساً قد أيقظني، وكأن يداً قد حثتني على النهوض. فارتديت ثيابي بسرعة وهرعت خارجاً، دون أن أعرف السبب الذي جعلني أفعل ذلك، أو إلى أين كنت ذاهباً. لكن جسدي اتجه مباشرة إلى طريق المنجم. وصلت عندما كان زوربا ينصت وينظر قلقاً.

«لا شيء. . »، قال بعد لحظات، «ظننت لوهلة. لا يهم. عودوا إلى العمل يا فتيان!».

التفت، رآني وزمّ شفتيه.

«يا معلّم، ماذا تفعل هنا في هذه الساعة المبكرة؟».

اقترب مني.

«لماذا لا تصعد وتشم هواء نقياً يا معلّم؟» همس، «يمكنك أن تأتي في يوم آخر وتقوم بجولتك الصغيرة».

«ماذا في الأمر يا زوربا؟».

«لا شيء. كنت أتخيّل أشياء. لقد صادفت كاهناً في طريقي هذا الصباح. اذهب».

«لو كان هناك أيّ خطر، أليس من العار أن أغادر؟».

«نعم»، أجاب زوربا.

«هل ستغادر؟».

«لا».

«ماذا إذن!».

فأجاب بغضب: «ما يجب على زوربا أن يفعله، شيء، وما يجب أن يفعله الآخرون شيء آخر! لكن بما أنك ترى أنه من العار أن تغادر، فلا تغادر. ابق هنا. إنها جنازتك!».

وأخذ مطرقة ثقيلة ووقف على أطراف أصابعه وأخذ يدق بضعة مسامير في دعامة السقف. أخذت مصباح أسيتيلين من أحد العواميد ورحت أخوض في الطين، أنظر إلى العروق المشعة الداكنة. لا بد أن ملايين الغابات الهائلة قد ابُتلعت منذ سنوات كثيرة، وهضمتها الأرض، وجعلتها أطفالاً لها. وتحوّلت الأشجار إلى ليغنايت، وتحوّل الليغنايت إلى فحم، وجاء زوربا

علّقت المصباح ثانية على المسمار ورحت أراقب زوربا وهو يعمل. كان مستغرقاً تماماً في عمله؛ لم يكن يفكّر بأي شيء آخر؛ كان مستغرقاً في الأرض والفحم. لقد اتحد هو والمطرقة والمسامير في الكفاح ضد الخشب. كان يعاني

من سقف النفق المنبلج. ناوش سفح الجبل ليحصل على الفحم بالدهاء والقوة. وكان لدى زوربا إحساس بغريزة أكيدة لا تخطئ، وكان يضرب بذكاء في الأماكن الأضعف التي يمكنه أن يسيطر عليها. وعندما ظهر، كان يكسوه التراب والأوساخ، ولم يكن يظهر منه سوى بياض عينيه، وبدا لي وكأنه مموّه بالفحم، أو أنه أصبح هو نفسه قطعة فحم، ليتمكن من مباغتة خصمه واختراق حصونه الداخلية.

«برافو، يا زوربا! هيا!» صحت بإعجاب ساذج.

لكنه لم يلتفت نحوي. إذ كيف يكلّم، في تلك اللحظة، دودة كتب، الذي بدلاً من أن يستخدم فأساً، كان يمسك بيده قرمة قلم رصاص بائسة؟ كان مشغولاً، ولم يكن يرغب في التحدث. «لا تتحدث معي عندما أعمل»، قال لي ذات مساء، «فمن الممكن أن أنهش!».

«تنهش يا زوربا؟ لماذا؟».

«ها قد عدت إلى لماذا وكيف! مثل طفل صغير! إلى متى يمكنني أن أشرح لك؟ فأنا مستغرق تماماً في عملي، غارق من رأسي حتى قدمي، أفكّر بالحجارة أو بالفحم أو بالسنتوري. إذا لمستني فجأة أو حدثتني وحاولت أن ألتفت، فمن الممكن أن أنهش. الآن، هل فهمت؟».

نظرت إلى ساعتي. كانت الساعة العاشرة.

«حان وقت التوقّف عن العمل لتناول الغداء، هيا يا أصدقائي!» قلت.

ألقى العمّال معاولهم على الفور في إحدى الزوايا، وجففوا وجوههم من العرق وتهيأوا لمغادرة النفق. أما زوربا الذي كان منهمكاً في العمل فلم يسمع. وحتى لو سمع، فلم يكن ليتزحزح من مكانه. ومرة أخرى راح ينصت بقلق.

قلت للرجال: «لحظة يا رجال، دخنوا سيكارة»

رحت أفتّش في جيوبي، والرجال متحلقون حولي.

وفجأة تحرّك زوربا. ألصق أذنه إلى جدار النفق. وفي ضوء مصابيح الأسيتيلين، رأيت فمه الفاغر الملوي.

«ما الخطب يا زوربا؟» صحت.

لكن في تلك اللحظة، بدا أن سقف النفق برمته يهتز فوقنا.

«اخرجوا!» صاح زوربا بصوت أجش، «اخرجوا!».

اندفعنا إلى الخلف باتجاه المنفذ، لكن ما إن وصلنا إلى الدعامة الخشبية الأولى، حتى سمعنا صوت تصدع ثان فوق رؤوسنا. كان زوربا في هذه الأثناء يرفع جذع شجرة كبيرة ليسند الدعامة التي بدأت تتفكك وتنهار. ولو تمكن من ذلك بسرعة، فمن الممكن أن يسند السقف بضع ثوان أخرى ويتيح لنا وقتاً للهروب.

«اخرجوا!» صاح زوربا ثانية، لكن صوته في هذه المرة كان مكتوماً، وكأنه كان آتياً من أحشاء الأرض.

وبذلك الإحساس بالجبن الذي يتملك الرجال في معظم الأحيان في اللحظات الخطرة، هرعنا جميعنا إلى الخارج، ناسين زوربا تماماً. لكنني بعد بضع ثوان استجمعت قواي، وجريت عائداً إلى النفق، ورحت أصيح: «زوربا! زوربا!».

على الأقل، خيّل إليّ أنني كنت أصيح. لكنني أدركت بعد ذلك أن صياحي لم يغادر حنجرتي. فقد خنق الخوف صوتي.

تملكني شعور بالخجل والخزي. قفزت نحوه وذراعاي ممدودتان. كان زوربا قد ثبّت بقوة الدعامة الكبيرة وأخذ يجري، خائضاً في الوحل، باتجاه المنفذ. كان يجري بسرعة في الظلام، فاصطدم بي ووقع أحدنا بين ذراعي الآخر

«يجب أن نخرج»، صرخ، «اخرج».

جرينا ووصلنا إلى الضوء. كان العمّال الذين يتملكهم الرعب متحلقين عند المدخل وينظرون إلى الداخل.

سمعنا صوت تصدع ثالث، وكان الصوت هذه المرة أعلى، مثل شجرة تشقها عاصفة إلى نصفين. وفجأة، سمعنا هديراً مرعباً، مثل هزيم الرعد. هزّ سفح الجبل، وانهار النفق.

«يا سبحان الله!» همهم الرجال، وهم يرسمون شارة الصليب، «تركتم معاولكم هناك!» صاح زوربا غاضباً.

لم يفه الرجال بكلمة.

«لماذا لم تأخذوها معكم؟» صاح ثانية بغضب.

«هل بلتم في ثيابكم الداخلية، أراهن على ذلك! يا خسارة المعاول».

«زوربا، ليس هذا وقت القلق على المعاول»، قلت، واقتربت منهم وقلت: «لنحمد الله على أن جميع الرجال بخير وسلامة! شكرا لك يا زوربا، لأننا ندين لك جميعنا بحياتنا».

«أنا جائع!» قال زوربا، «لقد جعلني هذا أشعر بالجوع».

أخذ حقيبته التي كان قد وضعها على قطعة حجر، فتحها وأخرج منها قليلاً من الخبز، والزيتون، والبصل، والبطاطا المسلوقة ويقطينة صغيرة مملوءة بالنبيذ.

«تعالوا يا فتيان، هيا لنأكل»، قال، وفمه مليء بالطعام.

تناول طعامه بسرعة، وكأنه فقد الكثير من قوته فجأة وأراد أن يستعيد طاقته ثانية.

تناول طعامه وهو محني، دون أن يفه بكلمة. تناول اليقطينة، ورفع رأسه إلى الخلف وراح يغرغر النبيذ في حنجرته الجافة.

تشجّع العمّال أيضاً، ففتحوا حقائبهم وبدأوا يأكلون. جلسوا القرفصاء حول

زوربا، وراحوا يتناولون طعامهم وهم ينظرون إليه. كانوا يرغبون في الارتماء عند قدميه وتقبيل يديه، لكنّهم كانوا يعرفون أنه كان فظاً وغريباً، ولم يجرؤ أحد منهم على أن يقدم على أي حركة.

وأخيراً، صمم ميكيليس، أكبرهم سناً، ذو الشارب الرمادي الكبير، على أن يتكلم فقال: «لو لم تكن هناك، يا معلّم ألكسيس الطيب، لأصبح أطفالنا أيتاماً الآن».

«اسكت!» قال زوربا، وفمه ممتلئ. ولم يجرؤ أحد على أن ينطق بكلمة واحدة.

[10]

«إذن من خلق هذه المتاهة من الحيرة، وهذا المعبد من التبجح، وهذه الجرة من الإثم، وهذا الحقل المبثوث بالمكر والخداع، وهذه البوّابة المفضية إلى جهنم، وهذه السلة التي تفيض بالدهاء، وهذا السمّ الذي طعمه كالعسل، وهذا القيد الذي يربط البشر بالأرض: المرأة؟».

أجلس على الأرض إلى جانب الموقد وأنسخ ببطء وبصمت هذه الأغنية البوذية. كنت أجرّب تعويذة إثر تعويذة، عازماً على أن أطرد من رأسي صورة جسد المرأة الذي بلّله المطر، والذي يخطر أمام عينيّ في نسمات الليل الرطبة بهذين الردفين اللذين يتأرجحان ذات اليمين وذات اليسار. فمنذ أن انهار النفق الذي كاد أن يقضى على حياتي، بدأت أشعر أن الأرملة تسري في دمي، تناديني مثل حيوان بري، بإلحاح وعتاب.

كانت تصيح: «تعال! تعال! فالحياة تمضي في ومضة عين. تعال بسرعة، هيا، تعال، قبل أن يفوت الأوان!».

كنت أعرف تماماً أنها مارا، تلك الروح الشريرة المتجسدة في هيئة امرأة ذات فخذين قويتين وردفين ممتلئين. رحت أصدها وأبعدها عن تفكيري، وانهمكت في تدوين كلمات بوذا كما كان الهمجيون ينقشون ويحفرون على جدران كهوفهم بقطع حجرية مدبّبة باللونين الأبيض والأحمر وحوشاً جائعة وشرسة تطوف حولهم. وكانوا هم أيضاً، برسمهم هذه الوحوش، يسعون إلى تثبيتها على الصخرة إلى الأبد. ولو لم يفعلوا ذلك، لانقضت عليهم.

منذ ذلك اليوم الذي نجوت فيه من موت محقق، لم تتوقف الأرملة عن مقاطعة خلوتي في ذلك الهواء اللاهب، تشير إليّ وردفاها يتأرجحان يمنة ويسرة بطريقة شهوانية مثيرة. وخلال النهار كنت أعود قوياً، ويصبح عقلي يقظاً ونشيطاً، فأتمكن من طردها. كتبت في أي هيئة كان الشيطان الوسواس يظهر لبوذا، وكيف أنه كان يتخذ هيئة امرأة، وكيف أنها كانت تضغط بنهديها المتماسكين فوق سيقان النسّاك، وكيف أن بوذا رأى الخطر المحدق، فشحذ كلّ قوته، وتمكن من دحر الشيطان الرجيم.

كانت كلّ جملة تجلب لي إحساساً جديداً بالراحة. استجمعت قواي، وأحسست بالشيطان الوسواس ينسحب، تطرده قوة كلّ كلمة في التعويذة الورقية. كنت أجاهد خلال النهار بكلّ ما أوتيت من قوة، أما في الليل، فكان عقلي يلقي بأسلحته، وتفتح الأبواب الداخلية وتدخل الأرملة.

في الصباح كنت أصحو منهكاً ومهزوماً، وأبدأ الكفاح من جديد. وعندما كنت أرفع رأسي من فوق أوراقي، كان المساء يوشك أن يهبط؛ ويبدأ ضوء النهار يخبو، ثم يحلّ الظلام عليّ فجأة. كانت الأيام قد بدأت تقصر، واقترب عيد الميلاد وأصبح على الأبواب. حشدت كل قواي في هذا الكفاح، وقلت في نفسي: إنني لست وحيداً، فثمة قوة عظيمة، ضوء النهار، تحارب إلى جانبي أيضاً. وهو أيضاً ينهزم حيناً، وينتصر حيناً آخر. لكنه لا ييأس. أكافح وكلي أمل بأن أنتصر أنا والضوء!

خيّل إليّ، وقد أمدتني هذه الفكرة بالشجاعة، بأنني كنت في كفاحي مع الأرملة أطيع أنا أيضاً إيقاعاً عالمياً عظيماً فقد خيّل إليّ أن المادة الماكرة اختارت هذا الجسد، شيئاً فشيئاً، لإخماد جذوة اللهب الحارة التي تنتشر في ذاتي. قلت لنفسي: إن القوة الخالدة التي تحوّل المادة إلى روح هي قوة إلهية. ففي داخل كلّ إنسان عنصر من الزوبعة الإلهية، ما يمكّنه من تحويل الخبز

والماء واللحم إلى فكر وعمل. كان زوربا محقاً: «قل لي ماذا تفعل بما تأكله، أقل لك من أنت!»

لذلك كنت أبذل ما بوسعي لأن أحوّل على نحو ممض شهوة الجسد العنيفة إلى بوذا.

«بماذا تفكّر يا معلّم؟ إنك لا تبدو على سجيتك»، قال لي زوربا في عشية يوم الميلاد. فقد كانت لديه فكرة فطنة تتعلق بالشيطان الذي أحاربه.

تظاهرت بأني لم أسمعه، لكن زوربا لم يستسلم بسهولة.

قال: «إنك لا تزال شاباً يا معلّم».

وبغتة اتخذ صوته نبرة تشي بالمرارة والغضب، وأضاف: «أنت شاب جلف بعض الشيء، تأكل جيداً، تشرب جيداً، تتنشق هواء البحر البهيج، وتخزّن طاقة ـ لكن ماذا تستفيد منها جميعها؟ إذ إنك تنام وحدك، وهذا أمر سيء للغاية للطاقة! اذهب إليها هذه الليلة، نعم، لا تضع وقتك يامعلّم. كلّ شيء بسيط في هذا العالم. كم مرّة يجب أن أقول لك هذا؟ إذن اذهب ولا تعقّد الأمور!».

كانت مخطوطة بوذا مفتوحة أمامي، وكنت أقلّب صفحاتها وأنا أصغي إلى كلمات زوربا، وأدركت أنها تريني درباً جذّاباً، وأكيداً، وإنسانياً كي أسير فيه. وللمرة الثانية كانت روح مارا، القوّادة المحتالة، هي التي تناديني.

أخذت أستمع دون أن أنبس بكلمة واحدة، وظللت أقلّب صفحات المخطوطة ببطء. بدأت أصفر لأخفي اضطرابي، لكن عندما رأى زوربا أنني لم أتكلّم، انطلق فجأة:

«هذه الليلة هي ليلة عيد الميلاد يا صديقي، عجّل، اذهب إليها قبل أن تتوجه إلى الكنيسة. المسيح سيولد هذه الليلة يا معلّم. اذهب وأرها معجزتك أنت أيضاً!».

نهضت، غاضباً.

قلت: «كفى يا زوربا، فكلّ امرئ يسير على هواه. إن الإنسان كالشجرة. ولا أظن أنك تشاجرت مع شجرة تين لأنها لا تحمل كرزاً، أليس كذلك؟ حسناً إذن، هذا يكفي! لقد انتصف الليل تقريباً. هيا لنذهب إلى الكنيسة ونشاهد ولادة المسيح».

وضع زوربا قبعته الشتوية السميكة على رأسه، وقال باستياء: «حسناً إذن. هيا لنذهب! لكني أريدك أن تعرف أن الله سيكون أسعد بكثير لو ذهبت إلى الأرملة هذه الليلة، مثل جبريل. لو سار الله على خطاك يا معلّم، لما ذهب إلى مريم ولما ولد المسيح. وإذا سألتني ما الدرب الذي يسير عليه الله، لقلت لك: الدرب الذي يؤدي إلى مريم. مريم الأرملة».

انتظر إجابتي بصمت ودون فائدة. دفع الباب وفتحه، وخرج، وراح يضرب الحصى بغضب بطرف عصاه.

«نعم»، راح يكرّر بإصرار، «مريم هي الأرملة!».

«هيا لنمضِ الآن. لا تصرخ».

ورحنا نغذ الخطى في تلك الليلة الشتوية. كانت السماء صافية تماماً، وبدت النجوم كبيرة وقد تدلت في السماء مثل كرات من نار. كان الليل، ونحن نشق طريقنا على طول الشاطئ، يشبه وحشاً أسود ضخماً متمدداً على حافة الماء.

قلت لنفسي: «اعتباراً من هذه الليلة، سيبدأ النور الذي أعاده الشتاء بقوة يحارب وينتصر، وكأنه ولد هذه الليلة مع الله الطفل».

كان القرويون جميعهم قد تجمهروا داخل خلية الكنيسة الدافئة التي تتضوع منها رائحة عطرة. وكان الرجال يقفون في الأمام، وتقف النساء، وأياديهن متشابكة، في الخلف. وكان القس الفارع القامة، ستيفانوس، في حالة غضب بعد أن صام أربعين يوماً. وبردائه الكهنوتي الذهبي الثقيل، كان يجري هنا وهناك بخطوات واسعة، مؤرجحاً مبخرته، ومنشداً بأعلى صوته وبسرعة كبيرة

ليرى ولادة المسيح، ويعود إلى البيت ليتناول صحن حساء سميك، ونقانق لذيذة ولحوماً مدخّنة.

فلو قال الكتاب المقدس: «اليوم، ولد النور»، فلن يقفز قلب الإنسان. ولما أصبحت الفكرة أسطورة ولما غزت العالم. بل كانوا سيصفون لنا ظاهرة طبيعية ولما أطلقوا العنان لمخيلتنا ـ أقصد روحنا لكن النور الذي ولد في عمق الشتاء أصبح طفلاً، وأصبح الطفل الله، ولعشرين قرناً رضعت منه روحنا

انتهى الاحتفال الصوفي بعد منتصف الليل بقليل، وولد المسيح. وهرع القرويون الجائعون والسعداء إلى بيوتهم، ليتناولوا أطايب الطعام، وليحسّوا في أعماق أحشائهم لغز التجسّد. إن البطن هي المؤسسة القوية، والخبز والنبيذ واللحم من أهم الضروريات. فبالخبز والنبيذ واللحم وحدهم، يستطيع المرء أن يخلق الله.

كانت النجوم كبيرة تتلألأ كالملائكة فوق قبة الكنيسة البيضاء. وكان درب التبّانة يتدفق مثل جدول من أحد جانبي السماء إلى الجانب الآخر. وكانت هناك نجمة خضراء تشع فوقنا كزمردة. تنهّدت. كنت فريسة عواطفي.

التفت إليّ زوربا.

«يا معلّم، هل تؤمن بهذا؟ بأن الله أصبح رجلاً وولد في إسطبل؟ هل تؤمن بذلك، أو أنه يسخر منا؟».

فأجبته: «من الصعب معرفة الحقيقة يا زوربا. لا أستطيع أن أقول إني أؤمن بذلك، ولا إني لا أؤمن. وأنت بماذا تؤمن؟».

«لا أستطيع أن أقول إنني أؤمن أيضاً. لا يمكنني أن أفعل ذلك في حياتي. فعندما كنت طفلاً، كانت جدتي تحكي لي حكايات لم أكن أصدق كلمة واحدة. ومع ذلك كنت أرتعش بانفعال، كنت أضحك وأبكي، تماماً كما لو كنت أصدقها وعندما نبتت لحية في ذقني، ألقيت بها، بل وحتى أصبحت أسخر منها أما الآن، وبعد أن تجاوزت منتصف العمر، أصبحت أكثر مرونة،

أليس كذلك يا معلّم؟ وبطريقة ما أصبحت أؤمن بها ثانية. . إن الإنسان لغز!».

سرنا في الطريق المؤدي إلى بيت السيدة هورتينس، ورحنا نهرول مثل حصانين جائعين يشمان رائحة الإسطبل.

«إن آباء الكنيسة محتالون»، قال زوربا، «إنهم يصلون إليك من خلال بطنك، فكيف بإمكانك أن تهرب منهم؟ فهم يقولون لك يجب ألا تأكل اللحم ولا تشرب النبيذ لمدة أربعين يوماً. صوموا فقط. لماذا؟ لكي يشتهوا تناول اللحم والنبيذ. آه، إن هؤلاء الخنازير السمينة يعرفون حيل اللعبة كلها!».

بدأ يسرع. ثم قال:

«لنسرع يا معلّم، فلا بد أن الديك الرومي أصبح جاهزاً!».

عندما وصلنا إلى غرفة سيدتنا الطيبة، وسريرها الكبير المغري، وجدنا أن الطاولة مكسوة بقطعة من القماش الأبيض، وعليها ديك رومي يتصاعد منه البخار، مستلق على ظهره بساقيه المنفرجتين. وكانت تنبعث من الموقد حرارة لطيفة.

كانت مدام هورتينس قد ضفرت شعرها، وارتدت ثوباً طويلاً وردي اللون باهتاً ذا أكمام ضخمة، وقد نسل تطريزه واهترأ. وكانت تضع حول رقبتها المليئة بالتجاعيد وشاحاً أصفر بلون الكناري، بعرض إصبعين، ورشّت على جسدها كمية كبيرة من ماء زهر البرتقال.

قلت أخاطب نفسي كيف أن كل شيء متناغم على هذه الأرض. وكيف أن الأرض توافق قلب الإنسان! فها هي مغنية الملاهي العجوز التي عاشت حياة حافلة، تعيش الآن على هذا الشاطئ المنعزل، وتجمع في هذه الغرفة البائسة كلّ القلق المقدّس ودفء الأنوثة.

المأدبة العامرة والمعدّة بعناية، الموقد المشتعل، والجسد المتبرج الذي تتضوع منه رائحة زهر البرتقال ـ فبأي سرعة وبأي بساطة تتحول جميع متع الإنسان الجسدية الصغيرة هذه إلى بهجة روحية عظيمة!

وفجأة بدأ قلبي يخفق بقوة. فقد أحسست، في تلك الأمسية الاحتفالية، بأنني لم أكن وحيداً تماماً هنا على شاطئ البحر المهجور. فها هنا امرأة مفعمة بالأنوثة والرقة والصبر تتقدم نحوي: إنها الأمّ والأخت والزوجة. وأحسست بغتة، أنا الذي كنت أظن أنني لم أكن بحاجة إلى شيء، أني بحاجة إلى كلّ شيء.

ولا بد أن زوربا قد اعتراه الشعور ذاته، لأننا ما كدنا ندخل الغرفة حتى اندفع إلى مغنية الملاهي المتبرجة وضمها إليه، وصاح: «المسيح قام! تحياتي لك أيتها الأنثى الفريدة من نوعها!».

التفت إليّ ضاحكاً وقال: «أرأيت يا معلّم كيف أن المرأة مخلوق مخادع! حتى أنها تستطيع أن تدير الله على خنصرها!»

جلسنا إلى المائدة. التهمنا الأطباق بشهية كبيرة واحتسينا النبيذ. شبعت أجسادنا، واستثيرت أرواحنا بالمتعة. وعاد زوربا إلى حيويته ونشاطه.

«كل واشرب»، لم يكف عن الصياح، «كل واشرب يا معلّم، وليدفأ جسدك! وغن أيضاً يا بني، وغن كالرعاة: المجد لله في الأعلى! المجد لله في الأسفل. لقد قام المسيح، يا له من شيء رائع. ارفع عقيرتك واجعل الله يسمعك تنشد كي يبتهج».

لقد استعاد روحه تماماً، ولم يكن ثمة شيء يوقفه.

« المسيح قام، يا سليمان الحكيم، أيها الكاتب التعس! لا تذهب وتلتقط الأشياء بإبرة! هل ولد أم لم يولد؟ طبعاً ولد، لا تكن أحمق. إذا أخذت عدسة مكبّرة ونظرت من خلالها إلى الماء الذي تشربه ـ لقد قال لي ذلك مهندس ذات يوم ـ رأيت أن الماء يعج بديدان صغيرة لا تستطيع أن تراها بعينك المجرّدة. وعندما ترى الديدان لن تشرب الماء، وستتكور على نفسك عطشاً حطّم كأسك يا معلّم، وستتلاشى الديدان الصغيرة وسيصبح بإمكانك أن تشرب وتنتعش!».

التفت إلى رفيقتنا المتبرجة، ورفع كأسه المترعة وقال:

«بوبوليناي الغالية، رفيقتي القديمة في السلاح، سأشرب نخبك! لقد رأيت الكثير من التماثيل المعلقة في مقدمة السفينة في حياتي؛ إنها مسمّرة في جؤجؤ السفينة، تمسك ثدييها بيديها، وخداها وشفتاها مصبوغة باللون الأحمر الفاقع. قالوا إنها عبرت جميع البحار، ودخلت جميع الموانئ، وعندما تتهشم السفينة، تأتي إلى اليابسة، وحتى آخر أيامها، كانت لا تزال تتكئ على جدار حانة صيادين يؤمها قباطنة السفن ليشربوا. بوبوليناي الغالية، الليلة، وفيما أراك على هذا الشاطئ، الآن وبعد أن امتلأت بطني بأشياء شهية، وعيناي مفتوحتان على وسعهما، فإنك تنظرين إليّ مثل تمثال في جؤجؤ سفينة عظيمة. وأنا ميناؤك الأخير، أنا الحانة التي يؤمها قباطنة البحر ليشربوا. تعالي، اتكئ عليّ، ارفعي أشرعتك! إني أشرب هذه الكأس المترعة بالنبيذ الكريتي بصحتك، يا فتاتي!».

اغرورقت عينا مدام هورتينس بالدموع لشدة تأثرها، وانحنت على كتف زوربا.

«أترى يا معلّم»، همس زوربا في أذني، «إن كلماتي الرقيقة ستوقعني في متاعب. هذه المغناج لن تتركني أذهب الليلة. لكنني أشعر بالأسى على المخلوقات المسكينة، نعم، إني أرثي لحالها!».

«المسيح قام!» صاح بصوت عال إلى فتاته المغناج، «بصحتنا!».

وانسلت ذراعه تحت ذراع سيدتنا، وجرعا كأسيهما معاً، الذراعان متشابكتان، وبدا أن كلا منهما قد افتتن بالآخر.

كان الفجر قد أوشك على البزوغ عندما تركتهما في غرفة النوم الصغيرة الدافئة ذات السرير الكبير واتجهت إلى البيت. كان القرويون قد أكلوا وشربوا جيداً، وأصبحت القرية الآن تغط في سبات عميق، وأوصدت الأبواب والنوافذ تحت نجوم الشتاء العظيمة.

كان الجو بارداً، والبحر هادراً، وكانت فينوس ترقص في الشرق. مشيت

على حافة الماء ألاعب الأمواج، التي كنت أهرب منها كلما حاولت الاقتراب مني لتبللني. كنت سعيداً، وقلت لنفسي: «هذه هي السعادة الحقيقية: ألا يكون لديك طموح وتعمل كالحصان وكأنه يوجد لديك كلّ أنواع الطموح. أن تعيش بعيداً عن الرجال، ألا تحتاجهم، وأن تحبهم مع ذلك. أن تشارك في أعياد الميلاد، وأن تبتعد عن جميع الفخاخ بعد أن تأكل وتشرب جيداً، وتكون النجوم فوقك، والأرض إلى يسارك، والبحر إلى يمينك: وأن تدرك فجأة، في قلبك، أن الحياة حققت معجزتها النهائية: وأصبحت قصّة من قصص الجنّيات».

كانت الأيام تمضي. وكنت قد حاولت أن أظهر لها شجاعتي، فرحت أصرخ وأتظاهر بأني أبله، لكن في أعماق قلبي، كنت أعرف أنني حزين. فخلال جميع الاحتفالات هذا الأسبوع، عادت إليّ جميع الذكريات، وملأت صدري بالموسيقى وبالأحبة البعيدين. فقد أثار اهتمامي قول قديم قرأته ذات مرة: إن قلب الإنسان خندق ملئ بالدم. إن الأحبة الذين ماتوا يلقون بأنفسهم على ضفة هذا الخندق ليشربوا الدم كي يعودوا إلى الحياة ثانية؛ وكلما كانوا عزيزين على نفسك أكثر، شربوا من دمك أكثر.

عشية رأس السنة أتت مجموعة من أطفال القرية يحملون مركباً ورقياً كبيراً إلى كوخنا وأخذوا ينشدون أغاني رأس السنة «كالانادا» بأصواتهم الصاخبة المرحة:

وصل القدّيس باسيل العظيم من القيصرية، مسقط رأسه.

كان يقف على هذا الشاطئ الكريتي الصغير بجانب البحر الأزرق. اتكأ على عصاه وسرعان ما كست عصاه الأوراق والأزهار. وبدأ نشيد السنة الجديدة:

عام جديد سعيد، أيها المسيحيون،

وليمتلئ بيتك أيها السيد بالذرة وزيت الزيتون والنبيذ؛

ولتكن بمشيئة الله زوجتك عمود رخام في سقف بيتك؛

ولتزوج ابنتك بمشيئة الله وتنجب تسعة أبناء وابنة واحدة؛

وليحرّر بمشيئة الله هؤلاء الأبناء القسطنيطينية، مدينة ملوكنا!

راح زوربا ينصت، منتشياً. ثم أخذ طبلة أحد الأطفال وراح يقرعها بشكل مسعور.

رحت أشاهد وأستمع دون أن أقول شيئاً. شعرت بأن ورقة أخرى تسقط من قلبي، لقد مرت سنة أخرى. لقد تقدمت خطوة أخرى نحو الحفرة السوداء.

«ماذا جرى لك يا معلّم؟» سأل زوربا، وهو يغني بأعلى صوته مع الأطفال، ويقرع الطبلة، «ماذا دهاك يا رجل؟ إنك تبدو وقد شخت سنوات عديدة، وأصبح وجهك شاحباً. هكذا عندما أعود وأصبح طفلاً مرة أخرى؛ لقد ولدت من جديد، كالمسيح. أفلا يولد كلّ سنة؟ وكذلك أنا».

اضطجعت على سريري وأغمضت عينيّ. كان قلبي في مزاج سيء للغاية في تلك الليلة. لم أشأ أن أتكلم.

لم يغمض لي جفن. اعتراني شعور بأني يجب أن أضع جردة بأفعالي هذه الليلة. ورحت أستعرض حياتي كلها، التي بدا أنها مهلهلة، مملّة ومترددة كالحلم. رحت أتأملها يائساً. ومثل سحابة رقيقة دهمتها رياح من المرتفعات، كانت حياتي لا تنفك تتغير. تتهشم، تتحول وتتخذ أشكالاً مختلفة: بجعة، كلب، شيطان، عقرب، قرد ـ وكانت السحابة منهكة وممزقة إلى الأبد. تجرفها ريح السماء ويشع منها قوس قزح.

طلع النهار. لم أفتح عيني. كنت أحاول أن أركز كلّ طاقتي على رغبتي المتقدة في اختراق قشرة العقل، والتسلل إلى القناة المعتمة والخطرة التي تسقط

فيها كل قطرة إنسانية لتمتزج بالمحيط. كنت أتوق لتمزيق الحجاب ورؤية ما ستجلبه السنة الجديدة لي

«صباح الخير يا معلّم. كل عام وأنت بخير».

أعادني صوت زوربا إلى الواقع بقسوة. فتحت عينيّ في الوقت المناسب لأرى زوربا يلقي رمانة كبيرة إلى مدخل الكوخ، فتناثرت حباتها مثل حبات الياقوت المتلألئة، ووصلت إلى سريري. نهضت وتناولت بعضها، فانتعشت حنجرتي.

«أرجو أن نكسب الكثير وأن نخلب ألباب العذارى الجميلات!» صاح زوربا مرحاً. غسل وحلق ذقنه وارتدى أفضل ثيابه ـ بنطالاً من القماش الأخضر، وسترة صوفية منزلية الصنع، وألقى فوقها سترة مبطنة بجلد الماعز واعتمر قبعته من فرو أستراخان، وفتل شاربيه.

وقال: «يا معلّم، سأتظاهر في الكنيسة بأنني ممثل الشركة. فليس من مصلحتنا أن يظنوا أننا ماسونيان. وهذا لن يكلّفني شيئاً وسنقضي وقتاً ممتعاً»

انحنى قليلاً وغمزني.

«ربما رأينا الأرملة هناك أيضاً»، قال هامساً.

يا إلهي، لقد امتزجت مصالح الشركة مع الأرملة بانسجام رائع في عقل زوربا. وسمعت صوت خطواته الخفيفة وهو يغادر. وثبت. فقد تلاشى السحر، وحبست روحي في سجن الجسد ثانية.

ارتديت ثيابي وتوجهت إلى حافة الماء. رحت أسير بسرعة. كنت فرحاً، وكأني نجوت من خطر محدق أو من إثم ما. في ذلك الصباح، بدا لي فجأة أن رغبتي الحمقاء في التفكير ومعرفة المستقبل قبل أن يولد أمر محرم.

تذكّرت ذات صباح أني رأيت شرنقة في لحاء شجرة، وكانت الفراشة تحفر حفرة في شرنقتها لكي تخرج. انتظرت قليلاً، لكن ذلك استغرق وقتاً طويلاً

فعيل صبري. انحنيت فوقها، ورحت أنفخ الهواء فيها كي أدفئها. دفّأتها بأسرع ما يمكنني، وبدأت المعجزة تقع أمام عيني، أسرع من الحياة. إذ انفتحت الشرنقة، وبدأت الفراشة تزحف ببطء، ولا أنسى الرعب الذي تملكني عندما رأيت أن جناحيها كانا مثنيين إلى الخلف ومجعدين. حاولت الفراشة البائسة أن تفردهما بجسمها المرتعش. انحنيت فوقها، وحاولت أن أساعدها بأن أنفخ فيها، لكن دون جدوى. فقد كان يجب أن تأخذ وقتها حتى تفقس، ولا بد أن فتح الجناحين عملية تتم بالتدريج في الشمس، لكن كان قد فات الآوان. فقد حاولت أن أعجّل في ظهور الفراشة، فرحت أنفخ عليها، فخرجت قبل أوانها مجعدة ومتغضنة. كافحت باستماتة، وما هي إلا ثوان قليلة، حتى ماتت في راحة يدي.

أظن أن ذلك الجسم الصغير أثقل ضميري. لكنني أدرك اليوم أنه من الأخطاء المميتة أن تنتهك قوانين الطبيعة العظيمة. يجب ألا نستعجل الأمور، ويجب أن نتحلى بالصبر، لكننا يجب أن نطيع الإيقاع الأبدي.

جلست على صخرة لأستوعب فكرة هذه السنة الجديدة. كم كنت أتمنى أن أرى تلك الفراشة الصغيرة ترفرف بجناحيها أمامي لتريني الدرب.

[11]

استيقظت وشعور بالسعادة يغمرني كما لو كنت قد تلقيت هدية السنة الجديدة. كانت الرياح باردة، والسماء صافية، والبحر يتلألأ

اتجهت إلى القرية. كان القداس على وشك أن ينتهي. وفيما كنت أمشي، تساءلت عَلى نحو سخيف، من هو أول شخص ـ سواء كان محظوظاً أم عاثر الحظ ـ سأصادفه في مطلع العام الجديد. وتمنيت أن يكون ذلك الشخص طفلاً صغيراً حُمِّلت ذراعاه بألعاب السنة الجديدة، أو رجلاً عجوزاً نشيطاً يرتدي قميصاً أبيض ذا أكمام طويلة مطّرزة، فخوراً وسعيداً بأنه أدى واجبه على هذه الأرض بشجاعة. وكلما مضيت أكثر واقتربت من القرية، ازداد اضطرابي.

وفجأة خارت ركبتاي. فقد رأيت تحت أشجار الزيتون الأرملة تسير بخطوات متوثبة في الطريق المؤدي إلى القرية، ترتدي ثوباً أحمر، وتضع منديلاً أسود على رأسها، بقوامها الرشيق وخصرها الأهيف.

كانت تتهادى في مشيتها وتتخطر كنمر أسود، وتناهت إليّ رائحة مسك قوية عبقت في الهواء. تمنيت أن أهرب! فقد اعتراني شعور بأنه عندما يتملك هذا الوحش الغضب، فلن يبدي أي رحمة، لذلك لم يكن أمامي شيء سوى أن أولي الأدبار. لكن كيف؟ فقد كانت الأرملة تزداد اقتراباً مني. وبدا لي أن الحصى ينسحق تحت أقدام جيش يزحف فوقه. عندما رأتني، هزّت رأسها، فانزلق المنديل عن رأسها وبان شعرها، أسود داكناً ولامعاً. ألقت إليّ نظرة ناعسة وابتسمت. كانت في عينيها حلاوة وحشية. وبسرعة عدّلت منديلها، وكأن الخجل اعتراها لأني رأيت سراً من أسرار المرأة الدفينة: شعرها.

أردت أن أكلّمها، أن أتمنى لها عاماً جديداً سعيداً، لكن حنجرتي انقبضت، كما حدث عندما سقطت دعائم النفق، وتعرضت حياتي للخطر. كانت أعواد القصب المحيطة بحديقتها تتمايل مع الريح، وألقت شمس الشتاء أشعتها فوق ثمار الليمون والبرتقال الذهبية بأوراقها الداكنة. كانت الحديقة كلها تتألق كالجنة.

وقفت الأرملة. مدّت ذراعها ودفعت البوابة وفتحتها. في تلك اللحظة كنت قد أصبحت بجانبها. التفتت، ورفعت حاجبيها، ورمقتني بعينيها.

تركت البوابة مفتوحة، ورأيتها تختفي وراء أشجار البرتقال، وردفاها يتأرجحان ذات اليمين وذات اليسار وهي تمضي.

أن ألج تلك البوابة وأوصدها خلفي. أن أجري وراءها، وأشدها من خصرها، وبدون أي كلمة، أسحبها إلى سريرها الكبير، فهذا ما يسمى أن أكون رجلاً! وهذا ما كان سيفعله جدّي، وما أرجو أن يفعله حفيدي! لكنني وقفت هناك جامداً مثل عمود، أزن الأشياء وأتأمل.

«في حياة أخرى»، دمدمت في نفسي، وارتسمت على وجهي ابتسامة مريرة، «في حياة أخرى سأتصرّف على نحو أفضل من تصرفي الآن!».

هبطت إلى المضيق الجبلي المكسو بالخضرة، وأحسست بثقل في روحي وكأنني ارتكبت خطيئة مميتة. رحت أذرع المكان جيئة وذهاباً كان الجو بارداً وأخذت أرتجف. ولم أتمكن من أن أطرد من رأسي صورة ردفيّ الأرملة المتأرجحين، وابتسامتها، وعينيها، ونهديها، تلك الصورة التي كانت لا تفتأ تعود إليّ - كنت أختنق.

كانت أغصان الأشجار لا تزال عارية من الأوراق، لكن البراعم كانت مليئة بالنسغ، وبدأت تتفتح وتكاد تنبلج. وفي كلّ برعم، كان بوسعك أن تشعر بوجود البراعم الصغيرة والأزهار والثمار التي سرعان ما ستنضج وتينع، قابعة تنتظر حتى تتفتح للضوء. وفي الليل والنهار، في منتصف الشتاء، كان يجري التحضير لمعجزة الربيع العظيمة بصمت، وسراً تحت اللحاء الجاف.

وفجأة أطلقت صرخة تنم عن البهجة. فقد رأيت أمامي شجرة لوز جريئة في حفرة تحميها من الرياح، وقد تفتحت أزهارها في منتصف الشتاء، تمهد الطريق أمام الأشجار الأخرى جميعها، تبشرها بقدوم الربيع.

وزال الإحساس بالكآبة الذي كان يلازمني. أخذت نَفَساً عميقاً وتنشقت رائحتها اللاذعة. انحرفت عن الطريق، وجلست تحت فروعها المزهرة

لبثت هناك وقتاً طويلاً، لا أفكر بشيء، خالياً من الهموم، وسعيداً. كان هذا هو الخلود، وكنت أجلس تحت شجرة في الجنة.

وعلى حين غرة، هدر صوت عال فظ أخرجني من هذه الجنة.

«ماذا تفعل هنا يا معلّم؟ كنت أبحث عنك في كل مكان. لقد قاربت الساعة الثانية عشرة، هيا قم!».

«إلى أين؟».

«إلى أين؟ أتسألني إلى أين؟ طبعاً إلى أم الخنزير الرضيع! ألست جائعاً؟ لقد خرج الخنزير الرضيع من الفرن! يا لرائحته اللذيذة. إنها تجعل لعابك يسيل. هيا تعال!».

استويت واقفاً، ورحت أمسّد جذع شجرة اللوز التي تضم ألغازاً كثيرة، تلك الشجرة التي اجترحت هذه المعجزة من البراعم. أخذ زوربا يسير أمامي، خفيف الحركة، مفعماً بالنشاط، وجائعاً. فلم تكن حاجات الرجل الأساسية ـ الطعام والشراب والنساء والرقص ـ تستنفد جسده القوي والمفعم بالحماسة والطاقة أو توهنه.

كان يحمل بيده صرّة مسطحة ملفوفة في ورق وردي اللون ومعقودة بخيط ذهبي.

«هل هذه هدية السنة الجديدة؟» سألته مبتسماً.

ضحك زوربا، محاولاً أن يخفي إثارته.

«حسناً، كي لا أفسح لها مجالاً للتذمر، تلك المرأة المسكينة»، قال، دون أن يلتفت، ثم أضاف: «كي تستعيد ذكريات أمجادها الغابرة. إنها امرأة ـ ألم نتحدث عن هذا مرات كثيرة؟ ـ ولهذا السبب، فهي لا تكّف عن التحسر على نصيبها .».

«صورة؟».

«سترى. سترى. لا تستعجل الأمور كثيراً! لقد صنعتها بنفسي. هيا، من الأفضل أن نسرع».

كانت شمس الظهيرة تبعث في عظامك روحاً من البهجة والمتعة. وكان البحر يتدفأ أيضاً بسعادة تحت أشعة الشمس. ومن بعيد، تراءت لنا الجزيرة الصغيرة غير المأهولة، وقد غلفتها طبقة خفيفة من السحب، وبدت وكأنها قد انبثقت من البحر، وبدأت تبحر.

اقتربنا من القرية، واقترب زوربا مني وخفض صوته.

قال: «كما تعرف يا معلّم. لقد رأيتها في الكنيسة. كنت واقفاً في المقدمة أمام فرقة الترتيل، عندما رأيت فجأة الأيقونات المقدّسة تشع. المسيح، القديسة مريم، والتلاميذ الاثنا عشر، كان كلّ شيء متلألئاً ومشرقاً. ما الذي يحدث؟ قلت وأنا أرسم شارة الصليب. هل هي الشمس؟ التفت فوجدت الأرملة!».

«حسناً يا زوربا» قلت، وأنا أغذّ الخطى.

لكن زوربا راح يجري خلفي.

«لقد رأيتها عن قرب، يا معلّم. على خدّها شامة جميلة كفيلة بأن تخلب لبك. إنها شيء آخر من تلك الألغاز ـ الشامات على وجنات النساء!».

فتح عينيه على وسعهما منشدهاً

«هل لاحظت يا معلّم؟ البشرة ناعمة وملساء، وبعد كلّ ذلك، فجأة، شامة

سوداء! حسناً، هذا كل ما يحتاجه المرء! إنها تسلبك عقلك! هل تفهم ماذا أقول يا معلّم؟ ماذا تقول كتبك عن هذا؟».

«فليأخذها الشيطان!».

ضحك زوربا، سعيداً بنفسه.

«هذه الأشياء!» صاح.

«هذه الأشياء. لقد بدأت تفهم. . .».

لم نتوقّف عند المقهى، بل واصلنا سيرنا.

كانت سيدتنا الطيبة قد طهت لنا خنزيراً رضيعاً بالفرن وكانت تنتظرنا على عتبة بيتها.

ومرة أخرى كانت تضع حول عنقها وشاحاً أصفر، وكانت هيئتها ـ وجهها المكسو بالمسحوق بكثافة، وشفتاها المطليتان بطبقة قرمزية سميكة ـ كفيلة بإثارة فزع أي شخص. هل كانت حقاً رأساً في جؤجؤ سفينة؟ وما إن رأتنا حتى بدا أن لحم جسدها كله قد امتلأ بهجة وراح يختلج، وأخذت عيناها الصغيرتان ترقصان في رأسها بطريقة بذيئة وداعرة وركزتا بصرهما على شارب زوربا المعقوف.

ما أن أُغلق الباب الخارجي خلفنا، حتى طوقها زوربا من خصرها، وقال:

«كل عام وأنت بخير يا عزيزتي بوبولينا»، وأضاف، «انظري ماذا جلبت لك»، وقبّلها على عنقها المكتنز المليء بالتجاعيد.

لوهلة، أحست الغانية العجوز بدغدغة، لكنها لم تفقد وعيها. وكانت عيناها مثبتتين على الهدية. أخذتها، وحلّت الخيط الذهبي، ونظرت في داخلها، وأطلقت صيحة من البهجة.

انحنيت إلى الأمام لأرى ما بداخلها: فقد رسم ذلك الوغد زوربا على قطعة سميكة من الورق المقوّى بأربعة ألوان ـ أحمر وذهبي ورمادي وأسود ـ أربع سفن حربية سوداء ضخمة، مزينة بالأعلام، تبحر في بحر أزرق نيلي اللون.

وأمام السفن الحربية، كانت الغانية، مدام هورتينس، تطوف فوق الموجات، عارية وبيضاء، وشعرها منسدل، وثدياها في الهواء، ولها ذيل سمكة حلزوني الشكل، والوشاح الأصفر حول عنقها! وكانت تمسك بيدها أربعة خيوط، وتجّر وراءها السفن الحربية الأربع التي ترفع أعلام إنكلترا وروسيا وفرنسا وإيطاليا وفي كلّ زاوية من الصورة، تدّلت لحية: شقراء، وحمراء، ورمادية، وسوداء.

فهمتها المغنية العجوز على الفور.

«هذه أنا» قالت، وأشارت بزهو إلى الغانية.

تنهّدت.

«آه! لقد كنت قوة عظمى أيضاً، في قديم الزمان وسالف العصر والأوان!»

رفعت مرآة مستديرة صغيرة من فوق سريرها، بجانب قفص البيغاء، وعلقت الصورة التي رسمها زوربا في مكانها، وتحت الطبقة السميكة من مكياجها، لا بد أن لونها أصبح شاحباً

وفي هذه الأثناء، انسل زوربا إلى المطبخ. كان جائعاً. وأحضر طبق الخنزير الرضيع، ووضع قنينة نبيذ على المائدة أمامه وملأ ثلاث كؤوس.

«هيا! تعالا وكلا!» صاح وهو يصفق بيديه، «هيا لنبدأ بالأساس ـ البطن. ثم يا حلوتي، ستتولى أمر الجزء الواقع أسفل البطن!».

لكن الأجواء تلبدت بتنهيدات الغانية العجوز. ففي كلّ سنة جديدة، تُجري هي أيضاً حساباتها. فتستعيد أيامها الخوالي وتزنها إذ توجد تحت طبقة شعر هذه المرأة العجوز المتساقط، مدن كبيرة، رجال، فساتين حريرية، قناني شمبانيا ولحى معطرة تنبثق من قبور ذاكرتها في كلّ المناسبات الرسمية

«ليست لديّ شهية»، هممت بحياء، «لا توجد لديّ شهية أبداً . . . أبداً. . . ».

جثت أمام الموقد وحركت قطع الفحم الحجري الحارة. وانعكس لهيب النار على خديها المترهلين، وانزلقت خصلة من شعرها على حاجبها ولامست لهيب النار، ففاحت في الغرفة رائحة شعر محترق مقززة.

«لن آكل. لن آكل..» همهمت ثانية، عندما رأت أننا لم نكن نعيرها أي اهتمام.

شد زوربا قبضته بنفاد صبر، وظل للحظة متردّداً. كان يمكنه أن يتركها تتمتم لنفسها قدر ما تشاء، ونواصل تناول الخنزير المشوي ـ أو كان بإمكانه أن يجثو على ركبتيه، ويأخذها بين ذراعيه، ويسترضيها بكلمات رقيقة. كنت أراقب وجهه الذي لوّحته الشمس، ورأيت على قسمات وجهه، موجات من الدوافع المتناقضة.

وفجأة تقلصت قسمات وجهه. فقد توصل إلى قرار. جثا إلى جانب الغانية العجوز وأمسك ركبتيها، وقال بنبرة مفجعة:

«إذا لم تأكلي يا ساحرتي الصغيرة، فإن كلّ شيء سينتهي. ارحمي الخنزير المسكين، يا جميلتي، وكلي هذه الأقدام الصغيرة اللذيذة!» ودفع أقدام الخنزير وهي تطقطق بالزبدة في فمها.

أخذها بين ذراعيه، رفعها عن الأرض، وأجلسها برقة على كرسيها بيننا نحن الاثنين.

وقال لها: «كلي، كلي يا كنزي، كي يأتي القديس باسيل إلى قريتنا! وإذا لم تأكلي، كما تعرفين، فإنه لن يأتي إلينا! بل سيعود إلى بلده، إلى القيصرية. وسيمسك بالريشة والورقة، والكعكة الثانية عشرة، وهدايا السنة الجديدة، وألعاب الأطفال، بل وحتى هذا الخنزير الرضيع الصغير، ويرميها كلها! لذلك افتحي فمك الصغير يا عزيزتي بوبولينا وكلي!»

وأفرد إصبعين وراح يدغدغها تحت ذراعيها. وأخذت الغانية العجوز تقرقر مسرورة، وجفف عينيها الحمراوين الصغيرتين، وراحت تمضغ بتلذذ أقدام الخنزير الهشة...

في تلك اللحظة بالذات، بدأت قطتان عاشقتان تموءان على السطح فوق رؤوسنا. كانتا تموءان بنبرة يصعب وصفها، فقد كان صوتهما يعلو ثم ينخفض على نحو مرعب. وفجأة أخذتا تتعاركان بعنف فوق السطح، وراحت إحداهما تمزّق الأخرى إرباً.

«مياو. مياو. قال زوربا، غامزاً الغانية العجوز. ابتسمت وعصرت يده تحت المائدة. تراخت حنجرتها وراحت تأكل بشهية.

تحرّكت الشمس، وتسللت أشعتها من النافذة الصغيرة وأضاءت قدمي سيدتنا الطيبة. فرغت القنينة، وفتل زوربا شاربه الذي يشبه شارب قطّ برّي يقترب من «الأنثى» تكورت مدام هورتينس، وغاص رأسها بين كتفيها، وارتعشت عندما أحست بأنفاسه الدافئة التي تفوح منها رائحة النبيذ.

« قل لي الآن ما هو ذلك اللغز الآخر يا معلّم؟» سأل زوربا، وهو ينظر إليّ، «إن كلّ شيء يعود إلى الوراء معي. فعندما كنت طفلاً، كما يبدو، كنت مثل رجل عجوز صغير. فقد كنت جدياً، ولم أكن أتكلم كثيراً، لكن كان لديّ صوت رجل كبير كانوا يقولون إنني كنت أشبه جدّي! لكنني كلما كبرت، ازددت طيشاً فقد بدأت أفعل أشياء فظيعة عندما بلغت العشرين أوه، لا شيء خاص، كما يفعل الجميع في ذلك السن. وعندما بلغت الأربعين، بدأت أشعر بأني شاب حقاً، وفعلت أكثر الأشياء طيشاً وجنوناً. أما الآن فقد تجاوزت الستين ـ فأنا في الخامسة والستين يا معلّم ـ ومع ذلك فإني لا أزال أحتفظ بذلك، كيف يمكنني أن أفسّر لك؟ أقول لك الصدق، لم يعد العالم يسعني!»

رفع كأسه واستدار إلى سيدته شاعراً بالندم، وقال:

«بصحتك الجيدة يا بوبولينا»، قال بجدية، «وأرجو من الله أن ينبت لك بعض الأسنان في هذه السنة وحاجبين جميلين، وبشرة جديدة تفوح منها رائحة الخوخ! وأن تتخلّصي من جميع هذه الأوشحة الصغيرة السيئة! وأن تندلع ثورة أخرى في كريت، وأن تعود القوى العظمى الأربع مرة أخرى، يا عزيزتي

بوبولينا، بأساطيلها. وأن يكون على رأس كل أسطول أدميرال، وأن تكون لكل أدميرال لحية مجعدة عطرة. وأرجو من الله أن تنبعثي من الأمواج من جديد، يا غانيتي، وتغني لنا أغنيتك الجميلة. وأرجو من الله أن تتحطم هذه الأساطيل، وأن تتناثر قطعاً صغيرة فوق هذه الصخور المستديرة والمتوحشة!».

عند ذلك، وضع زوربا يديه الكبيرتين على ثديي السيدة الطيبة المترهلين المتدليين.

بدأ زوربا يستعيد حيويته، وقد أصبح صوته أجشاً من شدة الإثارة. ضحكت. ففي ذات يوم، عندما كنت في السينما، رأيت باشا تركياً يلهو في أحد ملاهي باريس. كان يجلس بائعة شقراء شابة على حضنه، وكان الباشا مستثاراً، وأخذت شرّابة طربوشه ترتفع ببطء، وعندما أصبحت أفقية توقفت برهة، وانتصبت فجأة إلى الأعلى في الهواء.

«مم تضحك، يا معلّم؟» سألني زوربا.

أما السيدة الطيبة، فكانت تفكّر بما قاله زوربا.

ثم قالت: «أوه، هل تظن أن هذا ممكن يا زوربا؟ لكن متى ولىّ الشباب فلن يعود مطلقاً .»

اقترب منها زوربا أكثر، حتى التصق الكرسيان.

«اسمعي يا بطتي» قال لها محاولاً في الوقت نفسه أن يفك عروة الزرّ الثالثة، الزرّ الحاسم في صدارتها، «اسمعي، دعيني أحدثك عن الهدية الجميلة التي سأقدمها لك. هناك طبيب جديد ـ فورونوف ـ يصنع المعجزات، كما يقولون. فهو يعطيك قطرات أو مسحوقاً كدواء. لست متأكداً أياً منها ـ وتعودين إلى العشرين من العمر في طرفة عين ـ إلى الخامسة والعشرين في أسوأ الأحوال! لا تبك يا عزيزتي، سأبعث لك بعضاً منها من أوروبا. .».

كانت فروة رأسها المائلة للون الأحمر تلمع من بين ثنايا شعراتها المتساقطة، وطوقت رقبة زوربا بذراعيها الممتلئتين المكتنزتين باللحم.

«إن كانت قطرات، يا حبيبي»، دمدمت، وهي تتمسح بجسد زوربا مثل قطّة، «فاطلب لي منها مقدار دمجانة. أما إذا كانت مسحوقاً. . ».

«كيس منه!» قال زوربا، وكان قد فك الزرّ الثالث.

كانت القطتان اللتان لبثتا ساكنتين لبرهة من الوقت، قد عادتا للمواء ثانية. كان أحد هذه الأصوات حزيناً ومستغيثاً، والآخر مهدداً ومرعباً.

تثاءبت سيدتنا الطيبة وذبلت عيناها.

«هل تسمع صوت هاتين القطتين الفظيع؟» همهمت، «إنهما لا تخجلان!» وجلست على ركبة زوربا. وأسندت رأسها على رقبته وانبعثت منها تنهيدة عميقة. كانت قد شربت كثيراً وبدأت عيناها تصبحان ضبابيتين.

«بماذا تفكّرين يا بوبوليناي؟» سألها زوربا، وأمسك ثدييها بقبضته.

«بالإسكندرية. . »، دمدمت الغانية العجوز، التي طافت أجزاء من العالم. «الإسكندرية. بيروت. القسطنطينية. الأتراك، العرب، عصير، صنادل ذهبية، وطرابيش حمراء. . ».

انطلقت من فمها تنهيدة أخرى.

«عندما أمضى علي بك الليلة معي ـ يا لذينك الشاربين، يا لهذين الحاجبين، يا لتينك الذراعين الرائعتين! كان ينادي عازف الدفّ والمزمار، ويرمي لهما نقوداً من النافذة، ليعزفا في فناء بيتي حتى طلوع الفجر. وكانت الغيرة والحسد ينهشان الجيران، فقد كانوا يقولون حانقين: علي بك في صحبتها مرة أخرى!».

«وبعد ذلك في القسطنيطينية، لم يكن سليمان باشا يدعني أخرج أيام الجمعة على الإطلاق. فقد كان يخشى أن يراني السلطان وهو في طريقه إلى المسجد فينبهر بجمالي ويخطفني. وعندما كان يغادر البيت صباح كلّ يوم، كان يضع ثلاثة زنوج ضخام الجثة عند الباب لإبعاد الذكور عني. آه يا سليماني الصغير!».

أخرجت من صدريتها منديلاً ذا مربعات كبيرة وعضته وهي تهسهس مثل سلحفاة.

أجلسها زوربا على الكرسي بجانبه، ونهض منزعجاً. وراح يمشي جيئة وذهابا، وبدأ يهسهس هو أيضاً. وفجأة بدت له الغرفة متشنجة ومؤلمة أيضاً.

التقط عصاه وخرج مسرعاً إلى الفناء، ورأيته يسند السلّم إلى الحائط ويتسلّقه، درجتان في كلّ خطوة، غاضباً.

سألته: «من ستجلد يا زوربا؟ سليمان باشا؟».

فصاح: «تلك القطط اللعينة! ألا يمكنها أن تتركنا وشأننا لحظة واحدة؟».

وبقفزة واحدة أصبح على السطح.

أما مدام هورتينس، التي ثملت كثيراً، وانتفش شعرها، فقد أغمضت عينيها اللاهبتين، وانبعث من فمها الذي يخلو من الأسنان شخير مكتوم. فقد رفعها النوم ونقلها إلى مدن الشرق العظيمة - إلى الحدائق المغلقة وإلى حرملك الباشوات عشاقها. وجعلها النوم تجتاز جدراناً وبعث لها أحلاماً. فقد رأت نفسها تصطاد السمك، وألقت أربع صنارات واصطادت أربع سفن حربية ضخمة.

وأثناء شخيرها وتنفسها بصعوبة، كانت الغانية العجوز تبتسم في نومها ابتسامة فرح، ويبدو أنها كانت قد انتعشت بسبب استحمامها في البحر. عاد زوربا، وهو يلوح بعصاه.

«هل نمتِ؟» قال عندما رآها، «أصبحت هذه المغناج تغط في النوم، أليس كذلك؟»

«نعم، يا زوربا باشا»، أجبته، «لقد حملها الدكتور فورونوف الذي يعيد الشباب إلى العجائز لقد أصبحت في العشرين من عمرها الآن، وهي تطوف في أرجاء الإسكندرية وبيروت. . »

«فلتذهب إلى الشيطان، هذه العاهرة العجوز»، جأر زوربا، ويبصق على الأرض، «انظر كيف تبتسم هذه الابتسامة العريضة! أتساءل إلى من تبتسم، هذه الكلبة الصفيقة؟ هيا بنا يا معلّم، لنذهب!».

ألقى بقبعته على رأسه وفتح الباب.

«إنها ليست وحدها»، صاح زوربا، «إنها مع الباشا سليمان. ألا ترى؟ إنها في سمائها السابعة، هذه البقرة القذرة! هيا لنذهب».

خرجنا إلى الهواء البارد. كان القمر يبحر في السماء الهادئة.

«تباً للنساء!» قال زوربا باشمئزاز، « لكن ليس العيب فيكن، بل العيب في صغار العقول الطائشين مثل سليمان وزوربا!».

توقف، ثم واصل كلامه بغضب:

«لا، حتى إنه ليس خطأنا. هناك كائن واحد هو الذي سبّب كلّ هذا، كائن واحد أحد ـ الطائش الكبير ذو العقل الصغير، سليمان باشا الكبير. أنت تعرف من أقصد!»

فأجبته: «هذا إن كان موجوداً، لكن ماذا إن لم يكن موجوداً؟»

«الله العلي القدير، إذن يكون قد قضي علينا نحن الحمقى».

مشينا مسافة دون أن ينبس أحدنا بكلمة. من المؤكد أن أفكاراً وحشية كانت تجول في رأس زوربا، لأنه كان في كل ثانية يضرب بعصاه الحصى ويبصق على الأرض.

وفجأة استدار نحوي وقال:

«رحم الله عظام جدّي! فقد كان يعرف بعض الأشياء عن النساء. كان يحبّهن كثيراً، ذلك المسكين البائس، وقد أرينه العجب طوال حياته. كان يقول لي: إني أتمنى لك الخير يا أليكسيس، يا بني، احذر النساء! فعندما أخذ الله ضلعاً من آدم ليخلق المرأة ـ لعن الله تلك اللحظة ـ كان الشيطان قد تحوّل إلى ثعبان،

وتباً، خطف الضلع وهرب به. وانطلق الله وراءه وأمسك به، لكنه انسل من بين أصابعه، ولم يبق في يديّ الله سوى قرنيّ الشيطان». وقال الله: «تستطيع ربة المنزل الحسنة التدبير أن تخيّط حتى بملعقة (الغزّالة تغزل على عود). حسناً، سأخلق امرأة من قرنيّ الشيطان!» وفعل ذلك، وبهذه الطريقة أمسك بنا الشيطان جميعنا، يا أليكسيس يا بني. فأينما لمست المرأة، فإنك تلمس قرنيّ الشيطان. احذرها، يا بني! كما أنها سرقت التفاحة من جنّة عدن، خبأتها في صدريتها، وها هي تخرج الآن وتتهادى في مشيتها في كل مكان. فليصبها الله بالطاعون! إذا تناولت هذه التفاحة فقد هلكت، وإن لم تأكلها فإنك هالك أيضاً! ما النصيحةَ التي يمكنني أن أقدمها لك إذن يا بني؟ افعل ما يحلو لك! هذا ما كان جدي يقوله لي. «لكن كيف يمكنك أن تتوقّع أن أصبح عاقلاً؟ فقد سرت على خطاه ـ وتوجهت إلى الشيطان!»

بدأنا نسرع باتجاه القرية. كان ضوء القمر مزعجاً. تخيّل كيف سيكون الأمر إن كنت تشرب ثم خرجت لتتنزه ووجدت أن العالم قد تغيّر على حين غرة. فتحولت الطرق إلى أنهار من حليب، وامتلأت الحفر والأخاديد في الطريق بالطباشير، واكتست التلال بالثلج. وأصبحت يداك ووجهك ورقبتك تشع بالفوسفور، مثل ذيل سراج الليل. وتعلق القمر على صدرك مثل وسام مستدير غريب الشكل.

رحنا نسير بسرعة، صامتين، منتشيين من ضوء القمر ومن النبيذ، ولم نكد نشعر أن أقدامنا تلامس الأرض. ووراءنا، في القرية الهاجعة، كانت الكلاب قد صعدت إلى الأسطح وراحت تنبح وتعوي على القمر. أما نحن، فقد انتابتنا رغبة دون أي سبب يذكر، بأن نمطّ رقبتينا نحو القمر ونبدأ في الصراخ.

وصلنا إلى حديقة الأرملة. توقّف زوربا. فقد جعله النبيذ والطعام اللذيذ والقمر منتشياً. مطّ رقبته، وبصوته الذي يشبه نهيق الحمار، أخذ ينهق بيتين من الشعر الفاحش اللذين ارتجلهما من شده حماسه.

«إنها واحدة أخرى من قرون الشيطان!» قال، «هيا لنذهب يا معلّم!».

كان الفجر قد أوشك على البزوغ عندما وصلنا إلى الكوخ. ارتميت على سريري، منهكاً. اغتسل زوربا، وأشعل الموقد، وصنع قليلاً من القهوة. وتربّع على الأرض قرب الباب، وأشعل سيكارة وراح يدخن بهدوء. كان جسده منتصباً لا يتحرك، وهو ينظر إلى البحر. كان وجهه متجهماً ورصيناً. ذكّرني بلوحة يابانية أحبها: ناسك يجلس القرفصاء ملتفاً بعباءة برتقالية اللون طويلة، ووجهه يشع مثل شيء منقوش في قطعة خشب صلبة، سوّدها المطر، ورقبته مشرئبة، مبتسماً ويحدّق، بدون وجل في الليلة المظلمة.

نظرت إلى زوربا في ضوء القمر معجباً بالحيوية والبساطة اللتين كيّف بهما نفسه مع العالم من حوله؛ الطريقة التي شكّلت من جسده وروحه كلاً واحداً منسجماً، وامتزجت جميع الأشياء ـ النساء والخبز والماء واللحم والنوم ـ بسعادة في جسده وأصبح زوربا. لم أر في حياتي مثل هذا التوافق والانسجام الودّي بين إنسان والكون.

كان القمر على وشك أن يغيب الآن. كان مستديراً وأخضر شاحباً. وخيّم هدوء لا يوصف فوق البحر.

ألقى زوربا بسيكارته ومدّ يده إلى سلة. بحث في داخلها وأخرج بضعة خيوط، وبكرات وقطعاً صغيرة من الخشب؛ أضاء مصباح الكيروسين، وراح يجرب مرة أخرى سكة الحديد المعلقة. انحنى فوق لعبته البدائية، وأخذ يجري حسابات لا بدّ أنها كانت معقّدة وصعبة للغاية، لأنه كان بين لحظة وأخرى، يحكّ رأسه بقوة ويلعن.

وفجأة اكتفى بذلك. فقد ركل النموذج فوقع محطماً على الأرض.

[12]

غلبني النعاس فغططت في النوم، وعندما صحوت كان زوربا قد ذهب. كان الطقس بارداً، ولم تكن لديّ أدنى رغبة في النهوض. مددت يدي إلى رفوف الكتب فوق رأسي وأنزلت كتاباً كنت مولعاً به وجلبته معي، وهو كتاب «قصائد مالارميه». بدأت أقرأ ببطء وبشكل اعتباطي. أغلقت الكتاب، فتحته ثانية، ثم ألقيته أخيراً. فللمرة الأولى في حياتي، بدا لي أن كلّ شيء يخلو من الدم، لا رائحة له، ويفتقر إلى أيّ جوهر إنساني. كلمات زرقاء شاحبة، كلمات جوفاء في فراغ. مياه نقية مقطرة خالية من البكتيريا، لكنها تخلو أيضاً من أيّ عناصر مغذّية. خالية من الحياة.

في الأديان التي فقدت بريقها الإبداعي، تصبح الآلهة في نهاية الأمر مجرد مواضيع أو حلي شاعرية تزين عزلة الإنسان والجدران. وقد حدث شيء مماثل لهذا الشعر طموحات القلب المتقدة، المثقلة بالتراب والبذار، أصبحت الآن لعبة ثقافية لا شائبة تشوبها، هيكلاً ذكياً، أثيرياً معقّداً

فتحت الكتاب ثانية وعدت أقرأ فيه. لماذا استحوذت عليّ هذه القصائد لسنوات عديدة؟ شعر صرف! فقد تحوّلت الحياة إلى لعبة شفّافة مشرقة، لا تثقلها ولا حتى قطرة دم واحدة. إنّ الكائن البشري فظ وشرس وجلف وملوث ـ إنه مكون من الحبّ والجسد ومن صيحة استغاثة. دعه يتسامى إلى فكرة مجرّدة، وفي بوتقة الروح، وبعد عمليات خيميائية مختلفة، يصبح مخلخلاً ويتبخر.

انبثقت أمامي هذا الصباح كلّ هذه الأشياء التي كانت في الماضي تبهرني

وتجذبني، لكنها أصبحت تبدو لي الآن مجرد حركات بهلوانية عقلية صادرة عن مشعوذ دجال! هكذا يبدو الأمر دائماً عندما تنحدر الحضارة. هكذا تنتهي معاناة الإنسان في خدع متقنة من أعمال الشعوذة: الشعر الصرف، الموسيقى الخالصة، الفكر المحض. إن الإنسان الأخير ـ الذي حرّر نفسه من الإيمان، ومن جميع الأوهام، ولم يعد يتوقع أو يخشى شيئاً ـ يرى التراب الذي صُنع منه قد تحوّل إلى روح، ولم تبق لهذه الروح تربة لتنمو فيها الجذور التي يستمد منها النسغ غذاءه. لقد أفرغ الإنسان الأخير نفسه، فلم تعد هناك بذور، ولا غائط، ولا دم. لقد استحال كلّ شيء إلى كلمات، واستحالت كلّ مجموعة من الكلمات إلى شعوذة موسيقية، بل مضى الإنسان الأخير شأواً أبعد من ذلك: فهو يجلس في خلوته المطلقة ويحلّل الموسيقى إلى معادلات رياضية بكماء.

أخذت أصيح: «إن بوذا هو ذلك الإنسان الأخير!». فهنا يكمن سرّه وأهميته. إن بوذا هو الروح «النقية» التي أفرغت ذاتها؛ ففيه الخواء، إنه الخواء. فهو الذي يهتف: «أفرغ جسدك، أفرغ روحك، أفرغ قلبك». فحيثما يضع قدمه، تتوقف المياه عن الجريان، ويتوقف العشب عن النمو، ولا يعود يولد طفل.

قلت في نفسي يجب أن أحشد الكلمات وقوتها من أجل استحضار الأرواح، استحضار إيقاعات سحرية؛ أحاصرها، أسحرها وأخرجها من أحشائي! يجب أن ألقي عليها شبكة من الصور، أصطادها، وأحرّر نفسي!

في الحقيقة، لم تعد كتابة بوذا تمريناً أدبياً، بل صراع حياة أو موت في مواجهة قوة تدميرية عظيمة تقبع في داخلي، مبارزة عظيمة تنهش قلبي، أصبح خلاص روحي يتوقف على نتيجتها

وبحيوية وتصميم أمسكت المخطوطة. لقد اكتشفت هدفي، وبدأت أعرف الآن أين مكمن إصابتي! إن بوذا هو الإنسان الأخير. إننا لا نزال في البداية؛

فلم نأكل، ولم نشرب، ولم نحبّ ما يكفي؛ إننا لم نعش بعد. لقد جاء إلينا هذا الرجل العجوز المرهف، هذا النَفَس الخفيف، في وقت مبكر جداً. ويجب أن نتخلص منه بأسرع ما يمكننا!

هكذا قلت لنفسي وبدأت أكتب. لكن لا، لم تكن هذه كتابة: بل حرباً حقيقية، صيداً لا رحمة فيه، حصاراً، تعويذة لإخراج الوحش من مكمنه. وفي الواقع إن الفنّ تعويذة سحرية. والقوى القاتلة الغامضة تندس في أحشائنا، دوافع مميتة قاتلة، محطمة، كارهة، مخزية. ثم يظهر الفن بأنغامه الجميلة وينقذنا.

كتبت، فكرت، جاهدت طوال النهار. في المساء أحسست بالإرهاق، لكنني شعرت بأنني أحرزت تقدّماً، وأني استوليت على بضعة مواقع متقدّمة للعدو. وبدأت أتلهف الآن لعودة زوربا، كي أستطيع أن آكل وأنام وأستجمع قواي لأستأنف المعركة عند الفجر.

كان الظلام قد هبط عندما دخل زوربا. كان وجهه مشرقاً. قلت لنفسي إنه لا بد قد وجد جواباً على شيء يبحث عنه هو أيضاً. وانتظرت.

بدأ صبري ينفد معه، وكنت قد قلت منذ بضعة أيام فقط، بغضب:

«زوربا، بدأ المال لدينا يقلّ. ماذا علينا أن نفعل، افعلها بسرعة! يجب أن تعمل السكة الحديدية قريباً؛ فإذا لم ننجح في الفحم، لنتحول إلى تجارة الأخشاب. وإلا فإننا سنخسر كل شيء».

حكّ زوربا رأسه، وقال:

«الأموال تتناقص، يا معلّم؟ هذا شيء سيء!»

«لقد نفدت يا زوربا. لقد أنفقنا منها الكثير افعل شيئاً! كيف حال تجاربك؟ هل من حظ لنجاحها؟».

أطرق زوربا رأسه ولم يحر جواباً أحس بالخجل في ذلك المساء، فقال

غاضباً: «ذلك المنحدر اللعين»، ثم أضاف، «سأنتصر عليه». أما الآن فقد جاء ووجهه يطفح بالبشر.

صاح: «لقد نجحت يا معلّم. وجدت الزاوية الصحيحة! كانت تنزلق من يدي، تحاول أن تنسل مني، لكنني واصلت بحثي وتمكنت منها يا معلّم!».

«حسنا، عجّل يا زوربا، وابدأ العمل! ماذا تحتاج أكثر من ذلك؟»

«يجب أن أذهب إلى المدينة صباح غد لأشتري المعدات: كابل فولاذي سميك، بكرات، وصلات، مسامير، خطّافات. لا تقلق، سأعود حتى قبل أن تراني قد ذهبت!».

بعد قليل أوقد النار، وأعدّ وجبة طعامنا وأكلنا وشربنا بشهية رائعة.

في صباح اليوم التالي رافقت زوربا إلى القرية، وتحدثنا كشخصين جدّيين وبعقلين متفتحين عن العمل في المنجم. وفيما كنا نهبط منحدراً، ركل زوربا قطعة من الحجر، فأخذت تتدحرج. توقّف لحظة مندهشاً، وكأنه يرى هذا المشهد المدهش لأول مرة في حياته. التفت إليّ، ورأيت في نظرته شيئاً من الذعر

وقال أخيراً: «يا معلّم، هل رأيت ذلك؟ إن الحجارة تستعيد حياتها فوق المنحدرات».

لم أقل شيئاً، لكنني شعرت بفرحة عميقة. وقلت لنفسي هكذا يرى الحالمون والشعراء العظماء كلّ شيء، وكأنهم يرونه للمرة الأولى. ففي صباح كلّ يوم يرون عالماً جديداً أمام أعينهم؛ إنهم لا يرونه حقاً، بل يخلقونه.

إن الكون بالنسبة لزوربا، كما كان بالنسبة للرجال الأوائل على وجه الأرض، عبارة عن رؤية كثيفة ثقيلة، انزلقت النجوم فوقه، وتكسّر البحر على صدغيه. لقد عاشت الأرض والمياه والحيوانات والله بدون تدخّل المنطق المشوّه.

كنا قد أعلمنا مدام هورتينس بمجيئنا، وكانت تنتظرنا أمام بيتها. كانت قد

طلت وجهها بالمساحيق، وذرته بالبودرة، وكانت مضطربة. كانت قد جعلت نفسها مثل مدينة ملاهي في ليلة يوم السبت. وكان البغل رابضاً أمام بوابة بيتها، فقفز زوربا على ظهره وأمسك برسنه.

اقتربت الغانية العجوز بشيء من الخجل، ووضعت يدها الصغيرة المكتنزة على صدر الدابة، كما لو كانت تريد أن تمنع حبيبها من المغادرة.

«زوربا. . » قالت بصوت يشبه هديل الحمامة، ووقفت على أطراف أصابع قدميها، «زوربا. . ».

أشاح زوربا برأسه بعيداً. فقد كان يكره أن يستمع إلى هراء عشاق كهذا في وسط الطريق. رأت المرأة المسكينة نظراته فانتابها الفزع. لكن يدها كانت لا تزال تضغط على صدر البغل، مليئة بالاستعطاف الرقيق.

«ماذا تريدين؟» سألها زوربا بغضب.

«زوربا»، قالت متوسلة، «كن طيباً لا تنسني يا زوربا. كن طيباً. . ».

هزّ زوربا رسن البغل ولم يحر جواباً، وانطلقت الدابة.

«حظّاً سعيداً يا زوربا!» قلت، «ثلاثة أيام، هل تسمع؟ لا أكثر!».

استدار، وأخذ يلوّح بيده الكبيرة. بدأت الغانية العجوز تشهق وسالت دموعها محدثة أخاديد في المسحوق الذي طلته على وجهها

«لقد أعطيتك كلمتي يا معلّم!» صاح زوربا، «إلى اللقاء!».

واختفى تحت أشجار الزيتون. واستمرت مدام هورتينس تجهش في البكاء، لكنها ثبّتت عينيها على بقعة اللون التي أحدثها البساط الأحمر الذي مدّته بعناية لحبيبها ليجلس عليه بارتياح. اختفى وراء أوراق الأشجار الفضية، وسرعان ما تلاشى تماماً. نظرت مدام هورتينس حواليها أصبح العالم فارغاً.

لم أعد إلى الشاطئ. فقد شعرت بالحزن ومشيت نحو الجبال. وما إن

وصلت إلى الدرب المؤدي إلى الجبل، حتى سمعت صوت بوق. كان ساعي بريد الريف يعلن عن وصوله إلى القرية.

«يا سيد» ناداني، ملوحاً بيده.

اقترب مني وسلمني حزمة من الصحف، وبعض المجلات الأدبية ورسالتين: دسست واحدة في جيبي على الفور كي أقرأها في المساء، عندما ينتهي النهار وتهدأ الروح فقد كنت أعرف من هو كاتبها وأردت أن أؤجل بهجتي لتدوم فترة أطول.

وعرفت مرسل الرسالة الأخرى من خط اليد المتشنج ومن الطوابع الغريبة على المغلف: وهو كارايانيس، أحد زملائي القدامى في الدراسة، وهي مرسلة من سفح جبل أفريقي بالقرب من تنجانيكا

كان رجلاً متهوراً غريب الأطوار، داكن البشرة، ذا أسنان بيضاء ناصعة وكان أحد أنيابه ناتئاً مثل ناب خنزير بري. ولم يكن يتكلم، بل كان يصرخ. ولم يكن يناقش، بل كان يتشاجر وكان قد غادر بلده الأصلي كريت، حيث كان معلّماً للاهوت وراهباً شاباً. وكان قد راود إحدى تلميذاته عن نفسها، وفاجأهما الناس ذات يوم وهو يقبّلها في الحقل. فأخذوا يكيلون لهما الشتائم. وفي اليوم ذاته، خلع المعلّم الشاب رداء الكهنوت، واستقل المركب، وذهب إلى أحد أعمامه في أفريقيا، وبدأ يعمل بهمة شديدة. وفتح مصنعاً لصناعة الحبال وجمع مالاً كثيراً. وكان يكتب لي بين الحين والآخر وكان قد كتب لي ذات مرة ودعاني لزيارته والمكوث عنده مدة ستة أشهر. وعندما كنت أفض إحدى رسائله، حتى قبل أن أقرأها، كان ينتابني إحساس قوي، ينبعث من الصفحات المتراصة التي كانت تخاط دائماً بخيط، يجعل شعر جسدي ينتصب. وكنت أقرّر دائماً بأنني سأذهب لزيارته في أفريقيا، لكني لم أذهب.

انعطفت عن الدرب، وجلست فوق صخرة. فتحت الرسالة وبدأت أقرأها:

متى ستقرّر أن تأتي لزيارتي، أيها المحارة الملعونة الملتصقة بصخور اليونان؟ فقد تحولت أنت أيضاً إلى يوناني رد: نموذجي، ترتاد الحانات، وتتمرغ في حياة المقاهي. ويجب ألا يخيّل إليك ـ المقاهي هي مجرد مقاه، بل الكتب والعادات وعقائدك الثمينة أيضاً. إنها جميعها مقاهي. اليوم هو يوم أحد، ولا يوجد لديّ شيء أفعله: إني في بيتي، وقد خطرت ببالي. الشمس شديدة الحرارة كالفرن، ولم تهطل ولا قطرة مطر واحدة. فعندما تهطل الأمطار هنا، في نيسان وأيار وحزيران، يحدث طوفان تام.

أعيش وحدي، وهذا يروق لي كثيراً ويوجد عدد كبير من اليونانيين السيئين هنا هلّ يوجد مكان لا تصل إليه هذه الآفات؟) لكنني لا أريد أن أختلط بهم. إنهم يثيرون اشمئزازي. حتى هنا، أنتم يا رواد الحانات ـ فليأخذكم الشيطان ـ أرسلتم لنا جذامكم ومهاتراتكم البائسة. هذا ما يدمّر اليونان ـ السياسة! وبالطبع هناك ورق اللعب، والجهل، وآثام الجسد أيضاً

إني أمقت الأوروبيين؛ ولهذا السبب أطوف في هذه المناطق في جبال أوسومبارا إني أكره الأوروبيين، لكني أكره أكثر من أي شيء آخر اليونانيين السيئين وكلّ شيء يوناني لن تطأ قدمي أرض اليونان ثانية هنا ستكون خاتمتي. لقد هيأت قبري هنا، أمام كوخي، هنا على سفح الجبل. حتى أني وضعت شاهدة القبر، وحفرت عليها بنفسي هذه الكلمات بأحرف كبيرة: هنا **يرقد يوناني يكره اليونانيين.**

إني أنفجر ضاحكاً، وأبصق، وأشتم وأبكي عندما أفكّر باليونان. ولكي لا أرى يونانيين ولا أرى شيئاً يونانياً، غادرت البلد بلا رجعة. لقد أتيت إلى هنا، وجلبت قدري معي ـ وليس قدري هو الذي جلبني: فالإنسان يفعل ما يختاره هو ـ لقد جلبت قدري إلى هنا، وعملت ولا أزال أعمل مثل عبد. إني أتعرّق وسأظل أتعرّق كثيراً. إني أحارب الأرض، والريح، والمطر، والعمّال، وعبيدي الحمر والسود.

لا توجد لديّ متع. نعم، فلديّ متعة واحدة فقط وهي العمل: الجسدي والعقلي، لكنني أفضل الجسدي. إني أحبّ أن أجهد نفسي، أن أتعرقّ، أن أسمع عظامي تطقطق. إني أبدد نصف مالي. إني لست عبداً للمال: بل المال عبد لي. إني عبد للعمل، وإني فخور بذلك. إني أقطع الأشجار. لقد أبرمت عقداً مع البريطانيين. إني أصنع الحبال. وقد بدأت أزرع القطن أيضاً. في الليلة الماضية، بدأت قبيلتا الزنوج في المنطقة ـ الوايا والوانغوني ـ تتقاتلان من أجل امرأة ـ عاهرة. لقد جُرح كبرياؤهما، كما تعرف. تماماً كما يحدث في اليونان. شتائم، إهانات، شجار، ثم انطلقت العصي. لقد كسر أحدهم رأس الآخر من أجلها. هرعت النساء لإحضاري في منتصف الليل، وأيقظنني بصراخهن كي أذهب وأحكّم بينهم. كنت غاضباً، قلت لهن أن يذهبن إلى الشيطان، وإلى الشرطة البريطانية. لكنهن بقين يولولن ويصرخن أمام باب بيتي، طوال الليل. وعند الفجر خرجت، وحكّمت بينهم.

غداً، في الصباح الباكر، سأتسلق جبال أوسومبارا التي تكسوها غابات كثيفة دائمة الخضرة، وتجري فيها مياه عذبة. حسناً، أيها اليوناني البابلي القذر، متى ستغادر أوروبا؟ «. تلك العاهرة العظيمة التي تجلس فوق عرش مياه كثيرة، التي ضاجعها ملوك الأرض .!» متى ستأتي، كي نتسلّق هذه الجبال النقية والبرّية معاً؟

أنجبت طفلة من امرأة سوداء. لقد طردت أمّها التي جعلت مني ديوثاً على الملأ وفي رابعة النهار، تحت كلّ شجرة خضراء في الحيّ. لقد سئمت منها وطردتها. لكنني احتفظ بالفتاة التي تبلغ من العمر سنتين تستطيع أن تمشي، وقد بدأت تتكلم. إني أعلّمها اللغة اليونانية. كانت أول جملة علّمتها إياها: «أبصق عليكم، أيها اليونانيون القذرون، أبصق عليكم، أيها اليونانيون القذرون!»

إنها تشبهني، هذه الشقية الصغيرة، ولم تأخذ من أمّها إلا أنفها العريض

المسطح. إني أحبّها، لكن كما تحبّ كلباً أو قطّة. تعال إلى هنا وانجب صبياً من امرأة من أوسومبارا. وسنزوج ابنك لابنتي ذات يوم، كي نتسلى ونسليهما أيضاً!

إلى اللقاء! فليذهب الشيطان معك، ومعي، يا صديقي العزيز!

كاريانيس، خادم الشيطان

تركت الرسالة مفتوحة على ركبتي. تملكتني رغبة جامحة في الذهاب مرة أخرى. لا لأنني أرغب في المغادرة ـ فأنا سعيد على الشاطئ الكريتي هذا، وأشعر بالسعادة والحرية هنا ولا أحتاج شيئاً ـ لكن لأن رغبة واحدة فقط كانت تتملكني: أن أرى وأن تطأ قدمي أكبر قدر ممكن من الأرض والبحر قبل أن أموت.

استويت واقفاً، غيّرت رأيي، فبدلاً من أن أصعد التلّ سرت باتجاه الشاطئ بسرعة. تحسست الرسالة الأخرى في الجيب العلوي من معطفي، ولم يعد بإمكاني أن أنتظر أكثر من ذلك. لقد دام مذاق تلك البهجة الجميلة مدة طويلة.

وصلت إلى الكوخ. أوقدت النار، وأعددت الشاي. تناولت قليلاً من الخبز والعسل والبرتقال. خلعت ثيابي، وتمددت على سريري وفتحت الرسالة ورحت أقرأ:

سيدي وتلميذي!

أمامي مهمة ضخمة وصعبة هنا، الحمد « لله » ـ أرفق الكلمة الخطيرة بين هلالين مزدوجين (مثل وحش برّي يقبع وراء القضبان) لكي لا تستثار عندما تفض رسالتي. حسناً، إنه عمل في غاية الصعوبة، «الله » تبارك اسمه! فنصف مليون يوناني معرض للخطر في جنوب روسيا والقوقاز. والعديد منهم لا يتكلّمون إلا التركية أو الروسية، لكن قلوبهم تتحدث اللغة اليونانية بتعصب. إنهم من بني قومنا. فقط انظر إليهم ـ كيف تشع عيونهم الثاقبة، الجشعة،

وشفاههم الماكرة، الشهوانية عندما يبتسمون، كيف تمكنوا من أن يصبحوا سادة ويجعلوا الفلاحين الروس يعملون لحسابهم في أرض روسيا الشاسعة ـ وهذا يكفي لإقناعك بأنهم أحفاد أوديستك المحبوبة. لذلك، لا يمكن للمرء إلا أن يحبهم ولا يستطيع أن يتركهم يهلكون.

إنهم معرضون لخطر الهلاك. لقد فقدوا كلّ ما لديهم، وهم جائعون وعراة. فقد غزاهم البلاشفة من جهة، وغزاهم الأكراد من الجهة الأخرى. وتدفق اللاجئون من كلّ صوب ليستقروا في بلدة أو أخرى في جورجيا وأرمينيا. لا يوجد طعام أو دواء أو ثياب. إنهم يتجمّعون في الموانئ، يمسحون بأعينهم الأفق بانتظار أن تعيدهم السفن اليونانية إلى وطنهم الأم ـ اليونان. إن جزءاً من عرقنا ـ أي جزءاً من روحنا ـ يتملكه الذعر.

إذا تركناهم لمصيرهم، فإنهم سيهلكون. إننا نحتاج إلى كثير من الحبّ والفهم، والحماس والإحساس العملي ـ تلك الخصائص التي تحبّ كثيراً أن تراها متّحدة ـ فإذا أنقذناهم وأعدناهم إلى أرضنا الحرة سيكونون أكثر إفادة ـ أي على حدود مقدونيا، وعلى حدود ثراس. هذه هي الطريقة الوحيدة التي يمكننا أن ننقذ فيها مئات آلاف اليونانيين، وننقذ أنفسنا معهم. لأنني ما إن وصلت إلى هنا حتى رسمت دائرة، كما علّمتني، وسميت تلك الدائرة «واجبي»، وقلت: «لو أنقذت هذه الدائرة كلها، لنجوت؛ وإن لم أنقذها، لهلكت!» حسناً، يوجد في داخل تلك الدائرة خمسمائة ألف يوناني!

أتوجه إلى البلدات والقرى، أجمع اليونانيين كلهم معاً، أكتب تقارير، أبعث برقيات، أحاول أن أجعل المسؤولين في أثينا يرسلون قوارب، طعاماً، ثياباً، وأدوية، وأن ينقلوا تلك المخلوقات المسكينة إلى اليونان. فإن كان الكفاح بحماس وعناد يجعلك سعيداً، فأنا سعيد. لا أعرف إن كنت قد فصّلت سعادتي حسب مقاسي، إذا ما استخدمت العبارة التي دأبت أنت على قولها وعندها سأكون شخصاً عظيماً. إني أريد أن أزيد مقاسي إلى الحد الذي

يجعلني سعيداً، أي إلى حدود تتجاوز حدود اليونان! لكن لنكّف عن النظريات! إنك مستلق على شاطئ كريت، تنصت إلى صوت هدير البحر وعزف السنتوري ـ لديك وقت، أما أنا فلا يوجد لدي وقت. إني مشغول حتى قمة رأسي وأنا سعيد بذلك. العمل، يا سيدي الخامل العزيز، العمل؛ لا يوجد خلاص آخر.

إن موضوع تأملاتي بسيط. وإني أقول إن سكّان البونتوس والقوقاز هؤلاء، وفلاحي كارس، وكبار وصغار التجار في تفليس وباطوم ونوفو روسيسك وروستوف وأوديسا والقرم، هم منا، إنهم من دمنا ولحمنا؛ إن عاصمة اليونان بالنسبة لهم، كما هو الحال بالنسبة لنا، هي القسطنطينية. ولدينا جميعنا الزعيم نفسه، الذي تطلق عليه اسم أوديسيوس، ويطلق عليه آخرون اسم كونستانتينوس باليولوغوس[1] ـ ليس ذاك الذي قُتل تحت أسوار بيزنطة، أما الآخر، الأسطوري، الذي تحوّل إلى رخام، ولا يزال يقف منتصباً منتظراً ملاك الحريّة. ومن بعد إذنك، فإني أطلق على زعيمنا اسم أكريتاس. إني أفضل هذا الاسم. إنه صارم ومحارب صنديد. فما إن تسمعه، حتى ترتسم في مخيلتك صورة هيلين الخالدة، مدجّجة بالسلاح، تحارب دون كلل أو هوادة على الحدود والجبهات. على الجبهات جميعها: الوطنية والثقافية والروحية. وإذا أضفت ديجينس، فإنك تصف إلى درجة أكبر تلك التركيبة الرائعة بين الشرق والغرب الذي هو عرقنا.

أنا الآن في كارس. جئت لأجمع اليونانيين جميعهم من القرى المجاورة في اليوم الذي وصلت فيه، اختطف الأكراد معلّماً وكاهناً يونانيين من المنطقة، وثبتوا حدوات حصان على أقدامهما. تملك الأعيان الذعر ولجأوا إلى البيت الذي أقيم فيه. إننا نسمع صوت أسلحة الأكراد تقترب أكثر فأكثر إن عيون جميع هؤلاء اليونانيين مثبتة عليّ، كما لو كنت الوحيد الذي يمتلك القوة لإنقاذهم.

---

(١) آخر أباطرة الرومان الشرقيين (١٤٤٨ ـ ١٨٥٣).

كنت أزمع أن أغادر غداً إلى تفليس، أما الآن، وفي وجه هذا الخطر، فإني أشعر بالعار إذا غادرت. لذلك سأبقى. أنا لا أقول إني لست خائفاً. أنا خائف، لكنني أشعر بالخجل. ألم يكن رامبراندت المحارب، محاربي، سيفعل الشيء ذاته؟ ألم يكن سيبقى، لذلك بقيت أيضاً. لو دخل الأكراد إلى المدينة فمن الطبيعي أن يثبتوا حدوة في قدمي. أنا واثق يا معلّمي، ولن يخطر ببالك أن نهاية تلميذك ستكون بهذه الطريقة!

وبعد إحدى المناقشات الطويلة التي اعتاد عليها اليونانيون، قرّرنا أن يلتقي الجميع هذا المساء مع بغالهم وخيولهم ومواشيهم ونسائهم وأطفالهم، وفي الفجر، سننطلق جميعاً باتجاه الشمال. سأسير أنا في المقدمة. الكبش يوجّه القطيع.

هجرة شعب فوق سلاسل جبال وسهول ذات أسماء أسطورية! وسأكون شبيهاً بموسى - موسى الزائف - يقود الشعب المختار إلى أرض الميعاد، كما يدعو هؤلاء الناس السذّج اليونان. بالطبع، لكي أكون جديراً حقاً بهذه المهمة الفسيفسائية، ولا أجلب لك العار، يجب أن أتخلص من حذائي الأنيق وألف حول ساقيّ جلد غنم. ويجب كذلك أن أرخي لحية طويلة، مجعدة، يكسوها الدهن، والأهم من كل ذلك، أن أضع قرنين. لكن للأسف، لا أستطيع أن أمنحك هذه المتعة. إذ إن تغيير روحي أسهل من تبديل ثيابي. إني أنتعل حذائي، وذقني حليقة وناعمة مثل رأس ملفوف، وأنا أعزب.

يا سيدي، أتمنّى أن تصلك هذه الرسالة، لأنها قد تكون الرسالة الأخيرة فمن يدري. لا توجد لدي ثقة بالقوى الخفية التي يقال إنها تحمي الإنسان. إني أؤمن بالقوى العمياء التي تخبط خبط عشواء، بدون حقد، بدون هدف، تقتل من تصادفه في طريقها. إذا غادرت هذه الأرض (أقول «أغادر» لكي لا أثير خوفك أو خوفي لو قلت الكلمة الصحيحة)، أقول إني إن غادرت هذه الأرض، فأرجو أن تعتني بصحتك، وأن تكون سعيداً، يا معلّمي العزيز! أنا

محرج لأني مضطر لأن أقول ذلك، لكنّي يجب أن أقولها، لذلك أرجوك أن تعذرني: فقد أحببتك أنا أيضاً كثيراً.

وفي الأسفل، كُتبت هذه الملاحظة بقلم رصاص وعلى عجل:

ملاحظة: لم أنس ما اتفقنا عليه عندما كنا على متن المركب عندما غادرت. إذا كان عليّ أن «أغادر» هذه الأرض، فإني أحذرك، تذكّر، حيثما كنت، لا تدع هذا الأمر يثير مخاوفك.

[13]

مضت ثلاثة أيام، أربعة أيام، خمسة أيام، ولم يظهر أي أثر لزوربا. وفي اليوم السادس، وصلتني من كنديا رسالة مؤلفة من عدّة صفحات طويلة، مليئة بالهراء، مكتوبة على ورق معطّر وردي اللون، ورسم في زاوية الصفحة، قلب يخترقه سهم.

احتفظت بها، ونسختها بدقة شديدة، وحافظت على التعابير الجميلة المتناثرة هنا وهناك. ولم أصحح فيها إلا الأخطاء الإملائية الفاحشة. إذ يمسك زوربا القلم وكأنه يحمل فأساً. ومما يدل على أنه كان يحارب الورق، الثقوب وبقع الحبر التي تملأ الرسالة.

معلّمي العزيز! السيد الرأسمالي،

أكتب إليك بالقلم لأسأل إن كنت تتمتع بصحة جيدة. إننا على ما يرام هنا أيضاً، ونحمد الله على ذلك!

أدركت منذ فترة من الزمن أنني لم آت إلى هذا العالم لكي أكون حصاناً أو ثوراً. فالحيوانات وحدها تعيش لتأكل. ولكي أتحاشى هذا الاتهام، فإني أجد أعمالاً أشغل بها نفسي ليلاً نهاراً. وإني أجازف بقوتي اليومي من أجل فكرة، وأقلّب الأمثال الشائعة وأقول: «من الأفضل أن تكون دجاجة ماء نحيلة في بحيرة على أن تكون عصفوراً سميناً في قفص».

فكثير من الناس وطنيون دون أن يكلفهم ذلك شيئاً. أما أنا فلست وطنياً،

ولن أكون، مهما كلّفني ذلك. ويؤمن الكثيرون بالجنة، ويربطون حماراً هناك. أما أنا فلا يوجد لديّ حمار، لأني حرّ! ولا أخاف من نار جهنم حيث سيموت حماري. كما إني لا أتوق إلى الجنة حيث يمكنه أن يحشو نفسه بالبرسيم. إني أبله جاهل، ولا أعرف كيف أصيغ الأمور، لكنك تفهمني، يا معلّم.

يخشى الكثيرون أن يتفاخروا بالأشياء! وقد تمكنت من التغلب على هذا الأمر وكثير من الناس يفكرون كثيراً، أما أنا فلست بحاجة إلى التفكير ملياً فأنا لا أبتهج لسماع الأشياء الجيدة، ولا أحزن لسماع الأشياء السيئة. فإن سمعت أن اليونانيين قد استولوا على القسطنطينية، فإني لا أبالي، وبالنسبة لي، فإن ذلك كما لو استولى الأتراك على أثينا.

إذا كنت تظن أن ثمة شيئاً في عقلي من هذا الهراء الذي أقوله، فاكتب لي. إني أدخل المحلات هنا في كنديا، أحاول أن أشتري الكابل، وأنا أضحك.

«لماذا تضحك يا أخي؟» لا يتوقفون عن سؤالي. لكن كيف لي أن أخبرهم؟ إني أضحك لأنني، ما إن أمدّ يدي لأرى إن كان الكابل الفولاذي قوي، حتى أفكر بماهية الإنسان، وسبب مجيئه إلى هذه الأرض، ولأي شيء يصلح. وإذا سألتني، فهو لا يصلح لشيء. والأمر سيان إن كان لديّ امرأة أم لا، إن كنت صادقاً أم لا، أو إن كنت باشا أم حمالاً في الشارع. الشيء الهام الوحيد هو إن كنت حياً أم ميتاً. وسواء كان الشيطان أم الله هو الذي يناديني (وهل تعرف يا معلمي؟ أظن أن الشيطان والله شيء واحد) فإني سأموت، وسأصبح جثّة تفوح منها رائحة نتنة، وسيهرب الناس من رائحتي، وسيضطرون لإلقائي في حفرة لا يقل عمقها عن أربعة أقدام تحت الأرض، لكي لا تخنقهم الرائحة!

بالمناسبة، سأسألك شيئاً يثير فزعي قليلاً ـ الشّيء الوحيد الذي يؤرقني ـ ولا يدعني في سلام، ليلاً نهاراً، يا معلم، إنها الشيخوخة. فلتحفظنا السماء منها! الموت لا شيء ـ مجرد بفف! وتنطفئ الشمعة. أما الشيخوخة فهي عار.

إني أرى أن الاعتراف بأني أتقدم في السن شيء مخز إلى درجة كبيرة، لذلك

أبذل ما بوسعي لكي لا يراني الناس وأنا أشيخ: أقفز هنا وهناك، أرقص، ومعْ أن ظهري يؤلمني فإنني لا أتوقف عن الرقص. أشرب، أدوخ، كلّ شيء يدور حولي، لكنني لا أجلس، أتصرّف وكأن كلّ شيء على ما يرام. أتبلل عرقاً، لذلك أغوص في البحر، فأصاب بالبرد وأبدأ أسعل ـ غووو، غووو ـ لأخفف عن نفسي، لكنّي أشعر بالخجل، يا معلم، وأكتم السعال. هل سمعتني أسعل من قبل؟ أبداً! وليس كما تظن، فقط عندما يكون هناك أناس آخرون، لكني عندما أكون وحدي، فإني أشعر أيضاً بالخجل ـ أمام زوربا ـ ما رأيك بهذا يا معلم؟ إني أخجل أمامه!

ذات يوم على جبل أثوس ـ لأنني كنت هناك، وكان من الأفضل لي أن أقطع يدي اليمنى! ـ التقيت بكاهن، الأب لافرينتيو من أهالي تشيوس. وكان هذا المسكين يعتقد أن شيطاناً في داخله يتلبسه، بل وحتى أطلق عليه اسم «خوجا». «الخوجا يريد أن يتناول اللحم يوم الجمعة العظيمة!» كان لافرينتيو المسكين يجأر، ويضرب رأسه في جدار الكنيسة. «الخوجا يريد أن ينام مع امرأة. الخوجا يريد أن يقتل رئيس الدير. إنه الخوجا، الخوجا وليس أنا!» ويضرب رأسه في الحجر.

يوجد في داخلي شيطان أنا أيضاً يا معلم، وأطلق عليه اسم زوربا! زوربا الداخلي لا يريد أن يشيخ، على الإطلاق، ولم يشخ، ولن يشيخ أبداً. إنه غول، وله شعر أسود فاحم، وفي فمه اثنتان وثلاثون سناً، ويضع قرنفلة حمراء وراء أذنه. أما زوربا الخارجي، الشيطان المسكين، فقد أصبحت له بطن ناتئة قليلاً، وابيضّ شعره قليلاً وتغضن جلده، وتجعد وجهه؛ وبدأت أسنانه تتساقط، وامتلأت أذنه الكبيرة بشعر الشيخوخة الأبيض، شعر حمار طويل!

ماذا يمكنه أن يفعل يا معلم؟ إلى متى سيصارع هذان الزورباوان أحدهما الآخر؟ من سيفوز؟ إذا مت قريباً، فإن الأمر سيكون على ما يرام، لا يهمني ذلك. لكني إذا عشت أطول فقد قضي عليّ، قضي عليّ يا معلم! فاليوم الذي

سأصاب فيه بالخزي آت لا محالة. سأفقد حريتي: وستطلب مني كنّتي وابنتي أن أرعى لهما طفلاً، وحشاً صغيراً تخشيانه، كي لا يحرق نفسه، أو كي لا يقع، أو لكي لا يوسّخ نفسه. وإذا وسّخ نفسه، أووف! فإنهما ستجعلانني أنظّفه!

لا بد أنك ستمر في هذا الخزيّ ذاته يا معلم، رغم أنك شاب. انتبه. استمع إلى ما سأقوله لك، اتبع ذات الطريق الذي اتبعته، فلا خلاص من دونه: لنصعد إلى الجبال، وننقّب عن الفحم والنحاس والحديد والزنك؛ لنجمع نقوداً كي يحترمنا الأقرباء، ويلعق أحذيتنا الأصدقاء، ويرفع جميع الموسرين قبعاتهم تحية لنا. وإذا لم ننجح يا معلم، فعلينا أن نحزم أمتعتنا، وندع الذئاب أو الدببة أو أيّ وحش برّي نعثر عليه يقتلنا ـ وقد يفيدهم ذلك كثيراً! ولهذا السبب أرسل الله الوحوش البرّية إلى الأرض: لتلتهم أناساً مثلنا، كي لا يسقطوا إلى الحضيض.

وهنا رسم زوربا بأقلام رصاص ملوّنة رجلاً نحيفاً طويلاً. يجري تحت عدد من الأشجار الخضراء، وسبعة ذئاب حمراء تعدو وراءه، وفي أعلى اللوحة، كتب بحروف كبيرة: «الخطايا السبع القاتلة»

ثم تابع:

من هذه الرسالة يجب أن ترى كم أني رجل حزين. ولا أشعر بالراحة من حالتي العقلية السقيمة إلا عندما أكون برفقتك، بالتحدث إليك. لأنك مثلي أيضاً، لكنك لا تدرك ذلك. ففي داخلك شيطان أيضاً، لكنك لا تعرف اسمه بعد، وبما أنك لا تعرف ذلك، فإنك تستطيع أن تتنفس. عمّده يا معلم، وستشعر أنك في حال أفضل!

كنت أقول كم أنا حزين. ويمكنني أن أرى بوضوح أن ذكائي ما هو إلا غباء، لا أكثر. لكن تمر أوقات تخطر لي فيها أفكار عظيمة لأيام كاملة، ولو استطعت أن أفعل ما يقوله لي زوربا الداخلي لدهش العالم!

وبما أنه لا يوجد شرط يحدد الفترة الزمنية في عقدي مع الحياة، فإني أطلق لنفسي العنان ولا أستخدم كوابحي عندما أصل إلى أكثر المنحدرات خطورة. إن حياة الإنسان درب مليء بالارتفاعات والوهاد الوعرة. ويستخدم الناس العاقلون جميعهم كوابحهم. لكنني ـ وهنا يا معلم، ربما أستطيع أن أظهر من أي شيء جُبلت ـ تخلصت من كوابحي كلها منذ أمد بعيد، لأني لا أخشى أي هزة على الإطلاق. فعندما تخرج الآلة عن مسارها، فإننا نسمي ذلك، نحن الفنيين، «هزة». ويعرف الشيطان إن كنت أعبأ بالهزات التي تصيبني أنطلق ليلاً ونهاراً بكامل طاقتي إلى الأمام، ولا أفعل إلا ما يحلو لي، وأسوأ ما يمكن أن يحدث لي هو أن أسقط وأتهشم. ماذا سأخسر؟ لا شيء. حتى لو أخذت الأمور بسهولة، أفلن أنتهي بنفس الطريقة؟ طبعاً سأنتهي هكذا! لذلك لنمض ونحرق المراحل!

إني واثق من أني أجعلك تضحك الآن يا معلم، لكني أكتب ثرثرة، أو إذا أحببت، تأملاتي، أو مواطن ضعفي ـ ما الفرق بين هذه الأشياء الثلاثة؟ ـ حقاً لا أعرف ـ إني أكتب إليك، وأنت تضحك إذا لم تشعر بالضجر بعد. إني أضحك من الفكرة بأنك تضحك، وبهذه الطريقة لا يتوقف الضحك أبداً على سطح هذه الأرض. فلكلّ إنسان حماقاته، لكن أكبر حماقة، في رأيي، هي أن لا يكون لديك حماقة.

إذن يمكنك أن ترى أني أحدد حماقتي هنا في كنديا، وأمنحك كل شيء يا معلم، لأني أريد أن أطلب مشورتك. إذ إنك لا تزال شاباً، بالطبع، لكنك قرأت كتب الحكمة القديمة وأصبحت، وأرجو ألا تمانع في قولي هذا، من الطراز القديم نوعاً ما؛ لذلك أريد أن أحصل على نصيحتك.

«حسناً، أظن أنه توجد لكلّ رجل رائحته الخاصة به. إننا لا نلاحظها كثيراً لأن الروائح تمتزج معاً ولا يمكننا أن نعرف أيها رائحتي وأيها رائحتك، حقاً...» كلّ ما نعرفه أنه توجد رائحة كريهة وهي ما نطلق عليه

«الإنسانية». أعني أنه «تنبعث من البشر رائحة نتنة». وهناك أناس يتنشقونها كما لو كانت رائحة خزامى. إنها تجعلني أريد أن أتقيّأ. على كل حال، لنتابع ما كنا نقوله، فهذه قصّة أخرى.

«كنت أريد أن أقول ـ كنت سأطلق العنان لنفسي مرة أخرى ـ إنه لدى النساء، الساقطات، أنوف مبللة، مثل الكلاب، ويشممن على الفور الرجل الذي يرغب فيهن والرجل الذي لا يرغب فيهن. ولهذا، ففي كلّ بلدة كنت أدخل إليها، حتّى بعد أن هرمت وأصبحت قبيحاً مثل قرد، ولم أعد أرتدي ثياباً أنيقة، كانت تجري ورائي دائماً امرأة أو امرأتان. كنّ يشمّمنني، تلك الكلبات! بارك الله فيهن».

على كل حال، عندما وصلت في أول يوم بسلامة إلى كنديا، كان الظلام قد بدأ يهبط. هرعت مباشرة إلى المحلات، لكنها كانت جميعها مغلقة. توجهت إلى نزل، وقدمت لدابتي شيئاً من العلف، وتناولت طعامي واغتسلت. أشعلت سيكارة وخرجت أتمشى في المكان. لم أكن أعرف أحداً في البلدة، ولم يكن أحد يعرفني؛ كنت حراً تماماً. كان بوسعي أن أصفر في الشارع، أضحك، أكلّم نفسي. اشتريت قليلاً من بذر اليقطين المحمّص، ورحت أفصفص البذر، أتفّه، وأخذت أتجول كما يحلو لي. كانت مصابيح الشارع مضاءة، وكان الرجال يحتسون الشراب، والنساء عائدات إلى بيوتهن. وكان الهواء يعبق برائحة المسحوق، الصابون المعطّر، واليانسون، ولحم الكباب، وقلت لنفسي: «اسمع يا زوربا، إلى متى تتوقّع أن تعيش بهذه الخياشيم المرتعشة؟ فلم يتبق أمامك الكثير كي تتنشق الهواء. هيا، أيها العجوز، خذ نفساً عميقاً بقدر ما تستطيع».

هذا ما كنت أقوله لنفسي وأنا أغذّ الخطى جيئة وذهاباً في الساحة الكبيرة ـ إنك تعرفها. وفجأة ـ حمداً لله ـ سمعت صياحاً، رقصاً، عزفاً على الدفّ وبعضاً من الأغاني الشرقية. شنّفت أذني ورحت أجري إلى المكان الذي ينبعث

منه الضجيج. كان مقهى فيه ملهى. هذا تماماً ما كنت أبحث عنه. دخلت. جلست إلى طاولة صغيرة في المقدمة. لماذا لا أكون جريئاً؟ وكما قلت لك، لم يكن أحد يعرفني، كنت حراً تماماً.

كانت هناك امرأة بلهاء ضخمة ترقص على المنصة، ترفع تنورتها إلى الأعلى، لكنني لم أعرها أيّ اهتمام. طلبت زجاجة بيرة، ثم اقتربت فتاة حلوة شديدة السمرة، وجلست إلى طاولتي، وقد طلت وجهها بشكل مبالغ فيه.

«هل تمانع يا جدي؟» سألتني وهي تضحك.

عندها اندفع الدم إلى رأسي. اعترتني رغبة عارمة في أن ألوي عنقها، هذه العاهرة! لكنني تمالكت نفسي، واعتراني شعور بالحزن على «جنس حواء». ناديت النادل.

«أحضر زجاجتين من الشمبانيا!».

اغفر لي يا معلم! فقد أنفقت بعضاً من نقودك، لكن تلك كانت إهانة فظيعة. كان عليّ أن أنقذ شرفنا، شرفك وشرفي، كان عليّ أن أجعل هذه الطفلة الشقية تجثو على ركبتيها أمامنا، كان عليّ أن أفعل ذلك. أعرف أنك لن تتركني أعزل، هكذا، في لحظة عصيبة! إذن، «أحضر زجاجتين من الشمبانيا أيها النادل!».

جاءت الشمبانيا، وطلبت كعكاً أيضاً، ثم مزيداً من الشمبانيا. ثم جاء رجل يحمل بعض الياسمين واشتريت السلة كلها وأفرغتها في حضن العصفورة الصغيرة التي تجاسرت على إهانتنا.

شربنا وشربنا، لكني أقسم لك يا معلّم، حتى أني لم أقرصها. فأنا أعرف نفسي. أما عندما كنت شاباً، فكان أول شيء أفعله، أن أقرصهن وأعابثهن. لكني الآن أصبحت عجوزاً، وأول شيء أفعله أنفق نقوداً، أكون شهماً، كريماً. فالنساء يعشقن أن يعاملن بهذه الطريقة. هؤلاء الزانيات يفقدن صوابهن بك، حتى لو كنت أحدباً، عجوزاً مهدماً، قبيحاً مثل قملة، فهنّ ينسين كلّ ذلك. لا يستطعن أن يرين، تلك الكلبات، إلا اليد التي تُخرج المال ويجعلنها تتدفق مثل

سلة مثقوبة. لذلك، كما أقول لك، أنفقت ثروة ـ بارك الله بك يا معلّم، وأرجو أن يعيدها لك مائة ضعف ـ وقد التصقت الفتاة المذكورة بي كثيراً. راحت تقترب أكثر وأكثر؛ وراحت تضغط ركبتها الصغيرة على ركبتي ذات العظام الناتئة. لكنني كنت مثل قطعة ثلج، مع أنني كنت أتحرّق من الداخل وأشعر بالضيق. هذا ما يجعل النساء يفقدن صوابهن؛ يجب أن تعلم ذلك، فإذا وجدت نفسك في وضع مشابه، فقد يجعلك ذلك تحسن التصرف. دعهن يشعرن أنك تحترق في داخلك ومع ذلك لا تمسهن!

حسناً، انتصف الليل وبزغ الفجر، وبدأ ضوء النهار يطلع، وأخذ المقهى يغلق أبوابه. أخرجت صرة فيها ورقات من فئة الألف دراخما. سددت الفاتورة، ونفحت النادل بقشيشاً كبيراً. تعلّقت بي الفتاة.

«ما اسمك؟» سألتني بنبرة تشي بالحب.

«جدّو!» أجبت، مغتاظاً.

قرصتني الكلبة الصغيرة بقوة وهمست: «تعال معي. تعال معي! ».

أخذت يدها الصغيرة، وعصرتها وأجبت: «تعالي إذن يا صغيرتي. . ». كان صوتي أجشاً.

ويمكنك أن تتخيّل الباقي يا معلّم. لقد أدينا واجبنا، ثم غططنا في النوم. عندما استيقظت لا بد أن النهار كان قد انتصف. تطلعت حولي، وماذا رأيت؟ غرفة صغيرة رائعة في غاية الأناقة فيها كراسي ومغسلة وصابون وزجاجات عطر ومرايا من جميع الأحجام، وثياب ملوّنة مبهرجة معلقة على الحائط، ومجموعة كبيرة من الصور: بحّارة، ضبّاط، قادة، رجال شرطة، راقصات، نساء لا يسترهن سوى شيء واحد ـ صندلان. وإلى جانبي على السرير، الفتاة الدافئة، العطرة، ذات الشعر المشعث.

«آه، يا زوربا»، قلت لنفسي، وأغمضت عيني، «لقد دخلت الجنة وأنت لا تزال حياً! إن هذا مكان رائع؛ لا تتزحزح منه!»

كنت قد قلت لك ذات يوم يا معلّم، أن لكل رجل جنته الخاصة به. فبالنسبة لك، الجنة مليئة بالكتب وقوارير الحبر الكبيرة. وبالنسبة لشخص آخر، فهي مليئة بدنان الخمر، وشراب الرم والبراندي، وبالنسبة لآخر، أكداس من المال. أما أنا فهذه هي جنتي: غرفة صغيرة تعبق فيها روائح عطرة، وثياب ملونة مبهرجة معلقة على الحائط، وصابون معطّر، وسرير كبير تحمله نوابض قوية، وإلى جانبي، أنثى.

إن اعترافك بالذنب هو نصف المغفرة. لم أغادر الغرفة في ذلك اليوم. إلى أين سأذهب؟ ماذا يجب أن أفعل؟ لا تخش عليّ! فقد كنت على أحسن ما يرام في المكان الذي وجدت نفسي فيه. طلبت طعاماً من أفضل حانة في البلدة، وأرسلوا لنا صينية مليئة بالطعام ـ كل ما لذّ وطاب ويقوّي الجسم ويشد من عزيمته: كافيار أسود، قطع لحم مشوية وسمك وعصير ليمون وقطايف. عدنا إلى أمورنا الصغيرة مرة أخرى ثم غفونا. استيقظنا في المساء، وارتدينا ثيابنا، وخرجنا وذراعها في ذراعي، وذهبنا إلى المقهى مرة أخرى.

باختصار، ولكي لا أغرقك في سيل الكلمات، فإني لا أزال حريصاً أشد الحرص على برنامجنا. لكن لا تقلق يا معلم، فأنا أعتني بأمورك الصغيرة أيضاً. وأذهب بين الحين والآخر إلى السوق وأبحث عن الأدوات. سأشتري الكابل وكلّ ما نحتاج إليه، لا تقلق. يوماً قبل، أو يوماً أو أسبوعاً بعد، حتى شهراً، لا يهمّ؟ وكما يقول المثل، إذا كانت القطّة في عجلة من أمرها، فإنها ستلد هرات غريبة الشكل. إني أستمع إلى كل شيء، وأفكر جيداً بمصلحتك، لكي لا يغشني أحد. يجب أن تكون نوعية الكابل ممتازة، وإلا سنقع في ورطة. لذلك تحلّ بالصبر يا معلم، وثق بي

والأهم من كل ذلك، لا تقلق على صحتي. فالمغامرات مفيدة لي ففي غضون أيام قليلة، عدت شاباً في العشرين من عمري حلويات تركية محشوة بالجوز والفستق. أقول لك إني أصبحت قوياً جداً، وستنبت لي قريبا

أسنان جديدة. عندما جئت إلى هنا، كان ظهري يؤلمني، أما الآن فإني أنعم بصحة ممتازة. وفي صباح كلّ يوم، أنظر إلى نفسي في المرآة وأدهش لأن شعري لم يصبح أسود اللون مثل طلاء الأحذية بين عشية وضحاها.

لكنك تتساءل لماذا أكتب لك كلّ هذا؟ حسناً. أنا أعتبرك مثل كاهن الاعتراف يا معلّم، ولا أخجل من أن أعترف لك بجميع ذنوبي. هل تعرف لماذا؟ حسب ما أرى، سواء كان تصرفي صحيحاً أم خاطئاً، فإنك لا تهتم بكل ذلك. إنك تحمل إسفنجة مبللة، ومثل الله، تمحو كلّ شيء بضربة واحدة. وهذا ما يجعلني أقول لك كلّ شيء. فاستمع إذن.

لقد اختلطت عليّ الأمور، وأنا على وشك أن أفقد صوابي. أرجوك يا معلّم، امسك قلمك واكتب لي فور استلامك رسالتي هذه. وإلى حين استلام جوابك، سأكون على أحر من الجمر. يخيّل لي أن الله قد محا اسمي من سجلاته منذ سنوات، ومن سجلات الشيطان أيضاً. وأظن أن اسمي موجود في سجلك أنت فقط، لذلك لا يوجد أحد يمكنني أن ألجأ إليه إلا ذاتك المقدسة، لذلك استمع إلى ما سأقوله. وهذا ما سأقوله لك:

كان أهالي إحدى القرى بالقرب من كانديا يحتفلون البارحة بعيد أحد القديسين ـ وليأخذني الشيطان إن كنت أعرف اسم القدّيس الذي كانوا يحتفلون به. لولا آه، صحيح، لقد نسيت أن أقدمها لك. قالت لي إن اسمها لولا:

«جدّو!» نادتني جدّو مرة أخرى، لكن هذه المرّة من باب الدلع والتحبب يا معلّم، وقالت: «جدّو أريد أن أذهب وأحضر العيد!».

فقلت لها: «هيا اذهبي يا جدتي».

«لكني أريد أن أذهب معك»

«لن أذهب. فأنا لا أحبّ القديسين. اذهبي وحدك»

«حسناً، لن أذهب أنا أيضاً».

حدّقت فيها

«ألن تذهبي؟ لماذا؟ ألا تريدين؟».

«إن أتيت معي، ذهبت. وإن لم تأت فلن أذهب».

«لم لا؟ إنك فتاة حرّة، أليس كذلك؟».

«لا، لست حرّة»

«ألا تريدين أن تكوني حرّة؟».

«لا، لا أريد».

خيّل إليّ أنني أسمع أصواتاً. وكنت بالفعل أسمع أصواتاً.

صحت «ألا تريدين أن تكوني حرّة؟»

«لا، لا أريد! لا، لا أريد! لا، لا أريد»

يا معلّم، إني أكتب لك هذه الرسالة وأنا في غرفة لولا، وعلى ورقة من أوراق لولا أجل بحق الله، اسمع جيداً أظن أن الناس الذين يريدون أن يكونوا أحراراً هم البشر فقط. والنساء لا يردن أن يكنّ حرّات. حسناً، هل المرأة بشر؟

بحق السماء، اكتب لي ردك بأسرع ما يمكن. أتمنى كلّ خير لأفضل معلّم.

أنا، اليكسيس زوربا

عندما أنهيت قراءة رسالة زوربا، أحسست بأن عقلي أصبح مشوشاً وكأنه قد أصبح لي عقلان ـ لا، بل ثلاثة عقول. لم أعرف إن كان عليّ أن أغضب، أو أن أضحك، أو أن أبدي إعجابي بهذا الرجل البدائي الذي كسر قشرة الحياة ـ المنطق، المبادئ الأخلاقية، الصدق ـ واتجه إلى جوهرها مباشرة. إنه يفتقر إلى جميع الفضائل الصغيرة المفيدة، وكلّ ما لديه فضيلة مزعجة خطيرة يصعب إرضاؤها تدفعه باستمرار، وبشكل لا يقاوم إلى أقصى درجة، نحو الهاوية.

عندما يكتب هذا العامل الجاهل، فهو يكتب بحماس وطيش، مثل الرجال البدائيين الذين يسلخون جلودهم القردية، أو مثل الفلاسفة العظماء، لا تشغله سوى مشاكل البشرية الأساسية. فهو يعيشها وكأنها ضرورات فورية وعاجلة. ومثل الأطفال، فهو يرى كلّ شيء للمرة الأولى. ويبدي دهشته إلى الأبد، ويتساءل لماذا وكيف. يبدو كلّ شيء معجزة بالنسبة له، وصباح كل يوم، عندما يفتح عينيه، ويرى الأشجار والبحر والصخور والطيور، فإنه يبدو مندهشاً

يصيح: «ما هذه المعجزة؟ ماذا تسمى هذه الألغاز: الأشجار، البحر، الصخر، الطيور؟».

أذكر أننا ذات يوم، التقينا رجلاً عجوزاً يمتطي دابة ونحن في طريقنا إلى القرية. فتح زوربا عينيه واسعاً وراح ينظر إلى الدابة. كانت نظرته حادّة إلى درجة أن الفلاح صاح مذعوراً:

«بحق الله يا أخ، لا تنظر إليها هكذا بعين حاسدة!» ورسم شارة الصليب.

التفت إلى زوربا، وسألته:

«ماذا فعلت للعجوز لكي يصيح هكذا؟».

«أنا؟ ماذا تظن أني فعلت؟ كنت أنظر إلى دابته، هذا كلّ ما في الأمر! ألم يلفت ذلك انتباهك يا معلم؟».

«ماذا؟».

«حسنا   أنه توجد أشياء كالبغال في هذا العالم!».

في يوم آخر كنت مستلقياً على الشاطئ أقرأ، وجاء زوربا وجلس أمامي، ووضع السنتوري في حضنه وبدأ يعزف. رفعت عينيّ لأنظر إليه. وشيئاً فشيئاً أخذت قسمات وجهه تتغير، واستولت عليه متعة هائلة. حرّك رقبته المجعّدة الطويلة وجعل يغني أغاني مقدونية، أغاني كليفتية، صيحات متوحشة. وكأن

الحنجرة الإنسانية عادت إلى عهود غابرة، عندما كانت الصيحة توليفة عظيمة تحمل بداخلها كلّ ما نطلق عليه اليوم أسماء كالشعر والموسيقى والفكر «أخ! أخ!» جاءت الصيحة من أعماق زوربا، وتمزقت القشرة الرقيقة التي نسميها حضارة، وانبثق الوحش الخالد، الإله ذو الشعر، الغوريلا المرعب.

الفحم، الربح والخسارة، السيدة هورتينس، خطط المستقبل، لقد تلاشت كلها تلك الصيحة حملت أمامها كلّ شيء لم نعد بحاجة إلى أي شئ آخر بدون حراك، على شاطئ كريت المنعزل ذاك، كان كل منا يحمل في صدره مرارة الحياة وحلاوتها لم يعد ثمة وجود للمرارة والحلاوة. مالت الشمس إلى الغروب، وهبط الليل، وراحت نجمة الدب الأكبر ترقص حول محور السماء الثابت، وبزغ القمر وراح يحدّق بذعر في وحشين صغيرين يغنيان فوق الرمال لا يخشيان أحداً.

قال زوربا على حين غرة، وهو في غاية الاستثارة من غنائه: «إن الإنسان وحش برّي. دع كتبك وشأنها ألا تخجل من نفسك؟ إن الإنسان وحش برّي، والوحوش البرّية لا تقرأ».

صمت برهة، ثم أخذ يضحك وقال:

«هل تعرف كيف خلق الله الإنسان؟ هل تعرف أولى الكلمات التي خاطب فيها هذا الحيوان، الإنسان، الله؟»

«لا كيف يمكنني أن أعرف؟ فلم أكن هناك».

«أنا كنت!» صاح زوربا، وعيناه تتلألأن.

«حسناً، قل لي ما هي».

نصف منتش، ونصف هازئ، راح يختلق قصّة خلق الإنسان الرائعة.

«حسناً، اسمع يا معلم! ذات صباح، استيقظ الله مكتئباً، وقال: أي نوع من الآلهة أنا! فلا يوجد رجال يحرقون البخور من أجلي، ويقسمون باسمي كي

أساعدهم على تزجية الوقت! لقد سئمت الحياة وحيداً مثل بومة عجوز تصرخ. فوو! وبصق على يديه، وشمّر عن ساعديه، ووضع نظارته، وأخذ حفنة من التراب، وبصق عليها، وجعل منها طيناً، ثم عجنها جيداً وجعل منها رجلاً صغيراً وألصقه بالشمس».

«وبعد سبعة أيام رفعه من الشمس، فقد تم خبزه جيداً». نظر إليه الله وأغرق في الضحك وقال: «ليأخذني الشيطان. إنه خنزير واقف على ساقيه الخلفيتين! لا محال في ذلك! لم أكن أنوي أن أفعل ذلك!».

«فأمسكه من مؤخرة رقبته وركله في ظهره».

«هيا اغرب عن وجهي! كلّ ما يتعين عليك أن تفعله الآن هو أن تصنع خنازير صغيرة أخرى؛ اذهب فالأرض لك! الآن، اقفز إليها. يسار، يمين. يسار، يمين. أسرع الخطو! .».

«لكن كما ترى، لم يكن خنزيراً على الإطلاق! فقد كان يعتمر قبعة من اللباد، ويضع سترة مرمية بإهمال على كتفيه، ويرتدي بنطالاً مجعداً، وينتعل نعلاً تركياً ذا شرّابات حمراء. وفي حزامه ـ لا بدّ أن الشيطان هو الذي أعطاه إياه ـ خنجر مدبّب حفرت عليه كلمة: سأقتلك!».

«وكان الرجل! ومدّ الله له يده ليقبّلها، لكن الرجل فتل شاربه وقال:».

« هيا أيها العجوز! دعني أمر!»

هنا توقّف زوربا عندما رآني أنفجر ضاحكاً، فعبس وقال:

«لا تضحك! فهذا ما حدث تماماً!»

«وكيف عرفت؟».

«أشعر أنه الأمر حدث بهذا الشكل، وهذا ما كنت سأفعله لو كنت في مكان آدم. إني أراهن على قطع رأسي إن لم يكن آدم قد تصرّف هكذا. ألا تعتقد أن جميع الكتب تقول أنا الواحد الأحد الذي يجب أن تؤمن به!».

مدّ يده الكبيرة دون أن ينتظر رداً وأخذ يعزف على السنتوري ثانية.

كانت رسالة زوربا المعطّرة التي رسم في زاويتها قلباً يخترقه سهم لا تزال في يدي، وكنت في تلك الأيام لا أزال أعيش وأنا ممتلئ بوجوده الإنساني. لقد اتخذ الزمن مذاقاً جديداً بصحبة زوربا. إذ لم يعد تعاقباً حسابياً للأحداث في الخارج، ولم يعد مشكلة فلسفية لا يوجد لها حلّ في الداخل. كان رملاً دافئاً، منخولاً جيداً، وأحسست أنه يسري برقة من بين أصابعي.

«بارك الله في زوربا»، غمغمت، «فقد مُنح جسداً دافئاً، محبوباً، حياً يمور بجميع الأفكار المجرّدة التي كانت ترتعش في داخلي. وعندما لا يكون معي، أبدأ أرتعش ثانية».

أخذت ورقة، وناديت عاملاً وأرسلت له برقية عاجلة قلت فيها:

«عد في الحال».

[14]

بعد ظهر يوم السبت، الأول من شهر آذار، كنت أكتب وأنا متكئ إلى صخرة قبالة البحر. وفي ذلك اليوم، رأيت أول سنونو في السماء، وغمرتني سعادة كبيرة. كان تأثير بوذا يتدفّق على الورق بلا توقف، وأضحى كفاحي معه أكثر هدوءاً. فلم أعد في عجلة من أمري، وأصبحت واثقاً من خلاصي.

وبغتة، تناهى إليّ وقع أقدام فوق الحصى. رفعت عينيّ ورأيت الغانية العجوز تسير على الشاطئ، مزدانة مثل فرقاطة. كانت تلهث، وبدا أنها قلقة من شيء ما.

«هل وصلت منه رسالة؟» سألتني بقلق.

«نعم! »أجبت ضاحكاً واستويت واقفاً لأرحب بها، «إنه يبعث لك بتحياته، ويقول إنه يفكّر بك ليلاً نهاراً، ولا يكاد يأكل أو يشرب، وقال إنه يجد أن الفراق شيء لا يطاق».

«هل هذا كلّ ما قاله؟» سألت المرأة الحزينة، وهي تلهث.

حزنت عليها. أخرجت رسالته من جيبي، وتظاهرت بأنني أقرأها. فغرت الغانية العجوز فمها الذي يخلو من الأسنان، ورفت عيناها الصغيرتان وهي تنصت إليّ منقطعة الأنفاس.

تظاهرت بأنني أقرأ الرسالة، لكنني اندمجت في ما كنت أفعله، وتظاهرت بأنني أجد صعوبة في فهم خطه: «البارحة يا معلّم، ذهبت إلى مطعم رخيص لأتناول طعامي. كنت جائعاً. ورأيت فتاة فائقة الجمال تدخل، كانت إلهة

حقيقية. يا إلهي! إنها تشبه حبيبتي بوبولينا! وعلى الفور بدأت الدموع تنهمر من عينيّ مثل نبع ماء، وجف ريقي. ولم أتمكن من ابتلاع الطعام! نهضت، وسددت ما عليّ وغادرت. وأنا الذي لا يفكر بالقديسين كثيراً، تأثرت كثيراً يا معلّم، فهرعت إلى كنيسة القديس ميناس وأشعلت شمعة من أجله، وأخذت أدعو أيها القديس ميناس، أسمعني أخباراً سارة من الملاك التي أحبها كم أتمنى أن يلتحم جناحانا في وقت قريب جداً!».

«ها! ها! ها!» أشرق وجه السيدة هورتينس، وأضاء وجهها بالبهجة والبشر.

«علام تضحكين يا سيدتي الطيبة؟» سألتها بعد أن توقفت لالتقاط أنفاسي، ولتتاح لي الفرصة لألفّق مزيداً من الأكاذيب، «مم تضحكين؟ فهذا يجعلني أشعر بالرغبة في البكاء».

«لو كنت تعرف. لو كنت تعرف. .»، تلعثمت ثم انفجرت ضاحكة.

«ماذا؟»

«أجنحة. هذا ما يسمي القدمين، هذا العفريت. هكذا يطلق عليهما عندما نكون وحدنا. إنه يقول ليت أجنحتنا تلتحم ببعضها قريباً جداً. ها! ها! ها!».

«استمعي إلى التالي إذن. إنك ستدهشين حقاً. .»، قلبت الصفحة وتظاهرت بأني عدت لأقرأ منها:

«واليوم، فيما كنت أمر أمام دكان حلاق، أفرغ الحلاق طاسته المليئة بالماء ذي الرغوة. امتلأ الشارع بالرائحة. ورحت أفكر ببوبولينا مرة أخرى وأخذت أبكي. لم أعد أطيق أن أبقى بعيداً عنها، يا معلّم سأفقد صوابي. انظر، حتّى أني كتبت شعراً. لم يغمض لي جفن طوال الليلتين الماضيتين فكتبت قصيدة قصيرة من أجلها. . . أرجو أن تقرأها لها لكي ترى كم أني أتعذب . . .».

كم أتمنى أن نلتقي في درب، أنا وأنت،
أرجو أن يكون عريضاً ليتسع لأحزاننا!
وحتى لو قطعت مثل لحم الفطيرة أو أصبحت فتاتاً،
ستبقى في عظامي المحطّمة القوّة لتجري نحوك!

كانت السيدة هورتينس، بعينيها الواهنتين نصف المغمضتين، تنصت بسعادة، كلها آذان صاغية. حتى أنها أرخت الوشاح الصغير في رقبتها، الذي كان يكاد يخنقها، وزالت تجاعيدها لوهلة. كانت صامتة ومبتسمة. سعيدة وراضية، وبدا أن عقلها بدأ ينجرف بعيداً.

شهر آذار، العشب الناضر المنعش، والأزهار الحمراء والصفراء والبنفسجية، مياه رقراقة تتزاوج على سطحها زرافات من البجع السوداء والبيضاء وهي تصدح بأغانيها. الإناث بيضاء اللون، والذكور سوداء، ذوات مناقير قرمزية نصف مفتوحة. وكان سمك الأنقليس الأزرق الضخم ينبثق من الماء وهو يلتمع ويلتف حول ثعابين صفراء كبيرة. وعادت السيدة هورتينس إلى الرابعة عشرة من عمرها، وهي ترقص فوق السجاد الشرقي في الإسكندرية وبيروت وإزمير والقسطنطينية، ثم على شواطئ كريت، وعلى أسطح السفن المصقولة لم تعد تستطيع أن تتذكّر بوضوح الآن. بدا عقلها مشوّشاً، وأخذ صدرها يعلو ويهبط، والشواطئ تنشقّ. وعلى حين غرة، وفيما كانت ترقص، امتلأ البحر بالسفن ذات المقدمات الذهبية. وفوق أسطحها خيم متعددة الألوان، ترفرف عليها رايات حريرية رسم عليها رمز اللهب. وخرج من الخيم موكب طويل من الباشوات وشراباتهم الذهبية تنتصب فوق طرابيشهم، وبكوات أثرياء عجائز جاؤوا لأداء الحج وأيديهم محملة بالهدايا الثمينة، وأبناؤهم ذوو اللحى الحليقة تبدو على وجوههم الكآبة. وخرج أميرالات البحر أيضاً، بقبعاتهم المثلثة اللامعة، وبحّارة بياقاتهم الناصعة

البياض اللامعة، وبناطيلهم الواسعة. وتبعهم شبان جزيرة كريت، بسروايلهم المنتفخة المصنوعة من القماش الأزرق الفاتح، وأحذيتهم الطويلة الصفراء، وقد عقدوا شعورهم بمناديل سوداء. وأخيراً خرج زوربا، الضخم، الذي جعلته ممارسة الحب ضامراً ذاوياً، يضع في إصبعه خاتم خطوبة كبيراً، وعلى رأسه ذي الشعر الأشيب تاج من زهر البرتقال.

وخرج من السفن جميع الرجال الذين عرفتهم في حياتها المليئة بالمغامرات، ولم يغب ولا واحد منهم، ولا حتى المراكبي العجوز الأحدب الذي توجد فجوة في أسنانه، الذي كان قد أخذها في نزهة مائية في إحدى الأمسيات في القسطنطينية. هبط الليل ولم يكن أحد يستطيع أن يراهم. خرجوا جميعهم، كلّهم، وفي الخلفية، كانت الأسماك والثعابين والبجع تتسافد جميعها!

جاء الرجال وتحلقوا حولها في دوائر، كالأفاعي الشهوانية في الربيع، تزحف بين الحشائش في مجموعات وهي تفحّ. وفي الوسط تقف السيدة هورتينس وهي في الرابعة عشرة من عمرها، في العشرين، في الثلاثين، في الأربعين، وفي الستين، صيفاً، بيضاء، عارية، وحبات العرق تتلألأ على جسدها، وشفتاها منفرجتان تكشفان عن أسنانها الصغيرة المدبّبة، نهمة، صلبة، ذات نهدين منتصبين، تصدر فحيحاً.

لم يَضِع شيء، لم يمت عاشق! فقد عادت الحياة إليهم جميعهم على صدرها الذاوي، مرتدية ثياب الاستعراض الكاملة. كما لو كانت السيدة هورتينس نفسها فرقاطة نبيلة ذات ثلاثة صوار وجميع عشاقها ـ إذ شهدت خمساً وأربعين سنة من الخدمة ـ يصعدون على متنها، يصعدون إلى العنابر، إلى جوانبها العلوية، إلى حبال الصواري، وهي تواصل إبحارها، بعد أن دكت وقصفت كثيراً، وكانت تتوق بشدة لأن تصل أخيراً إلى آخر ميناء عظيم: الزواج. وقد اتخذ زوربا ألف وجه: تركي، وأوروبي، وأرمني، وعربي، ويوناني، وفيما كانت السيدة هورتينس تعانقه، كانت تعانق ذلك الموكب المبارك الذي لا ينتهي.

وبغتةً أدركت الغانية العجوز أني توقفت عن القراءة، وفجأة، توقّفت رؤيتها ورفعت رمشيها الثقيلين:

«ألا يقول شيئاً آخر؟» سألت بنبرة عتاب، لاعقة شفتيها بشراهة.

«ماذا تريدين أكثر من ذلك يا سيدة هورتينس؟ ألا ترين؟ الرسالة كلها تتحدث عنك لا عن شيء آخر. انظري، أربع صفحات كاملة! وها هنا أيضاً قلب في الزاوية. يقول زوربا إنه رسمه بنفسه، بيده. انظري، لقد اخترقه سهم الحبّ، وفي الأسفل، انظري، حمامتان تتعانقان، وعلى جناحيّ كل منهما، كتب بأحرف صغيرة جداً وبالحبر الأحمر، اسمين متداخلين: هورتينس ـ زوربا!».

لم تكن هناك حمامتان ولا أسماء، لكن عينيّ الغانية العجوز الصغيرتين المغرورقتين بالدموع كانتا تستطيعان رؤية أيّ شيء تريدانه.

«لا شيء آخر؟ لا شيء آخر؟» سألت مرة أخرى، وهي لا تزال غير راضية.

الأجنحة، ماء الحلاق المليئة بالصابون، الحمامتان الصغيرتان ـ كان كلّ ذلك على ما يرام، الكثير من الكلمات الجميلة، لا شيء سوى هواء. كان عقلها الأنثوي العملي يريد شيئاً آخر، شيئاً متماسكاً ملموساً أكثر. كم مرّة في حياتها سمعت هذا النوع من الهراء! وماذا أفادها؟ بعد سنوات من العمل الشاقّ، تُركت وحيدة، هجرت.

«لا شيء آخر؟ »غمغمت ثانية بعتاب، «لا شيء آخر؟».

نظرت إليّ بعينين مثل عينيّ ظبية تواجه خطراً. أسفت لحالها.

«إنه يقول شيئاً آخر، شيئاً مهماً جداً جداً، يا سيدة هورتينس»، قلت، «لذلك أبقيته حتى النهاية».

«ما هو ؟» قالت بتنهدة.

«يقول إنه ما إن يعود حتى يجثو على ركبتيه يتضرع إليك، والدموع في عينيه،

أن تتزوجيه. إنه لا يقوى على الانتظار أكثر من ذلك. ويقول إنه يريد أن يجعلك زوجته الصغيرة، السيدة هورتينس زوربا، لكي لا تنفصلا ثانية أبداً».

هذه المرة، بدأت الدموع تنساب من عينيها كانت هذه أجمل بهجة، الملاذ الذي تشتاق إليه حقاً؛ وهذا ما أسفت لأنها لم تفعله في حياتها! السكينة والاطمئنان والاستلقاء في سرير مخلص، لا شيء أكثر من ذلك!

غطّت عينيها بيديها.

«حسناً»، قالت بتنازل سيدة عظيمة، «قبلت. لكن أرجو أن تكتب له وتقول إنه لا توجد في هذه القرية أكاليل زهر البرتقال، وإنه عليه أن يحضرها معه من كنديا وعليه أن يجلب شمعتين بيضاوين أيضاً، وأشرطة وردية، وقليلاً من اللوز الملبّس بالسكر الجيد. ثم عليه أن يشتري لي ثوب زفاف، أبيض، وجوارب نسائية حريرية، وحذاء من الساتان. وقل له إنه توجد عندنا ملاءات، لذلك لا حاجة لأن يحضرها ولدينا أيضاً سرير».

وضعت قائمة طلباتها، وعلى الفور، جعلت من زوجها ساعياً لقضاء حاجاتها. استوت واقفة. وبغتة، اتخذت هيئة امرأة متزوجة وقورة.

قالت: «أريد أن أطلب منك شيئاً، شيئاً جدياً»، ثم انتظرت، مستثارة.

«اطلبي يا سيدة هورتينس. إني في خدمتك».

«أنا وزوربا نحبك كثيراً. إنك رجل في غاية اللطف، ولن تخذلنا. هل ترغب في أن تكون شاهداً على زواجنا؟».

انتابتني رعشة. ففي الماضي، كانت توجد في بيت والديّ خادمة عجوز تدعى دياماندولا، تتجاوز الستين من عمرها. وكانت عانساً، ذات شارب، نصف مهووسة بالعذرية، عصبية، متغضنة البشرة، وصدرها مسطح كانت قد وقعت في غرام ميتسو، صبي البقال في الحي، فتى فلاح أمرد، بدين، ووسخ.

«متى ستتزوجني؟» كانت تسأله كلّ يوم أحد، «تزوّجني الآن! كيف يمكنك أن تنتظر طويلاً جداً؟ أنا لا أستطيع أن أحتمل أكثر من ذلك».

«ولا أنا!» كان صبي البقال المخادع يقول لها مدارياً، «لا يمكنني أن أتحمل أكثر من ذلك يا دياماندولا لكننا لا نستطيع أن نتزوج حتى ينبت لي شارب وكذلك أنت. . ».

مضت السنوات هكذا، وراحت دياماندولا العجوز تنتظر وهدأت أعصابها، وخّف صداعها، وتعلمت شفتاها المريرتان اللتان لم تتذوقا القبلة في حياتهما الابتسام. وبدأت تغسل الثياب بعناية أكبر الآن، وصارت تكسر عدداً أقل من الصحون، ولم تعد تحرق الطعام.

«هل ستأتي لتكون شاهداً على زواجنا، أيها السيد الشاب؟» سألتني خلسة ذات مساء.

«طبعاً سأفعل ذلك يا دياماندولا»، أجبت، وقد تشكلت غصة في حلقي، بدافع الشفقة عليها.

لقد عصر هذا الاقتراح قلبي، لذلك رحت أرتجف عندما سمعت السيدة هورتينس تسأل الشيء ذاته.

«بالتأكيد سأفعل ذلك»، أجبت، « إنه لشرف كبير لي، يا سيدة هورتينس».

نهضت، وربتت على الجدائل الصغيرة المتدلية من تحت قبعتها الصغيرة، ولعقت شفتيها.

«طابت ليلتك»، قالت. «طابت ليلتك، وأرجو أن يعود قريباً إلينا!».

رحت أراقبها وهي تتهادى بعيداً، جسدها العجوز يتمايل وكأنها فتاة صغيرة. لقد منحتها الفرحة أجنحة، وخلّف حذاؤها القديم المعقوف أثاراً عميقة في الرمل.

لم تكد تبتعد عن الشاطئ حتى تعالت أصوات صرخات وعويل من الشاطئ.

قفزت وجريت باتجاه المكان الذي انبعثت منه الجلبة. رأيت عند خليج البحر، نساء يولولن وكأنهن ينشدن لحناً جنائزياً حزيناً. تسلّقت صخرة ورحت أنظر. رأيت رجالاً ونساء يهرعون من القرية، ووراءهم كلاب تنبح وكان

هناك رجلان أو ثلاثة رجال يمتطون أحصنة وينطلقون بسرعة، وكانت تتصاعد من الأرض سحابة كثيفة من الغبار.

قلت لنفسي: «هناك حادث» ورحت أجري باتجاه الخليج. أخذت الجلبة تشتد. وقد وقفت سحابتان أو ثلاث سحب ربيعية وحجبت نور الشمس المائلة للغروب. كانت شجرة تين سيدتنا الشابة مكسوة بأوراق نضرة خضراء

وبغتة عادت السيدة هورتينس مترنحة. عادت وهي تجري، منقطعة الأنفاس، مشعّثة الشعر، وكانت ترتدي فردة حذاء واحدة. كانت تمسكها بيدها. كانت تبكي وهي تركض.

«يا إلهي   يا إلهي. .» قالت وهي تنشج عندما رأتني. تعثّرت وكادت أن تقع على الأرض.

أمسكتها.

«لماذا تبكين؟ ماذا حدث؟» وساعدتها في ارتداء حذائها الباقي.

«أنا خائفة.   أنا خائفة»

«ممن؟».

«من الموت»

لقد شمت رائحة الموت في الهواء وانتابها ذعر شديد.

أمسكتها من ذراعها المترهلة لأقودها إلى المكان، لكن جسدها الهرم قاوم، وراح يرتجف.

«لا أريد   لا أريد   .» صاحت.

كانت المرأة المسكينة البائسة تخشى أن تقترب من مكان ظهر فيه الموت. فلا يجب أن يراها كارون[1] ويتذكر أنها لا تزال موجودة.   ومثل جميع العجائز،

---

(١) في الأساطير اليونانية الشخص الذي ينقل الموتى من ضفة نهر «آخيرون» (نهر الويلات) إلى الضفة الأخرى إذا كانوا يملكون أوبولوس لقاء نقلهم.

حاولت غانيتنا العجوز المسكينة أن تتوارى عن أنظاره فتطلي نفسها بلون العشب الأخضر، أو بلون التراب، كي لا يتمكن كارون من تمييزها عن التراب أو العشب. فقد دسّت رأسها داخل كتفيها المدورتين المكتنزين، وهي ترتجف.

جرت إلى شجرة زيتون، ومدّت معطفها المرقّع وغاصت في الأرض.

«ضع المعطف عليّ، أرجوك؟ دثرني به واذهب لترى ماذا يحدث».

«هل تشعرين بالبرد؟».

«نعم، دثرني».

غطّيتها بقدر ما أستطيع، لكي لا تكون مميّزة عن الأرض، ثم انطلقت.

وصلت إلى الخليج وتناهت إليّ الآن أصوات عويل. جرى ميميكو نحوي.

«ما الأمر يا ميميكو؟» سألته.

«لقد أغرق نفسه! أغرق نفسه» لم يتوقف عن الصراخ.

«من؟».

«بافلي، إبن مافراندوني».

«لماذا؟».

«الأرملة. . .».

علقت الكلمة في هواء المساء، واستعدت إلى الذاكرة جسد تلك المرأة الرشيق، اللدن الخطر.

وصلت إلى الصخور حيث اجتمعت القرية كلها. كان الرجال صامتين، حاسري الرؤوس، أما النساء، فقد ألقين مناديلهن على أكتافهن، ورحن يشددن شعرهن ويصرخن بصوت ثاقب. كانت هناك جثّة منتفخة زرقاء ممدّة على الشاطئ المكسو بالحصى. وكان مافراندوني العجوز يقف فوقها ساكتاً، يحدّق فيها. متكئاً بيده اليمنى على عكازه، وممسكاً بيده اليسرى لحيته الرمادية المجعّدة.

«اللعنة عليك، أيتها الأرملة!» انطلق صوت حاد فجأة، «سيجعلك الله تدفعين ثمن ما فعلتيه!».

قفزت امرأة واقفة والتفتت نحو الرجال.

«ألا يوجد في هذه القرية رجل واحد يلقيها على ركبتيه ويحز رقبتها كالخروف؟ باه! أيها الجبناء!».

وبصقت على الرجال الذين راحوا ينظرون إليها دون أن ينبس أحدهم بكلمة. ثم أجابها كوندومانوليو، صاحب المقهى وصاح:

«لا تذلّينا أيتها المجنونة كاترينا، لا تذلّينا، فلا يزال هناك بعض الرجال، هناك بعض الشجعان في قريتنا، سترين!»

لم أتمالك نفسي، وصحت:

«العار عليكم جميعكم! ما مسؤولية تلك المرأة؟ إنه القدر. ألا تخافون الله؟».

لكن لم يجب أحد.

أحنى مانولاكاس، ابن عم الغريق، جسمه الضخم، ورفع الجثمان بين ذراعيه وأخذ أول درب يفضي إلى القرية.

كانت النساء يصرخن، ويخمشن وجوههن، ويشددن شعرهن. وعندما رأين الجسد قد حمل، ركضن ليتعلقن به. لكن مافراندوني العجوز لوّح بعكازه، وأبعدهن وسار أمام الموكب، وتبعته النساء وهن ينشدن ألحاناً حزينة. وأخيراً، تبعهم الرجال يغلفهم الصمت.

اختفوا في العتمة. كان بوسعك أن تسمع صوت البحر الهادئ وهو يتنفس مرة أخرى. تطلعت حولي، ورأيت أني أصبحت وحيداً

قلت في نفسي: «سأعود إلى البيت. يا إلهي يوم آخر يكسوه الحزن!»

مشيت في الدرب وأنا أفكر. لقد أعجبت بهؤلاء الناس الغارقين بشدة وبدفء

في المغاناة الإنسانية: السيدة هورتينس، زوربا، الأرملة، وبافلي الشاحب الذي ألقى بنفسه بشجاعة في البحر ليغرق جميع أحزانه، وراحت كاترينا تصرخ وهي تستحث الرجال على ذبح الأرملة مثل خروف، ومافراندوني الذي رفض أن يذرف دمعة أو حتى أن يتكلم أمام الآخرين. وكنت أنا الوحيد العاجز والعقلاني، ولم يغل دمي، كما لم أكن أحبّ أو أكره بقوة. كنت أريد أن أضع الأمور في نصابها، بطريقة جبانة، أن اضع كلّ شيء عند باب القدر.

وفي الضوء الخافت، رأيت العمّ أناغنوستي لا يزال جالساً فوق صخرة، مسنداً ذقنه على عكازه الطويل ويحدّق في البحر

نائيته، لكنه لم يسمعني. صعدت إليه، رآني وهزّ رأسه.

«الإنسانية المسكينة!» همهم، «حياة شاب تُهدر عبثاً! لم يتحمّل الفتى المسكين أحزانه، فألقى بنفسه في البحر وغرق. لقد نجا».

«نجا؟».

«نجا يا بني، نعم، لقد نجا بنفسه. ماذا يمكن أن يفعل بحياته؟ لو تزوج الأرملة، لنشبت مشاجرات قريباً، بل ربما جلب العار. إنها كالفرس، تلك المرأة الصفيقة! فما إن تقع عينها على رجل، حتى تبدأ تصهل. وإذا لم يتزوّجها، فسيتعذب طوال حياته، لأن الفكرة بأنه سيفتقد سعادة عظيمة معها ستعلق في رأسه! هاوية متثائبة من الأمام، وهوة عميقة من الخلف!»

«لا تتحدث هكذا يا عمّ أنغانوستي. إنك ستجلب اليأس لكل من يسمعك»

«هيا، لا تخف. فلا يستطيع أحد أن يسمعني إلا أنت. وحتى لو سمعوني، فهل سيصدقونني؟ انظر، هل يوجد رجل محظوظ أكثر مني؟ فأنا أملك حقولاً، وكروم عنب. وبساتين زيتون، وبيتاً من طابقين. إني غني ومختار القرية. وحباني الله بامرأة مطيعة طيبة أنجبت لي صبياناً فقط. لم أرها في حياتها ترفع عينيها تتحداني، وأصبح جميع أطفالي آباء جيدين. لا يوجد لدي شيء أعترض عليه. ولديّ أحفاد أيضاً. ماذا أريد أكثر من ذلك؟ إن جذوري تزداد عمقاً. ومع

ذلك، فلو كان عليّ أن أبدأ حياتي من جديد، فسأضع صخرة حول رقبتي، مثل بافلي، وألقي بنفسي في البحر. إن الحياة قاسية، يا إلهي، إنها كذلك. حتى أكثر الحياة حظاً قاسية، اللعنة عليها».

«لكن ما الذي ينقصك يا عمّ أناغنوستي؟ مم تتذمر؟».

«لا ينقصني شيء، أقول لك! لكن اذهب واسأل قلوب الرجال»، وصمت لحظة، ثم عاد وراح ينظر إلى البحر الذي بدأ يكسوه الظلام. «حسنا يا بافلي، لقد فعلت الشيء الصحيح!» صاح ملوحاً بعصاه، «دع النساء يصرخن، إنهن نساء ولا عقل لهن. لقد نجوت بنفسك يا بافلي، وأبوك يعرف ذلك، لذلك لم يصدر صوتاً».

أجال ببصره في السماء والجبال التي بدأ الظلام يكسوها.

«لقد هبط الليل»، قال، «من الأفضل أن أعود إلى البيت».

توقّف على حين غرة، وبدا أنه ندم على الكلمات التي قالها، كما لو كان قد أفشى سرّاً عظيماً وأراد الآن أن يصلح الأمر.

وضع يده المتغضنة على كتفي، وقال وهو يبتسم لي:

«إنك لا تزال شاباً، ولا تنصت لما يقوله العجائز. فلو استمع العالم إليهم، لتهدم بسرعة. وإذا عبرت أرملة طريقك، امسكها! تزوجها، أنجب أطفالاً، لا تتردّد! فقد خلقت المشاكل للشباب!».

وصلت إلى شاطئي، أوقدت النار، وأعددت عشائي. كنت متعباً وجائعاً، ورحت آكل بنهم شديد، مستسلماً تماماً لمتعة حيوانية.

وفجأة، دّس ميميكو رأسه المسطح الصغير عبر النافذة ونظر إليّ وأنا قابع بجانب النار أتناول طعامي ابتسم بمكر

«ماذا تحمل من أخبار يا ميميكو؟».

«لقد أحضرت لك شيئاً يا معلم. من الأرملة. سلة برتقال. تقول إنها آخر البرتقالات في حديقتها. .».

«من الأرملة؟» قلت جافلاً، «لماذا أرسلتها لي؟»

«بسبب الكلمة الطيبة التي قلتها عنها للقرويّين عصر اليوم، هكذا قالت».

«أي كلمة طيبة؟»

«كيف لي أن أعرف؟ إني أنقل لك ما قالته لي، هذا كلّ ما في الأمر!» وأفرغ البرتقالات على السرير، وامتلأ الكوخ كله برائحته.

«قل لها إني أشكرها كثيراً على هديتها، وإني أنصحها بأن تكون حذرة. يجب أن تنتبه وألا تظهر في القرية بأي شكل مس الأشكال، هل تسمع؟ يجب أن تمكث في البيت لفترة من الوقت، حتى تنقشع هذه الغيمة الحزينة. أتفهم، يا ميميكو؟».

«هل هذا كلّ شيء يا معلم؟».

«هذا كلّ شيء. يمكنك أن تذهب الآن»

غمزني ميميكو

«هل هذا كلّ شيء؟».

«اذهب»

ذهب. قشّرت برتقالة ريانة. كانت شديدة الحلاوة كالعسل. استلقيت، وغططت في النوم، وطوال الليل رحت أطوف في بيارات البرتقال. كانت تهب ريح دافئة. فتحت صدري للريح، وكنت أضع غصيناً من الحبق خلف أذني. كنت فلاحاً شاباً في العشرين من عمره، أجول في بيارة البرتقال وأنا أصفّر وأنتظر. من كنت أنتظر؟ ـ لا أعرف. لكن قلبي كان على وشك أن يقفز من الفرحة. فتلت شاربي إلى الأعلى، ورحت أستمع طوال الليل إلى البحر الذي كان يتنهد مثل امرأة وراء أشجار البرتقال.

[15]

في ذلك اليوم هبّت رياح جنوبية عاتية لاهبة من رمال أفريقيا على الجانب الآخر من البحر الأبيض المتوسط. وتطايرت في الهواء سحب من الرمال الناعمة وتسللت إلى الحنجرة والرئتين. فامتلأت الأسنان بحبات الرمل الناعمة، والتهبت العيون. وإذا أراد المرء أن يتناول قطعة خبز واحدة لم تمتلئ بالرمال، عليه أن يحكم إغلاق الأبواب والنوافذ.

وخلال تلك الأيام الكئيبة، عندما بدأ الفتور والوهن يتسللان إلى الجسد، وقعت فريسة لاضطراب فصل الربيع. إحساس بالإعياء، توتّر عاطفي في الصدر، شعور بالخدر يسري في أنحاء جسدي، الرغبة ـ أم الذكرى ـ لسعادة عارمة وبسيطة.

سرت في الدرب الجبلي المكسو بالحصى. اعترتني رغبة مفاجئة وجامحة في زيارة مدينة مينوان الصغيرة التي انبثقت من الأرض بعد ثلاثة أو أربعة آلاف سنة، وبدأت مرة أخرى تنعم بالدفء تحت أشعة شمس كريت الحبيبة. وخيّل إليّ أن ثلاث أو أربع ساعات من السير والإعياء ستهدئ الاضطراب الذي جلبه لي الربيع

أحجار رمادية عارية، عريّ لامع مضيء، الجبل الخشن الفجّ والمهجور الذي أحبّ. بومة جاثمة على صخرة، وقد أعمى بريق الضوء عينيها الصفراوين المستديرتين المحدقتين. كانت رزينة، جميلة، مليئة بالألغاز. كنت أمشي بخفة، لكن سمعها كان مرهفاً وحاداً. خافت وطارت بهدوء بين الصخور واختفت. كانت تعبق في الهواء رائحة الزعتر، وأخذت أزهار نبات الجولق الرقيقة الصفراء تتفتح من بين أشواكها

عندما بدت لي المدينة الخربة الصغيرة، وقفت منبهراً. كنا في فترة الظهيرة، وسقطت أشعة الشمس بشكل عمودي وغمرت الصخور بنورها. إن هذه الفترة من النهار خطيرة بالنسبة للمدن الأثرية القديمة، لأن الهواء يكون مشبعاً بالنداءات وجلبة الأرواح. فإذا تصدّع غصن، وإذا اندفعت سحلية، وإذا ألقت سحابة ظلها وهي تمر، يتملكك الرعب. فكلّ شبر من الأرض التي تطأها قدماك هي قبر، ويمكنك أن تسمع أنين الموتى.

وشيئاً فشيئاً، اعتادت عيناي على الضوء المبهر. وأصبحت أرى الآن الآثار التي صنعتها يد الإنسان بين هذه الأطلال: شارعان واسعان ممهدان بقطع متلألئة من الحجارة، وإلى يسارهما ويمينهما أزقة ضيّقة ملتوية. وفي الوسط، تقبع الساحة الدائرية العامّة، أو مكان الاجتماع العام، وإلى جانبه، وبتناز ديمقراطي كامل، أقيم قصر الملك بأعمدته المزدوجة، ودرجاته الحجرية الضخمة ومبان أخرى كثيرة.

وفي قلب المدينة، وطئت أقدام الإنسان الأحجار بتثاقل حيث يقبع الضريح الداخلي المقدس: فقد كانت الإلهة العظيمة هناك، بثدييها الضخمين، المتباعدين، وبذراعيها المكللتين بالأفاعي.

وفي كل مكان، تناثرت دكاكين صغيرة، ومعاصر زيت، وورشات حدادين ونجارين وخزّافين. وقرى نمل مصممة بذكاء شديد، مبنية في مكان محمي، حيث يختفي النمل منذ آلاف السنين. وفي أحد الأماكن، أرى حرفياً يصنع جرّة من صخرة ذات عروق كثيرة لكنه لم يتح له الوقت الكافي لينهيها؛ فقد وقع الإزميل من يده، ليُكتشف بعد آلاف السنين أنه قابع إلى جانب القطعة الفنية غير المكتملة.

الأسئلة الأبديّة، الغبية، عديمة الجدوى: لماذا؟ لأي سبب؟ تخطر ببالك لتسمّم قلبك. الجرّة التي لم تنته، حيث انهزم إلهام الفنان السعيد والواثق فجأة، تملؤك حسرة.

وفجأة جاء راعٍ صغير، لوّحته الشمس، ويضع منديلا ذا أهداب حول شعره المجعّد، ووقف على صخرة بجانب القصر المتداعي وبدت ركبته السوداء.

«أنت هناك أيها الأخ!» صاح.

كنت أريد أن أكون وحيداً، وتظاهرت بأنني لم أسمعه. لكن الراعي الصغير بدأ يضحك ساخراً.

«ها! أتتظاهر بالصمم، أليس كذلك؟ هل لديك سكائر؟ أعطني واحدة! ففي هذه الحفرة الفارغة أشعر بالملل من الحياة».

جرّ الكلمات الأخيرة من فمه، كلمات تشي بكل ذلك البؤس إلى حد أني حزنت عليه.

لم تكن بحوزتي سكائر، فعرضت عليه نقوداً. لكن الراعي الصغير أبدى امتعاضه.

وصاح: «فلتذهب النقود إلى الجحيم! ماذا سأفعل بها؟ قلت لك لقد مللت من كلّ شيء. أريد سيكارة!».

«لا توجد لدي سكائر»، قلت قانطاً، «لا توجد لديّ».

«لا توجد لديك سكائر؟» لم يتمالك نفسه وراح يضرب الأرض بعصاه، «لا توجد معك سكائر! حسناً، ماذا يوجد في جيوبك؟ إنها منتفخة بشيء ما».

«كتاب، منديل، ورقة، قلم رصاص، مدية»، أجبته وأنا أخرج الواحدة تلو الأخرى من جيبي. «هل تريد هذه المدية؟».

«لديّ مدية. لديّ كلّ شيء أريده: خبز، جبن، زيتون، ومديتي، وجلد لحذائي ومخرز، وماء في قنينتي، كلّ شيء. ماعدا سيكارة! وكأني لا أملك شيئاً على الإطلاق! وماذا تفعل بين هذه الأطلال؟».

«أدرس العصور القديمة»

«وماذا ينفعك ذلك؟».

«لا شيء».

«لا شيء. ولا حتى أنا. فهؤلاء جميعهم أموات، ونحن أحياء. من الأفضل لك أن تذهب من هنا بسرعة. وليكن الله معك!».

«إني ذاهب»، قلت طائعاً.

عدت من الدرب الصغير، يعتري رأسي شيء من القلق. التفت للحظة، ورأيت الراعي الصغير الضجر من وحدته لا يزال واقفاً فوق الصخرة. وكان شعره المجعّد، المنسل من تحت منديله الأسود، يتطاير في الريح الجنوبية وكان النور يغمره من رأسه حتى قدميه. شعرت بأني أنظر إلى تمثال شاب برونزي، يضع عصاه على كتفيه وهو يصفّر.

سلكت درباً آخر وهبطت نحو الشاطئ. وكانت تهب عليّ بين الحين والآخر أنسام دافئة محمّلة برائحة عطرة من البساتين القريبة. كانت تعبق من الأرض رائحة خصبة، وكان البحر يتماوج ضاحكاً، والسماء زرقاء وساطعة كالفولاذ.

إن فصل الشتاء يجعل عقل الإنسان وجسمه منقبضين، لكن يعقب ذلك الدفء الذي يملأ الصدر. وفيما كنت أمشي، تناهى إليّ فجأة صوت نعيق من مكان مرتفع في السماء. رفعت عينيّ ورأيت مشهداً رائعاً كان يؤثر فيّ بعمق منذ أن كنت طفلاً: سرب من طائر الكركي يملأ صفحة السماء في ترتيب عسكري استعداداً لمعركة، عائداً من بلاد أكثر دفئاً أمضى فيها فترة الشتاء، وكما تقول الأسطورة، فإنه يحمل على أجنحته وفي جوف أجسامه العظمية عصافير السنونو.

إيقاع الفصول الثابت، عجلة الحياة التي لا تتوقف عن الدوران، مظاهر الأرض الأربعة التي تضيئها الشمس تباعاً، انقضاء الحياة ـ كلّ ذلك ملأني مرة أخرى بإحساس بالظلم. ومرة أخرى انطلق في داخلي، فضلاً عن صياح طائر الكركي، ذلك التحذير الفظيع بأن حياة واحدة توجد لجميع البشر، وأنه لا

توجد حياة أخرى، وأن كل ما يمكن للمرء أن يتمتع به، يجب أن يتمتع به هنا فلن نُمنح فرصة أخرى في الخلود أبداً.

عقل يسمع هذا التحذير القاسي ـ تحذير هو في الوقت ذاته شفيق ـ يقرّر أن يسيطر على ضعفه وضاعته، وكسله وآماله العقيمة، ويتعلّق بكلّ ما أوتي من قوة بكل ثانية تطير وتولي إلى الأبد.

أمثلة عظيمة تخطر ببالك وترى بجلاء أنك روح تائهة، وأن حياتك قد تبددت بمتع وآلام تافهة وكلام سخيف. «يا للعار! يا للعار!» تصرخ، وتعضّ على شفتيك.

عبرت أسراب الكركي السماء واختفت شمالاً، لكنها ظلت تطير في رأسي من معبد إلى آخر، تصدر صيحاتها الجوفاء.

وصلت إلى البحر. رحت أسير بسرعة على حافة الماء. كم هو مزعج أن تسير وحدك على شاطئ البحر! فكلّ موجة، وكلّ طير في السماء يناديك ويذكّرك بواجبك. وعندما تسير برفقة أحد فإنك تضحك وتتكلّم، ولا تستطيع أن تسمع ما تقوله لك الأمواج والطيور. وبالطبع لعلها لا تقول شيئاً. تراقبك وأنت تعبر في سحابة من الثرثرة وتكّف عن ندائك.

تمددت فوق الصخور وأغمضت عيني ورحت أتساءل: «ما هي الروح، إذن؟ وما هذا الرباط السري الذي يربط الروح والبحر والغيوم والروائح العطرة؟ فالروح نفسها تبدو وكأنها بحر وغيمة وعطر .».

استويت واقفاً وعدت أسير، وكأني توصلت إلى قرار. أيّ قرار؟ لا أعرف.

وفجأة سمعت صوتاً خلفي.

«إلى أين أنت ذاهب يا سيدي، بحق الله؟ إلى الدير؟» التفت. رأيت رجلاً عجوزاً قويّ البنية، ممتلئ الجسم، وقد لفّ منديلاً حول شعره الأبيض، يلوّح بيده ويبتسم لي. وكانت امرأة عجوز تسير خلفه، ووراءهما ابنتهما، فتاة شديدة السمرة، ذات عينين قاسيتين، تضع وشاحاً أبيض على رأسها.

«إلى الدير؟» سأل الرجل العجوز مرة أخرى.

وفجأة أدركت أنني كنت قد قرّرت أن أذهب في ذلك الاتجاه. فمنذ شهور كنت أرغب في زيارة الدير الصغير الذي شيد للراهبات قرب البحر، لكنني لم أحسم موقفي أبداً. فقد اتخذ جسدي فجأة القرار نيابة عني في عصر ذلك اليوم.

«نعم»، أجبت، «إني ذاهب إلى الدير لأستمع إلى أناشيد القديسة مريم»

«بارك الله بك»

حثّ خطاه ولحق بي.

«هل أنت ما يطلقون عليه شركة الفحم؟».

«هذا صحيح».

«حسناً، أرجو أن ترسل لك العذراء المباركة ربحاً وفيراً! إنك تعمل خيراً كثيراً للقرية، وجلبت سبل عيش كثيرة إلى الآباء الفقراء الذين لديهم أسر يجب أن يقيموا أودها. فليبارك الله بك!».

وبعد لحظة أو لحظتين، أضاف العجوز الماكر، الذي لا بدّ أنه كان يعرف أن أمور عملنا لم تكن تسير على ما يرام، كلمات العزاء هذه:

«وحتى لو لم تجن ربحاً منه يا بني، فلا تقلق. فلن تكون الخاسر. وستذهب روحك مباشرة إلى الجنة. . .».

«هذا ما أتمناه يا جدي».

«أنا لم أتعلم مطلقاً، لكني سمعت في الكنيسة ذات يوم شيئاً قاله المسيح علق في رأسي ولم أنسه أبداً»، فقد قال: «بع كلّ شيء تملكه كي تحصل على لؤلؤة عظيمة. وما هي تلك اللؤلؤة العظيمة؟ أن تنجو بروحك إنك في طريقك للحصول على اللؤلؤة العظيمة يا سيدي».

اللؤلؤة العظيمة! كم مرّة تلألأت في عتمة عقلي مثل دمعة هائلة!

بدأنا نمشي، الرجلان في المقدمة، والمرأتان في الخلف ويداهما متشابكتان. كنا نبدي ملاحظات بين الحين والآخر. هل ستظل أزهار الزيتون طويلاً على الأشجار؟ هل سيهطل المطر لينبت الشعير بوفرة؟ لا بد أننا كنا جائعين لأن حديثنا تحوّل مباشرة إلى الطعام.

«ما هو طبقك المفضّل، يا جدّي؟».

«جميعها يا بني. فمن الإثم العظيم أن تقول إن هذا جيد وهذا سيئ».

«لماذا؟ ألا يمكننا أن نختار؟».

«لا، طبعاً لا يمكننا ذلك».

«لم لا؟».

«لأنه يوجد أناس جياع».

لذت بالصمت وقد اعتراني الخجل. فلم يصل قلبي إلى هذا السمو من النبل والشفقة من قبل.

قُرع جرس الدير الصغير ببهجة ومرح، مثل ضحكة امرأة.

رسم الرجل العجوز شارة الصليب.

«فلتساعدنا العذراء الشهيدة!» دمدم، «لديها جرح بالسكين في رقبتها وهي تنزف. منذ أيام القراصنة. . .».

وبدأ الرجل العجوز يتحدث عن آلام العذراء، وكأنها قصة امرأة حقيقية، شابة لاجئة مضطهدة، جاءت باكية حاملة طفلها من الشرق، وقد طعنها الكفار.

وتابع الرجل العجوز، «ومرة في كلّ سنة، يسيل دم حقيقي دافئ من جرحها»، «أتذكّر منذ زمن بعيد، وإحياء لذكراها ـ لم يكن قد نبت لي شارب بعد ـ جاء الناس من جميع القرى في التلال ليسجدوا للعذراء. كان الخامس عشر من آب. ونمنا نحن الرجال في الخارج، في الساحة، ونامت النساء في الداخل. وخلال نومي سمعت العذراء تصيح. نهضت بسرعة، وجريت إلى

أيقونتها، ووضعت يدي على حنجرتها. وماذا تظن أني رأيت؟ كانت أصابعي حمراء مضرجة بالدم. . »

رسم الرجل العجوز شارة الصليب والتفت إلى المرأتين وصاح: «تعالا، أيتها المرأتان! إننا على وشك أن نصل!».

خفض صوته.

«لم أكن قد تزوجت بعد. سجدت أمام قداستها، وقرّرت أن أترك عالم الأكاذيب هذا وأصبح راهباً. .».

ضحك.

«لماذاَ تضحك يا جدّي؟».

«ألا يكفي هذا ليجعلك تضحك يا بني؟ ففي اليوم نفسه، وأثناء الاحتفال، وقف أمامي الشيطان، مكتسياً ثوب امرأة. كانت هي!».

ودون أن يدير رأسه، أشار بإبهامه إلى الخلف مشيراً إلى المرأة العجوز وراءه التي كانت تتبعنا بصمت.

«لا أتحمّل أن أنظر إليها الآن»، قال، «إن مجرد فكرة لمسها يثير الاشمئزاز فيّ. لكنها في تلك الأيام كانت لعوباً حقيقية. كانت ترتعش مع الحياة مثل سمكة». وكانوا يسمونها «الجميلة ذات الأهداب الطويلة، وكانت تستحق هذا الاسم عن جدارة، فتاة لعوب صغيرة! أما الآن. فليرحم الله روحي، أين ذهبت أهدابها الآن؟ أصبحت هباء منثوراً! لم يعد لديها هدب واحد».

في تلك اللحظة، وقد أصبحت المرأة العجوز خلفنا مباشرة، أطلقت هديراً مكتوماً مثل كلب فظّ مربوط بسلسلة. لكنها لم تقل شيئاً.

«هناك، هذا هو الدير»، قال العجوز.

عند حافة البحر، كان الدير الأبيض المتلألئ يقبع بين صخرتين ضخمتين. وفي الوسط كانت هناك قبة المصلى المطلية حديثاً باللون الأبيض، صغيرة

ومكورة كنهد امرأة. وحول المصلى، ستّة غرف ذات أبواب زرقاء، وانتصبت في الفناء ثلاث أشجار سرو كبيرة، وعلى طول الجدار تدلت أزهار الصبار.

حثثنا الخطى. كانت تنساب ألحان جميلة من باب المصلى المفتوح، وهبت نسمات البحر المالحة المعطّرة برائحة أزهار البلسمينة. وكان باب المدخل في وسط القوس مشرعاً على مصراعيه، ويطل على فناء نظيف تفوح منه رائحة عطرة، وتناثرت فيه أحجار سوداء وبيضاء. وعلى امتداد الجدران، إلى اليمين وإلى اليسار، اصطفت أصص من أزهار إكليل الجبل والحبق والريحان.

يا له من صفاء! يا له من جمال رائع! كانت الشمس تميل الآن إلى الغروب، وتحول لون الجدران المطلية بالأبيض إلى لون وردي.

وفاحت رائحة الشمع من داخل المصلى الصغير، الدافئ والمعتم. كان الرجال والنساء يتحركون بين سحابات من البخور، وكانت خمس أو ستّ راهبات، متدثرات بأرديتهن السوداء الطويلة بإحكام، ينشدن وهن ساجدات «يا الله العليّ القدير .» بأصواتهن ذات النبرة العالية الرخيمة. وكان حفيف أرديتهن يشبه صوت الطيور وهي تصفق بأجنحتها.

كنت قد سمعت تراتيل تنشد لمريم العذراء منذ سنوات كثيرة. ففي أثناء ثورة شبابي الأولى، كنت أمرّ على كلّ كنيسة والغضب والكراهية يملآن قلبي. ومع مرور الزمن، خفت حدة غضبي. وأصبحت بين الحين والآخر أرتاد الاحتفالات الدينية ـ أعياد ميلاد المسيح، والتهجد، وقيامة السيد المسيح ـ وكنت سعيداً برؤية الطفل فيّ وقد بعث إلى الحياة ثانية. لقد تلاشى التأجّج الصوفي في سنواتي الأولى، وتحول إلى متعة جمالية. إذ يعتقد الهمجيون أن الآلة الموسيقية لم تعد تستخدم في الطقوس الدينية وفقدت قدرتها القدسية، ولم تعد تصدر أصواتاً متناغمة. وبالطريقة ذاتها، فقد تلاشى الدين فيّ وتحول إلى فنّ.

انزويت في ركن، وانحنيت فوق مقصورة صقلتها أيدي المؤمنين وجعلتها ملساء كالعاج، ورحت أنصت مفتوناً، فيما كانت التراتيل البيزنطية تأتي من

الماضي الغابر «السلام عليك يا مريم! السمو الذي لا يمكن أن يرتقيه العقل الإنساني! السلام عليك يا مريم! أعماق لا تصل إليها حتى عيون الملائكة! السلام عليك يا مريم! أيتها العروس الطاهرة، أيتها الوردة التي لا تذبل أبداً .»

ومرة أخرى جثت الراهبات على ركبهن وأحنين رؤوسهن وانبعثت من أرديتهن أصوات حفيف تشبه أصوات صفق الأجنحة.

مضت الدقائق ـ ملائكة بأجنحة تفوح منها رائحة أزهار البلسمينة، تحمل زنابق لم تتفتح بعد في أيديهن ويتغنين بمحاسن مريم. مالت الشمس إلى الغروب، وتركتنا في عتمة زرقاء رقيقة. لا أذكر كيف أصبحنا في الفناء، لكنني كنت وحدي هناك مع كبيرة الراهبات العجوز وراهبتين شابتين، تحت أضخم شجرة سرو. وخرجت راهبة حديثة العهد وقدمت لي ملعقة من المربّى، وماء سلسبيلاً، وقهوة، ودار حديث هادئ.

تحدثنا عن المعجزات على يد مريم العذراء، وعن الفحم، وعن الدجاجات التي بدأت الآن ترقد على بيضاتها بعد أن حلّ الربيع، وعن الأخت أدوكسيا المصابة بالصرع والتي تقع دائماً على أرض المصلى وترتعش كسمكة، ويرغي فمها ويزبد وتمزق ثيابها.

«إنها في الخامسة والثلاثين من العمر»، أضافت كبيرة الراهبات بعد أن ندت عنها تنهيدة. «عمر حزين ـ صعب جداً! فلتساعدها الشهيدة مريم العذراء وتشفها من مرضها! إنها ستشفى بعد عشر أو خمس عشرة سنة».

«بعد عشر أو خمس عشرة سنة» دمدمت مذعوراً.

«وماذا تعني عشر أو خمس عشرة سنة؟» سألت كبيرة الراهبات بحدّة، «فكّر بالخلود!»

لم أحر جواباً. إني أعرف أن الخلود هو كلّ دقيقة تمر. قبّلت يد كبيرة الراهبات ـ يد بيضاء، مكتنزة تفوح منها رائحة البخور ـ وغادرت.

هبط الليل. كان هناك غرابان أو ثلاثة غربان عائدة مسرعة إلى أعشاشها، وبدأ البوم يخرج من الأشجار المجوّفة ليصيد رزقه. وبدأ الحلزون، واليرقات، والديدان، وفئران الحقل تخرج من مخابئها تحت الأرض لتصبح طعاماً للبوم.

لقد أحاطت الأفعى الغامضة التي تلتهم ذيلها بي: الأرض تبعث الحياة وتلتهم أطفالها، ثم تحمل المزيد منهم وتلتهمهم بدورها.

تطلعت حولي. كان الظلام دامساً. كان آخر القرويين قد ذهب، ولم يعد بإمكان أحد أن يراني. لقد أصبحت وحيداً تماماً. نزعت حذائي وغطست قدميّ في البحر. تدحرجت فوق الرمل. اعترتني رغبة جامحة في أن ألمس الصخور والمياه والهواء بجسدي العاري. لقد أثارت كبيرة الراهبات حنقي «بخلودها»، وأحسست بالكلمة تتساقط حولي مثل حبل في طرفه أنشوطة يمسك حصاناً برّياً. وثبت محاولاً أن أهرب. انتابتني رغبة في أن أضغط بجسدي العاري على الأرض والبحر، كي أتأكد من أن هذه الأشياء المحبوبة العابرة موجودة حقاً.

«إنك موجودة، وإنك وحيدة!» صحت في أعماق أعماقي، « أيتها الأرض! أنا آخر من أنجبته. إني أرضع من ثديك، ولن أدعه يفلت مني. إنك لا تدعيني أعيش أكثر من دقيقة واحدة. إلا أن هذه الدقيقة تتحوّل إلى ثدي أرضع منه»

ارتعشت وكأنني أحسست بأني أجازف في أن يلقى بي حسب تعبير أكلة لحوم البشر في «الخلود». تذكّرت كيف أنني رحت في السابق، قبل سنة واحدة فقط ـ أتأملها بلهفة، وعيناي مغمضتان، ويداي مشرعتان، أريد أن ألقي بنفسي فيها

عندما كنت في الصف الأول في المدرسة الحكومية، كانت هناك قصة في كتاب القراءة، كنا نقرأها لنتعلم أحرف الأبجدية:

تقول القصة إن طفلاً صغيراً سقط في بئر، حيث وجد مدينة رائعة، حدائق مليئة بالأزهار، وبحيرة من العسل الصافي، وجبلاً من حلوى الرز بالحليب،

وألعاباً بألوان متعددة. وكلما قرأتها، كان يبدو أن كلّ كلمة تجرفني بعيداً إلى تلك المدينة السحرية. وفي منتصف أحد الأيام، عندما عدت إلى البيت من المدرسة، جريت إلى الحديقة، واندفعت إلى حافة البئر تحت ظل شجرة الكرمة ووقفت مبهوراً، أحدّق في سطح الماء الأسود الرقيق. وسرعان ما خيّل إليّ أنني أستطيع أن أرى المدينة الرائعة، بيوتها وشوارعها، أطفالها وأشجار الكرمة المثقلة بعناقيد العنب. لم يعد بإمكاني أن أتحمّل أكثر من ذلك؛ فدليت رأسي، ومددت ذراعيّ على وسعهما، وركلت الأرض تحتي لأدفع نفسي فوق الحافة. لكن في تلك اللحظة رأتني أمّي. صرخت، وهرعت إليّ، وأمسكتني من خصرِي، في الوقت المناسب.

عندما كنت طفلاً آنذاك، كدت أسقط في البئر وعندما كبرت، كدت أسقط في كلمة «الخلود»، وفي عدد من الكلمات الأخرى أيضاً ـ «الحبّ»، و «الأمل»، و «البلد»، و «الله» وعندما كنت أتغلب على كلّ كلمة، وتصبح ورائي، كان يعتريني شعور بأني نجوت من خطر وأحرزت شيئاً س التقدّم. لكن لا، كنت أغيّر الكلمات فقط، وأسميها الخلاص. وها أنا ذا، منذ السنتين الماضيتين، أتعلق فوق حافة كلمة «بوذا»

لكنني أشعر الآن بأنني واثق ـ وبفضل زوربا ـ من أن بوذا سيكون آخر بئر من جميع هذه الآبار، كلمة الهاوية الأخيرة، وبعدها سأنجو إلى الأبد. إلى الأبد؟ هذا ما نقوله في كلّ مرة

وثبت واقفاً. كنت سعيداً من قمة رأسي إلى أخمص قدمي. خلعت ثيابي وغصت في البحر؛ كانت الموجات البهيجة تلهو معي وأنا ألهو معها أحسست بالتعب أخيراً، وخرجت من الماء، وتركت نسائم الليل تجفف جسدي. انطلقت ثانية في خطوات واسعة سهلة طويلة، واعتراني شعور بأنّني نجوت من خطر عظيم، وبأنّني لا أزال أمسك بقوة صدر الأم العظيمة.

[16]

ما إن اقتربت من شاطئ الفحم حتى توقّفت فجأة: كان هناك ضوء في الكوخ.

«لا بد أن زوربا قد عاد!» قلت في نفسي مبتهجاً.

اعترتني رغبة في أن أجري، لكنني تمالكت نفسي، وقلت يجب ألا أظهر بهجتي. يجب أن أظهر له أني حانق عليه وأوبخه أولاً فقد أرسلته إلى هناك بمهمة عاجلة، ولم يفعل شيئاً سوى أنه أنفق نقودي، ومكث مع عاهرة تعمل في أحد الملاهي، وها هو يعود الآن بعد اثني عشر يوماً. يجب أن أظهر له أني غاضب منه. يجب أن!

رحت أسير ببطء لأمنح نفسي فرصة كي تظهر على وجهي أمارات الغضب. حاولت جاهداً أن أبدو غاضباً ـ عبست وتجهمت وأحكمت قبضتي، وحاولت أن أفعل كلّ ما يفعله الرجل الغاضب لكنني فشلت. بل على العكس، كلما اقتربت أكثر، ازددت سعادة.

زحفت إلى الكوخ ونظرت من النافذة الصغيرة المضاءة. كان زوربا جاثياً على ركبتيه إلى جانب الموقد الصغير الذي أوقده ويصنع القهوة.

ذاب قلبي وصحت: «زوربا!».

وبلمحة بصر، فتح الباب واندفع زوربا حافياً إلى الخارج

مطّ رقبته، وأخذ ينظر في العتمة. وعندما اكتشف وجودي، فتح ذراعيه ليعانقني، ثم توقّف، وترك ذراعيه تسقطان إلى جانبيه.

«سعيد برؤيتك ثانية، يا معلم»، قال بتردد، ووقف ساهماً دون أن يأتي بحركة أمامي.

حاولت أن أرفع صوتي بغضب:

«سعيد بأن أرى أنك تجشمت عناء العودة أخيراً»، قلت ساخراً، وأضفت، «لا تقترب مني أكثر من ذلك، فإن رائحة صابون التواليت تنبعث منك»

فقال: «آه، لو تعلم كم اغتسلت وفركت جسدي يا معلّم. لقد نظّفت نفسي! قشطت جلدي بقوة قبل أن أراك يا معلّم! لقد نعّمت جسمي بالرمل طوال ساعة كاملة. لكن هذه الرائحة الجهنمية. على أية حال، ماذا بشأنها؟ ستزول إن عاجلاً أم آجلاً. إنها ليست المرة الأولى، ستتلاشى حتماً».

«هيا لندخل»، قلت، وأنا أكاد أنفجر من الضحك.

دخلنا. كان الكوخ مفعماً برائحة العطر والمسحوق والصابون والنساء.

«ما كلّ هذا بحق الله، هل لي أن أسألك؟» قلت، مشيراً إلى صندوق مليء بحقائب يد، وألواح صابون معطر، وجوارب نسائية، ومظلات حمراء صغيرة، وقنينتيّ عطر صغيرتين.

«هدايا. .» همس زوربا، ورأسه مدلى.

«هدايا؟» قلت، محاولاً أن أبدي شيئاً من الامتعاض، «هدايا؟».

«هدايا، يا معلّم لبوبولينا الصغيرة. لا تغضب يا معلّم، فقد اقترب عيد الفصح، وهي بشر أيضاً كما تعرف». تمالكت نفسي من الضحك ثانية.

فقلت: «لكنك لم تجلب لها أهم شيء».

«ماذا؟».

«أكاليل الزواج طبعاً».

«ماذا؟ ماذا تقصد؟ لا أفهم ما تقوله».

ثم أخبرته كيف أنني سخرت من الغانية العجوز التي أضناها الهوى. حكّ زوربا رأسه ثانية، وفكّر ثم قال:

«يجب ألا تفعل أشياء كهذه يا معلّم، اعذرني لأني أقول لك ذلك. إن هذا النوع من الدعابات، كما تعرف. فالنساء مخلوقات ضعيفة ومرهفة ـ كم مرّة عليّ أن أقول لك هذا؟ إنهن مثل المزهريات الخزفية، ويجب أن تعاملهن بحرص شديد، يا معلّم».

اعتراني الخجل. لقد أسفت على ذلك أيضاً، لكن فات الأوان. غيّرت الموضوع وسألته:

«وماذا عن الكابل والمعدات؟».

«لقد أحضرت كلّ شيء. لا تقلق! لا يمكن أن تكون لديك عين في الجنة وعين في النار كما يقولون! سكة الحديد المعلقة، لولا، بوبولينا، لقد أصبح كلّ شيء في متناول أيدينا».

رفع ركوة القهوة عن النار، وملأ فنجاني، وقدم لي كعكاً بالسمسم جلبه معه، وحلاوة بالعسل كان يعرف أني أحبها

«لقد أحضرت لك صندوقاً كبيراً من الحلاوة هدية لك!» قال بتودد، «فأنا لم أنسك، كما ترى»

«انظر، لقد جلبت كيساً صغيراً من الفستق للببغاء. لم أنس أحداً. كما تعرف فإن دماغي كبير» كان زوربا يرشف قهوته، ويدخّن وينظر إليّ. كانت عيناه تسحراني مثل عينيّ ثعبان.

«هل تمكنت من حلّ المشكلة التي كانت تؤرقك أيها الشقي العجوز؟» سألته، وقد رقّ صوتي الآن.

«أي مشكلة، يا معلّم؟».

«إن كانت المرأة تنتمي إلى صنف البشر أم لا؟».

«أوه! لقد سويّت ذلك!» أجاب زوربا، ملوحاً بيده، «إن المرأة بشر أيضاً، إنها إنسان مثلنا ـ بفارق أنها أسوأ! فما إن تقع عينها على محفظتك حتى تفقد صوابها. تتشبث بك، وتتخلى عن حريتها وتكون سعيدة بالتخلي عنها، لأن المحفظة تلمع في مؤخرة رأسها لكنها سرعان. آه، فليذهب كلّ ذلك إلى الجحيم، يا معلّم!».

استوى واقفاً ورمى سيكارته من النافذة.

وتابع، «الآن، دعنا نتكلم من رجل إلى رجل، فالأسبوع المقدس أصبح على الأبواب، وقد حصلنا على الكابل، وحانَ الوقت لكي نصعد إلى الدير ونجعل تِلك الخنازير السمينة هناك توقع على الوثائق المتعلقة بأرض الغابة تلك قبل أن يشاهدوا الخطّ بأم أعينهم ويزداد حماسهم ـ أتفهم ما أعني؟ إن الوقت يمضي يا معلّم، ولن نتقدم خطوة إذا تكاسلنا يجب أن نبدأ العمل. يجب أن نبدأ الحفر. يجب أن نبدأ تحميل السفن كي نعوض ما أنفقناه. لقد كلّفت تلك الرحلة إلى كنديا الكثير. كما ترى، الشيطان. . ».

توقّف. حزنت من أجله. كان مثل طفل قام بعمل سخيف، ولا يعرف كيف يصلح الأمر. كان جسمه كله يرتجف.

«عيب عليك!» قلت في نفسي، «كيف تدع روحاً كهذه ترتجف خوفاً؟ أين ستجد زوربا آخر؟ هيا، امسح كلّ ذلك».

قلت: «زوربا! دع الشيطان وشأنه، إنه لا يفيدنا في شيء! إن ما حدث قد حدث. وانتهى! هيا أخرج السنتوري!»

فتح ذراعيه على وسعهما مرة أخرى وكأنه يريد أن يعانقني. لكنه عاد وأغلقهما ببطء، وهو لا يزال متردداً

وبقفزة واحدة أصبح بالقرب من الجدار. وقف على أطراف أصابعه وأنزل السنتوري. وعندما عاد إلى ضوء المصباح رأيت شعره: كان أسود كالقطران.

«أيها الكلب العجوز»، صحت، «ماذا فعلت بشعرك؟ أين جعلته هكذا؟»

بدأ زوربا يضحك.

«لقد صبغته يا معلّم. لا تنزعج. لقد صبغته لأن الحظ لم يحالفني به »

«لماذا؟»

«التباهي، بحق الله! ففي ذات يوم خرجت أتمشى مع لولا، أمسكت ذراعها». لا، حتى لم أكن أمسكها. انظر، هكذا، فقط أطراف أصابعي! وأخذ متشرد صغير لعين، لا يتجاوز حجمه حجم هذه اليد، يصيح وراءنا: «أقول أيها العم العجوز»، صاح ابن العاهرة، «أنت هناك! إلى أين تأخذها، يا خاطف الأطفال؟».

«خجلت لولا، يمكنك أن تتخيّل ذلك، وخجلت أنا أيضاً فتوجهت في الليلة ذاتها إلى الحلاق وصبغت شعري المستعار باللون الأسود».

أخذت أضحك. وراح زوربا ينظر إليّ متجهماً.

«هل يبدو هذا مضحكاً لك يا معلّم؟ حسناً، انتظر لترى كم أن الرجل حيوان غريب! فمنذ أن صبغته، بدأت أشعر بأنني رجل آخر تماماً إنك تظن أن شعري سيظل أسود دائماً، وقد بدأت أظن ذلك أنا نفسي ـ فالرجل ينسي بسهولة ما لا يلائمه، وأقسم أنني أصبحت أشعر بأنني أتمتع بقوة أكبر ولاحظت لولا ذلك أيضاً هل تتذكر الألم الذي كان ينتابني في ظهري؟ حسناً، لقد تلاشى! لم أعد أشعر بالألم منذ ذلك الحين! طبعاً إنك لا تصدقني، فكتبك لا تقول لك أشياء كهذه»

ضحك ساخراً، ثم قال نادماً:

«إذا كان بإمكاني أن أقول هذا يا معلّم . فإن الكتاب الوحيد الذي قرأته في حياتي هو كتاب السندباد البحري، وكلّ الأشياء الجيدة التي أحدثها في أخرج الستوري من محفظته ببطء وبرقة شديدة وقال:

«هيا لنخرج، فالسنتوري لا يحب المكوث بين أربعة جدران. إنه بريّ ويحتاج إلى أماكن مفتوحة».

خرجنا كانت النجوم متألقة في السماء، وكان درب التبّانة ينتقل من جانب في السماء إلى الجانب الآخر، والبحر يزبد. جلسنا على الحصى، وراحت الأمواج تلعق أقدامنا.

«عندما تكون مفلساً، يجب أن تمضي وقتاً طيباً»، قال زوربا، ثم أضاف، «ماذا، نحن نستسلم؟ هيا تعال أيها السنتوري!».

قلت: «غن أغنية مقدونية من بلدك يا زوربا».

«أغنية كريتية من بلدك»، قال زوربا، «سأغنّي لك شيئاً كنت قد تعلمته في كنديا. لقد غيّر حياتي».

فكّر لحظة، ثم قال:

«لا، لم تغيّرها حقاً، الآن فقط بدأت أعرف أنني كنت محقاً».

وضع أصابعه الكبيرة على السنتوري، وأخذ يغني بصوت جموح، خشن، حزين:

عندما تحزم أمرك، لا فائدة من التردد، امض إلى الأمام دون وجل
اترك العنان لشبابك، فلن يعود مرة أخرى، لذلك كن جريئاً ولا تندم.

تبدد قلقنا، وتلاشت همومنا الصغيرة التافهة، وصعدت الروح إلى ذروتها. لولا، منجم الفحم، الخطّ، «الخلود»، الهموم الكبيرة والصغيرة، أصبحت جميعها دخاناً أزرق تلاشى في الهواء، ولم يبق سوى طير من الفولاذ، الروح الإنسانية التي كانت تغني.

«إني أقدّم لك كلّ شيء هدية يا زوربا»، صحت بعد أن انتهت الأغنية المفعمة

بالاعتزاز، «كلّ ما فعلته ـ المرأة، شعرك المصبوغ، النقود التي أنفقتها ـ كلها لك! فقط تابع الغناء!».

مطّ عنقه المتهدلة مرة أخرى وأخذ يغني:

كن شجاعاً، بحق الله، وغامر، وليأت ما يأتي!

فإذا لم تخسر، فإنك ستربح اليوم!

سمع عدد من العمال النائمين قرب المنجم الغناء. استيقظوا وزحفوا نحونا وجلسوا القرفصاء. راحوا يستمعون إلى أغانيهم المفضّلة، وأحسّوا بخدر في سيقانهم. وأخيراً، لم يتمالكوا أنفسهم، فخرجوا من العتمة، شبه عراة، بشعرهم المشعث وسراويلهم الفضفاضة. وشكلوا دائرة حول زوربا والسنتوري وأخذوا يرقصون على الشاطئ المكسو بالحصى.

رحت أنظر إليهم بصمت وببهجة شديدة.

قلت في نفسي هذا هو العرق الحقيقي الذي أبحث عنه! ولا أريد شيئاً غيره.

في اليوم التالي، وقبل بزوغ الفجر، كانت أصداء صيحات زوربا وأصوات طرقات المعاول تتردد في أنفاق المنجم. كان الرجال يعملون بشكل مسعور، ولم يكن ثمة أحد يمكنه أن يقودهم بهذه الطريقة إلا زوربا. فقد أضحى العمل بالنسبة له نبيذاً ونساء وأغنيات، وكان الرجال منتشين بذلك. لقد دبت الحياة في الأرض على يديه، واتخذت الأحجار والفحم والأخشاب والعمّال إيقاعاته، وقد أعلن الحرب في أنفاق المنجم على ضوء مصابيح الأسيتيلين البيضاء، وكان زوربا في الجبهة الأمامية، يحارب معهم يداً بيد. وكان قد أطلق اسماً على كلّ نفق وعلى كلّ عرق من الفحم، وأعطى وجهاً لجميع القوى الخفية، فأصبح من الصعب عليهم الهروب منه.

«عندما أعرف أن هذا هو نفق كانافارو»، كان يقول عن أول نفق عمّده، «فأين

يمكنه بحق الجحيم أن يختفي؟ إنني أعرف اسمه، ولن يجرؤ على أن يخذلني. وليس كذلك الأم الرئيسة أو صفق الركبتين أوبيدلر إنني أعرفها جميعها، أقول لك، كلّ واحد باسمه».

في ذلك اليوم نزلت إلى النفق دون أن يلاحظ وجودي.

«هيا! ضحوا شيئاً من الحياة فيها!» كان يصيح في العمال، كما كان يفعل دائماً عندما يكون في نفسية جيدة، «هيا! سنلتهم الجبل كله، إننا رجال، أليس كذلك؟ مخلوقات يجب أن يُحسب حسابنا! الله نفسه يجب أن يرتجف عندما يرانا. أيها الكريتيون وأنا المقدوني، هذا الجبل لنا، فلن يهزمنا هذا الجبل! لقد هزمنا الأتراك، أليس كذلك؟ إذن لماذا يجب على جبل صغير كهذا أن يحبطنا؟ هيا إذن!».

جرى أحدهم إلى زوربا، وتبينت في ضوء الأسيتيلين ملامح وجه ميميكو الرفيع.

«زوربا» قال بصوته المرتعش، «زوربا. . .».

التفت زوربا، وبنظرة خاطفة رأى ما يحدث. رفع يده الكبيرة:

«اخرج»، صاح. «اخرج من هنا».

«جئت من أجلها. . .» تلعثم الأبله.

«اخرج، أقول لك! لدينا عمل يجب أن ننجزه».

خرج ميميكو وأطلق ساقيه للريح، وبصق زوربا بغضب وقال:

«إن النهار للعمل. إن النهار رجل. والليل لكي تمتّع نفسك به. الليل امرأة. يجب ألا تخلط هذا بذاك».

جئت إليه في تلك اللحظة، وقلت:

«أصبحت الساعة الثانية عشرة. لقد حان الأوان لكي تتوقف عن العمل وتتناول وجبة طعام».

التفت زوربا. رآني وقطب جبينه.

«لا تنتظرنا يا معلّم، أرجو أن تذهب وتتناول طعامك. لقد فقدنا اثني عشر يوماً، أتذكر، ويجب أن نعوضها. أرجو أن تأكل جيداً»

غادرت النفق ورحت أمشي نحو البحر فتحت الكتاب الذي كنت أحمله. كنت جائعاً، لكني نسيت جوعي. فالتأمل هو منجم أيضاً، قلت في نفسي، هيا امض! وهبطت إلى أنفاق العقل العظيمة.

كتاب مزعج: إنه يصف جبال التبت المكسوة بالثلوج، والأديرة الغامضة، والرهبان الصامتين في عباءاتهم الزعفرانية يركزون إرادتهم ويرغمون الأثير على أن يتخذ الشكل الذي يرغبونه.

قمم الجبال العالية، الهواء مليء بالأرواح. إن همهمة الحياة البشرية العقيمة لا تصل مطلقاً إلى ذلك العلو. الناسك العظيم يأخذ تلاميذه، فتيان تتراوح أعمارهم بين السادسة عشرة والثامنة عشرة، ويقودهم في منتصف الليل إلى بحيرة يكسوها الجليد في الجبل. يخلعون ثيابهم، يكسرون الجليد، ويغطون ثيابهم في المياه المتجمدة، ويرتدونها ثانية، ويتركونها تجف على ظهورهم. ثم يغطونها ثانية، ويتركونها تجّف على أجسامهم مرة أخرى. يفعلون ذلك سبع مرات متتالية. ثم يعودون إلى الدير لصلاة الصبح.

يتسلّقون قمّة جبل ارتفاعها من خمسة عشر إلى ثمانية عشر ألف قدم. يجلسون بهدوء، يتنفّسون بعمق. إنهم عراة حتى وسطهم لكنهم لا يشعرون بالبرد. يحملون طاسة من الماء المتجمّد في أيديهم، ينظرون إليها، يركّزون كلّ طاقتهم فيها، فيغلي الماء، ثم يصنعون الشاي.

الناسك العظيم يجمع طلابه حوله ويقول:

«الويل لمن لا يوجد في نفسه مصدر السعادة!».

«الويل لمن لا يريد أن يدخل المسرة إلى نفوس الآخرين!».

«الويل لمن لا يشعر أن هذه الحياة والحياة الأخرى هما حياة واحدة!».

هبط الليل ولم أعد أستطيع أن أرى لأقرأ. أغلقت الكتاب ورحت أنظر إلى البحر. قلت في نفسي يجب أن أتحرّر من كلّ هذه الأشباح: بوذا، الآلهة، الأوطان، الأفكار. الويل لمن لا يستطيع أن يحرر نفسه من بوذا والآلهة والأوطان والأفكار.

وفجأة أصبح البحر أسود. وبدأ القمر الصغير يتحلق في السماء بسرعة. في الحدائق البعيدة، كانت الكلاب تعوي بحزن، وكان صدى العواء يتردد في الوادي كله.

ظهر زوربا، يكسوه التراب. كان قميصه ممزقاً.

جثم إلى جانبي.

«سارت الأمور على ما يرام اليوم»، قال سعيداً، «لقد أنجزنا عملاً كثيراً».

سمعت كلمات زوربا دون أن أدرك معناها. فقد كان عقلي لا يزال يطوف بعيداً فوق المنحدرات البعيدة والخطرة.

سألني: «بماذا تفكر يا معلّم؟ هل عقلك في البحر؟».

استجمعت أفكاري، والتفت إلى زوربا وهززت رأسي وقلت:

«زوربا، تظن أنك سندباد بحري رائع، وتتبجّح بأنك زرت العالم قليلاً، لكنك لم تر شيئاً، لم تر شيئاً على الإطلاق. لا شيء، أيها الأحمق المسكين! ولا أنا، فليكن في علمك. إن العالم أوسع بكثير مما يخيّل لنا. إننا نسافر، نعبر بلداناً وبحاراً كاملة، ومع ذلك لا نكون قد أخرجنا أنوفنا من عتبة بيوتنا»

زمّ زوربا شفتيه ولم يقل شيئاً، بل شخر مثل كلب.

وتابعت كلامي: «هناك جبال في العالم، جبال ضخمة وهائلة تتناثر عليها أديرة. ويعيش في تلك الأديرة رهبان يتشحون بعباءات زعفرانية. يظلون جالسين القرفصاء طوال شهر، شهرين، ستة أشهر دون أن يأتوا بحركة،

يفكّرون بشيء واحد، وشيء واحد فقط. شيء واحد، هل تسمع؟ لا شيئين ـ شيء واحد! إنهم لا يفكرون بالنساء والفحم أو الكتب والفحم، كما نفعل نحن. إنهم يركّزون عقولهم على شيء واحد لا ثاني له، وهم يحققون المعجزات. هل رأيت ما يحدث عندما تمسك كأساً من الزجاج وترفعها أمام الشمس وتركّز كلّ الأشعة على بقعة واحدة، يا زوربا؟ تكاد تلك البقعة أن تشتعل، أليس كذلك؟ لماذا؟ لأن قوّة الشمس لم تتبدد، بل تركّزت على تلك البقعة الواحدة. والشيء نفسه ينطبق على عقول البشر. إنك تفعل المعجزات، إذا ركزت تفكيرك على شيء واحد، وشيء واحد فقط. هل تفهم ما أقوله يا زوربا؟».

بدأ زوربا يتنفّس بصعوبة. للحظة هزّ نفسه وكأنه يريد أن يهرب، لكنه تمالك نفسه.

وقال ناخراً، بصوت مخنوق: «تابع».

ثم وثب واقفاً.

«اسكت! اسكت!» صاح، «لماذا تقول لي هذه الأشياء يا معلّم؟ لماذا تسمّم عقلي؟ كنت على ما يرام هنا، لماذا تزعجني؟ كنت جائعاً، وألقى لي الله والشيطان (عليّ اللّعنة إن كنت أرى الفرق بينهما) قطعة عظم ورحت ألعقها. كنت أهزّ ذيلي وأصيح: شكراً! شكراً! والآن. . .».

ضرب بقدمه على الأرض، استدار، وتحرّك وكأنه سيتجه إلى الكوخ، لكنه كان لا يزال يغلي في داخله. توقّف.

«أووف! لقد رمى لي عظمة جميلة، هذا اللهـ الشيطان!» قال مزمجراً، «قحبة قذرة عجوز تعمل في ملهى! حوض ماء قديم لا يصلح حتى للإبحار!» أمسك حفنة من الحصى ورماها في البحر، «لكن من هو؟ من الذي يرمي لنا هذه العظام؟ إيه؟» انتظر قليلا، لكنه عندما لم يسمع رداً، ازداد هيجاناً.

«ألا يمكنك أن تقول شيئاً يا معلّم؟» صاح، «إن كنت تعرف، فأخبرني لكي

أعرف اسمه. عندها لا تقلق، سأتدبر أمري معه! لكن إذا كان الأمر مجرد احتمال بعيد، هكذا، فأيّ طريق يجب أن أسلك؟ إني أشعر بالحزن»

قلت: «أنا جائع. اذهب وأحضر شيئاً من الطعام. دعنا نأكل أولاً!».

«ألا يمكننا أن نبقى ليلة دون أن نأكل يا معلّم؟ كان أحد أعمامي راهباً، وفي أيام الأسبوع لم يكن يتناول شيئاً سوى الملح والماء. وفي أيام الأحد وأيام الأعياد كان يضيف قليلاً من النخالة. عاش مائة وعشرين سنة».

«عاش مائة وعشرين سنة يا زوربا، لأنه كان لديه إيمان. لقد وجد إلهه ولم يعد يشعر بالقلق. أما نحن فلا يوجد لدينا إله ليطعمنا يا زوربا، لذلك أوقد النار، سنطهو هذه الأسماك. اصنع منها حساء حاراً سميكاً فيه الكثير من البصل والفلفل، من ذلك النوع الذي نحبه. ثم سنرى».

«سنرى ماذا؟» سأل زوربا غاضباً، «فما إن تمتلئ بطوننا حتى ننسى كلّ ذلك!».

«تماماً! وهذا هو الهدف من الطعام يا زوربا. إذن، هيا اذهب واصنع لنا حساء سمك لكي لا ينفجر رأسانا».

لكن زوربا لم يتحرك من مكانه. بل لبث ثابتاً، لا يتحرك، وهو ينظر إليّ.

«اسمع يا معلّم، أريد أن أقول لك شيئاً. إني أعرف ما ترمي إليه. الآن فقط عندما كنت تتكلّم معي خطرت لي فكرة، رأيتها في ومضة».

«ماذا أرمي إليه يا زوربا؟» سألته مندهشاً.

«إنك تريد أن تبني ديراً. هذا كلّ ما في الأمر! لكن بدلاً من أن تضع فيه رهباناً، ستضع فيه كتّاباً من أمثال حضرتك ليمضوا الوقت وهم يخربشون ليلاً نهاراً. ومثل القديسين في الصور القديمة، ستخرج من أفواهكم أشرطة مطبوعة. كان ظني في محله، أليس كذلك؟»

أطرقت رأسي، حزيناً. أحلام شبابي القديمة، أجنحة ضخمة فقدت ريشها،

دوافع ساذجة، نبيلة، كريمة. أن نبني جمعية ثقافية وندفن أنفسنا فيها، عشرة من الأصدقاء ـ موسيقيون، شعراء، رسامون. نعمل طوال النهار، لا نلتقي إلا في الليل، نأكل، نغنّي، نقرأ معاً، نناقش المشاكل الإنسانية العظيمة، نهدّم الإجابات التقليدية، وقد وضعت قواعد الجمعية. حتى أنني وجدت المبنى في أحد مجازات جبل هيميتوس، عند القديس جون الصياد.

«لقد كنت محقاً في ظني»، قال زوربا سعيداً، عندما رأى أنني لبثت صامتاً.

«حسناً، سأطلب منك معروفاً يا معلّم، أيها الراهب. أريدك أن تعيّنني بواباً على باب ديرك كي أتمكن من تهريب بعض الأشياء، ولكي أدع بعض الأشياء الغريبة تدخل إلى المكان المقدّس بين الحين والآخر: النساء، آلات المندولين، قوارير العرق، خنازير مشوية. كلّ هذا لكي لا تتبدّد حياتك بالكثير من الهراء!».

ضحك وهرع باتجاه الكوخ. جريت وراءه. نظّف السمك، دون أن يفتح فمه، في حين أحضرت حطباً وأشعلت النار. وعندما أصبح الحساء جاهزاً، أخذنا ملعقتينا ورحنا نأكل بنهم من القدر مباشرة.

لم يفه أحدنا بكلمة واحدة. لم نكن قد تناولنا لقمة واحدة طوال اليوم، ورحنا نأكل بنهم شديد. احتسينا قليلاً من النبيذ وانتعشت أرواحنا. وأخيراً فتح زوربا فمه.

«سيكون من الممتع رؤية السيدة بوبولينا الآن يا معلّم. سيكون من الجيد أن تأتي، لكن فليحفظنا الله! إنها ستكون القشّة الأخيرة. ومع ذلك يا معلّم، فقد اشتقت إليها، فليأخذها الشيطان!».

«إنك لم تسألني من رمى لك تلك العظمة الصغيرة؟»

«وما يهمك ذلك يا معلّم؟ إنها مثل برغوث في كومة تبن. خذ العظمة ولا تسأل من رماها لك. هل هي لذيذة؟ هل يوجد عليها لحم؟ هذه هي الأسئلة التي يجب أن تسألها. أما الباقي. ».

«لقد فعل الطعام معجزته المدهشة!» قلت وأنا أصفعه على ظهره، «لقد هدأ الجسد الجائع. كما هدأت الروح التي كانت تطرح أسئلة. هيا أحضر السنتوري!».

لكن ما إن استوى زوربا واقفاً حتى سمعنا وقع خطوات سريعة، ثقيلة فوق الحصى. ارتعشت فتحتا أنف زوربا المشعرتان.

«اذكر الشيطان. .»، قال بصوت خفيض، وأخذ يصفع فخذيه، «ها هي! لقد شمّت الكلبة رائحة زوربا في الهواء، وها هي قد جاءت».

«أنا ذاهب»، قلت ونهضت، «لا أريد أن أتدخل. سأخرج قليلاً. أترك الأمر لك».

«طابت ليلتك يا معلّم»

«ولا تنس يا زوربا. لقد وعدت بأن تتزوجها. لا تجعلني كذاباً»

أطلق زوربا تنهيدة.

«أأتزوّج مرة أخرى، يا معلّم؟ لقد أتخمت».

كانت رائحة الصابون المعطر تقترب.

«تحلّ بالشجاعة يا زوربا!».

غادرت مسرعاً. وعندما أصبحت في الخارج، سمعت لهاث الغانية العجوز.

[17]

في فجر اليوم التالي استيقظت على صوت زوربا.

«ماذا جري لك في هذا الصباح الباكر؟ لماذا كلّ هذا الصياح؟».

«يجب أن نأخذ الأمور بجدية يا معلّم»، أجاب، وهو يملأ حقيبته بالطعام، «لقد أحضرت دابتين. هيا انهض لنصعد إلى الدير ونوقّع الأوراق من أجل تركيب سكة الحديد المعلقة. فلا شيء يخيف الأسد سوى القمل. إن القمل سيلتهمنا كلنا يا معلّم».

«لماذا تسمي بوبولينا المسكينة قملة؟» سألته ضاحكاً.

لكن زوربا تظاهر بأنه لم يسمعني.

وقال: «هيا بنا قبل أن تشتد حرارة الشمس».

كنت سعيداً حقاً لأنني سأصعد إلى الجبل وأتنشق رائحة أشجار الصنوبر بمتعة. امتطينا دابتينا ورحنا نصعد الجبل. توقفنا قليلاً عند المنجم حيث أعطى زوربا العمّال تعليماته. وطلب منهم أن يعملوا في نفق «الأم الكبيرة»، وأن يحفروا الخندق في نفق «بيدلر» وأن ينظفوا نفق «كانافارو».

أشرق النهار مثل قطعة رائعة من الماس. وكلما صعدنا أكثر، كان يبدو لنا أن روحينا قد أصبحتا أكثر طهراً وسمواً. ومرة أخرى أحسست بتأثير الهواء النقي على الروح، وأخذت أتنفس بسهولة أمام هذا الأفق الشاسع. ويخيّل للجميع أن الروح أيضاً حيوان له رئتان وأنف، وأنها بحاجة إلى أوكسجين، لأن الغبار كاد يخنقها أو لأنها تعيش في وسط أنفاس فاسدة.

عندما ولجنا غابة الصنوبر، كانت الشمس قد أصبحت في كبد السماء، وكان الهواء مفعماً برائحة العسل، والريح تهب فوقنا وتصدر أنيناً كالبحر

وأثناء الطريق، درس زوربا منحدر الجبل، وفي مخيلته، أخذ ينصب الأعمدة على مسافة بضع ياردات، وعندما كان يرفع عينيه إلى الأعلى، كان يرى الكابل ملتمعاً تحت أشعة الشمس وينحدر مباشرة نحو الشاطئ، وجذوع الأشجار المعلقة بالكابل تهبط، وهي تئز مثل أسهم تنطلق من أقواسها.

راح يفرك يديه وقال:

«رأسمال! سيكون هذا منجم ذهب! سيغمرنا المال قريباً، وسيكون بإمكاننا أن نفعلَ كلّ ما نحلم به».

نظرت إليه مندهشاً.

«ممم! لا تقل لي أنك نسيت! فقبل أن نبني ديرك، صعدنا إلى الجبل العظيم. ماذا كان اسمه؟».

«التبت، يا زوربا، التبت. لكن وحدنا فقط. فلن تستطيع أن تصطحب نساء إلى هناك».

«من ذكر النساء؟ على كل حال، إنهن مخلوقات مسكينة مفيدة جداً، لذلك لا تتكلم بالسوء عنهن. إنهن مفيدات جداً عندما لا يكون لدى الرجل أيّ عمل يقوم به، مثل أن يحفر منجماً للفحم، أو أن يغير على مدن أو أن يناجي الله. وماذا بوسعه أن يفعل غير ذلك، وإلا فإنه سينفجر؟ فهو يحتسي النبيذ أو يلعب النرد أو يضم امرأة بين ذراعيه. وينتظر ينتظر حتى تأزف ساعته ـ إذا كانت آتية».

صمت لحظة.

«إذا كانت آتية»، كرّر بنبرة غاضبة، «لأنها قد لا تأتي على الإطلاق»

وتابع بعد لحظة:

«لا يمكن أن تستمر الأمور هكذا يا معلّم. فإما أن يصغر العالم عليّ أو أنني يجب أن أكبر عليه، وإلا لقضي عليّ».

ظهر راهب من بين أشجار الصنوبر، ذو بشرة صفراء وشعر أحمر، وقد شمّر عن ساعديه، ويعتمر قبعة محلية مستديرة. كان يحمل قضيباً حديدياً يضرب به الأرض وهو يسير. عندما رآنا توقّف ورفع عصاه في الهواء وسأل:

«إلى أين أنتما ذاهبان؟».

فأجاب زوربا: «إلى الدير»، وأردف، «سنذهب لنصلي».

«عودا، أيها المسيحيان!» صاح الراهب، وقد اتقدت عيناه الزرقاوان الصافيتان باللهيب وهو يتكلم، «عودا، واسمعا نصيحتي! فلن تجدا بستان العذراء هناك، بل ستجدان حديقة الشيطان! الفقر، المذلة، العفة. تاج الراهب، كما يقولون! عودا أدراجكما، أقول لكما. المال والغرور والفتيان الصغار! هذا هو ثالوثهم المقدّس!».

«هذا الشاب مضحك»، همس زوربا مفتوناً، وانحنى عليه.

«ما اسمك، أيها الأخ؟» سأل الراهب، «ومن أين أتيت؟»

«اسمي زخريا. وقد حملت أمتعتي وأنا راحل الآن وفي الحال. لم أعد أحتمل أكثر من ذلك! قل لي من فضلك ما اسمك أيها المواطن».

«كانافارو».

«لم أعد أطيق اكثر من ذلك، يا أخ كانافارو. فالمسيح لا يتوقف عن الأنين طوال الليل ولا يدعني أنام. وأنا أئن معه. ثم أرسل إليّ رئيس الدير - فليشوى في نار جهنم إلى الأبد - في وقت مبكّر من صباح هذا اليوم، وقال:».

«حسناً، يا زخريا، إنك لا تدع أخوتك الرهبان ينامون. سألقي بك خارج الدير».

فقلت: «أأنا من لا يدعهم ينامون؟ أم السيد المسيح الذي لا يدعهم ينامون؟ فهو الذي لا يتوقف عن الأنين»

«ثم رفع صليبه، ذلك المسيح الدجال. وحسناً. انظر!».

نزع قبعة الراهب وكشف عن بقعة من الدم المتخثر في شعره.

«لذلك وليت الأدبار وغادرت».

فقال زوربا: «عد إلى الدير معنا. سأقنع رئيس الدير. هيا تعال، يمكنك أن ترافقنا وترينا الطريق. لقد أرسلتك لنا السماء ذاتها».

فكّر الراهب لحظة، وبرقت عيناه، وسأل:

«وماذا تعطيني لقاء ذلك؟».

«ماذا تريد؟».

«أوقيتان من سمك القدّ المملح وقنينة براندي».

انحنى زوربا إلى الأمام ونظر إليه.

«لا بد أن في داخلك شيطان ما يا زخريا، أليس كذلك؟».

فسأل الراهب مندهشاً: «كيف حزرت؟».

أجاب زوربا: «أنا من جبل أثوس، وأعرف شيئاً عنه».

أطرق الراهب برأسه. لم نكد نسمع رده. «نعم، يوجد في داخلي شيطان».

«ويريد أن يأكل سمك القدّ المملّح ويحتسي براندي، أليس كذلك؟».

«نعم، فلتحل عليه اللعنة ثلاث مرات!».

«حسناً! اتفقنا! وهل يدخّن أيضاً؟».

ألقى له زوربا سيكارة فتناولها الراهب بحماس، وقال: «إنه يدخّن، نعم، إنه يدخّن، فليحلّ عليه الطاعون!».

وأخرج من جيبه قطعة صغيرة من حجر القداح وفتيلة، وأشعل السيكارة وأخذ منها نفساً عميقاً.

وقال: «باسم المسيح!».

ورفع قضيبه الحديدي، واستدار وبدأ يمشي.

«ما اسم شيطانك؟» سأله زوربا، وهو يغمزني

«يوسف!» أجاب زخريا، دون أن يلتفت.

لم ترق لي رفقة هذا الراهب شبه المجنون. فالعقل المريض، كالجسم المريض، يجعلني أشعر بالشفقة وبالاشمئزاز في الوقت نفسه. لكنني لم أقل شيئاً، بل تركت الأمر برمته لزوربا لكي يفعل ما يشاء.

فتح الهواء النقي شهيتنا فأحسسنا بالجوع. جلسنا تحت شجرة صنوبر عملاقة وفتحنا حقيبة الطعام. انحنى الراهب إلى الأمام وراح يتطلع إلى ما تحويه بنهم شديد.

«ليس بهذه السرعة!» صاح زوربا، «لا تتلمظ بهذه السرعة يا زخريا! فاليوم يوم الاثنين المقدّس. ونحن ماسونيان، لذلك، سنتناول قليلاً من اللحم والدجاج، فليغفر الله لنا! لكن انظر، توجد بعض الحلاوة وقليل من الزيتون من أجل معدتك القدسية!».

مسّد الراهب لحيته القذرة.

«سأتناول قليلاً من الزيتون والخبز والماء العذب»، قال نادماً، «لكن الشيطان يوسف، سيتناول معكما اللحم، يا أخوتي. إنه يحبّ الدجاج ـ أوه، إنه روح ضالة ـ وسيحتسي النبيذ من يقطينتك!».

رسم شارة الصليب، وازدرد الخبز والزيتون والحلاوة، ثم مسح فمه بظاهر يده، وشرب الماء، ثم رسم شارة الصليب ثانية، كما لو كان قد شبع، ثم قال:

«والآن، جاء دور يوسف، ليلعن الله روحه المسكينة ثلاث مرات».

وانقض على الدجاجة.

«كلي أيتها الروح التائهة!» غمغم بغضب فيما راح يدس كتلاً ضخمة من الدجاج في فمه، «كلي».

«عظيم! مرحى لك أيها الراهب!» صاح زوربا بحماس.

«يمكنني أن أرى أنه يوجد لديك وتران في قوسك».

استدار نحوي.

«ما رأيك به يا معلّم؟».

«إنه يشبهك كثيراً»، قلت ضاحكاً

قدم زوربا يقطينة النبيذ إلى الراهب.

«يوسف! اشرب!».

«اشربي! أيتها الروح التائهة!» قال الراهب، وأمسك باليقطينة وألصقها بفمه.

اشتدت حرارة الشمس كثيراً فانتقلنا إلى الظلّ. كانت تفوح من الراهب رائحة عرق حامضة وبخور. وكاد يذوب تحت الشمس فسحبه زوربا إلى البقعة الأكثر ظلاً ليخفف من حدة رائحته الكريهة.

«كيف أصبحت راهباً؟» سأله زوربا، الذي أكل جيداً وأراد أن يثرثر قليلاً.

ابتسم الراهب ابتسامة عريضة.

«أحسب أنك تظن لأني كنت شديد الإيمان؟ أتراهن! كان ذلك بسبب الفقر يا أخي، الفقر! لم يكن يوجد لدي شيء أتناوله، لذلك قلت لنفسي: إذا دخلت الدير، فلن أتضور جوعاً!».

«وهل أنت راض؟».

« لله الحمد! إني أتنهّد وأشتكي في أغلب الأحيان، لكن لا تهتم بذلك. فأنا لا أسعى وراء الأشياء الدنيوية، فهي تأتي وتذهب. سامحني. وأقول لهم كلّ يوم أني أريد أن أذهب وأكون. لكنني أشتاق إلى الجنة! أحكي للرهبان دعابات وأرقص لهم مرحاً وأضحك» جميعهم يقولون إني الشيطان يتلبسني ويهينونني. لكنّي أقول لنفسي: لا يمكن أن يكون هذا صحيحاً؛ فلا بد أن الله يحبّ المرح والضحك. «ادخل أيها المهرج الصغير، ادخل»، قال لي ذات

يوم، فأنا أعرف، «تعال وأضحكني!» بهذه الطريقة سأدخل الجنة، كمهرج!

«إن رأسك في مكانه الصحيح، أيها الرفيق!» قال زوربا، واستوى واقفاً، «هيا، يجب أن نتحرّك، لكي لا يهبط علينا الظلام».

انطلق الراهب أمامنا. وفيما كنا نتسلق الجبل، أحسست في داخلي بأننا نتسلّق سلسلة جبال العقل، أنتقل من الهموم الأساسية والتافهة إلى الأشياء الأكثر نبلاً، ومن سهول الحقائق المريحة إلى المفاهيم الشديدة الإنحدار.

توقّف الراهب بغتة.

«سيدة الانتقام!» صاح وهو يشير إلى كنيسة صغيرة ذات قبة جميلة. جثا على ركبتيه ورسم شارة الصليب. ترجلت عن دابتي ودخلت إلى المصلّى البارد. رأيت في إحدى الزوايا أيقونة قديمة، سوداء بسبب الدخان، وقد غطيت بالنذور: صفائح رقيقة من الفضة نقشت عليها رسوم بطريقة فجة: أقدام، وأيدي، وعيون، وقلوب. وانتصب أمام الأيقونة شمعدان فضّي عليه ضوء دائم الاحتراق.

اقتربت بصمت: صورة العذراء قاسية، محاربة ذات عنق قوي، ونظرة صارمة، قلقة، ولم تكن تحمل الطفل المقدس بين يديها، بل تحمل رمحاً منتقيماً طويلاً.

«الويل لمن يهاجم الدير!» قال الراهب مذعوراً، «فهي تنقّض عليه، وتغرز الرمح في جسده. في العهود الغابرة، جاء الجزائريون إلى هنا وأحرقوا الدير. لكن انظر ماذا حلّ بهؤلاء الكفار: فما أن مروا من أمام هذه الكنيسة الصغيرة، حتى خرجت القديسة مريم من الأيقونة فجأة، واندفعت خارجاً وراحت تلوّح برمحها في هذا الاتجاه وفي ذاك الاتجاه، في جميع الاتجاهات. وأبادتهم عن بكرة أبيهم. وكان جدّي يتذكّر أنه رأى عظامهم تملأ الغابة كلها. ومنذ ذلك الحين، فإننا ندعوها سيدة الإنتقام. لكنها كانت تدعى سيدة الرحمة قبل ذلك».

«لماذا لم تنفذ معجزتها قبل أن يحرقوا الدير يا أبانا زخريا؟» سأله زوربا.

«كانت تلك إرادة العلي القدير!» أجاب الراهب، ورسم شارة الصليب ثلاث مرات.

«لقد أحسن العلي القدير!» همس زوربا، واعتلى ظهر الدابة، وقال: «هيا ننطلق!».

وسرعان ما تراءت أمامنا هضبة بدأ يلوح فيها دير القديسة مريم المحاط بالصخور وأشجار الصنوبر. كان هادئاً، مبتسماً، منفصلاً عن باقي العالم في جوف هذا الجرف المرتفع الأخضر، يجمع بانسجام عميق، نبل قمة الجبل ورقة الوَادي، وقد بدا لي أن هذا الدير ملاذ اختير بشكل رائع كي يتأمل فيه البشر.

«هنا»، قلت لنفسي، «تستطيع الروح الرقيقة الواعية أن تزرع في النفس سمواً دينياً يماثل مكانة الرجال. لا قمّة شديدة الانحدار تفوق طاقة البشر، ولا سهلاً شهوانياً بطيئاً، لكن كلّ ما نحتاج إليه، لا أكثر من ذلك، لكي تسمو الروح دون أن تفقد رقتها الإنسانية. إن مكاناً كهذا لن يصنع أبطالاً ولا خنازير، بل يصنع رجالاً».

إن هذا المكان يصلح لأن يكون معبداً يونانياً قديماً جميلاً أو مسجداً محمّدياً ساطعاً. ولا بد أن الله يهبط إلى هنا في هيئة بشر بسيط، ويمشي حافياً فوق العشب الربيعي، ويتحدث بهدوء ورقة إلى الرجال.

«يا له من مكان رائع! يا لها من خلوة رائعة! يا لها من هناءة!» غمغمت.

ترجّلنا من على دابتينا، واجتزنا الباب المركزي، وصعدنا إلى غرفة الزوار، حيث قدمت إلينا الصينية التقليدية المليئة بالعرق والمربّى والقهوة. وجاء كبير المضيفين لرؤيتنا، وما هي إلا لحظات حتى أحاط بنا رهبان بدأوا يتحدثون. عيون ماكرة، شفاه نهمة، لحى، شوارب، ورائحة الكثير من الماعز.

«ألم تجلب معك جريدة؟» سأل أحد الرهبان بقلق.

«جريدة؟» سألت مندهشاً، «وماذا ستفعل بالجريدة هنا؟».

«الجريدة، أيها الأخ، تخبرنا عما يحدث في العالم في الأسفل!» صاح صوتان أو ثلاثة أصوات ساخطة.

راحوا ينعقون مثل غربان كثيرة وهم منحنون فوق قضبان الشرفة. كانوا يتكلّمون بحماس عن إنكلترا وروسيا والملك فينيزيلوس. لقد أقصاهم العالم، لكنهم لم يقصوا أنفسهم عن العالم. كانت عيونهم مليئة بالمدن العظيمة، بالدكاكين، بالنساء. بالجرائد.

وقف راهب سمين ضخم يكسوه شعر كثيف وقال لي:

«لديّ شيء أريد أن أريك إياه، يمكنك أن تخبرني رأيك به. سأذهب وأحضره».

خرج، وكانت يداه المشعرتان القصيرتان متصالبتين فوق معدته، ويجر نعليه القماشيتين على الأرض. اختفى وراء الباب.

ابتسم الرهبان جميعهم بخبث.

«لقد ذهب الأب ديميتريوس ليحضر تمثال الراهبة المصنوع من الطين مرة أخرى» قال كبير المضيفين، «لقد دفنه الشيطان في الأرض خصيصاً له، وفي أحد الأيام عثر عليه ديميتريوس وهو يحفر في الحديقة. أخذه إلى غرفته ولم يعد يغمض له جفن منذ ذلك الحين. كاد يفقد عقله أيضاً».

استوى زوربا واقفاً. كان يختنق، وقال:

«لقد أتينا إلى هنا لنرى رئيس الدير ولنوقّع بعض الأوراق».

«إن قداسة رئيس الدير غير موجود» قال كبير المضيفين، «لقد ذهب إلى القرية هذا الصباح. تحليا بالصبر».

عاد الأب ديميتريوس، وكانت يداه المشبوكتان ممدوتين وكأنه يحمل الكأس المقدّسة.

«ها هو» قال، وفتح يديه بحذر.

اتجهت نحوه. كان تمثالاً صغيراً جداً من تاناغرا[1]، لفتاة شبه عارية وخجولة، كانت تبتسم لي من بين أصابع الراهب السمينة. كانت تضع يدها غير المقطوعة على رأسها.

«لكي تري رأسها بهذه الطريقة»، قال ديميتريوس، «فهذا يعني أنه توجد في داخلها قطعة من الحجر الكريم، ربما كانت قطعة من الماس أو لؤلؤة ما رأيك؟».

«أظن»، جاء تعليق لاذع من أحد الرهبان، «أن هذا يعني أنها مصابة بالصداع».

لكن ديميتريوس الضخم، الذي تدلت شفتاه مثل عنزة، راح ينظر إليّ وينتظر ردي بفارغ الصبر.

قال: «أظن أني يجب أن أكسره وأرى ما بداخله، فلم يعد يغمض لي جفن طوال الليل. لو كانت فيه قطعة ماس. »

نظرت إلى الفتاة الشابة الجميلة، بنهديها الثابتين الصغيرين، التي أضحت منفية هنا بين روائح البخور والآلهة المصلوبة التي تصب لعنتها على الجسد وعلى الضحك والقبلات.

كم كنت أتمنى أن أنقذها!

أخذ زوربا التمثال الطيني، وتحسس الجسد الأنثوي الرقيق، وظلت أصابعه ترتعش فوق النهدين الصلبين المدببين، وقال:

«لكن ألا تستطيع أن ترى يا راهبي الطيب، أنه الشيطان بعينه؟ إنه الشيطان نفسه، ولا مراء في هذا. لا تقلق، فأنا أعرفه جيداً، هذا الملعون. انظر إلى

---

(١) مدينة قديمة صغيرة في شرق وسط اليونان حيث هزم الاسبارطيون القوات اليونانية في عام ٤٥٧ ق.م.

نهديها هنا، أيها الأب ديميتريوس - فهما باردان، مكوران، صلبان. هكذا هو صدر الشيطان تماماً، وأنا أعرف الكثير عن ذلك!».

ظهر راهب شاب عند الباب. كانت الشمس تشرق فوق شعره الذهبي ووجهه المدّور الأزغب.

غمز الراهب ذو اللسان اللاذع كبير المضيفين، وابتسما كلاهما بخبث.

قال: «الأب ديميتريوس، لقد جاء تلميذك غافريلي».

أمسك الراهب المرأة الطينية الصغيرة واندفع مباشرة مثل برميل نحو الباب. وسار تلميذه الوسيم أمامه بصمت بخطوة متأرجحة. واختفيا في آخر الممر الطويل الخرب.

أشرت إلى زوربا وخرجنا إلى الفناء. كانت حرارة الجو معقولة في الخارج. وفي وسط الفناء انتصبت شجرة برتقال تفتحت أزهارها وعبقت رائحتها في الهواء. وفي مكان قريب، كان يسمع خرير ماء يخرج من رأس كبش مصنوع من الرخام يعود إلى عهود قديمة. وضعت رأسي تحته فانتعشت.

«ما هؤلاء الناس بحق الله؟» سأل زوربا بشيء من الإشمئزاز، «إنهم ليسوا رجالاً ولا نساء؛ إنهم بغال. بووو! فليشنقوا أنفسهم!».

غط هو الآخر رأسه تحت الماء العذب وراح يضحك.

«بووو! فليشنقوا أنفسهم!» ردد ثانية، «فلا يوجد في داخلهم سوى شيطان من نوع ما أحدهم يريد امرأة، وآخر يريد سمكة قدّ مملحة، وآخر يريد نقوداً، وآخر يريد جريدة. مجموعة من المغفلين! لماذا لا يهبطون إلى العالم ويملؤون أنفسهم بكلّ هذا، ويطهّرون عقولهم؟».

أشعل سيكارة وجلس على المقعد تحت شجرة برتقال تفتحت براعمها وقال

«عندما أشتاق إلى شيء ما، فهل تعرف ماذا أفعل؟ أملأ نفسي به، وبذلك

أتخلّص منه ولا أعود أفكّر به ثانية، وإذا عدت إليه، فإن ذلك يجعلني أتقيأ عندما كنت طفلاً ـ هذا سيثبت لك ـ كنت أحب الكرز كثيراً لم تكن لديّ نقود، لذلك لم أكن أستطيع أن أشتري منه الكثير في ذلك الوقت، وعندما كنت أتناول كلّ ما كنت أستطيع أن أشتريه، كنت لا أزال أريد المزيد. ولم أكن أفكر بشيء، ليلاً نهاراً، إلا بالكرز. كنت أرغي وأزبد. كان عذاباً حقيقياً! لكنني فقدت صوابي ذات يوم، أو اعتراني خجل شديد، لا أعرف أيهما. فقد أحسست أن الكرز هو الذي يقودني، وكان هذا أمراً سخيفاً. فماذا فعلت؟ نهضت ذات ليلة، وفتشت جيوب أبي ووجدت مجيدياً فضياً وأخذته. استيقظت باكراً في صباح اليوم التالي، وذهبت إلى سوق الخضروات واشتريت سلة من الكرز. جلست في خندق ورحت أتناوله. حشوت نفسي به حتى أُتخمت. وبدأت معدتي تؤلمني ومرضت. نعم، يا معلّم، مرضت مرضاً شديداً، ومنذ ذلك اليوم وحتى يومنا هذا، لم أعد أرغب في تناول الكرز. لم أعد أستطيع أن أتحمّل رؤيته. لقد نجوت منه، وأصبح بإمكاني أن أقول لأيّ حبة كرز: لم أعد أريدك. وهكذا فعلت فيما بعد بالنبيذ والتبغ. فأنا لا أزال أشرب وأدخّن، لكنني في أي لحظة، إذا أردت، أستطيع أن أتوقف! فأنا لا تحكمني الشهوة، والشيء ذاته ينطبق على بلدي. فقد فكرت كثيراً به، لذلك أغرقت نفسي به تماماً، فلفظته من نفسي، ولم يعد يزعجني منذ ذلك الحين».

«وماذا عن النساء؟» سألته.

«سيأتي دورهن، اللعنة عليهن! سيأتي دورهن عندما أبلغ السبعين من عمري!».

فكّر برهة، وبدا ذلك وشيكاً جداً.

«بل الثمانين»، قال مصححاً نفسه، «هذا يضحكك يا معلّم، كما أرى، لكن يجب ألا تضحك. هكذا يحررّ الرجال أنفسهم! استمع إليّ. لا توجد وسيلة أخرى إلا بأن يملؤوا أنفسهم به حتى التخمة. لا أن يصبحوا نساكاً. كيف

يمكنك أن تتوقّع أن تتغلب على الشيطان، يا معلّم، إذا لم تتحوّل إلى شيطان؟»

اندفع ديميتريوس إلى الفناء لاهثاً، يتبعه الراهب الشاب الأشقر.

«أي شخص سيظن أنه ملاك غاضب المزاج»، همس زوربا، معجباً بخجله وشبابه الجميل.

اتجها نحو الدرج الحجري المفضي إلى الغرف العليا. التفت ديميتريوس ونظر إلى الراهب الشاب، وقال بضع كلمات. هزّ الراهب رأسه وكأنه يرفض ما يقوله له. إلا أنه أذعن على الفور وهزّ رأسه مستسلماً، ووضع ذراعه حول الراهب العجوز وصعدا الدرج معاً.

«هل رأيت؟» سألني زوربا، «هل رأيت؟ سدوم وعمورة!» ظهر راهبان، وغمز أحدهما الآخر، وراحا يضحكان.

«مجموعة بغيضة»، قال زوربا، «إن الذئاب لا تنهش بعضها بعضا، لكن انظر إلى هؤلاء الرهبان! هل رأيت نساء يفعلن ببعضهن هكذا؟».

«جميعهم رجال»، قلت ضاحكاً.

«لا يوجد فرق كبير هنا يا معلّم، خذها مني! بغال، جميعهم. يمكنك أن تدعوهم غافريليس، أو غافريلا، ديميتريوس، أو ديميتريا، حسب ما تريد. هيا يا معلّم، لنذهب من هنا. لنوّقع الأوراق بأسرع ما يمكننا ونذهب. فسرعان ما سنشعر بالاشمئزاز من الرجال والنساء معاً إذا بقينا هنا».

خفض صوته.

«بالإضافة إلى ذلك فلديّ خطة. . .».

«أعرف أنها فكرة مجنونة أخرى. ألا تظن أنك ارتكبت ما يكفي من الحماقات في حياتك أيها العنزة العجوز؟ أخبرني ما هي خطتك».

هزّ زوربا كتفيه.

«كيف يمكنني أن أخبرك شيئاً كهذا يا معلّم؟ إنك شاب لطيف، إذا سمحت لي أن أقول هذا! إنك تبذل ما بوسعك لخدمة الجميع، مهما كانوا. فإذا وجدت برغوثاً في الشتاء فإنك تضعه تحت لحافك كي لا يصاب بالزكام. كيف يمكنك أن تفهم وغداً عجوزاً مثلي؟ فإذا وجدت برغوثاً، فإني سأسحقه، وإذا وجدت خروفاً سأذبحه وأضعه في أسياخ وأدعوا أصدقائي إلى وليمة لتناوله! أما أنت فتقول: إن الخروف ليس لك! لا، أعترف بذلك. لكن يا معلّم، دعنا ننته من تناوله أولاً، وبعد ذلك سنبحث في أمره بهدوء ونناقش ما هو لك وما هو لي كما تحب. يمكنك أن تتحدث كما يحلو لك، وأنا أنظف أسناني بعود ثقاب»

ودوّى الفناء بصوت ضحكته. ظهر زخريا فزعاً. وضع إصبعاً على شفتيه واتجه إلينا بحذر.

«شش!» قال، «يجب ألا تضحك! انظر إلى الأعلى هـ ـك، إلى تلك النافذة الصغيرة. هناك يعمل الأسقف. إنها المكتبة. إن قداسته يكتب. يكتب طوال اليوم، لذلك لا تحدثا ضجة».

«ها، أنت الشخص الوحيد الذي أريد أن أراه يا أب يوسف»، قال زوربا، وأمسك بذراع الراهب، «هيا، خذني إلى غرفتك، أريد أن أتحدث إليك»

ثم التفت إليّ وقال:

«أثناء غيابنا تجوّل في أرجاء الكنيسة والقِ نظرة على جميع الأيقونات القديمة، أما أنا فسأنتظر رئيس الدير، ولن يتأخر لكن لا تفعل شيئاً لوحدك، فإنك ستفسد الأمر. إترك الأمور لي، فأنا لديّ خطّة».

مال إليّ وهمس في أذني.

«سنحصل على تلك الغابة بنصف السعر لا تقل كلمة واحدة».

وغادر بسرعة، ممسكاً ذراع الراهب المجنون.

اجتزت عتبة الكنيسة ودخلت القاعة الداخلية المظللة التي كانت باردة وتعبق فيها رائحة عطرة.

كان المبنى مهجوراً، وكانت الثريات البرونزية تلقي نوراً باهتاً. وكان هناك قاطع أيقوني مزخرف يملأ الطرف الآخر من الكنيسة، يشبه عريشة من الكرمة المحمّلة بعناقيد عنب ذهبية. وكانت الجدران مكسوة من أعلاها إلى أسفلها بأشكال جصّية نصف ممحوة: صور مرعبة عن نساك أشبه بهياكل عظمية، وآباء الكنيسة، ودرب آلام المسيح الطويل، وملائكة ضخمة ذات أشكال عنيفة شعرها معقود بأشرطة زرقاء ووردية عريضة بهت لونها بسبب الرطوبة.

وفي أعلى القنطرة كانت تنتصب العذراء وذراعاها ممدودتان باستعطاف. وكان يوجد مصباح فضّي ثقيل أمامها ونور خافت يومض مرتعشاً حولها، يداعب وجهها ذا القسمات الملتوية. ولن أنسى ما حييت عينيها الحزينتين، وفمها المدوّر المتغضن والقوي،

وذقنها التي تشي بالعزيمة. هنا، قلت لنفسي، توجد الأمّ التي تشعر بالسعادة والرضا التامين، حتى وهي في أشد حالات ألمها، لأنها تشعر بأنها أنجبت من بطنها الفانية شيئاً لن يفنى.

عندما اجتزت العتبة ثانية، كانت الشمس تميل نحو الغروب. جلست تحت شجرة البرتقال وحالة من السعادة تغمرني. كان لون قبة الكنيسة قد أصبح وردياً وكأننا عند الفجر وذهب جميع الرهبان إلى غرفهم ليرتاحوا. فلن يناموا، لأنه

كان عليهم أن يستجمعوا كامل طاقتهم. ففي تلك الليلة سيبدأ المسيح يتسلّق الجلجلة وسيرافقونه. وكانت هناك خنزيرتان سوداوتان بحلمات وردية تغطان بالنوم تحت شجرة خروب، والحمام يتهادى فوق الأسطح ويهدل.

قلت في نفسي إلى متى سأعيش لأتمتع بحلاوة الأرض والهواء والصمت وشذى شجرة البرتقال التي بدأت أزهارها تتفتح؟ وجعلت أيقونة القديس باخوس، التي كنت قد رأيتها في الكنيسة، قلبي يفيض سعادة. فقد تجلت لي الأشياء التي تثير أشجاني بعمق ـ الاتحاد والثبات في الهدف واستمرار الرغبة ـ مرة أخرى ـ ليبارك الله بتلك الأيقونة الصغيرة الساحرة التي تصور شاباً مسيحياً ذا شعر مجعّد يتساقط على جبهته مثل عناقيد العنب. لقد امتزج ديونيسوس الوسيم، إله النبيذ وَالنشوة، والقديس باخوس في عقلي واتخذا الشكل ذاته. وتحت أوراق الكرمة ورداء الراهب دبت الحياة في الجسد الذي أحرقته شمس اليونان.

عاد زوربا ونقل لي الأخبار بسرعة:

«لقد جاء رئيس الدير تكلمنا قليلاً. إنه بحاجة إلى الكثير من التملق والمداهنة. يقول إنه لن يمنحنا الغابة لقاء لا شيء. إنه يطلب أكثر بكثير مما ذكرنا، ذلك العجوز المراوغ، لكنني لم أنته منه بعد».

«لماذا يريد التملق؟ ظننت أننا اتفقنا؟».

«لا تتدخّل في هذا، بحق السماء، يا معلّم»، قال زوربا متوسلاً، «إنك تفسد الأشياء. فها أنت، بعد كل شيء، تتحدث عن الاتفاق القديم. لقد دفنا ذلك منذ زمن بعيد. لا تقطب جبينك؛ لقد دفناه كما أقول لك. سنحصل على تلك الغابة بنصف الثمن!»

«ماذا تضمر من شر يا زوربا؟».

«لا تهتم بذلك. هذا شأني. سأجعل الأمور تسير على ما يرام، هل تفهم؟»

«لكن لماذا؟ لم أفهم شيئاً».

«لأني أنفقت أكثر مما يجب في كنديا، هذا هو السبب! لأن لولا ابتلعت قدراً

كبيراً من نقودي ـ أقصد ـ نقودك. لا تظن أني نسيت. هناك شيء يدعى احترام الذات. لا أريد أن يكون دفتري ملطخاً! لقد أنفقت الكثير، لذلك سأدفع الكثير. لقد فكرت بكل ذلك. لقد كلّفتني لولا سبعة آلاف دراخما سأحصل عليها من ثمن الغابة. إن رئيس الدير والدير والقديسة مريم سيدفعون ما أنفقته على لولا هذه هي خطتي. كيف ترى ذلك؟».

«أبداً. لماذا تكون القديسة مريم مسؤولة عن أعمالك الطائشة؟».

«إنها مسؤولة وأكثر من مسؤولة! انظر، فهي لديها ابنها: الله. إن الله هو الذي جعلني زوربا، وهو الذي منحني أداة ـ تعرف ماذا أقصد. وهذه الأداة اللعينة، عندما ألتقي بأنثى، تجعلني أفقد صوابي وأفتح محفظتي. أترى؟ لذلك، فإن قداستها مسؤولة وأكثر من مسؤولة. دعها تدفع».

«لا أحبّ ذلك يا زوربا».

«هذه مسألة أخرى مختلفة تماماً دعنا نوّفر الأوراق النقدية السبع أولاً سنناقش الأمر لاحقاً! ضاجعني أولاً، يا عزيزي، وبعدها سأكون عمّتك تعرف ماذا تقول الأغنية. . ».

ظهر كبير المضيفين البدين مرة أخرى، وقال بنبرة إكليروسية رقيقة: «تفضلا، فالعشاء جاهز».

نزلنا إلى قاعة الطعام، قاعة كبيرة فيها مقاعد وطاولات طويلة ضيقة. كانت رائحة زيت فاسد حامض تملأ الهواء. وفي الطرف الآخر، كانت توجد صورة للعشاء الأخير التلاميذ المؤمنون الأحد عشر يتحلقون حول المسيح مثل قطيع من الغنم، وعلى الجانب الآخر، يقف يهوذا الساقط ذو الشعر الأحمر وحيداً جبهته منتفخة وأنفه معقوف. ولا يستطيع المسيح أن يبعد عينيه عنه.

جلس كبير المضيفين، وأجلسني إلى يمينه وأجلس زوربا إلى يساره.

قال: «إننا صائمون، لذلك أرجو أن تعذرونا ـ لا زيت أو نبيذ، حتى للزوّار. لكن أهلاً بكما!».

رسمنا شارة الصليب، وبدأنا نتناول طعامنا بصمت: زيتون، بصل أخضر، فاصولياء طازجة وحلاوة. رحنا نحن الثلاثة نمضغ طعامنا ببطء كالأرانب.

«هكذا هي الحياة هنا»، قال كبير المضيفين، «صلب وصيام. لكن تجملا بالصبر، يا أخوتي، الصبر، فيوم البعث آت وكذلك مملكة السماء».

سعلت. داس زوربا على قدمي وكأنه يريد أن يقول لي: «اسكت!».

«لقد رأيت الأب زخريا. .» قال زوربا، ليغير الموضوع.

بدأ كبير المضيفين:

«ماذا قال لكما ذلك المجنون؟» سأل بقلق، «ففي داخله الشياطين السبعة جميعهم، لا تستمعا إلى أي كلمة يقولها. إن روحه نجسة، ويرى أشياء نجسة حوله».

دق الجرس للرهبان على نحو جنائزي. رسم كبير المضيفين شارة الصليب ونهض.

وقال: «يجب أن أذهب، فقد بدأت آلام المسيح. يجب أن نحمل الصليب معه. يمكنكما أن تستريحا الليلة، لا بد أنكما متعبان بعد رحلتكما لكن عند صلاة الفجر غداً.

«هؤلاء الخنازير»، تمتم زوربا بين أسنانه عندما ذهب الراهب، «خنازير! كذابون! بغال».

«ما المشكلة يا زوربا؟ هل أخبرك زخريا بشيء؟».

«لا تهتم يا معلّم، فليذهب إلى الجحيم! إذا لم يريدوا أن يوقعوا، فإني سأريهم من أنا»

توجهنا إلى الغرفة التي خصصوها لنا، حيث توجد في الزاوية أيقونة تمثّل العذراء وهي تضغط خدّها على ابنها، وعيناها الكبيرتان مغرورقتان بالدموع.

هزّ زوربا رأسه الكبير.

«أتعرف لماذا تبكي يا معلّم ؟».

«لا»

«لأنها تستطيع أن ترى ماذا يجري. لو كنت رسّام أيقونات، لرسمت العذراء بدون عينين أو أذنين أو أنف. لأني سأكون آسفاً عليها»

تمددنا على الأسرّة الصلبة. وفاحت من الأعمدة الخشبية رائحة السرو. وهبت من النافذة المفتوحة نسائم الربيع اللطيفة، مشبّعة بشذى الأزهار. وبين الحين والآخر، كانت تنطلق من الفناء ألحان حزينة مثل هبات الريح. وبدأ عندليب يغرد بالقرب من النافذة، ثم انطلق عندليب آخر على مسافة قصيرة منه، وآخر وآخر كان الليل يفيض بالحبّ.

لم يغمض لي جفن. فقد امتزج تغريد العندليب بنحيب المسيح، وحاولت أن أتسلّق الجلجلة من خلال أشجار البرتقال المزهرة، متبعاً بقع الدم الكبيرة. وفي الليلة الربيعية الزرقاء أمكنني أن أرى حبات العرق الباردة تلمع فوق جسد المسيح الشاحب، المتعثر. تمكنت من رؤية يديه وهما ممدودتان وترتعشان، كما لو كان متسولاً يستجدي المارة أن ينصتوا له. وأخذ سكان الجليل الفقراء يجرون وراءه، ويصيحون: «هوساناه! هوساناه!». وكانوا يحملون سعف النخيل في أيديهم ويمدون عباءاتهم أمام قدميه. نظر إلى الذين يحبهم، ومع ذلك لم يدرك أحد أعماق يأسه. فهو وحده كان يعرف أنه ذاهب إلى حتفه. وتحت النجوم، باكياً وصامتاً، راح يواسي قلبه الإنساني المسكين الذي كان مفعماً بالخوف:

«أنت أيضاً يا قلبي ستسقط إلى الأرض وتموت مثل حبة القمح. لا تخف. وإذا لم تخف فكيف يمكنك أن تخرج ثمرة؟ كيف يمكنك أن تطعم الرجال الذين يموتون جوعاً؟».

لكن، في قرارة نفسه، كان قلبه البشري واهناً ويرتعش، ولم يكن يرغب في أن يموت. . .

كانت الغابة المحيطة بالدير تصدح بتغريد العنادل، الذي انبعث تغريدها من وسط الأوراق الخضراء الرطبة، تتحدث كلها عن الحبّ والأحاسيس. ومعها ارتعش، وتورم وبكى قلب البشرية المسكين.

وشيئاً فشيئاً، وبرقة وهدوء، ومع آلام المسيح وتغريد العندليب، ولجت عالم النوم، تماماً كما ستلج الروح الجنة.

لم يمض عليّ أقل من ساعة من النوم عندما أفقت مجفلاً، مذعوراً.

«زوربا!» صحت، «هل سمعت؟ طلقة مسدس!».

كان زوَربا جالساً على سريره يدخّن سيكارة.

«لا تقلق يا معلّم»، قال، وهو لا يزال يحاول أن يكتم غيظه، «دعهم يصفون حساباتهم، هؤلاء الخنازير!».

تعالت صيحات من الممر. سمعنا صوت نعال ثقيلة تنجر على الأرض، وأبواب تفتح وتغلق، وصوت أنين من بعيد وكأن أحداً قد أصيب بجروح.

قفزت من سريري وفتحت الباب. برز أمامي رجل عجوز هرم ومدّ ذراعيه، حائلاً دون خروجي. كان يعتمر قبعة مدببة بيضاء وقميصاً أبيض يصل إلى أسفل ركبتيه.

«من أنت؟».

«الأسقف. . » أجاب، وصوته يرتعش.

كدت أنفجر ضحكاً. أسقف؟ أين حليه، وحلّة القداس الذهبية والقلنسوة والصليب، والأحجار المزيفة المتعددة الألوان. كانت هذه هي المرّة الأولى التي أرى فيها أسقفا برداء النوم.

«ماذا كانت طلقة المسدس تلك، يا صاحب السيادة؟».

«لا أعرف، لا أعرف. . . » قال متلعثماً، وهو يدفعني برفق لأدخل إلى الغرفة.

انفجر زوربا ضاحكاً من سريره وقال:

«هل أنت خائف، أيها الأب الصغير؟» ادخل، وامكث معنا إننا لسنا راهبين، فلا تقلق.

«زوربا»، قلت بصوت منخفض، «ألا تستطيع أن تبدي قليلاً من الاحترام، فهذا هو الأسقف»

«همم! في قميص النوم، لا يوجد أحد اسمه أسقف! هيا ادخل، أيها العجوز!»

نهض، وأمسك الأسقف من ذراعه وشده إلى الغرفة، وأغلق الباب وراءه. أخذ قنينة من شراب الرم من حقيبته، وملأ كأساً صغيراً.

«اشرب يا صديقي»

جرع الرجل العجوز الكأس وسرعان ما استعاد وعيه. جلس على سريري واستند إلى الحائط.

قلت: «أيها الأب الموقّر، ماذا كانت طلقة المسدس تلك؟»

«لا أعرف، يا بني. كنت أعمل حتى منتصف الليل وأويت إلى الفراش، عندما سمعت في الباب المجاور في غرفة الأب ديميتريوس .».

«آه! آه!» قال زوربا ضاحكاً، «كنت محقاً إذن يا زخريا! هؤلاء الخنازير القذرة!».

أطرق الأسقف برأسه.

«لا بد أنه لصّ أو شيء من هذا القبيل»، غمغم.

توقفت الجلبة في الممر، وغرق الدير في الصمت ثانية. نظر الأسقف إليّ بعينيه الخائفتين اللطيفتين، وكأنه يتضرع، سألني:

«هل أنت نعسان يا بني؟».

أحسبت أنه لم يكن يريد أن يغادر الغرفة ويعود إلى غرفته ويمكث فيها وحده. كان خائفاً.

«لا»، أجبت، «لا أشعر بالنعاس مطلقاً. ابق هنا قليلاً».

بدأنا نتحدث. كان زوربا يتكئ على وسادته ويلفّ سيكارة.

«يبدو أنك شاب مثقف»، قال لي الأسقف، «هنا لا أستطيع ان أجد أحداً أتحدث معه. لديّ ثلاث نظريات تساعدني كي أجعل حياتي معقولة، أريد أن أحدثك عنها يا بني».

لم ينتظر ردي بل أخذ يتكلم على الفور:

«هذه هي نظريتي الأولى: إن شكل الأزهار يؤثر على لونها، ولونها يؤثّر على صفاتها وخصائصها. لذلك فإن لكلّ زهرة تأثير مختلف على جسم الإنسان، ومنها على روحه. لذلك يجب أن نكون حذرين جداً عندما نجتاز حقلاً تكون الأزهار فيه قد بدأت تتبرعم وتزهر».

توقف وكأنه كان ينتظر أن يسمع رأيي. رأيت الرجل العجوز يطوف في الحقل، يبحث في الأرض، بحماس سري، عن أشكال وألوان الأزهار. لا بد أن العجوز المسكين يرتعش بهلع صوفي. فبالنسبة له، لا بد أن الحقول تكون في الربيع مأهولة بالشياطين والملائكة بألوان عديدة.

«أما نظريتي الثانية فهي: إن لكلّ فكرة تأثيراً حقيقياً أيضاً على وجود حقيقي. إنها موجودة حقاً، وهي لا تعوم في الهواء غير مرئية ـ بل لها جسم حقيقي، عينان، فم، قدمان، معدة. وهي إما ذكر أو أنثى، ولذلك فهي تجري خلف الرجال أو النساء، حسب الحال». لذلك يقول الإنجيل: «لقد تجسدت الكلمة. . ».

نظر إليّ ثانية بعينين قلقتين.

«أما نظريتي الثالثة»، تابع قوله بسرعة، لأنه لم يحتمل صمتي، «فهي: يوجد

شيء من الخلود حتى في حياتنا العابرة، ويصعب علينا أن نكتشفه وحدنا إن همومنا اليومية تجعلنا نضّل طريقنا ولا يستطيع إلا عدد قليل من الناس، زهرة الإنسانية، أن يعيشوا إلى الأبد حتى في حياتهم العابرة على هذه الأرض. وبما أن الآخرين سيضيعون جميعهم، فقد أنزل الله عليهم رحمته وبعث لهم الدين ـ لهذا أصبح الناس قادرين على العيش في الخلود أيضاً».

أنهى كلامه وكان من الواضح أنه أحس بالارتياح لأنه تكلم. رفع عينيه الصغيرتين الخاليتين من الأهداب، وابتسم لي، وكأنه يريد أن يقول: «إني أعطيك كلّ ما لديّ! هيا خذه».

تأثرت عندما رأيت هذا الرجل العجوز يقدم لي، وهو لا يكاد يعرفني، خلاصة حياته الحافلة بالعمل.

اغرورقت عيناه بالدموع.

«ما رأيك بنظرياتي؟» سألني، وأمسك يدي وراح ينظر في عيني. أحسست أنه ينتظر ردي ليعرف إن كانت حياته ذات فائدة أم لا

كنت أعرف ذلك، بالإضافة إلى الحقيقة، يوجد واجب آخر أكثر أهمية وأكثر إنسانية بكثير

أجبت: «هذه النظريات قد تنقذ الكثير من الأرواح».

أشرق وجه الأسقف. كان هذا تبريراً لحياته برمتها.

«شكراً يا بني»، همس، وهو يضغط على يدي بحنان.

قفز زوربا من زاويته وصاح:

«لديّ نظرية رابعة»

نظرت إليه بقلق. التفت إليه الأسقف.

«تكلّم يا بني، وليبارك الرب بنظريتك! ما هي؟».

«اثنان واثنان أربعة!» قال زوربا بجدية.

نظر إليه الأسقف مندهشاً.

«ونظرية خامسة، أيها العجوز»، تابع زوربا كلامه، «أن اثنين واثنين ليس أربعة. هيا يا صديقي، خذ وقتك! اختر أيهما».

«لا أفهم ما تقصده»، تلعثم الرجل العجوز، ملقياً نظرات متسائلة نحوي.

«ولا أنا!» قال زوربا، وانفجر ضاحكاً.

التفت إلى الرجل العجوز المسكين، الذي شعر بالخجل، وغيّرت الموضوع وسألته:

«ما هي دراساتك الخاصة هنا في الدير، ايها الأب الموقّر؟».

«إني أنسخ مخطوطات الدير القديمة يا بني، وبدأت مؤخراً أجمع الألقاب المقدّسة التي تستخدمها الكنيسة المتعلقة بالأمّ العذراء».

تنهد وقال:

«أنا عجوز، ولا أستطيع أن أفعل شيئاً آخر. أشعر بالراحة عندما أسجل جميع الألفاظ المبهرجة عن العذراء، وبذلك أنسى مآسي هذا العالم».

أسند مرفقه على الوسادة، وأغمض عينيه وبدأ يدمدم وكأنه يهذي:

«وردة خالدة، أرض مثمرة، كرمة، ينبوع، مصدر المعجزات، سلمّ إلى السماء، جسر، إنقاذ فرقاطة من الغرق، ملاذ للراحة، مفتاح الجنة، فجر، نور أبدي، برق، عمود من نار، قائد منيع، برج لا يتزحزح، قلعة حصينة، عزاء، بهجة، عصا تقود العميان، أمّ لليتامى، طاولة، طعام، سلام، صفاء، عطر، مأدبة، حليب وعسل. .».

«إن الفتى العجوز يهذي. .»، قال زوربا بصوت منخفض، «سأغطّيه لكي لا يبرد».

نهض، وألقى ببطانية على الأسقف وسوّى وسادته.

«لقد سمعت أنه يوجد سبعة وسبعون نوعاً من الجنون»، قال، «ولا بد أن هذا النوع هو الثامن والسبعون».

كان النهار قد بدأ يطلع. وسمعنا صوت قرع مزهر.

مددت رأسي خارج النافذة. وفي بشائر الفجر الأولى رأيت راهباً نحيفاً، على رأسه قلنسوة سوداء طويلة، يسير ببطء حول الفناء يقرع بمطرقة صغيرة على قطعة طويلة من الخشب تصدر أصواتاً موسيقية رائعة. ودوى صدى المزهر في هواء الصباح، مليئ بالحلاوة وبالإيقاع والسحر توقّفت العنادل عن التغريد، وأخذت طيور أخرى تزقزق على غصون الأشجار.

أخذت أصغي مفتوناً بأنغام المزهر الجميلة. وتساءلت كيف يستطيع الإيقاع السامي، حتى في زمن من الانحطاط، أن يحافظ على شكل الحياة الخارجي، رائعاً ومفعماً بالنبل. إنّ الروح تغادر، لكنّها تغادر مثواها الواسع الذي تنشئه ببطء، والمعقّد مثل صدفة البحر.

قلت في نفسي إن الكاتدرائيات الرائعة التي تراها في المدن الملحدة الصاخبة ما هي إلا مثل هذه الأصداف الفارغة. وحوش تعود إلى ما قبل التاريخ لم يتبق منها سوى هيكل عظمي، برته الشمس والمطر.

قُرع باب غرفتنا. وتناهى إلينا صوت كبير المضيفين المتزلف.

«هيا، استيقظوا الآن أيها الأخوة، حان وقت صلاة الفجر».

قفز زوربا واقفاً وصاح:

«ماذا كانت طلقة المسدس في الليل؟»

انتظر لحظة. ساد صمت. لا بد أن الراهب قد سمعه من وراء الباب، لأننا سمعنا تنفّسه الصاخب.

أخذ زوربا يدق الأرض بقدمه بغضب.

«ماذا كانت تلك الطلقة من المسدس؟» أعاد السؤال غاضباً.

سمعنا وقع خطوات تبتعد مسرعة. وبقفزة واحدة، أصبح زوربا عند الباب. فتحه وصاح:

«أيها الأوغاد القذرون!.أيها الأوغاد!» وبصق نحو الراهب الذي أخذ يبتعد، «القساوسة، الراهبات، الرهبان، والشمامسة، جميعكم، هذا كل ما تساوونه!» وبصق ثانية.

قلت: «هيا نذهب. إن رائحة الدم تفوح في الهواء».

«لو كان دماً فقط»، قال زوربا بحنق، «إن أردت أن تذهب إلى صلاة الفجر يا معلّم، فاذهب وحدك. أما أنا فسأبحث في المكان لعلي أكتشف شيئاً».

«دعنَا نذهب!» قلت ثانية باشمئزاز، «وأرجو ألا تحشر أنفك في ما لا يعنيك!».

«هذا تماماً ما أريد دائما أن أفعله!» قال زوربا.

فكّر لحظة، ثم ابتسم بخبث وقال:

«إن الشيطان يصنع لنا معروفاً. أظن أنه يجلب لنا الأشياء يا معلّم. هل تدرك ماذا يمكن أن يكلف ذلك الدير يا معلم، طلقة مسدس كهذه؟ سبعة آلاف!».

نزل إلى الفناء. كانت روائح الأزهار، وجمال الصباح، ونعيم البالِ والصفاء السماوي تعبق في أرجاء المكان. كان زخريا في انتظارنا. جرى وأمسك ذراع زوربا.

«أخ كانافارو»، همس بصوت مرتعش، «تعال، يجب أن نذهب».

«ماذا كانت طلقة المسدس تلك؟ لقد قتلوا أحداً، أليس كذلك؟ هيا، تكلّم وإلا لويت عنقك!».

ارتجفت ذقن الراهب. تطلع حواليه. كان الفناء مهجوراً، والغرف مغلقة، وكان يتناهى صوت موسيقى من باب الكنيسة المفتوح.

«اتبعاني»، تمتم، «سدوم وعمورة!».

تسللنا من جانب الحائط، ووصلنا إلى الجانب الآخر من الفناء وخرجنا من الحديقة. وعلى بعد مائة ياردة أو ما يقارب ذلك كانت تقبع مقبرة الدير دخلنا إليها.

وطأنا فوق القبور، ودفع زخريا باب الكنيسة الصغير ودخلنا وراءه. في الوسط، كان جسد مغطّى برداء راهب مسجى على حصيرة. وكانت هناك شمعة موقدة عند قدم الجثة وعند رأسها

انحنيت لأنظر إلى الجسد.

«الراهب الشاب!» دمدمت ورعشة تسري في جسدي، «تلميذ الأب ديميتريوس الشاب الأشقر!»

على باب المصلّى، تلألأ الملاك ميخائيل بجناحيه الممدودين الواسعين شاهراً سيفاً، ومنتعلاً صندلاً أحمر

«أيها الملاك ميخائيل!» صاح الراهب، «أرسل ناراً وكبريتاً وأحرقهم جميعهم! أيها الملاك ميخائيل، افعل شيئاً. اترك أيقونتك! اشهر سيفك واضربهم! ألم تسمع طلقة المسدس؟».

«من قتله؟ من هو؟ ديميتريوس؟ تكلّم يا لحية العنزة العجوز!»

انسل الراهب من قبضة زوربا وجثا أمام الملاك. لبث ساكناً للحظات، وجهه مرفوع، عيناه جاحظتان من وجهه، وفمه فاغر، يحدق في الأيقونة.

وفجأة قفز فرحاً

«سأحرقهم!» قال بصوت حازم، «لقد تحرك الملاك، لقد رأيته، أشار لي!»

اقترب من الأيقونة وألصق شفتيه الغليظتين بسيف الملاك.

«تبارك الله!» قال، «إني أشعر بالراحة!».

أمسك زوربا بالراهب ثانية وقال:

«تعال إلى هنا يا زخريا. الآن ستفعل ما سأطلبه منك»، ثم التفت إليّ.

«أعطني النقود يا معلم، سأوقّع الأوراق بنفسي. جميعهم ذئاب هناك، وأنت حمل، إنهم سيلتهمونك. اترك لي الأمر. لا تقلق، سأضع الخنازير السمينة حيث أريد. سنغادر هذا المكان في منتصف النهار والغابة في جيبنا. هيا يا زخريا».

وانسلا باتجاه الدير. ذهبت لأتمشى تحت أشجار الصنوبر.

كانت الشمس في كبد السماء، والندى يلمع فوق الأوراق. وطار شحرور أمامي إلى غصن شجرة كمثرى بريّة، حرّك ذيله، وفتح منقاره، ونظر إليّ وأطلق صافرتين أو ثلاث بطريقة هازئة.

ومن خَلال أشجار الصنوبر رأيت الفناء والرهبان يخرجون في صف طويل، رؤوسهم محنية، وقلنسواتهم السوداء مرخية على أكتافهم. لقد انتهت الصلاة، وكانوا في طريقهم إلى قاعة الطعام.

«واحسرتاه» قلت لنفسي، «أن يكون هذا التقشّف وهذا النبل بدون روح».

أحسست بالتعب، فلم أنم جيداً. تمددت على العشب. كانت تهب نسائم البنفسج البرّي وإكليل الجبل والميرميّة. وكانت الحشرات لا تكّف عن الطنين وتنقضّ جائعة على الأزهار كالقراصنة وتمتص رحيق العسل. ومن بعيد، كانت الجبال متألقة، شفّافة، هادئة، مثل سديم متنقل في ضوء الشمس المحترق.

أغمضت عيني، ساكناً. تملكني سرور غامض هادئ ـ وكأن تلك المعجزة الخضراء حولي هي الجنة نفسها، وكأن كلّ تلك النضارة، والغبطة، والنشوة التي كنت أشعر بها هي الله. فالله يغيّر مظهره في كل ثانية. طوبى للإنسان الذي يستطيع أن يعرفه في جميع أشكاله. فذات لحظة، هو كأس من الماء العذب، وفي لحظة أخرى هو ابنك الذي يثب في حضنك أو امرأة فاتنة، أو ربما كان مجرد رحلة صباحية على القدمين.

وشيئاً فشيئاً، أصبح كلّ شيء حولي، دون أن يغير شكله، حلماً. كنت سعيداً. لقد اتحدت الأرض والجنة وأضحت واحدة. زهرة في الحقول في

وسطها نقطة كبيرة من العسل: هكذا بدت لي الحياة. وبدت روحي نحلة برّية تنتهبها

أفقت فجأة من هذه الحالة من السعادة. سمعت وقع خطوات وهمسات خلفي. وفي اللحظة نفسها، تناهى إليّ صوت سعيد يصيح:

«يا معلم، هيا نذهب».

وقف زوربا أمامي وعيناه الصغيرتان تتلألآن بوميض شيطاني.

«هل نذهب؟» قلت بارتياح، «هل تم كلّ شيء؟»

«كلّ شيء! »قال زوربا، وهو ينقر على الطرف العلوي من سترته

«ها هي الغابة. أرجو أن تجلب لنا حظاً جيداً! وها هي السبعة آلاف التي كلّفتنا إياها لولا!»

أخرج لفافة من الأوراق النقدية من جيبه الداخلي، وقال:

«خذها إني أسدد ديوني. لم أعد أخجل من النظر في وجهك مباشرة بعد الآن. الجوارب النسائية، وحقائب اليد، والعطور، ومظلة السيدة بوبولينا الملونة كلها في الحساب. حتى بندق الببغاء! والحلاوة التي جلبتها لك أيضاً!».

قلت: «احتفظ بها لنفسك يا زوربا. إنها هدية مني. إذهب وأوقد شمعة للعذراء التي ارتكبت إثماً بحقها».

التفت زوربا. كان الأب زخريا قادماً نحونا بثوبه القذر الذي بدأ يتحول لونه إلى الأخضر، وحذائه المهترئ. كان يقود دابتينا.

أراه زوربا لفافة النقود.

«سنتقاسمها، أيها الأب يوسف»، قال، «تستطيع أن تشتري مئتي باوند من سمك القدّ بنفسك بهذا المبلغ حتى تطفح بها بطنك. حتى تشبع منها وتتوقف عن تناول سمك القدّ إلى الأبد! هيا، افتح كفّك!».

تناول الراهب الأوراق النقدية القذرة وخبأها وقال: «سأشتري قليلاً من الكيروسين».

خفض زوربا صوته وهمس في أذن الراهب العجوز.

«في الظلام، عندما تنام جميع العنزات المسنة الملتحية، وعندما تهب ريح جيدة»، قال يوصيه، «رشّ الحيطان من جميع الجوانب. وكل ما تحتاجه هو أن تبلل خرقة أو قطعة قطن صغيرة، أيّ شيء، ثم أشعلها. هل فهمت الفكرة؟».

أخذ الراهب يرتجف.

«لا ترتجف هكذا! لقد أمرك كبير الملائكة بأن تفعل ذلك، أليس كذلك؟ ضع ثقتك في الكاز وبنعمة الله! حظاً طيباً لك».

امتطينا الدابتين، وألقيت نظرة أخيرة على الدير.

«هل عرفت أيّ شيء يا زوربا؟» سألته.

«عن طلقة المسدس؟ لا تتعب رأسك بذلك يا معلم. إن زخريا العجوز على حق: سدوم وعمورة! لقد قتل ديميتريوس الراهب الصغير اللطيف. هذا كلّ ما في الأمر».

«ديميتريوس؟ لماذا؟».

«لا تحاول أن تبحث في الأمر كثيراً يا معلم، كلها قذارة ونتانة».

التفت نحو الدير. كان الرهبان يخرجون من قاعة الطعام، رؤوسهم محنية، أيديهم متصالبة، متجهين إلى غرفهم ليحبسوا أنفسهم فيها.

وصاح: «امنحوني لعناتكم، أيها الآباء المقدسون!».

[19]

كانت بوبولينا أول من صادفناه عندما وصلنا إلى شاطئنا في تلك الليلة. كانت جالسة متكورة على نفسها أمام الكوخ. عندما أضيء المصباح ورأيت وجهها ذعرت. وسألتها: «ما خطبك يا سيدة هورتينس؟ هل أنت مريضة؟».

فمنذ اللحظة التي برق في رأسها ذلك الأمل العظيم بالزواج، فقدت غانيتنا العجوز كلّ سحرها الغامض والمريب، وبدأت تحاول أن تمحو ماضيها وتنزع عنها الريش المبهرج الذي كانت تتزين به والذي غنمته من الباشوات والبيكوات ... ولم تكن تطمح في أن تكون أكثر من مجرد امرأة جدية، محترمة، طيبة، عفيفة. فلم تعد تتبرج، أو تتزين على نحو فاضح، بل أصبحت تظهر على حقيقتها: امرأة مسكينة تريد أن تتزوج.

لم يفتح زوربا فمه، بل أخذ يمسد بعصبية شاربيه المصبوغين حديثاً. انحنى، أشعل الموقد، ووضع قليلاً من الماء ليصنع القهوة.

«إنك فظ!» قالت مغنية الملهى العجوز فجأة بصوت أجش.

رفع زوربا رأسه ونظر إليها. رقت عيناه. إذ لم يسمع في حياته امرأة تقول له شيئاً بنبرة عذبة تغمر كيانه بالكامل. فقد تغرقه دمعة واحدة من امرأة.

لم يقل شيئاً: وضع القهوة والسكر في ركوة القهوة وراح يحركها.

«لماذا تجعلني أنتظر طويلاً حتى تتزوجني؟» قال للغانية العجوز، «فلم أعد أجرؤ على أن أظهر في القرية. إني أشعر بالعار! بالخزي! سأقتل نفسي»

كنت متكئاً إلى السرير مستنداً بمرفقي إلى الوسادة، مستمتعاً برؤية هذا المشهد الهزلي المؤثّر.

«لماذا لم تحضر أكاليل أزهار الزواج؟».

أحسّ زوربا بيد بوبولينا المكتنزة الصغيرة فوق ركبته.

كانت هذه الركبة الشبر الأخير من الأرض الصلبة التي تتعلق بها هذه المرأة المسكينة ذات الألف سفينة وسفينة التي تحطمت على شواطئها.

بدا أن زوربا فهم ذلك ورق قلبه، لكنه لم يفه بكلمة واحدة. صبّ القهوة في ثلاثة فناجين.

«لماذا لم تحضر أكاليل أزهار الزواج يا عزيزي؟» كرّرت بصوت مرتعش.

«لا توجد عندهم أكاليل جيدة في كنديا»، أجاب زوربا بخشونة.

وزع علينا الفناجين وجلس القرفصاء في زاوية.

وتابع كلامه: «لقد كتبت إلى أحدهم في أثينا ليرسلها إليّ. وطلبت أيضاً بعض الشموع البيضاء، وقليلاً من اللوز الملبّس بالسكر بنكهة الشوكولاته».

فيما راح يتكلّم، أخذ خياله يتقد، ولمعت عيناه، ومثل شاعر في تجسده الثاني، ارتقى زوربا إلى الأعالي حيث امتزج الخيال والواقع وأصبحا يشبهان بعضهما، كأختين. كان يجلس القرفصاء، يرشف قهوته محدثاً صوتاً عالياً. أشعل سيكارة ثانية. كان يوماً جيداً ـ فقد أصبح عقد الغابة في جيبه وسدد ديونه. كان سعيداً، وترك العنان لنفسه.

«يجب أن يكون زواجنا يا محبوبتي بوبولينا فخماً. انتظري حتى تري ثوب الزفاف الذي طلبته لك. لهذا السبب مكثت طويلاً في كنديا، يا حبيبتي. لقد أرسلت في طلب مصممين مشهورين من أثينا وقلت لهما: انظرا! لا يوجد للمرأة التي سأتزوّجها مثيل في الشرق أو في الغرب! كانت الملكة التي اعترفت بها القوى العظمى الأربع؛ وهي أرملة الآن، وقد ماتت القوى العظمى، ووافقت على أن أكون زوجاً لها. لذلك لا أريد أن يكون لثوب زفافها مثيل أيضاً. يجب

أن يكون مصنوعاً كله من الحرير، وموشى باللآلئ والنجوم الذهبية! لكن المصممين احتجا وقالا: لكنه سيكون في غاية الروعة! وسيعمى جميع الضيوف من روعته! فقلت: لا يهم. وماذا في ذلك؟ ما دامت حبيبتي سعيدة».

كانت السيدة هورتينس تنصت له، مستندة إلى الحائط. ارتسمت ابتسامة مليئة وعريضة على وجهها المترهل المتغضن، وكاد الوشاح الأحمر الملتف حول رقبتها يتمزق.

«أريد أن أهمس في أذنك»، قالت لزوربا، وألقت إليه نظرة مليئة بالهيام.

غمزني زوربا وانحنى إلى الأمام.

«لقد أحضرت لك شيئاً الليلة»، همست زوجته المقبلة، تكاد أن تدخل لسانها الصغير في أذنه المشعرة الكبيرة.

وسحبت من صدارتها منديلاً معقوداً من إحدى زواياه وقدمته إلى زوربا.

تناول المنديل الصغير بين أصبعين ووضعه على ركبته اليمنى، ثم استدار نحو الباب، وراح ينظر إلى البحر

«ألن تفك العقدة يا زوربا؟» سألته، « لا يبدو أنك مستعجل!»

«دعيني أحتسِ قهوتي وأدخّن سيكارتي أولاً»، أجاب، «ليس من الضروري أن أفكها، فأنا أعرف ما بداخلها».

«فكها، فكها»، راحت الغانية العجوز تتوسل إليه.

«سأنهي سيكارتي أولاً، أقول لك!»

ورماني بنظرة عتاب، وكأنه يقول: «هذا ذنبك!»

كان يدخّن ببطء، ينفث الدخان من فتحتي أنفه، وهو يمعن النظر في البحر

قال: «ستهب رياح شرقية غداً. لقد تغيّر الطقس. ستمتلئ الأشجار، وكذلك نهود الصبايا ـ ستفيض وتكاد تندلق من صدارياتهن! آه! إن الربيع مخادع! إنه من اختراع الشيطان!».

توقف عن الكلام. ثم أضاف بعد لحظات قليلة:

«هل لاحظت يا معلّم أن كلّ شيء جيد في هذا العالم من اختراع الشيطان؟ النساء الجميلات والربيع والخنزير المشوي والنبيذ. إنها من صنع الشيطان جميعها! أما الله فقد صنع الرهبان والصوم وشاي البابونج والنساء القبيحات. أوووف!».

وعندما قال ذلك ألقى نظرة عنيفة على السيدة هورتينس المسكينة، التي كانت متكومة في زاوية، تنصت إليه.

«زوربا! زوربا!» كانت تناديه متوسلة في كل ثانية.

لكنه أشعل سيكارة أخرى وراح يتأمّل البحر ثانية، ثم قال:

«في الربيع، تكون للشيطان السيادة. ترخى الأحزمة، وتفك أزرار البلوزات، وتطلق السيدات المسنات تنهيداتهن. أبعدي يديك يا بوبولينا!».

«زوربا! زوربا!» قالت المخلوقة العجوز المسكينة متوسلة. انحنت لتلتقط المنديل وحشرته بيده.

ألقى سيكارته، أمسك العقدة وحلّها.

فتح يده ونظر.

«ما هذا يا سيدة بوبولينا؟» سألها باشمئزاز.

«خاتمان، خاتمان صغيران يا كنزي. خاتما الزواج»، همست الغانية العجوز، وجسدها كله يرتعش، «ويوجد معنا هنا، بارك الله به، والليلة جميلة، ويبدو أن الرياح الشرقية في طريقها إلينا، والله يراقبنا، هيا اخطبني يا زوربا!».

نظر زوربا إليّ، ثم إلى السيدة هورتينس، ثم إلى الخواتم. عدد كبير من الشياطين كان يتصارع في داخله، وللحظات لم يتغلب أحدها على الآخر نظرت المرأة التعيسة إليه بذعر.

«زوربا! . . زوربا حبيبي!» قالت وهي تهدل مثل حمامة.

استويت في جلستي على سريري ورحت أراقبهما. لقد أردت أن أرى أي درب مفتوح سيتخذه زوربا؟

فجأة هزّ رأسه. لقد حسم أمره واتخذ قراره. أصبح وجهه رائقاً، وصفّق بيديه وقفز

«هيا لنخرج من هنا!» صاح، «تحت النجوم حتى يرانا الله نفسه! احمل الخاتمين يا معلّم. هلّ تستطيع أن تنشد؟»

«لا» أجبت مسروراً، «لكن هذا لا يهمّ». قفزت من السرير وساعدت السيدة الطيبة على النهوض.

«حسنا، أستطيع. لقد نسيت أن أخبرك أنني كنت أغني في جوقة الكنيسة. كنت أتبع الكاهن في حفلات الزفاف والعماد والجنائز وإلى ما هنالك. لقد حفظت جميع أناشيد الكنيسة عن ظهر قلب. هيا، يا بوبوليناي، تعالي، ارفعي شراعك يا نرقاطتي الفرنسية الصغيرة، وتعالي إلى يميني!».

من بين شياطين زوربا جميعهم، انتصر المهرّج الطيب القلب. فقد شعر زوربا بالأسف على الغانية العجوز، وتمزق قلبه عندما رأى عينيها الذاويتين مثبتتين عليه بقلق.

«فليأخذني الشيطان»، تمتم وهو يحسم أمره، «لا زلت أستطيع أن أمنح المتعة والبهجة لجنس حواء! تعالي!».

خرج مسرعاً إلى الشاطئ، وأمسك ذراع السيدة هورتينس، أعطاني الخاتمين، والتفت إلى البحر وبدأ يهتف:

«فليتبارك إلهنا في العالم دائماً، آمين!».

استدار إليّ وقال:

«قم بعملك يا معلّم!».

«لا يوجد شيء اسمه معلّم هذه الليلة»، قلت، «أنا عرابك».

«حسناً، إذاً حافظ على عقلك. عندما أقول كلمة برافو! ضع الخاتمين في أصبعينا».

بدأ يغني ثانية بنهيقه العميق:

«لعبد الله، أليكسيس، ولأمة الله، هورتينس، يخطب الآن أحدهما الآخر، نرجو منك الرحمة يا إلهنا»

«يا رب ارحمنا! يارب ارحمنا!» قلت بصوت متهدج، وأنا أغالب بصعوبة الضحك والدموع.

«لا تزال توجد أشياء كثيرة»، قال زوربا، «اللعنة إن كنت أتذكرها كلها! على أي حالٍ، دعنا ننهِ الجزء الحسّاس!».

قفز في الهواء مثل سمكة شبوط وصاح:

«برافو! برافو!» ومدّ يديه الكبيرتين نحوي.

«الآن مدّي يدك الصغيرة»، قال لخطيبته، فمدّت يدها المكتنزة، التي تبدو عليها آثار الغسيل والأعمال المنزلية، مرتعشة نحوي.

ألبستهما الخاتمين فيما أخذ زوربا، الذي لم يعد يتمالك نفسه، يتكلم مثل أحد الدراويش:

« تمت خطبة عبد الله أليكسيس على أمة الله هورتينس، باسم الله، الأب والابن وروح القدس، آمين! لقد تمت خطبة أمة الله هورتينس على عبد الله أليكسيس!».

«جيد. لقد تمت الخطبة حتى السنة القادمة! تعالي يا حبيبتي، دعيني أقبلك أول قبلة محترمة وشرعية في حياتك!».

لكن السيدة هورتينس انهارت وسقطت إلى الأرض، وأمسكت ساقيّ زوربا بإحكام وراحت تبكي. هزّ زوربا رأسه مشفقاً، وغمغم: «هؤلاء النساء المسكينات! يا لهن من حمقاوات!»

انتصبت السيدة هورتينس واقفة، نفضت تنورتها ونتحت ذراعيها.

قال زوربا: «إنه يوم الصوم الكبير. اليوم يوم الثلاثاء، أبعدي يديك عني! إنه يوم الصوم الكبير».

«حبيبي زوربا. . »، تلعثمت بصوت ضعيف.

«اصبري يا عزيزتي. انتظري حتى عيد الفصح عندها سنأكل قليلاً من اللحم، ونكسر بيضاً أحمر معاً. الآن حان الوقت لتعودي إلى البيت. ماذا سيقول الناس إذا شاهدوك تتسكّعين هنا في هذا الوقت من الليل؟».

كانت نظرة بوبولينا تشي بالتوسل.

«لا! لا! إنه الصوم الكبير!» قال زوربا، «ليس قبل عيد الفصح! هيا تعالي معنا».

انحنى عليّ وهمس في أذني: «لا تتركنا وحدنا، بحق السماء! فأنا لست في المزاج!».

سرنا في الطريق إلى القرية. كانت السماء متألقة، ونكهة البحر تغلفنا، وطيور الليل تنعق فوقنا. وأمسكت الغانية العجوز ذراع زوربا الذي أخذ يجرها. كانت سعيدة ومنزعجة في الوقت ذاته.

وأخيراً، دخلت الميناء الذي طالما اشتاقت إلى دخوله. فقد أمضت حياتها كلها وهي تغني وترقص. كانت قد أمضت وقتاً ممتعاً في الماضي، وكانت تسخر من النساء المحصنات المحتشمات. لكن قلبها كان ممزقاً. وعندما كانت تمر، كانت تتضوع منها رائحة عطر ووجهها مطلي بطبقة سميكة من الألوان والمساحيق، مرتدية ثياباً مبهرجة وصارخة في شوارع الإسكندرية وبيروت والقسطنطينية، وعندما كانت ترى نساء يُرضعن أطفالهن، كان خدر يسري في ثدييها فيزداد حجمهما، وتنتصب حلمتاهما، تطلبان فماً صغيراً يشبه فم طفل أيضاً وكان حلمها طوال حياتها يقول لها: «تزوجي، تزوجي، أنجبي طفلاً. . »، لكنها لم تكن تخبر أحداً بالرغبات المؤلمة هذه. أما الآن،

والحمد لله، رغم أنه جاء متأخراً، لكنه ليس متأخراً كثيراً، بدأت تدخل الميناء المنتظر، مع أن الأمواج قد أصابته بالشلل ووجهت إليه ضربات قوية.

وبين الحين والآخر، كانت ترفع عينيها وتنظر بطرف عينها إلى هذا الأبله العظيم الذي يسير إلى جانبها، وتقول في نفسها: «إنه ليس باشا غنياً يعتمر طربوشاً ذا شرابة ذهبية، وليس ابن بيك وسيماً، لكنه، والحمد لله، أفضل من لا شيء! إنه سيصبح زوجي! زوجي إلى الأبد، الحمد والشكر لله!»

أحس زوربا أنها تتكئ على ذراعه بثقلها وهو يشدها متلهفاً ليوصلها إلى القرية ويتخلص منها استمرت المرأة المسكينة تتعثر في مشيتها فوق الأحجار في الطريق. ومع أن أظافر أصابع قدميها كادت تُقتلع، والدمامل تؤلمها، لم تقل كلمة واحدة. لماذا تتكلّم؟ لماذا تتذمر؟ فكلّ شيء رائع، الحمد لله!

اجتزنا شجرة تين سيدتنا الشابة وحديقة الأرملة، وعندما بدأت تظهر بيوت القرية توقفنا.

«طابت ليلتك، يا كنزي»، قالت الغانية العجوز بتودد، ووقفت على أطراف أصابع قدميها لتصل إلى شفتي خطيبها.

لكن زوربا لم ينحن.

«دعني أقبّل قدميك يا حبيبي!» قالت بوبولينا، وهي على وشك أن تجثو على قدميها.

«لا! لا!» قال زوربا محتجاً، فقد تأثر وضمها إليه وقال: «يجب أن أقبّل قدميك، يا حبيبتي! أنا يجب أن. لكني لا أشعر بالرغبة الآن! طابت ليلتك!»

تركناها وسرنا صامتين في الطريق، نتنشق الهواء المعطّر. وفجأة التفت إليّ زوربا وقال: «ما الذي يجب أن نفعله يا معلّم؟ أنضحك؟ أم نبكي؟ هيا انصحني».

لم أحر جواباً. كنت أشعر بضيق في حنجرتي أنا أيضاً، ولم أعرف سبب ذلك: أكان ذلك من الضحك أم من البكاء؟

«يا معلّم»، قال زوربا فجأة، «من هو ذلك الإله النذل الذي لا يدع للمرأة مجالاً للشكوى؟ لقد سمعت شيئاً عنه، أعرف ذلك. يبدو أنه كان يصبغ لحيته أيضاً، ويرسم أوشام قلوب وسهاماً وأسهماً وغانيات على ذراعيه؛ كان يتنكر ويقولون إنه يتحوّل إلى ثور، إلى بجعة، إلى كبش، ومع الاحتفاظ بوقاره إلى حمار. في الواقع، أي شيء ترغب فيه الساقطات. ماذا كان اسمه؟».

«لا بد أنك تتحدث عن زيوس. ماذا جعلك تفكّر به؟».

«فليحفظ الله روحه»، قال زوربا، ورفع ذراعيه إلى السماء.

«لقد مرّ في أوقات عصيبة! لا بدّ أنه عانى كل ذلك! شهيد عظيم، صدقني يا معلّم! إنك تبتلع كلّ ما تقوله له كتبك، لكن فكّر للحظة من هم الذين يؤلّفون الكتب! بوووف! الكثير من مديري المدارس. ماذا يعرفون عن النساء، أو عن الرجال الذين يجرون وراء النساء؟ لا شيء!».

«لماذا لا تكتب كتاباً يا زوربا؟ وتوضّح لنا فيه جميع ألغاز العالم؟» قلت هازئاً.

«لم لا؟ لسبب بسيط وهو أنني أعيش جميع هذه الألغاز كما تسمونها، ولا يوجد لديّ وقت للكتابة. ففي بعض الأحيان حرب، وفي أحيان أخرى نساء، وفي بعض الأحيان نبيذ، وفي أحيان أخرى السنتوري: فأين أجد وقتاً لأحرك فيه قلماً بائساً؟ بهذه الطريقة يقع العمل بين أيدي الناسخين! في الواقع لا يوجد لدى جميع الذين يعيشون ألغاز الحياة وقتاً ليكتبوا، والذين لديهم الوقت لا يعيشون هذه الألغاز! هل تفهم قصدي؟».

«لنعد إلى موضوعنا! ماذا عن زيوس؟».

«آه! ذلك الشاب المسكين»، تنهد زوربا، «وأنا الوحيد الذي أعرف مقدار معاناته. بالطبع كان يحب النساء، لكن ليس بالطريقة التي تظنها أيها الكاتب!

لا، على الإطلاق! كان يشفق عليهن! فقد كان يفهم ما كنّ يعانينه وضحّى بنفسه من أجلهن! فعندما كان يرى، في أي جحر من جحور الأرض المهجورة، عانساً تذوي من الرغبة والأسف، أو زوجة شابة جميلة، أو حتى لو لم تكن جميلة على الإطلاق، حتى لو كانت شبيهة بوحش ـ وكان زوجها مسافراً ولا يغمض لها جفن، كان هذا الشاب الطيب برسم شارة الصليب، يغيّر ثيابه، ويتخذ الهيئة التي تحلم بها المرأة ويذهب إلى غرفتها».

«ولم يكن يأبه مطلقاً بالنساء اللاتي يرغبن في المداعبة فقط. لا! فقد كان في معظم الأحيان منهك القوى: يمكنك أن تفهم ذلك. فكيف يمكن لأي شخص أن يرضى بكلّ تلك المعزات؟ آه! زيوس! العنزة العجوز الحمقاء. في مرات كثيرة لم يكن يبالي، لم يكن يشعر بأنه على ما يرام. ألم تر في حياتك تيساً بعد أن سافد عدّة عنزات؟ فاللعاب يسيل من فمه، وتصبح عيناه ضبابيتين، ويسيل المخاط من أنفه، ويسعل قليلاً، وبل يستطيع أن يقف على أقدامه إلا بصعوبة. حسناً، لا بد أن زيوس العجوز المسكين كان غالباً ما يمر في حالة الحزن تلك»

«وعندما يعود عند الفجر إلى البيت، يقول: يا إلهي! متي سأنعم بليلة واحدة من الراحة؟ إني أتهالك! ولا يتوقف عن تجفيف اللعاب من فمه».

«لكنه فجأة يسمع تنهيدة: ففي بقعة ما على الأرض ثمة امرأة رمت غطاء فراشها، وخرجت إلى الشرفة، وهي تكاد تكون عارية تماماً، وتنهداتها تكفي لتسيير أشرعة سفينة! ويشعر زيوس العجوز بالشفقة عليها ويقول وهو يئنّ: يا للجحيم! يجب أن أهبط ثانية! فهناك امرأة تشكو من قدرها! يجب أن أذهب وأواسيها!».

«واستمر الأمر على هذا المنوال حتى أفرغته النساء تماماً. ولم يعد يستطيع أن يحرّك ظهره، وبدأ يتقيأ، وأصيب بالشلل ومات. وعندما جاء وريثه المسيح، ورأى ما آل إليه الرجل العجوز من أحوال بائسة، صاح: احذر النساء!».

«تستطيع أن تضحك يا معلم. لكن إذا حقق الله ـ الشيطان النجاح لمغامرتنا الصغيرة هذه، وهو أمر يبدو لي مستحيلاً. لكن ومع ذلك ـ هل تعرف أي نوع من المكاتب سأفتح؟ مكتب زواج. نعم. هذا صحيح» «وكالة زيوس للزواج!. وعندها ستتاح لجميع النساء المسكينات اللاتي لم يعثرن على زوج فرصة أخرى. العانسات، النساء اللاتي لا توجد لديهن مسحة من الجمال، وذوات السيقان المقوسة، والحولاوات، والحدباوات، والعرجاوات، وسأستقبلهن جميعهن في صالة صغيرة علقت على جدرانها مجموعة من صور شبان جميلين، سأقول لهن: اخترن من تحببن أيتها السيدات، اخترن من تردن وسأجعله زوجاً لكن، ثم سأبحث عن أيّ شاب يشبه الصورة قليلاً، وأجعله يرتدي الثياب ذاتها، وأعطيه قليلاً من المال وأقول له: شارع كذا وكذا، رقم كذا وكذا، اذهب وقابل الآنسة كذا ـ وضاجعها بشبق وقوة. لا تقرف، فأنا سأدفع لك لقاء ذلك. نم معها. قل لها جميع الكلمات الرقيقة التي يقولها الرجل للمرأة، الكلمات التي لم تسمعها تلك المخلوقة المسكينة في حياتها. أقسم أنك ستتزوّجها. أعط هذه المسكينة التعيسة قليلاً من المتعة، تلك المتعة التي تحصل عليها النعاج، بل وحتى السلاحف وأم أربع وأربعين.

«أما إذا صادفت نعجة عجوزاً مثل بوبولينا ـ بارك الله فيها ـ ولم يوافق أحد على أن يواسيها، مهما دفعت له، حسناً. فإني سأرسم شارة الصليب، وسآخذ، أنا مدير مكتب الزواج، الأمر على عاتقي شخصياً! عندها ستسمع جميع الحمقى العجائز في المنطقة يقولون: انظروا إلى هذا! يا له من ماجن عجوز! أليست له عينان يرى بهما أو أنف يشم به؟ نعم، أنتم يا معشر الحمير، لي عينان! نعم، أيها الثرثارون ذوو القلوب المتحجرة، لي أنف! لكن لي قلب أيضاً، وإني أشعر بالحزن عليها! وإذا كان لك قلب، فلا فائدة ترجى من جميع العيون والأنوف في العالم. عندما يحين الوقت، فلن يكون لها أهمية على الإطلاق!».

«وعندما أصبح عنيناً تماماً، بعد أن أكون قد انغمست في الملذات كلها، وبعد أن أموت، سيفتح لي القديس بطرس، بوابُ الجنة، بابَ الجنة ويقول لي: ادخل يا زوربا، أيها الشاب المسكين، ادخل يا زوربا الشهيد. اذهب واستلق إلى جانب رفيقك، زيوس! استرح، أيها العجوز، فقد أديت واجبك على الأرض على أكمل وجه! إني أباركك».

واصل زوربا كلامه. وكانت مخيلته تنصب له فخاخاً يقع فيها، وبدأ يؤمن بالقصص التي يرويها. وما إن مررنا بجانب شجرة تين سيدتنا الشابة، حتى أطلق تنهيدة، ثم مدّ ذراعيه وكأنه سيقسم قسماً وقال:

«لا تخافي يا بوبولينا، أيتها المجنونة المتعفنة العجوز. لا تخافي! فأنا لن أتركك دون أن أواسيك! فربما تخلت عنك القوى العظمى الأربع، وهجرك الشباب، وحتى الله نفسه، لكنني، أنا زوربا، لن أتركك!».

عندما عدنا إلى الشاطئ كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل، وبدأت الرياح تشتد. ومن هناك، من أفريقيا، هبّت رياح النوتوس، الرياح الجنوبية الدافئة التي تجعل الأشجار، والكرمة، وأثداء كريت تفيض وتمتلئ. ودبت الحياة في الجزيرة كلها، وهي ترقد إلى جانب الماء، تحت أنسام هذه الريح الدافئة التي تجعل النسغ يجري في العروق. ويمتزج زيوس وزوربا والريح الجنوبية معاً، وفي الليل رأيت وجه ذكر عظيم بوضوح شديد، لحيته سوداء وشعره يقطر زيتاً، ينحني ويضغط بشفتيه الحمراوين الحارتين على شفتي السيدة هورتينس، الأرض.

[20]

فور عودتنا إلى الكوخ، أوينا إلى الفراش. أخذ زوربا يفرك يديه راضياً.

«كان هذا يوماً جيداً يا معلّم. وأظنك ستسألني ماذا أقصد بـ جيد؟ أقصد أنه يوماً كاملاً فقط تذكّر كنا هذا الصباح في الدير الذي يبعد بضعة أميال، أوقفنا ئيس الدير عند حده ـ لا بد أنه يلعننا! وبعد أن عدنا إلى كوخنا، وجدنا السيدة بوبولينا وخطبتها. بالمناسبة، انظر إلى الخاتم. إنه من الذهب الخالص. قالت إنه لديها جنيهان استرلينيان ذهبيان كان الأدميرال الإنكليزي قد قدمهما لها في نهاية القرن الماضي. وقالت إنها تحتفظ بهما لتكاليف جنازتها والآن ـ فليحفظها الزمن ويكون رؤوفاً بها ـ تذهب وتعطيهما إلى الصائغ ليصنع منهما خاتمين. يا له من لغز لعين ذاك الذي يكتنف الإنسان!».

قلت: «هيا نم يا زوربا! استرخ! فهذا يكفي ليوم واحد، وغداً أمامنا مراسم رسمية: إقامة أول برج للكابل. لقد طلبت من بابا ستيفانوس أن يأتي».

«أحسنت صنعاً يا معلّم. إنها ليست فكرة سيئة. دع ذلك القسيس ذا اللحية التي تشبه لحية العنزة يأتِ، وليأتِ جميع وجهاء القرية أيضاً سنوزع شموعاً صغيرة ويمكنهم أن يشعلوها. إن هذه الأشياء تولّد انطباعاً جيداً، وستفيد عملنا لا تكترث بما أقوم به، فلديّ ربي وشيطاني الخاصان بي. أما الآخرون

أخذ يضحك. لم يغمض له جفن. كان عقله في حالة دائمة من الغليان.

ثم قال بعد قليل: «آه، يا جدّي، رحم الله عظامك! كان ماجناً أيضاً، مثلي

تماماً». ومع ذلك فقد ذهب ذلك النذل العجوز إلى الأراضي المقدسة وأصبح «حاجاً». يا إلهي لا أعرف لماذا! وعندما عاد إلى القرية، جاء إليه أحد ندمائه، لصّ حقير، لم يفعل شيئاً محترماً طوال حياته، وقال له: حسناً يا صديقي، ألم تجلب لي قطعة من الصليب المقدّس من الأراضي المقدسة؟ ماذا تقصد أنني لم أجلب لك شيئاً؟ قال جدّي العجوز الماكر، هل تظن أني نسيتك؟ تعال إلى بيتي اللّيلة وأحضر الكاهن معك ليقدم مباركته وسأعطيها لك. واجلب معك خنزيراً صغيراً مشوياً أيضاً، وقليلاً من النبيذ، ليجلب لنا حظاً جيداً!

«في ذلك المساء ذهب جدّي إلى البيت وقطع قطعة صغيرة من الخشب من إطار البابِ المتآكل الذي نخره الدود، لا تزيد على حجم حبة أرزّ، ولفّها جيداً في قطعة قماش، وصبّ عليها قطرة أو قطرتين من الزيت وانتظر ثم جاء ذلك الشخص برفقة الكاهن، وهو يحمل خنزيراً مشوياً ونبيذاً. وأخرج الكاهن مبخرته ومنحهما بركاته. وأدى جدّي مراسم تسليم قطعة الخشب الثمينة، ثم انهالوا على الخنزير الصغير. حسناً، صدقني يا معلّم، فقد انحنى الرجل وجثا على ركبتيه أمام قطعة الخشب الصغيرة تلك، ووضعها حول رقبته، ومنذ ذلك اليوم أصبح رجلاً مختلفاً تماماً. لقد تغيّر بالكامل. فصعد إلى الجبال، وانضم إلى الثوار الأرموتليين والكليفتيين، وساعد في حرق قرى تركية. وكان يجري غير هياب بين زخّات الرصاص. فلماذا يخاف؟ فهو يحمل قطعة من الصليب المقدّس من الأراضي المقدسة ـ ولا يستطيع الرصاص أن يخترق جسده».

انفجر زوربا ضاحكاً، وقال:

«إن الفكرة هي كلّ شيء. فإن كنت مؤمناً فإن قطعة خشب صغيرة جداً مقطوعة من باب قديم تصبح أثراً مقدّسا. وإذا لم يكن لديك إيمان، فالصليب المقدّس كله يصبح إطار باب قديم بالنسبة لك».

لقد أعجبت بهذا الرجل الذي يعمل عقله بهذه الثقة والجرأة، والذي تشعل روحه، حيثما لمستها، ناراً.

«هل ذهبت إلى الحرب يا زوربا؟».

«كيف لي أن أعرف؟»سأل متجهماً، «لا أتذكر. أيّ حرب؟».

«أقصد هل ناضلت في سبيل بلدك؟».

«ألا تستطيع أن تتحدّث عن شيء آخر؟ فقد انتهى كلّ هذا الهراء وأصبح نسياً منسياً».

«هل تسمي ذلك هراء يا زوربا. ألا تخجل من نفسك؟ أهكذا تتكلّم عن بلدك؟».

رفع زوربا رأسه ونظر إليّ. كنت مستلقياً على سريري أيضاً، وكان مصباح الزيت يحترق فوق رأسي. رمقني بحدّة لبرهة، ثم أمسك شاربيه بشدة وقال:

«إن ما تقوله ينم عن غباء تام، وهذا ما أتوقعه من مدير مدرسة. وقد أندم يا معلّم، عن كلّ الأشياء الجيدة التي كلمتك عنها إذا سمحت لي أن أقول هذا لك».

«ماذا؟» قلت محتجاً، «إني أفهم الأشياء، يا زوربا، لا تنس ذلك».

«نعم، إنك تفهم بعقلك. إنك تقول: هذا صحيح، وهذا خطأ؛ هذا على حق، وهذا ليس على حق والآخرون مخطئون. لكن إلى أين يقودنا ذلك؟ فعندما تتكلم أراقب ذراعيك وصدرك. حسناً، ماذا تفعل؟ إنها صامتة. إنها لا تفوه بكلمة واحدة. وكأنه لا يوجد فيها قطرة دم واحدة. حسناً، بماذا تظن أنك تفهم؟ برأسك؟ هه!».

«هيا أجبني يا زوربا؛ لا تحاول أن تراوغ وتبتعد عن السؤال!» قلت لإثارته، «إني واثق أنك لا تهتم كثيراً ببلدك، أليس كذلك؟».

استشاط غضباً وضرب قبضته على جدار علبة الكيروسين وصاح:

«إن الرجل الذي تراه أمامك، كان قد طرّز صورة القديسة صوفيا بشعر رأسه يا معلّم، وعلقها كتعويذة. نعم، يا معلّم، هذا ما فعلته، وقد طرّزته بهاتين

الكفين الكبيرتين، وبهذا الشعر أيضاً الذي كان أسود فاحماً آنذاك. ورحت أطوف جبال مقدونيا مع بافلوس ميلاس. كنت شاباً ضخماً آنذاك، أطول من هذا الكوخ، بتنّورتي، وطربوشي الأحمر، وتعويذاتي الفضية، وتمائمي، وسيفي، وعلب الخراطيش والمسدسات. كان الفولاذ والفضة يغطياني. وعندما أسير، كانت تسمع أصوات قعقعة وصلصلة وكأن كتيبة من الجيش تسير في الشارع! انظر هنا! هنا! وانظر هناك!».

فتح قميصه وخفض سرواله، وقال:

«قرّب الضوء!».

قرّبت المصباح من الجسد النحيف الذي لوحته الشمس. كان جسده بكلّ هذه الندب وآثار الجروح العميقة، وعلامات السيف والرصاص، أشبه بمصفاة.

«الآن أنظر إلى الجانب الآخر!».

استدار وأراني ظهره.

«لا يوجد خدش واحد في الظهر، أترى. هل تفهم؟ الآن أعد المصباح».

«هراء!» صاح غاضباً، «إنه شيء يبعث على الاشمئزاز! متى سيكون الرجال رجالاً حقاً، حسب رأيك؟ إننا نرتدي بناطيلاً وقمصاناً وياقات وقبعات، ومع ذلك فإن الكثير منا بغال وثعالب وذئاب وخنازير. نقول إننا خُلقنا على صورة الله! من، نحن؟ إني أبصق على حماقتنا!».

بدا أن ذكريات مرعبة قد بدأت تنهال على ذاكرته وأخذ يزداد حنقاً وإثارة. وانبعثت كلمات غير مفهومة من بين أسنانه المجوّفة المهتزة.

نهض والتقط دورق ماء وجرع منه جرعة طويلة، وبدا أنه انتعش وازداد هدوءاً، وقال:

«في أي مكان تلمسني، أصرخ. إن جسمي مثخن بالجروح ومليء بالندب. ماذا يعني كلّ هذا الهراء عن النساء؟ عندما اكتشفت أنني أصبحت رجلاً حقاً،

لم أكن ألتفت وأنظر إليهن. كنت ألمسهن للحظة، هكذا، أثناء عبوري، مثل ديك، ثم أواصل طريقي وأقول لنفسي: تلك النموس القذرة. إنهن يردن أن يمصصن دمي ويجردنني من قوتي. خسئن! فلتذهب النساء إلى الجحيم!».

«ثم حملت بندقيتي وانطلقت! صعدت إلى الجبال وانضممت إلى الثوار. وذات يوم، عند الغسق، وصلت إلى قرية بلغارية واختبأت في إسطبل. بيت كاهن بلغاري كان هو نفسه مقاتلاً شرساً عديم الرحمة. ففي الليل كان يخلع رداءه الكهنوتي، ويرتدي ثياب راع، ويحمل بندقيته وينطلق إلى القرى اليونانية المجاورة. وكان يعود قبل الفجر، يقطر بالوحل والدم، ويهرع إلى الكنيسة لأداء صلاة القداس للمؤمنين. وكان قبل بضعة أيام قد قتل مدير مدرسة يونانياً وهو نائم في سريره. لذلك دخلت إلى إسطبل هذا الكاهن وكمنت له. وفي المساء، جاء الكاهن إلى الإسطبل ليعلف الدواب. ألقيت بنفسي عليه وذبحته مثل نعجة، وقطعت أذنيه ووضعتهما في جيبي. كنت أجمع آذان البلغاريين، لذلك أخذت أذنيّ الكاهن ولذت بالفرار».

«وبعد أيام قليلة، عدت إلى القرية ثانية متظاهراً بأني بائع متجول. كان ذلك في منتصف النهار. كنت قد تركت سلاحي في الجبال وهبطت لأشتري خبزاً وملحاً وأحذية للآخرين. ثم صادفت خمسة أطفال صغار أمام أحد البيوت ـ كانوا جميعهم يرتدون ثياباً سوداء، حفاة، يمسك أحدهم يد الآخر ويستجدون. ثلاث فتيات وصبيان، أكبرهم في العاشرة من عمره، وأصغرهم طفل رضيع. وكانت الفتاة الكبرى تحمل الطفل الصغير بين ذراعيها، تقبّله وتداعبه كي لا يبكي. توجهت إليهم وأنا لا أعرف لماذا فعلت ذلك، ولكني أظن أنه كان إلهاماً ربانياً».

«أطفال من أنتم؟ سألتهم بالبلغارية».

«رفع الصبي الأكبر رأسه الصغير وأجاب: »

«نحن أولاد الكاهن. لقد ذبح أبي في ذلك اليوم في الإسطبل».

«اغرورقت عيناي بالدموع وبدأت الأرض تدور بي مثل حجر الرحى. استندت إلى الحائط، فتوقّف إحساسي بالدوران».

قلت لهم: «تعالوا يا أطفال. اقتربوا مني».

«أخرجت محفظتي. كانت مليئة بالليرات والمجيديات التركية».

جثوت على ركبتي ودلقت النقود على الأرض.

وصحت: «هيا، خذوها! خذوها! خذوها!».

«ارتمى الأطفال على الأرض وجمعوا النقود»

«إنها لكم! إنها لكم! قلت، خذوها كلها!».

«ثم تركت لهم السلة المليئة بما كنت قد اشتريته».

«كلّ هذا لكم أيضاً. خذوها كلها!».

«وذهبت. غادرت القرية، فتحت قميصي، وأمسكت القدّيسة صوفيا التي طرزتها ومزقتها إرباً، وألقيت بها ورحت أجري بقدر ما أستطيع».

«ولا أزال أركض»

استند زوربا إلى الحائط، واستدار إليّ وقال:

«وهكذا نجوت».

«نجوت من بلدك؟».

«نعم، من بلدي»، قال بصوت هادئ حازم، ثم أردف بعد لحظة:

«لقد نجوت من بلدي، ومن الكهنة، ومن المال. بدأت أغربل الأشياء، أخذت أغربل الأشياء أكثر وأكثر. لقد خففت العبء عن كاهلي بهذه الطريقة. لقد ـ كيف يمكنني أن أقول لك؟ ـ وجدت خلاصي، لقد أصبحت رجلاً».

توهجت عينا زوربا، وضحك فمه الكبير بسعادة. وبعد أن لبث صامتاً للحظة أو لحظتين، عاد يتكلم. كان قلبه يفيض، ولم يكن بوسعه أن يتحكم به.

«في فترة ما كنت أقول: هذا الرجل تركي، أو بلغاري، أو يوناني. لقد فعلت أشياء في سبيل بلدي يقف لها شعر رأسك يا معلّم. لقد ذبحت أناساً. أحرقت قرى. نهبت واغتصبت نساء. أبدت عائلات بكاملها. لماذا؟ لأنهم كانوا بلغاريين أو أتراكاً. باه! فلتذهب إلى الجحيم أيها الخنزير! كنت أقول لنفسي أحياناً. فلتذهب إلى الجحيم في الحال أيها الحمار. أما الآن فإني أقول إن هذا الشخص رجل طيب، وذاك نغل. ومن الممكن أن يكونوا يونانيين أو بلغاريين أو أتراكاً، لا يهمّ. هل هو طيب؟ أم هو سيئ؟ هذا كلّ ما أسأله الآن. وعندما يتقدم بي العمر ـ أقسم على آخر كسرة خبز آكلها ـ فإني أرغب في ألا أسأل حتى هذا السؤال! فسواء كان الشخص جيداً أم سيئاً، فإني أحزن عليه، عليهم جميعاً إن مجرد رؤية رجل تجعلني أتمزق من الداخل، حتى لو تظاهرت بأني لا أعيره أي اهتمام! وأقول ها هو، الشيطان المسكين، وهو أيضاً يأكل ويشرب ويضاجع وهو خائف، كان من يكن: فلديه ربه وشيطانه بالطريقة ذاتها، وسيموت وسيستلقي متصلباً كاللوح تحت الأرض ويكون نهباً للديدان، بالطريقة ذاتها. الشيطان المسكين! كلنا أخوة! كلنا سنكون طعاماً للديدان!».

«أما إذا كانت امرأة. آه! عندها أشعر برغبة شديدة في البكاء! إن حضرتك يا معلّم لا تكّف عن استثارتي والقول لي إني مولع بالنساء. ولماذا لا أكون مولعاً بهن، عندما يكن جميعهن مخلوقات ضعيفة لا يعرفن ماذا يفعلن ويستسلمن ما إن تلمس نهودهن .».

«ذات يوم ذهبت إلى قرية بلغارية أخرى. ورآني عجوز متوحش ـ كان مختار القرية ـ وأخبر الآخرين بوجودي فحاصروا البيت الذي كنت أقيم فيه. تسللت إلى الشرفة وزحفت من سطح إلى آخر كان القمر في السماء، ورحت أقفز من شرفة إلى شرفة مثل قطّة. لكنهم رأوا ظلّي، فصعدوا إلى الأسطحة وأخذوا يطلقون عليّ النار. وماذا فعلت عندها؟ هبطت إلى فناء أحد البيوت وشاهدت امرأة بلغارية في السرير نهضت وهي في قميص نومها. رأتني وفتحت فمها

لتصرخ، لكني مددت ذراعيّ وهمست: الرحمة! الرحمة! لا تصرخي! وأمسكت ثدييها   شحب لونها وكاد يغشى عليها».

«ادخل، قالت بصوت خفيض، ادخل كي لا يرانا أحد. . .».

«دخلت، أمسكت يدي وسألتني: هل أنت يوناني؟ فقلت: نعم، يوناني. لا تشي بي وطوقتها من خصرها. لم تفه بكلمة واحدة. رافقتها إلى السرير، وارتعش قلبي متعة. إنك كلب يا زوربا، قلت لنفسي، توجد امرأة لك. هذا ما تعنيه الإنسانية بالنسبة لي! من هي؟ بلغارية؟ يونانية؟ أو من بابوا غينيا الجديدة؟ هذا آخر شيء يهمني! إنها إنسان، وإنسان له فم، وثديان، ويمكنها أن تحبّ. ألا تخجل من القتل؟ تباً! أيها الخنزير».

«هكذا قلت لنفسي عندما كنت معها، أشاركها دفئها. لكن هل تركني بلدي، ذلك الكلبة المجنون، في سلام، أتظن ذلك؟ واختفيت صباح اليوم التالي بالثياب التي أعطتني إياها المرأة البلغارية. كانت أرملة. أخرجت ثياب زوجها المرحوم من الصندوق وأعطتني إياها، وأمسكتني من ركبتي وتوسلت إليّ بأن أعود إليها».

«نعم، نعم، لقد عدت.   في الليلة التالية. كنت وطنياً آنذاك، بالطبع ـ وحشاً برّياً. عدت وأنا أحمل صفيحة بنزين وأضرمت النار في القرية. لا بد أنها احترقت مع الآخرين، تلك المسكينة البائسة. كان اسمها لودميلا»

تنهّد زوربا. أشعل سيكارة، أخذ منها نَفَساً أو نفسين ثم رماها.

«تقول بلدي؟   أتصدّق كلّ ذلك الهراء الذي تقوله لك كتبك. . .؟ حسناً، يجب أن تصدقني أنا. فما دامت هناك بلاد، فسيبقى الإنسان كالحيوان، حيوان شرس.   لكني نجوت من كلّ ذلك، حمداً لله! لقد انتهى الأمر بالنسبة لي! وماذا عنك؟».

لم أجب. شعرت بأني أحسد هذا الرجل. لقد عاش بلحمه ودمه ـ يحارب، يقتل، يقبّل ـ حاولت أن أتعلم كل ذلك بواسطة القلم والحبر فقط. جميع

المشاكل التي حاولت أن أحلّها نقطة نقطة في عزلتي وأنا ملتصق بالكرسي، أما هذا الرجل فقد حلّ مشاكله في هواء الجبال النقي بسيفه.

أغمضت عينيّ، لا عزاء لي.

«هل نمت يا معلّم ؟» سألني زوربا، مغتاظاً، «وأنا أحدثك مثل أحمق!».

استلقى وهو يدمدم متذمراً، وسرعان ما سمعته يشخر.

لم يغمض لي جفن طوال الليل. في تلك الليلة، ملأ عندليب سمعناه لأول مرة، عزلتنا بحزن لا يطاق، وفجأة أحسست بالدموع تسيل على خديّ.

كدت أشعر بالاختناق. نهضت عند الفجر ورحت أحدق في الأرض والبحر من خلال باب كوخنا. بدا لي أن العالم قد تغير بين عشية وضحاها. كانت تجثم أمامي على الرمل، أجمة صغيرة من الأشواك، كانت البارحة باهتة اللون، وكستها أزهار بيضاء صغيرة، وعبقت في الهواء رائحة عطر حلوة من أشجار الليمون والبرتقال المزهرة. تمشيت بضع خطوات. لم أستطع أن أرى الكثير من هذه المعجزة التي لا تني تتكرر.

وفجأة سمعت صيحة سعيدة خلفي. فقد نهض زوربا وهرع إلى الباب، شبه عار. لقد تأثر هو أيضاً بهذا المشهد الربيعي الرائع.

سأل مذهولاً: «ما هذه؟ هذه المعجزة يا معلّم، ذلك اللون الأزرق المؤثّر، ماذا يسمونه؟ البحر؟ البحر؟ وما هذه التي تكتسي حلة من السندس؟ الأرض؟ من هو الفنان الذي صنعها؟ إني أراها لأول مرّة يا معلّم، أقسم لك!».

كانت عيناه تطفحان بالبهجة.

صحت: «زوربا، هل جننت؟».

«علام تضحك؟ ألا ترى؟ هناك سحر وراء كلّ هذا يا معلّم»

خرج مسرعاً، وأخذ يرقص ويتدحرج فوق العشب مثل مهرة في الربيع.

أشرقت الشمس ومددت راحتيّ كي أتدفأ النسغ المنبثق .. الصدر

الممتلئ. والروح تتفتّح براعمها مثل شجرة أيضاً. تستطيع أن تشعر أن الجسد والروح قد جبلا من المادة ذاتها.

نهض زوربا ثانية، وشعره مليء بالندى والتراب. صاح: «بسرعة يا معلّم، سنرتدي ثيابنا ونتأنق! سنحصل على البركات. لن يمض وقت طويل حتى يصل الكاهن وأعيان القرية. وإذا وجدونا نتدحرج فوق العشب هكذا، فإن ذلك سيكون عاراً على الشركة! هيا لنرتدِ قمصاننا ونضع ربطات عنق! لتبدُ علائم الجدّية على وجوهنا! ولا يهم إن لم يكن لك رأس، فيجب أن تضع القبعة الملائمة. ! إنه عالم مجنون!»

ارتدينا ثيابنا، ووصل العمال، وجاء وراءهم مباشرة أعيان القرية.

«احسم أمرك يا معلّم، لا خداع اليوم! يجب ألا نبدو مضحكين»

سار بابا ستيفانوس في المقدمة بردائه الكهنوتي القذر وبجيوبه العميقة التي يلقي فيها أي شيء يُقدم له أثناء مراسم العماد والدفن والزواج: زبيب وحلويات وفطائر جبن وخيار وقطع لحم وسكاكر. كلّ شيء. وفي الليل، تضع زوجته، باباديا العجوز، نظاراتها وتفرزها جميعها، ولا تتوقف عن القضم منها وهي تفعل ذلك.

وجاء وراء بابا ستيفانوس الأعيان: كوندومانوليو، صاحب المقهى، الذي يتباهى بأنه يعرف العالم لأنه سافر إلى كانيا ورأى الأمير جورج بأم عينه؛ ثم العمّ أناغنوستي، هادئاً وباسماً، يرتدي قميصاً عريضاً ذا كمين، ناصع البياض؛ ومدير المدرسة، متجهماً عابساً يحمل عصاه؛ وأخيراً مافراندوني، بخطوته الثقيلة البطيئة، الذي كان يضع منديلاً أسود على رأسه، ويرتدي قميصاً أسود وحذاء أسود، وحيانا بفتور شديد. كان متعالياً ويقطر مرارة. وقف وحده بعيداً، وظهره إلى البحر.

قال زوربا بطريقة رسمية: «باسم إلهنا السيد المسيح»، وتوجه إلى رأس الموكب وتبعه الجميع بورع شديد.

لقد استيقظت في صدر ذلك الفلاح ذكريات عمرها قرون عديدة من المراسم السحرية. وتسمرت عيونهم جميعهم على الكاهن وكأنهم يتوقعون أنه سيواجه أو سيطرد قوى غير مرئية. فمنذ آلاف السنين كان المشعوذ يرفع ذراعيه، ويرشّ الهواء بمائه المقدّس، يتمتم كلمات غامضة كليّة القدرة، فتهرب الشياطين الشريرة بينما تخرج الأرواح الطيبة من الماء واليابسة والهواء لتساعد البشرية.

وصلنا إلى الحفرة التي كنا قد حفرناها بالقرب من البحر لتركيب أول برج من السكة المعلقة. رفع الرجال جذع شجرة صنوبر ووضعوها في الحفرة. وضع بابا ستيفانوس شاله، وأخذ مبخرته، وهو يحدّق في جذع الشجرة طوال الوقت، وبدأ يرتل نشيد طرد الأرواح:

«فلتقم على صخرة صلبة، لا تهزها ريح ولا تجرفها مياه. آمين.»

«آمين!» زأر زوربا، ورسم شارة الصليب.

«آمين!»دمدم الأعيان.

«آمين!» قال العمّال أخيراً.

«فليبارك الله في عملكما ويمنحكما ثروة إبراهيم وإسحاق»، تابع كاهن القرية، ودّس زوربا في يده ورقة من فئة المائة دراخما.

«إني أبارككما»، قال الكاهن، راضياً كل الرضى.

عدنا إلى الكوخ، حيث قدم لهم زوربا النبيذ والمقبلات ـ أخطبوط مشوي، سمك مقلي، فول منقوع، وزيتون. وعندما التهموا كلّ شيء، عاد المسؤولون إلى بيوتهم. وهكذا انتهى الاحتفال السحري.

«سارت الأمور على خير ما يرام»، قال زوربا وهو يفرك يديه.

خلع ثيابه، وارتدى ثياب العمل وحمل معولاً

«هيا»، صاح في الرجال، «ارسموا شارة الصليب وواصلوا العمل!».

لم يرفع زوربا رأسه ثانية طوال النهار.

كان العمّال يحفرون حفرة عند كلّ خمسين ياردة، ويثبتون فيها عموداً، حتى قمّة الهضبة. وكان زوربا يقيس، ويحسب ويصدر الأوامر. لم يأكل، أو يدخّن، أو يأخذ استراحة طوال النهار. كان مستغرقاً تماماً في العمل.

«كلّ ذلك لأننا لا ننهي عملنا، ونقوم بأنصاف الأشياء»، كان يقول لي غالباً، «إن قول أنصاف الأشياء، وأن نكون نصف طيبين، هو الذي جعل العالم في هذه الفوضى التي نراها اليوم. بربك افعل الأشياء بتمامها! دّق المسمار جيداً وستفوز! إن الله يكره أنصاف الشياطين عشر أضعاف ما يكره كبير الشياطين!

في ذلك المساء، عندما عاد من العمل، استلقى على الزمل، منهكاً.

قال: «سأنام هنا. سأنتظر بزوغ الفجر، ثم نعود إلى العمل ثانية. سأبدأ في تشغيل نوبات ليلية».

«لماذا كلّ هذه العجلة يا زوربا؟».

تردّد لحظة.

«لماذا؟ حسناً، أريد أن أرى إن كنت قد وجدت المنحدر الصحيح أم لا وإذا لم أجده، فقد قضي علينا. ألا ترى هذا يا معلّم؟».

أكل بسرعة وبشراهة، وسرعان ما بدأ الشاطئ يردد صدى شخيره. أما أنا فقد ظللت مستيقظاً لفترة طويلة، أراقب النجوم تتحرك عبر السماء. رأيت السماء كلها تغيّر موقعها ـ وغيّرت قشرة جمجمتي، مثل قبة مرصد، موقعها أيضاً مع مجموعات النجوم. «راقب حركة النجوم كما لو كنت تدور معها. .» هذه الجملة التي قالها ماركوس أوريليوس ملأت قلبي بالانسجام والوئام.

[21]

جاء عيد الفصح. تأنق زوربا في ثيابه، وارتدى جورباً صوفياً أرجوانياً داكناً قال إن إحدى صديقاته في مقدونيا كانت قد حاكته له. وراح يصعد ويهبط رابية قريبة من شاطئنا بقلق. يضع يده على حاجبيه السميكين ليظلل عينيه، ويراقب طريق القرية.

«لقد تأخرت، الفقمة العجوز. لقد تأخرت، هذه الفاسقة. لقد تأخرت تلك الراية الرثة العجوز».

طارت فراشة، انبثقت حديثاً من شرنقتها، وحاولت أن تحط فوق شارب زوربا، لكنها دغدغته، نخر فطارت الفراشة بهدوء واختفت في أشعة الشمس.

كنّا ننتظر السيدة هورتينس في ذلك اليوم لنحتفل بعيد الفصح. كنا قد شوينا حملاً على السفود، ومددنا قطعة من القماش الأبيض على الرمل ولوّنا عدداً من البيضات. بشيء من المزاح، وبشيء من الجدية، كنا قد قرّرنا أن نعدّ لها استقبالاً حافلاً. ففي ذلك الشاطئ المعزول، كانت هذه الغانية البدينة القصيرة، التي تتضوع منها رائحة العطر، النتنة بعض الشيء، تمارس علينا سحراً غريباً دائماً. فعندما تغيب، كنا نفتقد شيئاً ما ـ رائحة تشبه الكولونيا، مشية تتهادى فيها وتتقافز مثل بطّة، صوتاً أجشّ بعض الشيء، وعينين باهتتين.

لذلك كنا قد قطعنا أغصاناً من نبات الغار والآس، وأقمنا قوس نصر كي تمرّ من تحته. وعلقنا فوق القوس أربعة أعلام ـ إنكليزي وفرنسي وإيطالي وروسي ـ وفي الوسط، وفي الأعلى، علقنا ملاءة بيضاء طويلة عليها خطوط زرقاء. وبما

أننا لم نكن أدميرالين، ولا يوجد لدينا مدفع، فقد استعرنا بندقيتين وقرّرنا أن ننتظرها عند الرابية، وما إن نرى فقمتنا تتدحرج وتثب على الطريق، حتى نطلق وابلاً من الرصاص تحية لها. كنا نريد أن نستعيد ذكرى أمجادها الغابرة على هذا الشاطئ المنعزل، كي تستمتع، هذه التعسة المسكينة، بوهم مؤقت، وتظن نفسها مرة أخرى أنها شابّة ذات شفتين من الياقوت ونهدين صلبين، تنتعل حذاء من الجلد الأصلي، وجورباً حريرياً. فما فائدة أن يعاد بعث المسيح، إن لم يكن دلالة على إعادة إضرام الشباب والبهجة فينا أيضاً؟ إن لم يكنْ بوسعه أن يجعل هذه الغانية العجوز تبدو في الحادية والعشرين مرة أخرى؟

«لقد تأخرت تلك الفقمة العجوز. لقد تأخرت هذه الفاسقة. لقد تأخرت تلك الراية الرثة العجوز»، كان زوربا يدمدم متذمراً كلّ دقيقة، ويرفع جوربه الباذنجاني اللون، الذي كان لا ينفك يزحل.

«تعال واجلس يا زوربا! تعال ودّخن في الظلّ هنا. إنها لن تتأخر كثيراً!».

ألقى نظرة أخيرة على طريق القرية ثم جاء ليجلس تحت شجرة الخروب. كان منتصف النهار قد اقترب وكان الجو حاراً. ومن بعيد تناهت إلينا أصوات أجراس عيد الفصح المبهجة. ومن حين لآخر، كانت الريح تنقل إلينا صوت القيثارة الكريتية. كانت القرية كلها تضج بالحياة، مثل خلية نحل في الربيع.

هزّ زوربا رأسه وقال:

«لقد انتهى الأمر. كنت أشعر بأن روحي المعنوية ترتفع في كلّ عيد فصح، في نفس الوقت الذي ترتفع فيه روح السيد المسيح، لكن كلّ ذلك انتهى!» وأضاف، «أما الآن، فقد ولد جسدي فقط من جديد ـ لأنه عندما يدعوك أحدهم لتناول وجبة طعام، ثم وجبة ثانية وثالثة ويقول لك: تناول هذه اللقمة الصغيرة فقط، ثم هذه. حسناً، فإنك تحشو نفسك بأكوام من الطعام الشهي الذي لا يتحول كله إلى روث. إذ يبقى شيء منه، يبقى شيء منه ويتحوّل إلى روح مرحة، إلى رقص وغناء، بل حتى إلى شجار ـ وهذا ما أدعوه القيامة».

نهض، نظر إلى الأفق وقطب حاجبيه.

«هناك طفل يجري في هذا الطريق»، قال وهرع للقائه.

وقف الولد على رؤوس أصابعه، وهمس شيئاً في أذن زوربا الذي صاح غاضباً

«مريضة؟ مريضة؟ اغرب عن وجهي وإلا ضربتك!» ثم التفت إليّ.

«يا معلّم، سأجري إلى القرية لأرى ماذا حدث للفقمة العجوز. لحظة. أعطني بيضتين حمراوين لكي أكسرهما معها. سأعود».

وضع البيضتين في جيبه، ورفع جوربه الباذجاني اللون وغادر.

هبطت من الرابية وتمددت على الحصى البارد. هبّت نسمة خفيفة، وكانت مياه البحر قد تكدر لونها قليلاً. كان هناك طائرا نورس يصعْدان ثم ينقضان إلى الأسفل فوق الموجات الصغيرة، رقبتاهما منفوشتان بالزغب، يستمتعان بحركة الماء على نحو شهواني.

كان بإمكاني أن أتخيّل متعتهما وبهجتهما في عذوبة الماء وطراوته تحت بطنيهما. وفيما كنت أراقب طائري النورس، قلت في نفسي: «هذا هو الطريق الذي يجب أن أسلكه؛ أعثر على الإيقاع المطلق واتبعه بثقة مطلقة».

وبعد مضي ساعة، عاد زوربا وهو يفتل شاربيه بإحساس بالرضى وقال:

«لقد أصيبت بالزكام تلك المسكينة الحلوة. لا شيء حقاً. لقد حضرت الأسبوع المقدّس كله في الأيام القليلة الماضية ـ كانت تذهب للصلاة في منتصف الليل، مع أنها إفرنجية. قالت إنها كانت تذهب من أجلي. وأصيبت بالزكام. لذلك، عالجتها بالحجامة، وفركتها بزيت المصباح وجعلتها تشرب كأساً من شراب الرم. غداً ستكون في أتم الصحة والعافية. ها! تلك النعجة العجوز، إنها امرأة طريفة. كان يجب أن تسمعها وهي تهدل مثل حمامة وأنا أدلكّها ـ قالت إني أدغدغها!».

جلسنا لنتناول الطعام، وملأ زوربا كأسينا.

«نخب صحتها. أرجو ألا يفكّر الشيطان بأن يأخذها، بل يتركها لفترة من الزمن».

أكلنا وشربنا بصمت. وحملت إلينا الريح، مثل أزيز النحل، ألحاناً عاطفية من القيثارة من بعيد. كان المسيح يولد من جديد على شرفات القرية. وتحول حمل وكعك عيد الفصح إلى أغاني عاطفية.

عندما ملأ زوربا معدته بالطعام والشراب، وضع يده على أذنه الكبيرة المليئة بالشعر.

استوى واقفاً بغتة، ودار النبيذ في رأسه.

«ماذا نحن فاعلان هنا، وحيدان مثل طائري الوقواق؟ هيا نذهب ونرقص! ألا تشعر بالأسف على الحمل الذي تناولناه؟ هل ستتركه يذهب سدى هكذا؟ هيا! حوّله إلى غناء ورقص! لقد ولد زوربا من جديد!».

«انتظر دقيقة يا زوربا، إنك أبله، هل جننت؟».

«بصدق يا معلّم لا يهمني! لكني أحزن على الحمل، وأحزن على البيض الأحمر، وعلى كعك وجبن عيد الفصح! لو كنت قد تناولت بضع قطع من الخبز وقليلاً من الزيتون، لقلت: هيا لنأوي إلى الفراش. فلا يجب أن أذهب وأحتفل! إن الخبز والزيتون لا شيء، أليس كذلك؟ ماذا يمكنك أن تتوقّع منهما؟ لكن، دعني أقل لك، إنه من الإثم أن تهدر الطعام هكذا! هيا، نحتفل بيوم القيامة يا معلّم!».

«لا أشعر بالرغبة اليوم. اذهب أنت ـ يمكنك أن ترقص عني أيضا».

أمسكني زوربا من ذراعي وشدني إليه.

«لقد ولد المسيح من جديد يا صديقي! كم أتمنى لو عدت شاباً مثلك!

لانغمست في كلّ شيء! في العمل، في النبيذ، في الحبّ ـ كلّ شيء ولن أخاف لا الله ولا الشيطان! هذا هو الشباب بالنسبة لك!»

«إن الحمل هو الذي يتكلم يا زوربا! لقد تحوّل إلى وحش بري في داخلك، لقد أصبح ذئباً!».

«لقد أصبح الحمل زوربا، هذا كلّ ما في الأمر، وزوربا يكلمك! اسمع، يمكنك أن تشتمني في ما بعد! أنا السندباد البحري. لا أعني أنني طفت حول العالم، لا، أبداً! لكنني سرقت وقتلت وكذبت ونمت مع الكثير من النساء وحطمت جميع الوصايا. كم عددها؟ عشر؟ لماذا لا تكون عشرين، خمسين، مائة؟ لكي أحطمها جميعها؟ حتى لو كان الله موجوداً، فلن أخشى أن أظهر أمامه عندما يحين الوقت. لا أعرف كيف أقولها لك لكي تفهمني. لا أظن أن أياً من ذلك مهم، أليس كذلك؟ هل سيشغل الله نفسه ويجلس فوق ديدان الأرض ويحصي كلّ شيء تفعله؟ ويستشيط غضباً ويجعل من نفسه سخيفاً لأن أحداً ضلّ طريقه مع دودة أرضية أنثى في البيت المجاور له، أو لأنه أكل قطعة لحم في يوم الجمعة الحزينة؟ تباً! انجوا بأنفسكم أيها القساوسة يا من تطفحون بالحساء! تباً!».

«حسناً يا زوربا»، قلت لأستثيره، «قد لا يسألك الله ماذا أكلت، لكنه بالتأكيد سيسألك ماذا فعلت».

«وأنا أقول إنه لن يسأل هذا أيضاً! وستسألني كيف تعرف ذلك يا زوربا، أيها الجاهل؟ إني أعرف وأنا واثق من ذلك. لو كان لي ابنان، أحدهما تقي، ورع، حريص، ومعتدل وهادئ، والآخر جشع، نذل، متمرد ويطارد النساء، فإن قلبي سيهفو إلى الابن الثاني. ربما لأنه سيكون شبيهاً بي؟ لكن من يمكنه أن يقول إني لا أشبه الله أكثر مما أشبه بابا ستيفانوس العجوز، الذي يمضي أيامه ولياليه جاثياً على ركبتيه ويجمع المال؟».

«إن الله يمتّع نفسه، يقتل، يرتكب أعمالاً فيها ظلم، يضاجع، يعمل، يحبّ

أشياء مستحيلة، مثلي تماماً. إنه يأكل ما يحلو له، يأخذ المرأة التي يختارها. إذا رأيت امرأة جميلة تمرّ من أمامك، نضرة كالماء الصافي العذب، فإن قلبك سيقفز من مكانه لرؤيتها. وفجأة تنشق الأرض وتبتلعها. أين ذهبت؟ من أخذها؟ إذا كانت امرأة طيبة، فإنهم يقولون: لقد أخذها الله، وإذا كانت عاهرة، فإنهم يقولون: أخذها الشيطان. لكن يا معلّم، لقد قلت ذلك من قبل، وسأقولها ثانية، إن الله والشيطان سيان!».

التقط زوربا عصاه، ودفع قبعته إلى جانب، مرحاً، ونظر إليّ مشفقاً، وتحركت شفتاه للحظة كما لو كان يريد أن يضيف شيئاً إلى ما قاله. لكنّه لم يقل شيئاً وانطلق باتجاه القرية ورأسه مرفوع إلى الأعلى.

في نور المساء أمكنني أن أرى ظلّه العملاق وعصاه المتأرجحة. عندما مرّ زوربا دبّت الحياة في الشاطئ كله. أصخت السمع قليلاً، وسمعت وقع خطواته وهي تبتعد وخفت صوتها شيئاً فشيئاً. وما إن أحسست بأني أصبحت وحدي، أخذت أثب. لماذا؟ إلى أين أذهب؟ لم أكن أعرف. لم أحسم أمري بعد. هل كان جسدي هو الذي يثب. كان جسدي الذي يقرر دون استشارتي.

«هيا! تابع!» قال يأمرني.

اتجهت نحو القرية بخطوات سريعة عازمة، أقف هنا وهناك لآخذ نفساً عميقاً من نسائم الربيع. وكانت تفوح من التراب رائحة الأقحوان. ما إن اقتربت من البساتين حتى بدأت تهب عليّ نفحات عطرية من براعم أزهار أشجار الليمون والبرتقال والغار. وفي الغرب، بدأت نجمة المساء تتراقص مرحة في السماء.

«البحر والنساء والنبيذ والعمل الشاقّ!» رحت أدمدم كلمات زوربا رغماً عني وأنا أمشي، «البحر والنساء والنبيذ والعمل الشاقّ! انهمك في عملك، في النبيذ، وفي الحبّ، ولا تخش الله أو الشيطان. هذا هو الشباب»، ورحت أكرر ذلك كي يمنحني الشجاعة وأنا أسير.

توقّفت فجأة. وكأني وصلت إلى المكان الذي أقصده. أين؟ تطلعت حولي:

وجدت نفسي أمام حديقة الأرملة. تناهى إليّ من وراء سياج القصب والصبّار صوت أنثوي رقيق يدندن. اقتربت وأبعدت القصبات. كانت امرأة تقف تحت شجرة البرتقال، ترتدي ثوباً أسود، ذات صدر ممتلئ رائع. كانت تقطع أغصانا من الأزهار المتبرعمة وتغني. وفي الغسق رأيت رمانتيّ ثدييها الأبيضين نصف العاريين.

ذهلت. قلت لنفسي إنها وحش برّي، وهي تعرف ذلك. ف في نظرها فإن الرجال مخلوقات مغرورة سخيفة مسكينة لا حول لها ولا قوة! إنها مكتنزة وشرهة، تماماً مثل بعض الحشرات الإناث ـ فرس النبي، الجندب، العنكبوت ـ ويجب أيضاً أن تلتهم الذكور عند الفجر.

هل أحست الأرملة بنظراتي المحدقة فيها؟ فقد توقفت عن الغناء بغتة والتفتت. التقت عيوننا. انحلّت ركبتاي، وكأني رأيت نمراً جاثماً وراء القصب.

«من هناك؟» قالت بصوت مخنوق. أرخت منديلها على صدرها، واكفهّر وجهها.

كنت على وشك أن أغادر، لكن كلمات زوربا ملأت قلبي فجأة. استجمعت قواي. «البحر، النساء، نبيذ. . .».

أجبت: «إنه أنا. إنه أنا. اسمحي لي بالدخول».

ما كدت أقول هذه الكلمات حتى تملكني شعور بالذعر وكنت على وشك أن أطلق ساقي للريح ثانية. لكني تمالكت نفسي، مع إني شعرت بالخجل.

«من تقصد، أنت؟».

خطت خطوة بطيئة حذرة إلى الأمام، وانحنت نحوي. أغمضت نصف عينها نصف إغماضة لترى بوضوح أشد، وتقدمت خطوة أخرى، رأسها يتقدمها، في حالة من الحذر.

وفجأة أضاء وجهها. أخرجت طرف لسانها ولعقت شفتيها.

«المعلّم!» قالت بصوت أكثر رقة ونعومة.

تقدمت ثانية، وجثمت وكأنها تتهيا للوثوب.

رأنت، يا معلّم؟ سألت بصوت أجش.

«نعم».

«تعال!».

كان الفجر على وشك أن يبزغ. كان زوربا قد عاد إلى البيت، وجلس أمام الكوخ على الشاطئ. كان يدخّن سيكارة، وينظر إلى البحر. كان يبدو أنه ينتظرني.

ما إن ظهرت حتى رفع رأسه وراح يحدّق فيّ. كانت أرنبة أنفه ترتعش، مثل خياشيم كلب سلوقي. مطّ رقبته وأخذ نفساً طويلاً. راح يشمني. وسرعان ما أشرق وجهه بهجة. لقد اشتم رائحة الأرملة.

نهض ببطء، ابتسم بكيانه كله، ومدّ ذراعيه لي.

قال: «إني أباركك!».

أويت إلى فراشي، وأغمضت عيني. سمعت البحر يتنفس بهدوء وبتناغم، وأحسست أني أعلو وأهبط فوقه مثل طائر النورس. وبهذه الهدهدة اللطيفة، غططت في النوم وحلمت: رأيت زنجية عملاقة تتربع على الأرض، وبدت لي كمعبد قديم ضخم منحوت من الغرانيت. كنت أبحث يائساً عن المدخل. لم يكد حجمي يبلغ حجم إصبع قدمها الصغرى. وبغتة، ما إن استدرت حول كعب قدمها، حتى رأيت فتحة مظلمة، أشبه بكهف. وأمرني صوت ضخم وقال: «ادخل!».

دخلت.

استيقظت عند الظهيرة تقريباً. كانت أشعة الشمس تتسرب من النافذة، تغمر غطاء الفراش بالنور، وكانت أشعتها تضرب بقوة على المرآة الصغيرة المعلقة على الجدار وبدا أنها تحطمها إلى ألف شظية.

عاد الحلم بالزنجية العملاقة إلى ذاكرتي. كنت أسمع البحر يهمهم. أغمضت عيني ثانية وغمرني شعور بالسعادة. كان جسدي خفيفاً وقانعاً، مثل حيوان بعد أن ينتهي من مطاردة فريسته فيمسك بها ويلتهمها ويستلقي في الشمس، لاعقاً شفتيه. كان عقلي، مثل جسدي، يأخذ قسطاً من الراحة، راضياً سعيداً. كان يبدو أنه وجد جواباً بسيطاً رائعاً عن المشاكل الحيوية المعقّدة التي كانت تعذبه.

وراحت بهجة الليلة الماضية تعود تتدفق من أعمق أعماق الوجود، وفاض إلى أنهار جديدة وتسقي الأرض التي كنت مصنوعاً منها. عندما استلقيت، وعيناي مغمضتان، بدا لي أني أسمع كياني يمزّق صدفته ويزداد كبراً. في تلك الليلة، لأول مرة، أحسست أن الروح جسد أيضاً، ربما كانت أكثر تقلباً، أكثر شفافية، وربما أكثر حرية، لكن الجسد كذلك. فالجسد روح، ربما كان متورماً، منهكاً من رحلاته الطويلة، ويحيا تحت ثقل العبء الذي ورثه.

أحسست بظلّ يسقط فوقي وفتحت عينيّ. كان زوربا يقف عند الباب ينظر إليّ سعيداً.

«لا تستيقظ، لا تستيقظ أيها الشاب! .»، قال برقة تشبه رقة أمّ حريصة ومهتمة، «اليوم عطلة أيضاً. واصل نومك!».

«نمت ما يكفي»، قلت واستويت جالساً.

«سأسلق لك بيضة»، قال زوربا مبتسماً، «إنها ستجعلك قوياً ونشيطاً».

لم أجبه بشيء لكنني جريت إلى البحر، وغصت في الماء، ثمّ جففت جسدي في الشمس. لكنني كنت أحسّ برائحة جميلة لا تغادر أنفي وشفتيّ وأصابعي. رائحة ماء البرتقال وزيت الغار الذي تدهن بهما النساء الكريتيات شعرهن.

كانت قد قطفت ليلة البارحة حفنة من زهر البرتقال لتأخذها إلى السيد المسيح

في تلك الأمسية عندما كان القرويون يرقصون في الساحة تحت أشجار الحور البيضاء، وكانت الكنيسة فارغة. كانت الأيقونات فوق سريرها مجللة بأزهار الليمون، ومن خلال بتلات الأزهار يمكنك أن ترى صورة العذراء حزينة، بعينين لوزيتين كبيرتين.

أحضر لي زوربا البيض في كوب إلى الشاطئ وبرتقالتين وكعكة عيد فصح صغيرة. خدمني بهدوء وبسعادة، كما تخدم الأمّ ابنها بعد أن يعود من الحرب.

نظر إليّ بحنان ثم ابتعد.

قال: «سأركّب بضعة أبراج».

تناولت طعامي بهدوء تحت أشعة الشمس، وأحسست بسعادة جسدية عميقة كما لو كنت أعوم في مياه البحر الزرقاء. لم أدع عقلي يستحوذ على هذه المتعة الجسدية ويضعها في قوالبه ويحولها إلى أفكار. بل تركت جسدي كله يبتهج مثل حيوان من قمة رأسه حتى أخمصيه. كنت أشعر بنشوة، أحدّق حولي وفي داخلي، بمعجزة الحياة هذه: ماذا يحدث؟ سألت نفسي. كيف تكيّف العالم مع أقدامنا وأيدينا وبطوننا؟ ومرة أخرى، أغمضت عينيّ ولذت بالصمت.

وفجأة نهضت ودخلت إلى الكوخ حيث التقطت مخطوطة بوذا وفتحتها. كنت قد أنهيتها. في النهاية، كان بوذا مستلقياً تحت الشجرة التي بدأت براعمها تتفتح. رفع يده وأمر العناصر الخمسة التي جُبل منها ـ التراب والماء والنار والهواء والروح ـ أن تذوب وتنحّل.

لم أعد بحاجة إلى هذه الصورة من عذابي، فقد تجاوزتها، وأكملت خدمتي مع بوذا ـ ورفعت يدي أنا أيضاً، وأمرت بوذا في داخلي أن يذوب وينحّل.

وبسرعة كبيرة، وبمساعدة الكلمات وقدرتها على التطهر وعلى طرد الأرواح، دمّرت جسده وعقله وروحه. وبلا رحمة خربشت آخر كلمات على الورقة، أطلقت الصيحة الأخيرة، وكتبت اسمي بقلم رصاص أحمر كبير النهاية.

أخذت خيطاً سميكاً وربطت المخطوطة. اعتراني شعور غريب بالسعادة، كما يعتريني عندما أقيّد يديّ وقدميّ عدو مهيب، أو عندما يشعر الهمج عندما يقيدون أجساد أحبائهم عندما يموتون، لكي لا يخرجوا من قبورهم ويتحولوا إلى أشباح.

وبغتة جرت نحوي فتاة صغيرة، حافية القدمين. كانت ترتدي ثوباً أصفر وتقبض بيدها بيضة حمراء. توقّفت ونظرت إليّ بذعر.

«حسناً»، سألتها، وابتسمت لأشجعها، «هل تريدين شيئا؟»

أجابت وهي منبهرة الأنفاس.

«لقد أرسلتني السيدة لأطلب منك أن تأتي. إنها في السرير. هل أنت الذي يسمونه زوربا؟».

«حسناً. إني آت»

وضعت بيضة حمراء أخرى في يدها الصغيرة الأخرى، وراحت تجري.

نهضت، وأخذت أمشي في الطريق. بدأت ضوضاء القرية تزداد حدة: أصوات القيثارة العذبة، صياح، طلقات نارية، أغاني بهيجة. عندما وصلت إلى الساحة، كان الشبّان والشابات قد تجمّعوا تحت أشجار الحور التي اكتست بأوراق خضراء نضرة جديدة وكانوا على وشك أن يبدأوا الرقص. كان الرجال العجائز يجلسون على المقاعد حول الأشجار، يراقبون، وذقونهم مستندة إلى عكازاتهم، والنساء العجائز يقفن في الخلف. كان عازف القيثارة الرائع، فانوريو، الذي يضع وردة نيسان وراء أذنه، يقف وسط الراقصين، يسند القيثارة بيده اليسرى على ركبته بشكل عمودي، ويداعب بيده اليمنى الأوتار فتنبعث ألحان شجية.

«المسيح قام!» صحت عندما مررت.

«حقاً قام!» جاء الرد بدندنة بهيجة منهم جميعاً.

تطلعت حولي بسرعة. شبّان متينو البنية، خصورهم نحيفة، يرتدون سراويل منتفخة، ويضعون على رؤوسهم مناديل ذات شراريب تتهدل على جباههم وأصداغهم مثل خصلات مجعّدة. وشابات طوّقن أعناقهن بالترتر، وألقين على أكتافهن شالات بيضاء مطرزة، وقد خفضن عيونهن، ورحن يرتعشن بالترقب والانتظار.

«ألن تبقى معنا يا سيدي؟» سألت عدة أصوات. لكنّي كنت قد اجتزتهم.

كانت السيدة هورتينس مستلقية في سريرها الكبير، قطعة الأثاث الوحيدة التي حافظت عليها طوال هذا الزمن. كان خداها يتقدان بالحمّى، وكانت تسعل.

ما أن رأتني حتى أطلقت تنهيدة شكوى.

«وزوربا؟ أين زوربا؟».

«إنه ليس على ما يرام. فمنذ اليوم الذي مرضت فيه، وقع مريضاً هو أيضاً إنه لا يترك صورتك من يده، ويتنهد كلما نظر إليها».

«حدثني المزيد، حدثني المزيد. . ». دمدمت الغانية العجوز المسكينة، وأغمضت عينيها في سعادة.

«لقد أرسلني لأسألك إن كنت تريدين شيئاً. قال إنه سيأتي بنفسه هذا المساء، مع أنه لا يستطيع أن يتحرك كثيراً. لم يعد يحتمل فراقك أكثر من ذلك. . ».

«تابع، أرجوك. . ».

«لقد وصلته برقية من أثينا تقول إن ثوب الزفاف أصبح جاهزاً، وأصبحت أكاليل الزهور على المركب، ومن المفترض أن تصل قريباً بالإضافة إلى الشموع البيضاء وأحزمتها الوردية. . ».

غلبها النعاس، وتبدلت وتيرة تنفّسها. بدأت تهذي. وعبقت الغرفة برائحة الكولونيا والنشادر والعرق. ومن النافذة المفتوحة، هبّت رائحة غائط لاذعة من الدجاج والأرانب في الفناء.

نهضت وخرجت مسرعاً من الغرفة. وعند الباب صادفت ميميكو. كان يرتدي سروالاً وحذاء طويلاً جديداً، ويضع غصيناً من الحبق الحلو وراء أذنه.

قلت له: «ميميكو. اركض إلى قرية كالو وأحضر الطبيب!».

خلع ميميكو حذاءه الطويل وانطلق قبل أن أنهي كلامي ـ لم يكن يريد أن يهترئ حذاءه في الطريق. دسّه تحت ذراعه.

«جد الطبيب، انقل له تحياتي وقل له أن يمتطي فرسه العجوز وأن يأتي إلى هنا بسرعة. قل له إن السيدة مريضة جداً. قل له إنها مصابة بالزكام، المسكينة، وأصابتها حمىّ وإنها تحتضر. لا تنس أن تخبره ذلك. هيا انطلق الآن!».

«في الحال!».

بصق في يديه، وصفق بهما بسعادة لكنه لم يتحرك. بدا لي أني رأيت وميضاً من الفرحة في عينه.

«هيا اذهب! ألم أقل لك؟».

لم يتزحزح من مكانه. غمزني بعينه وابتسم بطريقة شيطانية.

قال: «يا سيدي، لقد أخذت زجاجة من ماء زهر البرتقال إلى كوخك كهدية».

وقف برهة. كان ينتظرني أن أسأله من أرسلها، لكنني لم أسأله.

«ألا تريد أن تعرف من أرسلها يا سيدي؟» ضحك ضحكة مكتومة، وأضاف، «إنها لك لكي ترشها على شعرك، قالت، حتى تصبح رائحتك طيبة»

«هيا انطلق! بسرعة! وأغلق فمك!».

ضحك، بصق على يديه مرة أخرى.

«في الحال»، صاح ثانية، «المسيح قام».

واختفى.

[22]

كان الرقص تحت أشجار الحور على أشدّه.

كان يقود الرقص شاب وسيم شديد السمرة في العشرين من عمره تقريباً، يكسو خديه زغب لم تلمسه شفرة الحلاقة. ومن فتحة قميصه، بانت بقعة داكنة من صدره المكسو بالشعر المجعّد. كان رأسه ملقى إلى الوراء، وقدماه تضربان الأرض كجناحين. وكان بين الحين والآخر يلقى نظرة إلى إحدى الفتيات، فيلمع بياض عينيه بشكل مقلق من وجه سودّته الشمس.

كنت جذلاً وفي الوقت نفسه خائفاً. كنت عائداً من بيت السيدة هورتينس، بعد أن طلبت من امرأة أن تقوم برعايتها أحسست بالارتياح لأني فعلت ذلك، وأتيت الآن لأشاهد الرقص الكريتي. توجهت إلى العمّ أناغنوستي، وجلست على مقعد إلى جانبه وسألته:

«من هو ذاك الشابّ الذي يقود الرقص؟».

ضحك العمّ أناغنوستي وقال:

«إنه يشبه الملاك الذي يسلبك روحك، هذا النذل»، قال بإعجاب، «إنه سيفاكاس، الراعي. فهو يرعى قطيعه طوال السنة فوق الجبال، ثم ينزل في عيد الفصح ليشاهد الناس وليرقص».

تنهّد وغمغم:

«كم أتمنى لو كنت أمتلك شبابه!» ثم أضاف، «والله لو كنت أمتلك شبابه لغزوت القسطنطينية».

هزّ الشابّ رأسه وأطلق صيحة، ثغاء ينبعث من بشر، مثل كبش يضرب بحافره.

«اعزف، اعزف يا فانوريو!» صاح، «اعزف حتى كارون نفسه يموت».

في كلّ دقيقة، كان الموت يحتضر ثم يولد من جديد كالحياة. فمنذ آلاف السنين، يرقص الشبّان والشابات تحت أغصان أشجار الحور والسنديان والبلوط الخضراء في الربيع، وتحت أشجار النخيل الباسقة ـ وسيظلون يرقصون آلاف سنين أخرى، وجوههم مفعمة بالرغبة. كانت الوجوه تتغيّر، تنهار، تعود إلى الأرض، لكن وجوهاً أخرى تصعد لتحلّ مكانها. لم يكن هناك سوى راقص واحد، لكنّ لديه ألف قناع. إذ يظل على الدوام في العشرين من عمره. إنه خالد.

رفع الشابّ يده ليمّسد شاربيه، لكن لم يكن له شاربان.

«اعزف!» صاح ثانية، «اعزف يا فانوريو، وإلا فإني سأنفجر!».

حرّك عازف القيثارة يده، فاستجابت القيثارة، وبدأت الأوتار تصدح بأنغام شجية، وقفز الشابّ، وخبط قدميه معاً ثلاث مرات في الهواء، ووثب إلى أقصى ما يمكن لرجل أن يقفزه، ولمس بطرف حذائه المنديل الأبيض الذي يلّف رأس جاره، مانولاكاس، الشرطي.

«برافو، يا سيفاكاس»، صاحوا، وارتعشت الشابات وخفضن أبصارهن.

لكن الشابّ كان صامتاً ولم يكن ينظر إلى أحد. كان مسعوراً لكنه منضبط في الوقت نفسه. أسند يده اليسرى، وراحة كفه إلى الخارج، على فخذيه القويتين الممشوقتين، وهو يرقص وعيناه مثبتتان بحياء على الأرض. وبغتة توقّفت الرقصة، عندما هرع الشمّاس العجوز أندروليو، إلى الساحة، رافعاً ذراعيه إلى السماء.

«الأرملة! الأرملة!» صاح بصوت منبهر الأنفاس. كان الشرطي مانولاكاس أول من هرع إليه، وأوقف الرقص. كان بإمكانك أن ترى من الساحة الكنيسة

المزدانة بأغصان الغار والآس. توقف الراقصون. كان الدم يجري في رؤوسهم، ونهض الرجال المسنون من مقاعدهم، ووضع فانوريو القيثارة على حضنه، وأخذ الزهرة الربيعية من وراء أذنه وشمّها.

«أين، يا أندروليو؟» صاحوا، مستشيطين غضباً، «أين هي؟»

«في الكنيسة. لقد دخلت الآن تلك التعيسة. إنها تحمل أزهار الليمون!».

«هيا! لنلحق بها!» صاح الشرطي، واندفع إلى الأمام.

في تلك اللحظة، ظهرت الأرملة عند درج باب الكنيسة، تضع منديلاً أسود على رأسها. رسمت شارة الصليب.

«الحقيرة! الفاسقة! القاتلة!» صاحت الأصوات، «وتبلغ بها الجرأة أن تأتي إلى هنا! هيا لنلحق بها! لقد ألحقت العار بالقرية كلها!».

تبع بعضهم الشرطي الذي أخذ يجري نحو الكنيسة، وراح آخرون يرجمونها بالحجارة من الأعلى. أصابها حجر في كتفها، فصرخت وغطت وجهها بيديها، واندفعت إلى الأمام. لكن الشباب كانوا قد وصلوا إلى باب الكنيسة واستل مانولاكاس سكينه.

تراجعت الأرملة وهي تتمتم صيحات خافتة مذعورة، وانحنت لتحمي وجهها، وعادت لتجد ملاذاً في الكنيسة. لكن مافراندوني العجوز وقف على عتبة الكنيسة ورفع يديه على جانبي الباب، ساداً الطريق أمامها.

قفزت الأرملة إلى اليسار، وتعلّقت بشجرة السرو الكبيرة في الفناء. وأطلق حجر صفيراً في الهواء فشجّها ومزّق منديل رأسها انحّل شعرها، وانسدل على كتفيها.

«باسم المسيح! باسم المسيح!» صاحت الأرملة، وهي لا تزال متشبثة بشجرة السرو.

كانت القرويات الشابات يصطففن في رتل في الساحة، يمسكن مناديلهن

البيضاء ويعضضنها بين أسنانهن، ويراقبن المشهد بإثارة. أما النساء العجائز، فكن يستندن إلى الجدران، ويصحن: «اقتلوها! اقتلوها».

ألقى شابان بنفسيهما عليها وأمسكا بها. تمزقت بلوزتها السوداء، وبرز ثدياها وسطعا، أبيضان كالرخام. كان الدم يسيل من رأسها إلى جبهتها وخديها ورقبتها.

«باسم المسيح! باسم المسيح!» راحت تصرخ.

أثار الدم المتدفق والنهدان اللامعان حمية الشبان، فاستلوا السكاكين من أحزمتهم.

«توقفوا» صاح مافراندوني، «اتركوها لي».

لكن مافراندوني الذي كان لا يزال يقف على درج الكنيسة رفع يده، فتوقّفوا جميعهم.

«مانولاكاس»، قال بصوت عميق، «إن دم ابن عمك يناديك. هيا امنحه السلام».

قفزت من الحائط الذي تسلقته وركضت باتجاه الكنيسة. تعثرت بقطعة حجر فسقطت على الأرض.

كان سيفاكاس يمر بجانبي في تلك لحظة، فانحنى وحملني من مؤخرة عنقي مثل قطّة وساعدني على الوقوف، ثم قال:

«ليس هذا المكان لأمثالك. هيا اذهب من هنا!».

سألته: «ألا توجد في قلبك شفقة يا سيفاكاس؟» وأضفت، «اشفق عليها!».

ضحك ساكن الجبل الهمجي في وجهي، وقال:

«هل تظنني امرأة؟ تطلب مني أن أشفق عليها! أنا رجل!».

وما هي إلا لحظة حتى أصبح في باحة الكنيسة.

تبعته وأنا ألهث. كانوا جميعهم يتحلقون حول الأرملة الآن. ساد صمت

ثقيل. لم يكن بوسعك أن تسمع إلا صوت أنفاس الضحيّة المخنوقة.

رسم مانولاكاس شارة الصليب وتقدم خطوة، ورفع سكينه. بدأت النساء العجائز يعوين من فوق الجدران مبتهجات، وأرخت الفتيات مناديلهن وأخفين وجوههن.

رفعت الأرملة عينيها، ورأت السكين فوقها، فأخذت تخور مثل بقرة صغيرة. تهالكت ووقعت عند شجرة السرو وغاص رأسها بين كتفيها. غطّى شعرها الأرض، وتألّق عنقها الذي كان يخفق في النور الباهت.

«أطلب عدالة الله!» صاح مافراندوني العجوز، ورسم شارة الصليب أيضاً.

لكن في تلك اللحظة بالذات تناهى إلينا صوت عال من وراءنا يقول: «أخفض سكينك أيها القاتل!».

التفت الجميع بذهول. رفع مانولاكاس رأسه: كان زوربا يقف أمامه، يلّوح بذراعيه بغضب، وصاح:

«ألا تخجل من نفسك؟ يا لكم من مجموعة رائعة من الرجال! القرية كلها اجتمعت لقتل امرأة وحيدة! احذروا، وإلا فإنكم ستجلبون العار إلى كريت كلها!».

«اهتم بشؤونك يا زوربا! ولا تحشر أنفك في أمورنا!» زأر مافراندوني.

ثم التفت إلى ابن أخيه، وقال:

«مانولاكاس، باسم المسيح والقديسة مريم، اضرب ضربتك!».

قفز مانولاكاس. أمسك الأرملة والقى بها على الأرض، ووضع ركبته فوق بطنها ورفع سكينه. لكن بلمح البصر، أمسك زوربا ذراعه، ولفّ منديله الكبير حول يده، وبذل جهداً ليأخذ السكين من يد الشرطي.

جثت الأرملة على ركبتيها وراحت تتطلع حولها بحثاً عن منفذ تهرب منه، لكن القرويين سدّوا عليها الطريق. كانوا يقفون في شكل دائرة حول باحة

الكنيسة، ويقفون على المقاعد. عندما رأوها تبحث عن منفذ تقدموا وأغلقوا عليها الدائرة.

في هذه الأثناء، كان زوربا لا يزال يصارع بخفة وهدوء وحزم. أما أنا فكنت أراقب بقلق من مكاني بالقرب من باب الكنيسة. أصبح وجه مانولاكاس أرجوانياً من شدة الغضب. وتقدم سيفاكاس وعملاق آخر لنجدته. إلا أن مانولاكاس صاح ساخطاً:

«ابتعدا! ابتعدا! لا أحد يقترب»، وهاجم زوربا ثانية بقوة. ثم نطحه برأسه مثل ثور.

عضّ زوربا شفتيه دون أن يقول شيئاً، فأمسك ذراع الشرطي اليمنى بقوة مثل ملزمة، وأخذ يميل نحو اليمين واليسار متفادياً الضربات الموجهة من رأس الشرطي. اندفع مانولاكاس الذي استشاط غضباً إلى الأمام، وأمسك أذن زوربا بين أسنانه، وأخذ يمزّقها بكلّ ما أوتي من قوة، حتى بدأ الدم يتدفّق منها.

«زوربا!» صحت مرعوباً، واندفعت بسرعة لإنقاذه.

«ابتعد يا معلّم!» صاح، «لا تتدخل».

أحكم قبضته، ووّجه لكمة شديدة إلى مانولاكاس في أسفل بطنه، فتركه ذلك الوحش البرّي على الفور. أرخى أسنانه فسقطت الأذن نصف الممزّقة. امتقع وجهه الأرجواني وأصبح شديد البياض. دفعه زوربا وألقاه على الأرض، وأخذ منه السكين وألقى بها فوق جدار الكنيسة.

وضع منديله ليوقف تدفق الدم من أذنه. ثم مسح وجهه الذي كان العرق يسيل منه، وتلطخ وجهه كله بالدم. استوى واقفاً، وتطلع حوله. كانت عيناه منتفختين وحمراوين. ثم صاح في الأرملة:

«انهضي! تعالي معي!».

وسار باتجاه باب باحة الكنيسة.

نهضت الأرملة. استجمعت كلّ قواها لتندفع إلى الأمام. لكن لم يتح لها الوقت. ومثل صقر، انقض مافراندوني العجوز عليها، وأوقعها على الأرض، وعقد شعرها الأسود الطويل حول يده ثلاث مرات، وبضربة واحدة من مديته قطع رأسها.

«إني أتحمّل مسؤولية هذا الذنب!» صاح، وألقى رأس الضحيّة على درج الكنيسة. ثم رسم شارة الصليب.

استدار زوربا ورأى ذلك المشهد الفظيع. أمسك شاربه واقتلع عدداً من الشعرات برعب. صعدت إليه وأمسكته من ذراعه. انحنى إلى الأمام ونظر إليّ. كانت هناك دمعتان كبيرتان تترقرقان في عينيه.

«لنذهب يا معلّم»، قال بصوت مخنوق.

في ذلك مساء لم يأكل زوربا أو يشرب شيئاً. قال: «إن حنجرتي مغلقة، لن يسري فيها شيء». غسل أذنه بالماء البارد، ونقع قطعة من القطن الطبي في قليل من العرق وضمدها. جلس على فراشه، رأسه بين يديه، ولبث صامتاً ممعناً في التفكير.

كنت أنا أيضاً متكئاً على مرفقيّ على الأرض بجانب الحائط، وأحسست بدموع حارة تسيل على خديّ. توقف عقلي عن العمل تماماً، ولم أكن أستطيع أن أفكّر بأي شيء. بكيت مثل طفل غمره حزن عميق.

وفجأة رفع زوربا رأسه وبدأ ينفّس عن مشاعره. وأخذ يصيح بصوت مرتفع معبّراً عن أفكاره الوحشية:

«أقول لك يا معلّم، إن كلّ شيء يحدث في هذا العالم ظالم، جائر، غير عادل! ولن أكون طرفاً فيه! أنا، زوربا، الدودة، البزّاقة. لماذا يجب على الشباب أن يموتوا ويبقى هؤلاء العجائز المحطمون أحياء؟ لماذا يموت الأطفال الصغار؟ كان لي ابن ذات يوم ـ اسمه ديميتري ـ وفقدته عندما كان في الثالثة من العمر. حسناً. . . لن أغفر لله أبداً على هذا، هل تسمع؟ أقول لك، في اليوم

الذي أموت فيه، لو تجاسر وظهر أمامي، وإذا كان حقاً هو الله، فإنه سيخجل من نفسه! نعم، نعم، سيخجل من أن يظهر أمام زوربا الدودة!».

لوى قسمات وجهه وكأنه يتألم. عاد الدم يتدفق من جرحه. عضّ شفتيه لكي لا يصيح من شدة الألم.

«انتظر يا زوربا!» قلت، «سأغيّر لك الضمادة».

عدت وغسلت أذنه بالعرق، ثم أخذت قنينة ماء زهر البرتقال التي أرسلتها لي الأرملة والتي كانت ملقاة على سريري، وغمست قطعة القطن فيها.

«ماء زهر البرتقال؟» قال زوربا، بعد أن شمّها بلهفة، «ماء زهر البرتقال؟ ضع قليلاً منه على شعري، هكذا. نعم! وعلى يديّ، صبّه كلّه، استمر!».

دبّت فيه الحياة ثانية. نظرت إليه مندهشاً.

«أشعر كما لو أنني أدخل حديقة الأرملة»، قال، وبدأ رثائه ثانية.

«كم سنة استغرقت»، تمتم، «كم سنة استغرقت الأرض حتى تمكنت من صنع جسد كهذا! تنظر إليها وتقول: آه! كم أتمنى لو كنت في العشرين من عمري ولاختفى جنس الرجال كله من على سطح الأرض، ولم يبق عليها سوى تلك المرأة وأنجب منها أطفالاً! لا، ليس أطفالاً، لأنهم سيكونون آلهة حقيقيين بينما الآن. .».

وثب واقفاً. عيناه مغرورقتان بالدموع، وقال:

«لا يمكنني أن أتحمل أكثر من ذلك يا معلّم، يجب أن أخرج وأتمشى، يجب أن أصعد وأهبط سفح الجبل مرتين أو ثلاث مرات هذه الليلة كي أجهد نفسي، لأهدئ من روعي قليلاً. آه! تلك الأرملة! أشعر بأنه يجب أن أنشد لك مرثية».

اندفع خارجاً، واتجه نحو الجبل واختفى في الظلام.

استلقيت على سريري، أطفأت المصباح وبدأت مرة أخرى، بطريقتي اللا

إنسانية اللعينة، أنقل الواقع، وأزيل الدم والجسد والعظام وأحوّلها إلى المجرّد، أربطها بالقوانين الكونية إلى أن توصلت إلى النتيجة الرهيبة بأن ما حدث كان ضرورياً. والأكثر من ذلك، أنه ساهم في التناغم الكوني. وتوصلت إلى هذا العزاء النهائي البغيض: أن كلّ ما حدث كان يجب أن يحدث حقاً.

تسلل قتل الأرملة إلى عقلي ـ الخلية التي كانت تحوّل منذ سنوات عديدة جميع السموم إلى عسل ـ وتشوشه. لكن فلسفتي استحوذت على ذلك التحذير المخيف الذي أحاطت به صور ومكائد وجعلته مستكيناً بسرعة، وبهذه الطريقة تغلّف النحلات ذكر النحل الجائع بالشمع عندما يأتي ليسرق عسلها.

بعد بَضع ساعات، ثوت الأرملة في ذاكرتي، هادئة وساكنة، وتحولت إلى رمز. كانت مغلفة بالشمع في قلبي. ولم تعد تستطيع أن تبث الرعب في داخلي وتشلّ عقلي. لقد توسعت الأحداث الفظيعة التي جرت في ذلك اليوم، وامتدت إلى الزمن والفضاء، وأصبحت ذات حضارات ماضية عظيمة، وارتبطت الحضارات بمصير الأرض، وارتبطت الأرض بمصير الكون ـ وهكذا، بالعودة إلى الأرملة، وجدت أنها تخضع لقوانين الوجود العظيمة، متصالحة مع قاتليها، جامدة وساكنة.

بالنسبة لي وجد الزمن معناه الحقيقي: فقد ماتت الأرملة منذ آلاف السنين، منذ عهد حضارة إيجة، وماتت صبايا كنوسوس بشعورهن المجعّدة في ذلك الصباح على شواطئ هذا البحر الجميل.

غلبني النعاس، كما سيغلبني الموت ذات يوم ـ لا يوجد أحد يمكنه أن يؤكد ذلك ـ وانسللت بهدوء إلى الظلام. لم أسمع متى عاد زوربا، أو إن كان قد عاد أصلاً ففي صباح اليوم التالي وجدته على سفح الجبل يصرخ في وجه العمال ويشتمهم.

لم يكن يعجبه أي شيء يفعلونه. فقد طرد ثلاثة عمّال عنيدين، وأخذ المعول بنفسه وراح يحفر بين الصخور، ويزيل التراب عن الدرب الذي حدّده ليثبت فيه

الأعمدة. صعد إلى الجبل، والتقى بعدد من الحطابين الذين كانوا يقطعون أشجار الصنوبر، وراح يشتمهم ويعنّفهم بشدة. ضحك أحدهم وهمهم شيئاً، فألقى زوربا بنفسه عليه.

في ذلك المساء عاد إلى الكوخ مهلهلاً، وثيابه ممزقة بالية. جلس إلى جانبي على الشاطئ. لم يكد يستطيع أن يفتح فمه. وعندما فتحه أخيراً، أخذ يتحدث عن الأخشاب والكابل والفحم. كان مثل مقاول شره، طمّاع، يريد أن يحطم المكان بأسرع ما يمكنه، وأن يحقق أكبر قدر من الربح ثم يغادر المكان.

في مرحلة عزاء الذات التي وصلت إليها، كنت على وشك أن أتحدث عن الأرملة. مدّ زوربا ذراعه الطويلة ووضع يده الكبيرة على فمي.

«اسكت!» قال بصوت مخنوق.

توقّفت. اعتراني شعور بالخجل. قلت في نفسي هكذا هو الرجل الحقيقي، وحسدت زوربا على حزنه. رجل تجري في عروقه دماء حارة، عظامه قاسية صلبة، تسيل دموع حقيقية على خديه عندما يتألم حقاً، وعندما يكون سعيداً، لا يفسد نضارة بهجته بوضعها في منخل ما وراء الطبيعة ذي الفتحات الرفيعة جداً.

مضت ثلاثة أو أربعة أيام على هذا المنوال. كان زوربا يعمل بدأب، لا يتوقّف حتى ليأكل، أو ليشرب، أو ليرتاح. كان يرسي الأسس.

وذات مساء، قلت له إن السيدة بوبولينا لا تزال في السرير، وإن الطبيب لم يأت لزيارتها، وإنها لا تتوقف عن دعوته في هذيانها.

أغلق قبضتيه وأجاب:

«حسناً».

وفي صباح اليوم التالي توجه إلى القرية وعاد على الفور إلى الكوخ.

سألته: «هل رأيتها؟ كيف حالها؟».

«إنها تحتضر».

وعاد إلى عمله.

في ذلك المساء، أخذ عصاه الغليظة وخرج دون أن يتناول طعاماً. سألته:

«هل أنت ذاهب إلى القرية؟».

«لا سأتمشى قليلاً. لن أتأخر».

سار باتجاه القرية بخطوات ثابتة سريعة.

كنت متعباً، وأويت إلى الفراش. أخذ عقلي يستعرض العالم كله مرة أخرى. انهالت الذكريات، والأحزان؛ وحلّقت أفكاري إلى أماكن نائية، لكنها سرعان ما عادت واستقرت على زوربا.

قلت في نفسي لو صادف مانولاكاس في الطريق فإن هذا العملاق الكريتي سيلقي بنفسه عليه بغضب همجي. فسكان القرية يقولون إنه لم يغادر بيته خلال الأيام القليلة الماضية. إذ كان يرى أنه من العار أن يخرج إلى القرية، ولا ينفك يقول إنه إذا أمسك بزوربا فإنه «سيقطعه بأسنانه مثل سمكة سردين»، وقال أحد العمّال إنه رآه في منتصف الليل يطوف حول الكوخ مسلحاً. إذا التقيا الليلة، فلا بد أن جريمة ستقع.

قفزت. ارتديت ثيابي بسرعة واندفعت إلى الطريق المفضي إلى القرية. كان الهواء الليلي الرطب الهادئ يعبق برائحة البنفسج البرّي. وبعد قليل رأيت زوربا يسير بتؤدة، وكأنه كان متعباً، باتجاه القرية. وكان يتوقّف بين الحين والآخر، يحدّق في النجوم، يرهف السمع، ثم ينطلق ثانية، أسرع قليلاً، وكنت أسمع صوت عصاه على الحصى.

أخذ يقترب من حديقة الأرملة. كان الهواء مفعماً برائحة زهر الليمون وزهر العسل. في تلك اللحظة، بدأ العندليب الجاثم فوق أشجار البرتقال في الحديقة يغرّد أغنيته الحزينة بألحان شجية رقراقة مثل مياه النبع. راح يغرّد ويغرّد في الظلام بروعة تخلب الألباب. توقف زوربا منبهراً بطلاوة وحلاوة الأغنية.

وبغتة انزاحت قصبات السياج، واصطدمت أوراقها الحادّة مثل أنصال من الفولاذ.

«أأنت هناك!» صاح صوت عال وعنيف، «أيها الأحمق الخرف العجوز! ها قد وجدتك أخيراً!».

هدأت أعصابي بعد أن عرفت الصوت.

تقدّم زوربا، رفع عصاه وتوقّف. كان بوسعي أن أرى كلّ حركة من حركاته من خلال ضوء النجوم.

قفز رجل ضخم من فوق سياج القصب.

«من أنت؟» صاح زوربا، ومطّ رقبته.

«أنا مانولاكاس».

«إمض في طريقك. هيا أغرب من هنا».

«لماذا ألحقت بي العار؟».

«أنا لم ألحق بك العار، يا مانولاكاس! هيا اذهب من هنا، إني أقول إنك رجل قوي ضخم، نعم، لكن الحظّ لم يحالفك. والحظّ أعمى، ألا تعرف ذلك؟».

«حظّ أو لا حظّ، أعمى أو غير أعمى»، قال مانولاكاس، وسمعت أسنانه تصطك بقوة، «سأمحو العار. هذه اللّيلة. هل تحمل سكيناً؟».

لا، «أجاب زوربا»، «أحمل عصا فقط».

«اذهب وأحضر سكينك. سأنتظرك هنا. هيا اذهب».

لم يتحرك زوربا.

«أأنت خائف؟» هسهس مانولاكاس ساخراً، هيا، «أقول لك!».

«وماذا سأفعل بالسكين؟» سأله زوربا الذي بدأ يُستثار، «ماذا سأفعل بها؟ ماذا حدث في الكنيسة؟ أظن أني أتذكر أنك كنت تحمل سكيناً ولم أكن أنا أحمل سكيناً.. لكني غلبتك، أليس كذلك؟».

زأر مانولاكاس غاضباً.

«هل تحاول أن تسخر مني أيضاً؟ لقد اخترت اللحظة الخاطئة كي تهزأ بي. لا تنس أنني مسلّح وأنت لا تحمل سلاحاً! هيا أحضر سكينك أيها المقدوني الحقير، وعندها سنرى من هو الأقوى».

رفع زوربا ذراعه، وألقى عصاه. سمعتها تسقط بين أعواد القصب.

صاح: «إلق سكينك!».

هرعت نحوهما على أطراف أصابعي، وعلى ضوء النجوم لم أر سوى السكين تلمع وهي تسقط بين أعواد القصب أيضاً. بصق زوربا في يديه.

«هيا!» صاح، وقفز في الهواء. لكن قبل أن يتمكنا من الإمساك بتلابيب بعضهما ركضت ووقفت في وسطهما وصحت: «توقّفا! أنت يا مانولاكاس، وأنت يا زوربا! هيا! عيب عليكما».

تقدم الخصمان نحوي ببطء. أمسكت اليد اليمنى لكلّ منهما، وقلت:

«هيا تصافحا! أنتما رجلان شجاعان وطيبان، يجب أن توقفا هذا الشجار».

«لقد ألحق بي العار!» قال مانولاكاس، محاولاً سحب يده.

«لا يمكن لأحد أن يجلب لك العار بهذه السهولة»، قلت، «فالقرية كلها تعرف أنك رجل شجاع. إنس ما حدث في الكنيسة في ذلك اليوم. كانت ساعة مشؤومة! ما حدث قد حدث! ولا تنسى أن زوربا أجنبي، فهو مقدوني وأكبر عار يمكن أن نجلبه علينا نحن الكريتيين أن نرفع يدنا على ضيف في بلدنا. هيا الآن، أعطه يدك، هذه شهامة حقيقية ـ وتعال إلى الكوخ يا مانولاكاس. سنشرب معاً ونشوي ياردآً من السجق ونعقد عهد صداقتنا!».

أخذت مانولاكاس من خصره وأبعدته قليلاً، ثم همست في أذنه:

«لا تنس أن الشخص عجوز، ولا يجب على شاب قوي مثلك أن يقاتل رجلاً في سنه».

هدأ مانولاكاس قليلاً.

«حسناً»، «من أجلك فقط».

تقدم من زوربا ومدّ يده الضخمة وقال:

«تعال أيها الصديق زوربا. لقد انتهى كل شيء ونسيناه. أعطني يدك».

«لقد قضمت أذني»، قال زوربا، «هاهي يدي».

تصافحا بقوة، وبقوة أكثر وأكثر، بينما كان ينظر أحدهما في عينيّ الآخر، حتى أني خشيت أن يعودا إلى القتال ثانية.

«إن قبضتك قوية يا مانولاكاس»، قال زوربا، «إنك شاب قوي وصلب!».

«يدك قوية أيضاً. حاول أن تشد يدك بقوة أكثر».

صحت: «هذا يكفي! هيا لنذهب ولنعقد أواصر صداقتنا بكأس من الشراب».

في طريق عودتنا إلى الشاطئ مشيت بينهما، زوربا إلى يميني، ومانولاكاس إلى يساري.

«سيكون هناك حصاد رائع هذه السنة. .» قلت لأغيّر الموضوع، «لقد هطلت أمطار غزيرة».

لم يجب أي منهما. كانا لا يزالان حانقين.

كان أملي يكمن في النبيذ. وصلنا إلى الكوخ.

«أهلا بك في بيتنا المتواضع»، قلت، «زوربا، اشوي قليلاً من السجق وجد لنا شيئاً نشربه».

جلس مانولاكاس على قطعة حجر أمام الكوخ. أخذ زوربا حفنة من الأغصان، وقليلاً من السجق وملأ ثلاث كؤوس.

«بصحتكما!» قلت، ورفعت كأسي، «بصحتك يا مانولاكاس! بصحتك يا زوربا! اقرعا الكؤوس».

قرعا كأسيهما، وصبّ مانولاكاس بضع قطرات على الأرض، وقال بصوت جديّ:

«فليسل دمي مثل هذا النبيذ، لو رفعت يدي عليك يا زوربا».

«وليسل دمي أيضاً مثل هذا النبيذ»، قال زوربا، حاذياً حذوه، وصبّ بضع نقاط على الأرض، «إذا لم أكن قد نسيت كيف قضمت أذني!».

[23]

مع بزوغ الفجر استوى زوربا جالساً في فراشه، وسألني ليوقظني.

«هل أنت نائم يا معلّم؟».

«ماذا في الأمر يا زوربا؟».

«لقد حلمت حلماً مضحكاً. أظن أننا سننطلق في رحلة أو شيء من هذا القبيل بعد فترة ليست طويلة. اسمع، إن هذا سيضحكك. كانت هناك سفينة كبيرة مثل مدينة راسية في الميناء هنا، وكانت تطلق صافرتها استعداداً للإبحار. ثم جئت أجري من القرية لألحق بها، وكنت أحمل في يدي ببغاء. وصلت إلى السفينة وصعدت إليها. هرع القبطان إليّ، وقال: بطاقتك سألته كم ثمنها؟ وأخرجت لفافة من جيبي. قال: ألف دراخما، فقلت له: يسّر عليّ الأمر، ألا تكفي ثمانمائة؟ فأجاب، لا، ألف، فقلت: لا يوجد معي سوى ثمانمائة، يمكنك أن تأخذها! فقال: ألف، لا أقبل أقل من ذلك! إن لم يكن معك نقود فانزل من السفينة بسرعة! انزعجت وقلت: اسمع يا قبطان، من أجلك خذ الثمانمائة التي أعرضها عليك، لأنك إذا لم تأخذها فإني سأستيقظ وعندها يا صديقي، فإنك ستخسر الصفقة!».

وانفجر زوربا ضاحكاً، ثم قال بدهشة:

«إن الإنسان آلة غريبة. تحشوه بالخبز والنبيذ والسمك والفجل، وتنبعث منه التأوهات والضحكات والأحلام. إنه مثل مصنع. إني واثق من أنه يوجد شيء شبيه بالسينما الناطقة في رؤوسنا».

وفجأة وثب من السرير

«لكن لماذا الببغاء؟» صاح بقلق، «ماذا يعني ذلك، أن آخذ الببغاء معي؟ ها! إني أخشى. . .».

لم يكد ينهي جملته، حتى اندفع ساع قصير وبدين ذو شعر أحمر قصير، يشبه الشيطان نفسه. كان يلهث.

«بحق الله! إن المرأة المسكينة تصيح لكي يحضر لها أحد الطبيب! تقول إنها تحتضر، هذا أمر مؤكد. وتقول إن ضميرك سيعذبك».

اعتراني الخجل. ففي الكرب الذي ألمّ بنا، جعلتنا الأرملة ننسى صديقتنا العجوز تماماً.

«إنها تحتضر، تلك المرأة المسكينة»، تابع الرجل ذو الشعر الأحمر مثرثراً، «إنها تسعل إلى حد أن بيتها يهتز كله معها. نعم، إنه سعال حمار حقيقي! ووف! ووف! القرية كلها تهتز معه!».

فقلت: «اصمت. لا تهزأ بها».

تناولت قصاصة من الورق وكتبت رسالة.

«خذ هذه الرسالة إلى الطبيب ولا تعد قبل أن تراه بعينيك وهو يمتطي حصانه! هل تفهم؟ هيا اذهب الآن!».

أمسك الرسالة، ودسّها في حزامه وراح يجري.

نهض زوربا. ارتدى ثيابه بسرعة دون أن يفوه بكلمة. قلت له: «انتظر لحظة، سآتي معك».

«أنا مستعجل»، أجاب، وانطلق.

وبعد قليل، انطلقت أنا أيضاً إلى القرية. لقد جعلت حديقة الأرملة المهجورة الهواء يعبق برائحة العطر. كان ميميكو يجلس متكوراً أمام بيتها يحدّق فيه مثل

كلب مهزوم. لقد ضمر جسده، وغاصت عيناه الحمراوان في محجريهما التفت. عندما رآني التقط قطعة حجر

سألته: «ماذا تفعل هنا يا ميميكو؟» وأنا أنظر آسفاً إلى الحديقة. شعرت بذراعين قويتين دافئتين تطوقان عنقي. وبشذى زهر الليمون وزيت الغار لم نقل شيئاً كنت أرى في العتمة عينيها السوداوين المتقدتين، وأسنانها البيضاء التي كانت تفركها بورق الجوز.

فقال هادراً: «لماذا تسألني هذا؟ هيا اخرج. اهتم بعملك».

«هل تريد سيكارة؟».

«لم أعد أدخّن. إنكم جميعكم مجموعة من الخنازير! جميعكم! جميعكم!»

توقّف. كان يلهث، ويبدو أنه كان يبحث عن كلمة لم يكن يجدها.

«خنازير أوغاد. كذابون. قتلة. .».

وبدا أنه وجد أخيراً الكلمة الني كان يبحث عنها وأراد أن يريح ضميره. صفّق بيديه، وصاح بصوت مجلجل: «قتلة! قتلة! قتلة!»

بدأ يضحك. اعتصر قلبي ألماً لرؤيته.

فقلت له: «إنك محقّ تماماً يا ميميكو. إنك محقّ»، وأسرعت مبتعداً

عندما دخلت القرية رأيت أناغنوستي العجوز متكئاً على عكازه، يراقب فراشتين صفراوين تطارد إحداهما الأخرى فوق أعشاب الربيع. كان يبتسم. فبعد أن شاخ، لم يعد يبدي اهتماماً بحقوله وزوجته وأطفاله، وأصبح لديه ما يكفيه من الوقت لينظر إلى العالم حوله بلا مبالاة. لاحظ ظلّي على الأرض فرفع بصره، وقال:

«يا لها من صدفة سعيدة تلك التي جلبتك في هذا الصباح الباكر»

لكنه لا بدّ أنه قرأ في وجهي علامات القلق، وواصل كلامه دون أن ينتظر مني رداً.

قال: «افعل شيئاً بسرعة يا بني. فأنا لست واثقاً إن كنت ستجدها على قيد الحياة أم لا آه، المسكينة التعيسة!».

كان السرير الكبير الذي كثيراً ما أستعمل، القابع في وسط غرفتها الصغيرة والذي يكاد يملؤها، أشد رفاقها إخلاصاً، وانحنى من فوق رأسها جليسها الخاص ـ الببغاء ـ بتاجه الأخضر، وقلنسوته الصفراء، وعينيه الشريرتين. كان ينظر محدقاً في سيدته المستلقية وهي لا تتوقف عن الأنين. أمال رأسه الذي يشبه رأس إنسان إلى أحد الجانبين وهو ينصت.

لا، لم تكن تلك التنهدات المكبوتة تصدر عن المتعة التي يعرفها تمام المعرفة، والتي كانت تطلقها أثناء ممارسة الحبّ، ولم يكن هديل الحمامة الرقيق، ولا قهقهات خافتة. كان الببغاء يرى حبات العرق البارد كالثلج تسيل على وجه سيدته، وشعرها ـ غير الممشّط الملتصق بصدغيها ـ الذي يشبه خيوط الكتان، والحركات المتشنجة في السرير، لأول مرة، وأحس بالقلق. أراد أن يصيح: «كانافارو! كانافارو»، لكن صوته علق في حنجرته.

كانت سيدته المسكينة تئنّ، ولم تتوقف ذراعاها الذوايتان المتهدلتان عن رفع الملاءة. كانت تختنق. لم تكن تضع مكياجاً على وجهها، وكان خداها منتفخين، تعبق منها رائحة عرق عفنة، ولحم بدأ يبلى ويتفسخ. وكان حذاؤها المهترئ الذي فقد شكله الحقيقي بارزاً من تحت السرير. كانت رؤيته تجعل قلبك يعتصر ألماً، فقد كانت رؤية هذا الحذاء أكثر تأثيراً من رؤية صاحبته نفسها.

كان زوربا جالساً عند طرف سريرها، يحدق في الحذاء. لم يتمكن من رفع عينيه عنه. كان يعضّ شفتيه ليحبس دموعه. دخلت وجلست خلف زوربا، لكنه لم يسمعني.

كانت المرأة المسكينة تجد صعوبة في التنفّس. كانت تختنق. أنزل زوربا قبعة مزدانة بالورود الاصطناعية وراح يهوّي لها بها. أخذ يحرك يده الكبيرة إلى

الأعلى وإلى الأسفل بسرعة كبيرة وبشكل أخرق وكأنه يحاول أن يوقد قطعاً رطبة من الفحم.

فتحت عينيها بذعر وتطلعت حولها. كان الظلام يعم المكان ولم تستطع أن ترى أحداً، ولا حتى زوربا الذي كان يحرّك قبعتها المزّهرة أمام وجهها ليجلب لها الهواء.

كان كلّ شيء مظلماً ومزعجاً حولها كانت تتصاعد أبخرة زرقاء من الأرض ويتغير شكلها كانت تشكّل أفواهاً هازئة، أقداماً تشبه المخالب، أجنحة سوداء.

غرزت أظافرها في وسادتها المبقّعة بالدموع واللعاب والعرق، وصرخت.

«لا أريد أن أموت! لا أريد أن أموت!».

لكن النادبتين في القرية كانتا قد سمعتا بحالها وجاءتا على الفور. انسلتا إلى الغرفة، وتربعتا على الأرض واستندتا إلى الحائط.

رآهما الببغاء بعينيه المدورتين المحدقتين، وغضب. مدّ رأسه وصاح: «كاناف. .» لكن زوربا مدّ يده بقسوة إلى القفص وأخرس الطير

ومرة أخرى انطلقت صيحة اليأس.

«لا أريد أن أموت! لا أريد أن أموت!».

مدّ شابان أمردان، سمّرتهما الشمس، رأسيهما من الباب، وحدقا ملياً في المرأة المريضة. وغمز أحدهما الآخر واختفيا.

بعد لحظات، سمعنا صوت نقيق مفزع وصفق أجنحة من الفناء. كان أحدهم يطارد الدجاج.

التفتت النادبة الأولى، مالاماتينيا العجوز، إلى رفيقتها وقالت:

«هل رأيتهما يا عمتي لينيو، هل رأيتهما؟ إنهما مستعجلان، هذان التعيسان الجائعان. إنهما سيلويان أعناق الدجاجات ويلتهمانها لقد تجمع رعاع القرية في الفناء، وسرعان ما ينهبون البيت!».

ثم التفتت إلى سرير المرأة المحتضرة، ودمدمت نافذة الصبر:

«هيا أسرعي وموتي يا صديقتي، أسلمي الروح بسرعة كي تتاح لنا الفرصة كالآخرين».

«أقول لك بصدق الله»، قالت العمّة لينيو، مجعّدة فمها الصغير الخالي من الأسنان، «أيتها الأمّ مالاماتينيا، إنهم يفعلون الصواب، هؤلاء الصبية. إذا أردت أن تأكل شيئاً، فاسرق؛ وإذا أردت أن تمتلك شيئاً، فانشل.. هكذا كانت أمّي العجوز تقول لي. يجب أن نحصل على حصتنا بأسرع ما يمكن، أن نضع أيدينا على حفنة من الرزّ، وقليل من السكّر، وعلى قِدْر، وبعدها يمكننا أن نبارك ذكراها. فليس لها أبوان أو أطفال، لذلك من سيأكل دجاجاتها وأرانبها؟ ومن سيشرب نبيذها؟ ومن سيرث كلّ هذا القطن والأمشاط والحلويات والأشياء؟ ها، ماذا تتوقعين، يا أمّ مالاماتينيا؟ فليغفر لي الله، لكن هكذا يسير العالم، وأنا أريد أن آخذ بعض الأشياء».

«انتظري قليلاً يا عزيزتي، لا تكوني في عجلة من أمرك»، قالت الأمّ مالاماتينيا، وأمسكت بذراعها، وأضافت، «لقد خطرت ببالي الفكرة نفسها. لا يهمني أن أعترف بذلك، لكن انتظري حتى تسلم الروح».

في هذه الأثناء، كانت المرأة المحتضرة تتلمس بشكل مسعور تحت وسادتها. فما إن خطر لها أنها في خطر حتى أخرجت من صندوقها تمثالاً صغيراً للمسيح المصلوب مصنوعاً من العظم الأبيض ودسته تحت وسادتها. كانت قد نسيته منذ سنوات وقبع في قعر الصندوق بين قمصان نومها الرثّة، وقطع المخمل وأسمالها البالية. وكأن المسيح دواء لا يتناوله المرء إلا عندما يشتد به المرض، وليس له فائدة ما دام المرء ينعم بصحة جيدة وبأوقات سعيدة، ويأكل ويشرب ويضاجع.

وعثرت يدها أخيراً على تمثال المسيح المصلوب وضمته بقوة إلى صدرها المبلل بالعرق.

«حبيبي المسيح، عزيزي المسيح . »، قالت بلهفة وحماسة شديدتين، وضمت حبيبها الأخير إلى صدرها.

لكن كلماتها التي كانت مزيجاً من اليونانية والفرنسية، لكن المفعمة بالرقة والعاطفة، كانت مضطربة للغاية. سمعها الببغاء. وأحسّ أن نبرة صوتها قد تغيّرت، وتذكّر الليالي المؤرقة الطويلة في الماضي، فتحمس على الفور.

«كانافارو! كانافارو!» أخذ يصيح بصوت أجش، مثل ديك ينعق في الشمس

لم يحاول زوربا أن يسكته هذه المرة، بل نظر إلى المرأة وهي تبكي وتقبّل تمثال المسيح المصلوب، وارتسمت طلاوة غير متوقّعة على وجهها المنهك.

فُتح الباب، ودخل أناغنوستي العجوز بهدوء حاملاً قبعته بيده.

اقترب من المرأة المريضة، انحنى وجثا أمامها، وقال لها:

«اغفري لي يا سيدتي العزيزة، اغفري لي، وليغفر الله لك. لو كنت قد قلت لك أحياناً كلمة قاسية، فنحن مجرد رجال. اغفري لي».

لكن الروح الغالية كانت مستلقية الآن بهدوء، غارقة في سكينة لا توصف، ولم تسمع ما قاله أناغنوستي العجوز. فقد تلاشت جميع عذاباتها ـ شيخوختها غير السعيدة، كلّ كلمات الاحتقار والسخرية، والكلمات القاسية التي تحملتها، والأمسيات الحزينة التي أمضتها وحيدة أمام باب بيتها، وهي تحيك جوارب صوفية سميكة. هذه الباريسية الأنيقة، هذه المرأة المغوية التي لم يكن يستطيع الرجال أن يقاوموا مفاتنها، والتي جعلت في أيام مجدها القوى العظمى الأربع تجثو أمامها، وحيّتها أربعة أساطيل!

كان لون البحر أزرق لازوردياً، والزبد يعلو الأمواج، والقلاع البحرية ترقص في الميناء، وكانت أعلام من ألوان عديدة ترفرف من فوق كلّ سارية. وكان بإمكانك أن تشم رائحة شواء طير الحجل وسمك البوري الأحمر على المشواة، وفواكه ريانة حُملت إلى المائدة في صحون من الكريستال، وسدادات قناني الشمبانيا تتطاير إلى السقف.

لحى سوداء وشقراء، لحى حمراء ورمادية، أربعة أنواع من العطور ـ البنفسج والكولونيا والمسك والعنبر. كانت أبواب المقصورة المعدنية مغلقة، والستائر الثقيلة مسدلة، والأضواء منارة. أغمضت السيدة هورتينس عينيها. ولم تدم كلّ حياتها من العشق، كلّ حياتها من العذاب ـ آه يا الله العظيم! أكثر من ثانية.

تتنقل من ركبة إلى ركبة، تحضن بين ذراعيها بدلات عسكرية موشاة بالذهب، وتدفن أصابعها في اللحى السميكة المعطّرة. لا تستطيع أن تتذكر أسماءهم أكثر مما يتذكر ببغاؤها. إنها لا تتذكّر إلا كانافارو، لأنه كان أصغرهم، والاسم الوحيد الذي استطاع الببغاء أن ينطقه. أما أسماء الآخرين فكانت معقّدة ويصعب نطقها، لذلك أصبحت في غياهب النسيان.

زفرت السيدة هورتينس تنهيدة عميقة، وضمت تمثال المسيح المصلوب بحب وحماس شديدين.

«حبيبي كانافارو، حبيبي كانافارو الصغير. . » راحت تهمهم في هذيانها، وتضمه بقوة إلى صدرها المترهل.

«بدأت لا تعرف ماذا تقول»، همهمت العمّة لينيو، «لا بدّ أنها رأت ملاكها الحارس واعتراها الخوف   سنحلّ مناديلنا ونقترب أكثر».

«ماذا! ألا توجد فيك ذرة من الخوف من الله، إذن؟» قالت الأمّ مالاماتينيا، «هل تريدين أن نبدأ بالإنشاد وهي لا تزال حيّة ترزق؟».

«ها، يا أمّ مالاماتينيا»، دمدمت العمّة لينيو متذمّرة، «بدلاً من أن نفكر بصندوقها وبملابسها وبكلّ الأشياء الموجودة في الدكان، والدجاج والأرانب في الفناء، تقولين لي أن ننتظر حتى تلفظ أنفاسها الأخيرة! لا! أقول إن من يأتي أولاً، يحصل على الأشياء!».

وقفت وهي تتكلم، وتبعتها الأخرى غاضبة. حلتا منديليهما الأسودين، وأطلقتا شعرهما الأبيض الخفيف وأمسكتا بحواف السرير.

أعطت العمّة لينيو الإشارة عندما أطلقت صيحة ثاقبة طويلة تكفي لأن تجعل القشعريرة تسري في عمودك الفقري.

«ههههههههيييي!»

قفز زوربا، وأمسك المرأتين العجوزين من شعرهما وجرّهما إلى مكانيهما، وصالح بهما: «اخرسا يا غراب البين. ألا تريا أنها لا تزال على قيد الحياة؟ اذهبا إلى الجحيم!».

«أيها الأحمق العجوز!» قالت الأمّ مالاماتينيا متذمرة، وعقدت منديلها ثانية، « أريد أن أعرف من أين خرج لنا هذا الأحمق المتطفل!».

سمعت السيدة هورتينس، الغانية العجوز المتعبة، الصيحة الثاقبة بجانب سريرها. تلاشت نظرتها الجميلة، وغرقت سفينة الأدميرال، واختفى طائر الدرّاج المشوي، وقنينة الشمبانيا واللحى المعطّرة، واستسلمت إلى فراش الموت النتن في نهاية العالم. حاولت أن تنهض قليلاً، وكأنها تحاول أن تهرب، لكنها سقطت ثانية، وأخذت تصيح بهدوء: «لا أريد أن أموت! لا أريد أن أموت.

انحنى زوربا إلى الأمام ولمس جبينها بيده الضخمة، وأبعد الشعر الذي التصق بوجهها، واغرورقت عيناه الشبيهتان بعيني الطير بالدموع، وغمغم:

«اهدئي، يا عزيزتي، اهدئي. أنا هنا؛ أنا زوربا، لا تخافي».

وفجأة عادت الرؤية، مثل فراشة بحر خضراء ضخمة، ونشرت جناحيها فوق السرير كله. أمسكت المرأة المحتضرة يد زوربا الضخمة، ومدّت ذراعها ببطء ووضعتها حول رقبته عندما انحنى فوقها تحرّكت شفتاها.

«حبيبي كانافارو، حبيبي كانافارو الصغير ...».

انزلق تمثال المسيح المصلوب من فوق الوسادة، وسقط إلى الأرض وتهشم إلى قطع صغيرة. ولعلع صوت رجل في الفناء:

«هيا! ضع الدجاجة الآن، بدأ الماء يغلي».

كنت جالساً في إحدى زوايا الغرفة، وكانت عيناي تغرورقان بالدموع من حين لآخر. هذه هي الحياة، قلت لنفسي ـ متقلبة، متنافرة، لا مبالية، فاسدة عديمة الرحمة. وهؤلاء الفلاحون الكريتيون البدائيون يتحلقون حول مطربة الملاهي العجوز، يأتون من الطرف الآخر من الأرض، وبمتعة تخلو من الإنسانية يراقبونها وهي تحتضر، وكأنها ليست من البشر. وكأن طيراً غريباً ضخماً هبط من السماء وتحطم جناحاه، تجمع هؤلاء على شاطئ البحر القريب من قريتهم ليشاهدوه وهو يموت. طاووس هرم، قطّة أنغورة عجوز، فقمة عجوز مريضة.

أبعد زوربا برفق ذراع السيدة هورتينس من حول رقبته ووقف. كان شديد الشحوب. جفف دموعه بقفا يده، ونظر إلى المرأة المريضة لكنه لم يستطع أن يرى شيئاً. جفف عينيه ثانية، ورآها تحرّك قدميها المتورمتين العاجزتين في السرير، وتلوي فمها بذعر. هزّت نفسها مرّة، مرّتين، وانسل غطاء الفراش إلى الأرض وظهرت شبه عارية، يكسوها العرق، متورمة، وقد أصبح لونها أصفر مائلاً إلى الأخضر. وأطلقت صيحة ثاقبة مثل طير عندما تحز رقبته، ثم لبثت ساكنة، عيناها مفتوحتان على وسعهما، مرعوبتان، كابيتان.

قفز الببغاء إلى قعر قفصه، وتشبث بقضبان القفص وراح ينظر إلى زوربا وهو يمدّ يده الضخمة برقة شديدة، ليغلق جفنيّ عشيقته.

«بسرعة، جميعكم! لقد ذهبت»، صاحت النادبتان، واندفعتا إلى السرير. أطلقتا صيحة طويلة، وراحتا تتمايلان إلى الأمام والوراء، وأغلقتا قبضتيهما وراحتا تضربان صدريهما. وشيئاً فشيئاً، أحدثت رتابة هذا التذبذب الجنائزي الحزين فيهما حالة طفيفة من التنويم المغناطيسي، فقد اجتاحت أحزانهما عقليهما كالسمّ، وفُتح قلباهما وانطلقت أناشيد الرثاء.

«لا يليق بك أن تستلقي تحت التراب. . .».

خرج زوربا إلى الفناء. كان يريد أن يبكي، لكنه شعر بالخجل من البكاء أمام النساء. أذكر أنه قال لي ذات يوم: «إني لا أخجل من البكاء إذا كان أمام الرجال. فثمة وحدة تجمع بين الرجال، أليس كذلك؟ إنه ليس عار. أمام النساء، يجب على الرجل أن يثبت دائماً أنه شجاع. لأننا إذا بدأنا نبكي أيضاً فماذا سيحدث لهذه المخلوقات المسكينة؟ ستكون النهاية».

غسلوها بالنبيذ. وأخرجت المكفنّة العجوز من صندوق ثياباً نظيفة وغيرت ثيابها، ودلقت عليها زجاجة من ماء الكولونيا. ومن البساتين القريبة هبّت أسراب ذباب الموت وفقس بيوضه في فتحتي أنفها، وحول عينيها وفي زوايا شفتيها.

كان الليل قد بدأ يهبط. كانت السماء في الغرب هادئة على نحو جميل، وكانت سحب حمراء صغيرة موشاة بالذهب عند حوافها تبحر ببطء في سماء المساء الداكنة الأرجوانية، تبدو حيناً أشبه بالسفن، وحيناً آخر تبدو كالبجعات، وفي أحيان أخرى مثل وحوش أسطورية مصنوعة من قطن طبي وحرير مهترئ. كان بوسعك أن ترى من بين أعواد القصب في الفناء موجات البحر المتلاطمة المتلألئة.

طار غرابان مكتنزان من فوق شجرة تين قريبة، وراحا يمشيان في الفناء ذهاباً وإياباً. التقط زوربا بغضب حصاة وألقاها عليهما.

وفي الزاوية الأخرى من الفناء، أعدّ لصوص القرية وليمة ضخمة. فقد أخرجوا طاولة المطبخ الكبيرة، وأخرجوا الخبز والصحون والسكاكين والشوكات. وأحضروا من القبو دمجانة نبيذ، وطهوا عدداً من الدجاجات في القِدر أخذوا يأكلون ويشربون بتلذذ ونهم ويقرعون الكؤوس.

«فليحفظ الله روحها! ولينجّها من العقاب».

«وليجعل جميع عشاقها ملائكة يحملون روحها إلى السماء».

«انظر إلى زوربا العجوز»، قال مانولاكاس، «إنه يرمي الغربان بالأحجار! لقد

أصبح أرملاً الآن. لنطلب منه أن نشرب إكراماً لذكرى امرأته! مرحباً يا زوربا! تعال وانضم إلينا يا ابن بلدنا».

التفت زوربا. رأى المائدة مليئة. الدجاجات التي ينبعث منها البخار في الصحون، والنبيذ يتلألأ في الكؤوس، والأشخاص البدينين الذين سمّرتهم الشمس يجلسون مبتهجين وقد عقدوا أوشحتهم حول رؤوسهم. وعادت تتملكهم غريزة الشباب.

«زوربا، زوربا!» همهم، «تماسك! هنا يجب أن تظهر حقيقة معدنك».

توجه إليهم، وشرب كأساً في جرعة واحدة، ثم كأساً ثانية، وثالثة، والتهم ساق دجاجة. تحدثوا إليه، لكنه لم يجب. أكل وشرب بسرعة، بشراهة، بلقمات ضخمة، وجرعات طويلة، صامتاً. وظل ينظر نحو الغرفة حيث تستلقي بوبولينا وصوت التراتيل الجنائزية يتسلل من النافذة المفتوحة. ومن حين لآخر، كانت أصوات التراتيل تتوقف لتُسمع أصوات صيحات، وكأن شجاراً قد اندلع، وتُسمع أصوات فتح وإغلاق خزائن وصناديق وأصوات خطوات سريعة وثقيلة وكأن الناس يتشاجرون. ثم تعود أصوات التراتيل ثانية، رتيبة، حزينة، أصوات دندنة ناعمة كالتي تنبعث من نحلة.

كانت المرأتان تجريان في أرجاء الغرفة التي سجيت فيها المرحومة، تندبان وهما لا تتوقفان عن التفتيش والنبش على نحو محموم في كلّ زاوية صغيرة. فتحتا الخزانة ووجدتا عدّة ملاعق صغيرة، وقليلاً من السكّر، وعلبة بن وصندوقاً من حلوى اللقم. فانقضت العمّة لينيو عليها واستولت على البن واللقم. أما الأمّ مالاماتينيا العجوز فقد استولت على السكّر والملاعق. والتقطت قطعتين من اللقم ودفعتهما في فمها، وجاء صوت الإنشاد مكتوماً ومخنوقاً بسبب العجينة السكّرية التي تملأ فمها.

«فلتمطر الأزهار عليك وليسقط التفاح في حضنك. . ».

زحفت امرأتان عجوزان أخريان إلى الغرفة، واندفعتا إلى الصندوق،

وغاصت أيديهما في قعره، والتقطتا بضعة مناديل صغيرة، ومنشفتين أو ثلاث مناشف، وثلاثة أزواج من الجوارب الحريرية، وربطة ساق، ودستاها في صدريهما، ثم اتجهتا إلى المرأة الميتة المسجاة على السرير ورسمتا شارة الصليب.

رأت الأم مالاماتينيا المرأتين العجوزين تسرقان الصندوق مما جعلها تستشيط غضباً.

«تابعي، استمري يا عزيزتي، فلن أكون الثانية»، قالت للعمّة لينيو، وغاصت برأسها في الصندوق.

قطع قديمة مهترئة من الساتان، ثوب بنفسجي قديم، صنادل حمراء عتيقة، مروحة مكسورة، مظلة قرمزية جديدة، وفي قعر الصندوق، قبعة أدميرال بثلاث حواف. هدية كان قد قدمها أحدهم إلى بوبولينا منذ أمد بعيد، كانت تعتمرها أحياناً عندما تكون وحدها في البيت، وتتأمل نفسها في المرآة بحزن.

اقترب أحدهم من الباب. خرجت النساء العجائز، فيما أمسكت العمّة لينيو فراش الموت مرة أخرى، وبدأت تلطم على صدرها وهي تصيح:

«. وأكاليل من القرنفل حول عنقك. .».

دخل زوربا، نظر إلى المرأة الميتة الهامدة والساكنة الآن، الصفراء اللون التي يغطيها الذباب، مستلقية وذراعاها متصالبتان، وشريط مخملي صغير حول رقبتها.

«حفنة من التراب»، قال لنفسه، «حفنة من التراب تجوع. وتضحك، وتقبّل. كتلة من الطين تذرف دموعاً بشرية. والآن؟ من أتى بنا بحق الشيطان إلى هذه الأرض»، وبصق وجلس.

وفي الباحة، كان الشبان يستعدون للرقص. ووصل أخيراً عازف القيثارة الماهر، فانوريو، وأزاحوا الطاولات جانباً، وأبعدوا علب الكيروسين، وحوض الحمام، وسلة الثياب، ليفسحوا مجالاً للرقص.

وجاء أعيان القرية: العمّ أناغنوستي بقميصه الأبيض، حاملاً عصاه المعقوفة الطويلة؛ وكوندومانوليو، البدين القذر؛ ومدير المدرسة، الذي يضع محبرة نحاسية كبيرة في حزامه وقلماً أخضر وراء أذنه. ولم يكن مافراندوني العجوز هناك، فقد توجه إلى الجبال كطريد عدالة.

«سعيد برؤيتكم»، قال العمّ أناغنوستي، ورفع يده محيياً، «سعيد برؤيتكم وأنتم تستمتعون بوقتكم! بارك الله فيكم جميعاً! لكن لا تصرخوا. .. يجب ألا تصرخوا. فالميت يستطيع أن يسمع ويتذكّر، إن الميت يستطيع أن يسمع».

وقال كوندومانوليو موضحاً:

«جئنا لنجرد ممتلكات الميتة كي نوزعها على الفقراء. لقد أكلتم وشربتم حتى امتلأت بطونكم، والآن يكفي ذلك. لا تجردّوا المكان كله من محتوياته! انظروا»، ولوّح بعصاه في الهواء مهدداً.

ووراء الأعيان الثلاثة ظهرت عشر نساء رثات الثياب، مشعثات الشعور وحافيات الأقدام، وحملت كلّ منهن كيساً فارغاً تحت ذراعها وسلة على ظهرها. دخلن خلسة، خطوة خطوة، دون أن تنبس إحداهن بكلمة.

التفت العمّ أناغنوستي، وعندما رآهن صاح فيهن: «عدن أيتها الغجريات. ماذا؟ جئنا لندقق الممتلكات؟ إننا سنسجل كلّ شيء، كل قطعة، ثم سنوزعها بالعدل على جميع الفقراء. هيا عدن!».

أخرج مدير المدرسة المحبرة الطويلة من حزامه، وفتح ورقة كبيرة وتوجه إلى الدكان الصغير ليبدأ عملية الجرد.

لكن في تلك اللحظة، سُمعت ضوضاء تبعث على الصمم، وكأن أحداً يقرع فوق علب من الصفيح، وكأن بكرات من القطن تتساقط، وكؤوساً تُقرع معاً وتتكسر وسُمع في المطبخ ضجيج شديد بين القدور والصحون والملاعق.

هرع كوندومانوليو العجوز إلى هناك، ملوّحاً بعصاه. لكن ماذا يمكنه أن يفعل؟ فقد اندفعت النساء العجائز والرجال والأطفال عبر الأبواب، وقفزوا من

النوافذ المفتوحة، ومن فوق الأسيجة ومن الشرفة، يحمل كلّ منهم ما استطاع أن يضع يده عليه من القدور والمقالي والملاءات والأرانب. وأخذ بعضهم أبواباً أو نوافذ بعد أن فكوها من مفصلاتها ووضعوها على ظهورهم. واستولى ميميكو على الحذاء النسائي، وربطه في خيط وعلّقه حول رقبته وكأن السيدة هورتينس تجلس على كتفيه، لا يُرى منها سوى حذائها.

قطّب مدير المدرسة حاجبيه، وأعاد المحبرة إلى حزامه، وطوى الورقة البيضاء العذراء، ثم، ودون أن ينبس بكلمة، وبشعور بأن كرامته قد امتهنت، اجتاز عتبة البيت ومضى.

أما العمّ أناغنوستي العجوز المسكين فراح يصيح، مستجدياً الناس أن يتوقفوا، ملوّحاً بعصاه عليهم.

«إنه عار! إنه خزي! الموتى يستطيعون أن يسمعوكم، تذكروا ذلك!»

«هل أذهب وأدعو الكاهن؟» قال ميميكو.

«أي كاهن، أيها الأحمق؟» قال كوندومانوليو بعنف، وأضاف: «إنها إفرنجية؛ ألم تر كيف كانت ترسم شارة الصليب؟ بأربعة أصابع ـ مثل الكفار! هيا، لنضعها تحت الأرض، لكي لا تفوح منها رائحة النتن وتصيب القرية كلها بالعدوى!».

«لقد بدأت الديدان تملأ جسدها، بحق الصليب المقدّس!» قال ميميكو، وهو يرسم شارة الصليب.

هزّ العمّ أناغنوستي، كبير رجال القرية، رأسه الصغير.

«وما الغرابة في ذلك، أيها الأبله؟ إنّ الحقيقة هي أن الديدان تملأ الإنسان منذ اليوم الذي ولد فيه، لكنك لا تستطيع أن تراها وعندما تجد أن الرائحة النتنة تبدأ تنبعث منك فإنها تخرج من جميع فتحاته ـ إنها بيضاء مثل دود الجبن!».

ظهرت النجمات الأولى وتدلت في السماء، ترتعش مثل أجراس فضّية صغيرة. لقد امتلأ الظلام كله بأجراس تقرع.

أنزل زوربا الببغاء وقفصه من فوق رأس المرأة الميتة. كان الطير اليتيم جاثماً في زاوية القفص مرعوباً. كان يحدّق بعينين متفرستين لكنه لم يكن يستطيع أن يفهم شيئاً. دّس رأسه تحت جناحيه وتكور على نفسه خائفاً.

عندما أنزل زوربا القفص نهض الببغاء. كان سيتكلّم لكن زوربا مدّ يده ليسكته.

«اصمت»، غمغم بنبرة مهدّئة، «اصمت! تعال معي».

انحنى زوربا إلى الأمام ونظر إلى وجه المرأة الميتة. نظر إليه ملياً، وأحس بحنجرته جافة ومشدودة.

انحنى، وكأنه سيقبّلها، لكنه توقف.

«هيا لنذهب، بحق السماء!» تمتم. حمل القفص وخرج إلى الفناء حيث رآني وجاء إليّ، وقال بصوت خفيض «دعنا نغادر الآن. . »، وأخذ ذراعي. بدا هادئاً، لكن شفتيه كانتا ترتعشان.

«سنمضي جميعنا في الدرب ذاته. . »، قلت له.

«هذا عزاء كبير» قال ساخراً، «هيا نذهب».

قلت: «انتظر لحظة، لقد بدأوا يحملونها. يجب أن نتمهّل قليلاً. ألا تستطيع أن تبقى دقيقة أخرى؟».

«حسناً. . » أجاب بصوت مخنوق. وضع القفص على الأرض وشبك ذراعيه.

خرج العمّ أناغنوستي وكوندومانوليو من غرفة الميتة حاسري الرأس، ورسما شارة الصليب. وخرج وراءهما أربعة من الراقصين، وورود نيسان لا تزال معلقة وراء آذانهم. كانوا جذلين، نصف سكارى، يحملون الباب الذي وضعوا فوقه

جثمان المرأة، يمسك كلّ منهم زاوية منه. وتبعهم عازف القيثارة يحمل آلته، وكان هناك عشرة رجال آخرون شبه منتشين، يسيرون، وخمس أو ستّ نساء، تحمل كلّ منهن قِدراً أو كرسياً. وكان ميميكو آخر من خرج، وحذاؤها النسائي معلق حول رقبته.

«قتلة! قتلة! قتلة!» راح يصيح مرحاً.

كانت تهّب ريح رطبة دافئة، وكان البحر هائجاً.

رفع عازف القيثارة قوسه ـ وانبعث صوته العذب مرحاً وساخراً في الليلة الدافئة:

«أيتها الشمس، كم تستعجلين الذهاب غرباً.

قال زوربا: «هيا لقد انتهى كل شيء الآن. . .».

[24]

سرنا صامتين في شوارع القرية الضيّقة. لم تكن الأضواء تنير البيوت، بل كانت تلقي ظلالاً سوداء في الليل. وفي مكان ما، كان ثمة كلب يعوي، وثور مخصي يئن. وحملت لنا الريح من بعيد صوت القيثارة البهيج، تتراقص وتتلاعب مثل مياه النافورة.

ولكي أكسر صمتنا الثقيل قلت: «زوربا، ما هذه الرياح الجنوبية؟».

لكن زوربا واصل سيره أمامي، وهو يحمل قفص البغاء وكأنه يحمل فانوساً، ولم يجبني. وعندما وصلنا إلى الشاطئ التفت إليّ وسألني:

«هل أنت جائع يا معلّم؟».

«لا، لست جائعاً يا زوربا».

«هل تشعر بالنعاس؟».

«لا».

«ولا أنا. هل نجلس على الحصى قليلاً؟ لديّ شيء أريد أن أسألك إياه».

كنا متعبين، لكن لم يكن أحدنا يرغب في أن ينام. لم نكن نرغب في أن نفقد مرارة تلك الساعات القليلة الماضية، وبدا لنا النوم كالهروب في ساعة الخطر. كنا نشعر بالخجل من أن نأوي إلى الفراش.

جلسنا بالقرب من البحر. وضع زوربا القفص بين ركبتيه، ولبث صامتاً لفترة من الزمن. ظهرت في السماء من وراء الجبل كوكبة مرتعشة من النجوم، وحش ذو عيون لا تعد ولا تحصى وله ذيل حلزوني. وبين الحين والآخر، كان ثمة نجمة تنفصل عن مجموعتها وتتلاشى في السماء.

نظر زوربا إلى السماء فاغراً فمه بشيء من النشوة، وكأنه يراها لأول مرة.

«ماذا تظن أنه يجري هناك؟» غمغم.

وبعد لحظة قرّر أن يتكلم.

«هل تستطيع أن تخبرني يا معلّم»، قال، وبدا صوته عميقاً وجاداً في هذه الليلة الدافئة، «ماذا تعني كلّ هذه الأشياء؟ من صنعها جميعها؟ ولماذا؟ والأهم من كل ذلك» ـ هنا ارتعش صوت زوربا بالغضب والخوف ـ «لماذا يموت الناس؟».

«لا أعرف يا زوربا»، أجبت، وخجلت، وكأنني سُئلت عن أكثر الأشياء سهولة، وأكثرها أهمية، لكن لم يكن بوسعي أن أجيب عنها

«إنك لا تعرف!» قال زوربا وجال بنظره بدهشة، وبدت عليه ذات القسمات التي ارتسمت على وجهه في الليلة التي اعترفت له فيها بأنني لا أعرف كيف أرقص.

لبث صامتاً لوهلة ثم انطلق فجأة.

«حسناً، كلّ هذه الكتب اللعينة التي تقرأها ـ ما الفائدة منها؟ لماذا تقرأها؟ إن لم تكن تخبرك عن ذلك، فعما تخبرك؟».

«إنها تحدثني عن حيرة الإنسان الذي لا يستطيع أن يجيب عن السؤال الذي طرحته عليّ الآن يا زوربا».

«أوه، اللعنة على حيرتهم!» صاح وهو يخبط قدمه بالأرض بحنق.

بدأ الببغاء يتحرك لسماعه هذه الضوضاء

«كانافارو! كانافارو!» صاح، وكأنه يطلب النجدة.

«اخرس! أنت أيضاً! »صاح زوربا، وهو يخبط على القفص بقبضته.

التفت إليّ.

«أريدك أن تخبرني من أين أتينا وإلى أين سنذهب. فقد أحرقت نفسك طوال

تلك السنوات واستنزفتها في قراءة كتب السحر الأسود، لا بدّ أنك مضغت أكثر من خمسين طناً من الورق! ماذا أفادتك؟».

كان هناك ألم شديد في صوته إلى حد أن قلبي أخذ يعتصر حزناً. كم كنت أتمنى أن يكون بمقدرتي أن أجيبه!

شعرت في أعماقي بأن أسمى غاية قد يبلغها الإنسان لا تكمن في المعرفة، أو في الفضيلة، أو في الطيبة، أو في النصر، بل في شيء أعظم من ذلك، أكثر بطولة، وأكثر يأساً: الرهبة القدسية!

«ألا تستطيع أن تجيبني؟» سأل زوربا قلقاً

حاولت أن أجعل رفيقي يفهم ماذا أقصد بالرهبة القدسية.

«إننا مجرد يرقات يا زوربا، يرقات دقيقة تتحرك على ورقة صغيرة فوق شجرة كبيرة. وهذه الورقة الصغيرة هي الأرض. أما الأوراق الأخرى فهي النجوم التي تراها تتحرك في الليل. إننا نشقّ طريقنا فوق هذه الورقة الصغيرة، نتفحصها بقلق ودقة. نشمها. رائحتها إما طيبة أو سيئة. نتذوقها ونجد أنها صالحة للأكل. نطأها فتصرخ وكأنها شيء حيّ».

«ويصل بعض الرجال ـ أكثرهم جرأة وشجاعة إلى حافة الورقة. ومن هناك ننحني ونحدّق في الفوضى. نرتعش. نقدّر كم أن الهاوية القابعة تحتنا مخيفة. ونسمع من بعيد صوت حفيف أوراق الشجرة الكبيرة الأخرى، ونشعر بالنسغ يصعد من الجذور إلى ورقتنا وتمتلئ قلوبنا. وعندما ننحني فوق الهاوية التي تبث فينا الرهبة، ترتعش أجسادنا وأرواحنا، خوفاً. ومن تلك اللحظة يبدأ ...».

توقّفت. أردت أن أقول: «من تلك اللحظة يبدأ الشعر»، لكن زوربا لن يفهم ما أقصده. فتوقّفت.

«ماذا يبدأ؟» سأل صوت زوربا بلهفة، «لماذا توقّفت؟».

«. يبدأ الخطر العظيم، يا زوربا. فالبعض يصاب بالدوار والهذيان، ويعتري البعض الآخر شعور بالخوف، فيحاولون أن يجدوا جواباً لتقوية قلوبهم، ويقولون: الله، ويقول آخرون ممن يقفون على حافة الورقة، وهم ينظرون إلى المنحدر بهدوء وشجاعة: إني أحبه».

فكّر زوربا طويلاً. كان يبذل جهداً كي يفهم. وقال أخيراً:

«إني أفكّر بالموت في كل ثانية. أنظر إليه ولا أخاف منه، لكني لا أقول على الإطلاق إني أحبّه. لا، إني لا أحبّه على الإطلاق! لا أوافق!».

لاذ بالصمت، لكنه سرعان ما انطلق ثانية.

«لا، فأنا لست من ذلك النوع الذي أمدّ رقبتي لكارون مثل خروف وأقول له: هيا اذبحني يا سيد كارون، أرجوك، فأنا أريد أن أذهب إلى الجنة مباشرة!».

استمعت إلى زوربا وأنا في حيرة من أمري. من هو الحكيم الذي حاول أن يعلّم أتباعه أن يفعلوا طوعاً ما يطلب القانون منهم أن يفعلوه؟ أن يقولوا «نعم» للضرورة، وأن يحوّلوا الحتمي إلى شيء يفعلونه بمحض إرادتهم الحرّة؟ ربما كانت تلك هي الطريقة الإنسانية الوحيدة للوصول إلى النجاة. إنها طريقة تافهة تثير الشفقة، لكن لا يوجد ثمة طريق آخر.

«لكن ماذا عن الثورة؟ ردّ الفعل الفخور والخيالي الذي تقوم به البشرية لتقهر الضرورة ولتجعل القوانين الخارجية تتوافق مع القوانين الداخلية للروح، أن تنكر كلّ شيء موجود، وأن تخلق عالما جديداً وفق قوانين قلبك التي تناقض قوانين الطبيعة التي لم يضعها الإنسان ـ أن تخلق عالماً جديداً أكثر نقاء، أفضل وأكثر أخلاقية من العالم الموجود الآن؟»

نظر زوربا إليّ، وعندما رأى أنه لم يعد لديّ ما أقوله، رفع القفص بحرص شديد لكي لا يوقظ الببغاء، ووضعه بجانب رأسه، وتمدد على الحصى، وقال:

«طابت ليلتك يا معلّم. هذا يكفي»

بدأت تهب ريح جنوبية قوية من أفريقيا الريح التي تجعل الخضراوات والفواكه والنهود في كريت تنضج وتمتلئ. أحسست بها على جبهتي وشفتيّ ورقبتي، ومثل ثمرة تشقق عقلي وامتلأ.

لم يغمض لي جفن. لم أكن أفكّر بشيء. بل أحسست شيئاً، شخصاً يكبر وينضج في داخلي في هذه الليلة الدافئة. لقد عشت بطريقة شفافة وصافية تجربة غريبة: لقد رأيت نفسي أتغيّر. إنه شيء لا يحدث عادة إلاّ في أشد الأعماق حلكة في أمعائنا. لقد بدأ يحدث هذه المرة في العراء، أمام عينيّ. متربعاً بجانب البحر، رحت أشاهد هذه المعجزة تحدث.

بهت ضوء النجوم، وأضاءت السماء. وظهرت الجبال والأشجار وطائر النورس إزاء هذه الخلفية المضيئة، وكأنها مرسومة بخط رفيع بالحبر.

بدأ الفجر يبزغ.

مرت عدّة أيام. كانت الذرة قد نضجت، وامتلأت أكوازها بالحبوب وأصبحت ثقيلة وراحت تتدلى. وعلى أشجار الزيتون، كانت حشرة الزيز تحفر الهواء بمنشارها، وحشرات متلألئة تصدر همهمة في الضوء المحترق. كان البخار يتصاعد من البحر.

وفي فجر كلّ يوم كان زوربا ينطلق بصمت إلى الجبل. فقد كان تركيب السكة المعلقة على وشك أن ينتهي. ورُكِّبت الأبراج في مواقعها، وشُدَّ الكابل، وثُبّتت البكرات. كان زوربا يعود من عمله عند الغروب منهكاً، ويشعل النار، ويعّد وجبة العشاء ونتناول طعامنا. كنا نحرص على ألا نثير الشياطين الهاجعة في داخلنا ـ الموت والخوف. فلم نعد نتحدث عن الأرملة، أو عن السيدة هورتينس، أو عن الله. وكنا نحدّق بصمت في البحر

وبسبب صمت زوربا، كانت تنبعث في داخلي مرة أخرى الأسئلة الأبدية لكن العقيمة. ومرة أخرى عاد صدري يمتلئ بالألم. ورحت أتساءل: ما هذا العالم؟

إلام يهدف، وكيف نتمكن من بلوغه خلال فترة حياتنا العابرة؟ إن هدف الإنسان والمادة يكمن في أن يخلق البهجة، حسب رأي زوربا، بينما يقول آخرون إن الهدف يكمن في «خلق الروح»، والنتيجة واحدة لكن من زاوية أخرى. لكن لماذا؟ ما الهدف؟ فعندما يتحلل الجسد، هل يبقى شيء مما ندعوه الروح؟ أم أن شيئاً لا يبقى؛ وهل أن رغبتنا التي لا تنطفئ في بلوغ الخلود لا تنبع من الحقيقة بأننا خالدون، بل من الحقيقة بأننا خلال فترة حياتنا القصيرة نكون في خدمة شيء خالد؟

ذات يوم، نهضت واغتسلت وبدا لي أن الأرض هي أيضاً نهضت واغتسلت. وأشرقت وكأنها قد خلقت من جديد. هبطت إلى القرية. إلى يساري، كان البحر الأزرق الداكن هامداً لا يتحرك، وإلى يميني، كانت حقول القمح تتألق مثل جيش يرفع عدداً كبيراً من الرماح الذهبية. مررت من تحت شجرة تين سيدتنا الشابة التي تكسوها أوراق خضراء وحبات تين صغيرة، وعندما مررت من جانب حديقة الأرملة، أخذت أغذّ الخطى ولم ألتفت إليها، ودخلت إلى القرية. أصبح الفندق الصغير مهجوراً الآن، وقد خُلعت الأبواب والنوافذ، وراحت الكلاب تدخل إلى الفناء وتخرج كما يحلو لها، وكانت الغرف خاوية. وفي الغرفة التي أسلمت فيها الروح، اختفى السرير والصندوق والكراسي التي كانت موجودة فيها، ولم يبق سوى خفّ مهترئ ذي كعب بال، وورود حمراء للزينة في إحدى زوايا الغرفة. كان الخفّ لا يزال يحافظ بإخلاص على شكل قدم صاحبته. إن هذا الخفّ التعس لهو أكثر مودة وإخلاصاً من عقل البشر، إذ لم ينس محبوبته بعد.

عدت في وقت متأخر. كان زوربا قد أوقد النار وأخذ يستعدّ لطهي الطعام. وعندما رفع عينيه ليحييني، عرف على الفور أين كنت. قطّب حاجبيه. فبعد أيام عديدة من الصمت فتح قلبه في ذلك المساء وراح يتكلّم.

«عندما أتألم، يا معلّم»، قال، وكأنه يريد أن يبرر نفسه، «ينشطر قلبي إلى

شطرين. إنه قلب جريح ومثخن بالجراح، لكنه يلّم نفسه على ذاته كي لا يري جراحه. إني مليء بالجروح الملتئمة، لذلك لا أستطيع أن أتحمل المزيد».

«لقد نسيت بوبولينا المسكينة بسرعة يا زوربا»، قلت بنبرة فظة لشخص مثلي.

انزعج زوربا ورفع صوته، وصاح:

«طريق جديد وخطط جديدة! لقد توقّفت عن التفكير بما حدث البارحة. وتوقّفت عن سؤال نفسي ما الذي سيحدث غداً. إن ما يحدث اليوم، في هذه اللحظة، هو كلّ ما أصبحت أهتمّ به. إني أسأل: ماذا تفعل في هذه اللحظة يا زوربا؟ إنّي نائم، حسناً، نم نوماً هانئاً، ماذا تفعل في هذه اللحظة يا زوربا؟ إني أعمل، حسناً، اعمل جيداً، ماذا تفعل في هذه اللحظة يا زوربا؟ إني أقبّل امرأة، حسناً، قبّلها جيداً يا زوربا! وانس كلّ شيء آخر وأنت تفعل ذلك؛ فلا يوجد أحد على وجه الأرض، إلا أنت وهي! تابع ولا تتوقف!».

توقف برهة ثم تابع كلامه:

«عندما كانت بوبولينا على قيد الحياة، لم يمتّعها كانافارو كما متّعتها أنا ـ بائع الأشياء القديمة ـ زوربا. هل تريد أن تعرف لماذا؟ لأن جميع الكانافارو في العالم، عندما كانوا يقبّلونها، لم يكونوا يتوقفون عن التفكير بأساطيلهم، أو بالملك، أو بكريت، أو برتبهم وأوسمتهم، أو بزوجاتهم. أما أنا فكنت أنسى كلّ شيء آخر، وكانت هي تعرف ذلك، تلك البغي العجوز. ودعني أخبرك هذا يا صديقي المتعلّم ـ لا توجد للمرأة متعة أكثر من هذه. فالمرأة الحقيقية ـ الآن استمع إلى ما سأقوله لك وأرجو أن يساعدك ـ تستمتع بالمتعة التي تمنحها للرجل أكثر من المتعة التي تحصل عليها منه».

انحنى ليلقم النار بالحطب ولاذ بالصمت.

نظرت إليه وغمرتني السعادة. أحسست بأن هذه الدقائق على هذا الشاطئ المهجور بسيطة لكنها ثرية من حيث قيمتها الإنسانية العميقة. كانت وجبة

عشائنا في كلّ مساء مثل الوجبات التي يعدها البحّارة عندما ينزلون إلى شاطىء مهجور ـ مليئة بالسمك والمحار والبصل والكثير من الفلفل. إنها شهية أكثر من أيّ طبق آخر، ولا يوازيها طعام لغذاء روح الرجل. هناك، عند حافة العالم، كنّا مثل رجلين جنحت بهما سفينتهما.

«سيعمل الخطّ بعد غد»، قال زوربا، متابعاً سلسلة أفكاره، «فأنا لم أعد أمشي على الأرض. أصبحت مخلوقاً هوائياً. أستطيع أن أحسّ بالبكرات على كتفيّ!».

سألته: «هل تذكر الطُعم الذي ألقيته لي في المطعم في بيرايوس، وقد التقطته؟ قلت إنك تستطيع أن تعدّ أنواع حساء رائعة ـ وهو الطبق الأثير لديّ. كيف عرفت ذلك؟».

هزّ زوربا رأسه بشيء من السخرية، وقال:

«لا أعرف يا معلّم. قلت لك ذلك لمجرد أنه خطر ببالي. الطريقة التي كنت جالساً فيها في زاوية المقهى، هادئاً. متحفظاً، منحنياً فوق ذلك الكتاب الصغير ذي الحواف المذهبة ـ لا أعرف، أحسست أنك تحبّ الحساء، هذا كلّ ما في الأمر».

توقّف فجأة وانحنى إلى الأمام، وأخذ ينصت، وقال: «اصمت، ثمة أحد قادم».

سمعنا وقع خطوات سريعة ولهاث شخص يجري، وظهر فجأة تحت الضوء المرتعش كاهن في ثوب ممزق، حاسر الرأس، ذو لحية حمراء وشارب صغير، فاحت منه رائحة كيروسين قوية.

«ها! أهلاً بك أيها الأب زخريا! »صاح زوربا، «ما الذي جعلك تبدو في مثل هذه الحالة؟».

تهاوى الكاهن على الأرض بجانب النار.

كانت ذقنه ترتجف. انحنى زوربا فوقه وغمزه.

«نعم»، قال الكاهن.

«برافو، أيها الكاهن!» صاح زوربا، «الآن من المؤكد أنك ستذهب إلى الجنة. لا بد أنك ذاهب إليها وستحمل صفيحة كيروسين بيدك وأنت تدخل!».

«آمين»، دمدم الكاهن، ورسم شارة الصليب.

«كيف تم ذلك؟ متى؟ هيا، أخبرنا».

«رأيت الملاك ميكائيل، يا أخ كانافارو. أصدر لي أمراً. اسمع كيف جرى الأمر: كنت في المطبخ أقطع الفاصولياء. كنت وحدي. كان الباب مغلقاً، وكان الرهبان يصلون صلاة الغروب. هدوء مطبق كان يخيم على المكان. كان بإمكاني أن أسمع تغريد العصافير في الخارج، وكان صوتها أشبه بصوت الملائكة. كنت قد أعددت كلّ شيء، ورحت أنتظر». اشتريت صفيحة من الكيروسين وخبأتها في المصلّى في المقبرة، تحت الطاولة المقدّسة نفسها، كي يباركها الملاك ميكائيل.

«وهكذا كنت جالساً بعد ظهر أمس أقطع الفاصولياء وكانت الجنة تدور في خلدي. رحت أقول لنفسي: يا إلهي، السيد المسيح، إني أستحقّ مملكة السماء أيضاً، وإني مستعدّ لأن أشرّط الفاصولياء إلى الأبد في مطابخ الجنة! هذا ما كنت أفكر به وكانت الدموع تسيل على وجهي. وفجأة سمعت صوت صفق أجنحة فوقي. فهمت وأحنيت رأسي، ورحت أرتعش من الخوف. ثم سمعت صوتاً يقول: يا زخريا، انظر إلى الأعلى ولا تخف. لكنني كنت أرتجف بقوة وتهاويت على الأرض. انظر إلى الأعلى يا زخريا! ردد الصوت ثانية. نظرت إلى الأعلى ورأيت. كان الباب مفتوحاً وكان يقف على العتبة الملاك ميكائيل، كما هو مرسوم على أبواب محراب الدير، هو ذاته بجناحين سوداوين، وصندلين أحمرين وهالة ذهبية؛ وبدلاً من أن يحمل سيفاً كان يحمل مشعلاً متقداً. قال: مرحباً يا زخريا! أنا خادم الله. فأجبته: بماذا تأمرني؟ فقال:

خذ المشعل المتقد، وليكن الرب معك. مددت يدي وأحسست براحة يدي تحترق. لكن الملاك اختفى. وكان كلّ ما رأيته خطّاً من النار في السماء، مثل شهاب».

جفف الراهب العرق من وجهه. أصبح شاحباً تماماً.

أخذت أسنانه تصطك وكأنه كان محموماً.

قال له زوربا: «تمالك نفسك يا زخريا! ماذا حدث بعد ذلك؟»

«في تلك اللحظة بالذات، بدأ الرهبان يخرجون من صلاة الغروب ودخلوا حجرة الطعام. وعندما مرّ رئيس الدير بجانبي، ركلني كما يركل كلباً، وأخذ الرهبان جميعهم يضحكون. لم أقل شيئاً. بعد زيارة الملاك، كانت رائحة الكبريت لا تزال تفوح في الهواء، لكن لم يلحظها أحد. ثم قال لي الشماس، زخريا، ألن تأكل؟ لم أجبه».

«طعام الملائكة يكفيه! قال ديميتريوس، ذلك اللوطي. ضحك الرهبان جميعهم ثانية. لذلك نهضت وذهبت إلى المقبرة. سجدت أمام الملاك. ولساعات عديدة أحسست بثقل قدمه على رقبتي. مرّ الوقت كالبرق. هكذا تمر الساعات والقرون في الجنة. جاء منتصف الليل. كان كلّ شيء هادئاً. ونام الرهبان. نهضت، رسمت شارة الصليب وقبّلت قدم الملاك وقلت ولتكن مشيئتك. أخذت صفيحة الكيروسين، فتحتها وذهبت. كنت قد حشوت عباءتي بالخرق».

«كان الليل أسود كالحبر. لم يبزغ القمر بعد. كان الدير مظلماً، مظلماً كالجحيم. دخلت إلى الفناء، صعدت الدرج ووصلت إلى جناح رئيس الدير. ألقيت الكيروسين فوق الباب وفوق النوافذ والجدران. هرعت إلى غرفة ديميتريوسن، وصببت الكيروسين في أرجاء الغرفة وفي الردهة الخشبية الكبيرة كما قلت لي. ثم دخلت إلى المصلى، وأوقدت شمعة من المصباح أمام تمثال المسيح وأضرمت النار».

كان الزاهب منقطع الأنفاس الآن، وتوقّف عن الكلام. كانت عيناه تتقدان بلهيب داخلي.

«ليتمجد اسم الرب»، جأر ورسم شارة الصليب، « ليتمجد اسم الرب!» وما هي إلا لحظات، حتى بدأت ألسنة اللهب تشتعل في الدير كله. وصحت بأعلى صوتي لهيب نار جهنم، ثم أطلقت ساقي للريح. أخذت أجري وأجري، وسمعت صوت الأجراس تقرع، والرهبان يصيحون. وأنا أجري وأجري.

«لقد أزف اليوم. اختبأت في الغابة. كنت أرتجف. أشرقت الشمس وسمعت الرهبان يفتّشون عني في الغابة. لكن الله أرسل سحابة غلفتني ولم يروني. وقبيل الغروب، سمعت صوتاً يقول: اذهب إلى البحر! ابتعد! فصحت، وجّهني، وجّهني أيها الملاك! ورحت أجري. لم أكن أعرف في أيّ طريق سأمضي، لكن الملاك وجّهني، أحياناً بوميض برق، وأحياناً أخرى بواسطة طير أسود في الأشجار، أو بواسطة درب هابط من الجبل. ورحت أجري وراءه بأسرع ما يمكنني، واثقاً منه تماماً. إن رحمته عظيمة، كما ترى! لقد وجدتك يا عزيزي كانافارو! لقد نجوت»

لم يفه زوربا بأي كلمة، لكن ارتسمت على وجهه ابتسامة حسّية عريضة، من زاويتيّ فمه حتى أذنيه المشعرتين اللتين تشبهان أذنيّ الحمار.

أصبح العشاء جاهزاً ورفع القِدر من على النار، ثم سأله:

«زخريا ما هو غذاء الملائكة».

«الروح»، أجاب الراهب، راسماً شارة الصليب.

«الروح؟ بمعنى آخر، الريح؟ هذه لا تغني ولا تسمن من جوع. تعال وتناول قليلاً من الخبز وقليلاً من حساء السمك وقطعة أو قطعتين من اللحم، وعندها ستعود لك حيويتك. لقد أحسنت صنعا، هيا كلْ».

«لست جائعاً»، قال الكاهن.

«زخريا ليس جائعاً، لكن ماذا عن يوسف؟ أليس هو جائع أيضاً؟».

«يوسف»، قال الراهب بصوت منخفض، وكأنه كشف لغزاً عميقاً، «لقد احترق، لعن الله روحه، لقد احترق، ليتمجد اسم الرب».

«احترق»، صاح زوربا ضاحكاً. «كيف؟ ومتى؟ هل رأيته يحترق؟».

«أخ كانافارو، لقد احترق في اللحظة التي أوقدت فيها الشمعة في مصباح السيد المسيح. رأيته بعينيّ هاتين يخرج من فمي مثل شريط أسود بأحرف من نار. فقد سقطت ألسنة لهيب الشمعة عليه وراح يتقلب مثل أفعى، لكنه احترق تماماً. إني أشعر بالراحة! ليتمجد اسم الرب! أحسّ وكأني دخلت الجنة».

نهض من جانب النار حيث كان متكوراً.

«سأذهب لأنام على شاطئ البحر. هذا ما أمرني به الملاك».

وسار على طول حافة الماء واختفى في سواد الليل.

«إنك مسؤول عنه يا زوربا»، قلت، «فإذا عثر عليه الرهبان فإنهم سيقضون عليه».

«لن يعثروا عليه، لا تقلق، يا معلّم. إني أعرف هذا النوع من الألعاب جيداً: ففي صباح غد سأحلق له لحيته، وأعطيه ثياباً إنسانية وأضعه في سفينة. لا تقلق عليه، لا يستحق كل هذا العناء. هل أعجبك الحساء؟ تناول خبز الإنسان واستمتع به، ولا تقلق نفسك بما تبقى من أشياء».

وبشهية رائعة أكل زوربا وشرب وجفف شاربه. وأراد الآن أن يتكلم. قال:

«هل لاحظت يا معلّم؟ لقد ماتت شياطينه. وأصبح المسكين الآن فارغاً منها، فارغاً تماماً، لقد انتهى. ومنذ الآن أصبح مثل الآخرين».

فكّر للحظة أو لحظتين.

«هل تظن يا معلّم أن شيطانه هذا كان. ؟».

«طبعاً»، أجبت، «إذ إن فكرة إحراق الدير كانت تتملكه. أما الآن فبعد أن

أحرقه فقد هدأت نفسه. كانت تلك الفكرة تريد أن تأكل اللحم، وتشرب النبيذ، وتنضج وتتحوّل إلى عمل. أما زخريا الآخر فلم يكن بحاجة إلى النبيذ أو اللحم. كان ينضج بالصوم».

قلّب زوربا هذا الأمر في رأسه كثيراً.

«أظن أنك محقّ، يا معلّم! أظن أنه توجد في داخلي خمسة أو ستة شياطين!»

«لدينا جميعنا شياطين يا زوربا، لا تقلق. وكلما كان لدينا شياطين أكثر، كان أفضل. والشيء الرئيسي أنها يجب أن تهدف جميعها إلى غاية واحدة، حتى لو سلكت طرائق مختلفة»

بدا أن هذه الكلمات قد أثرت على زوربا كثيراً. وضع رأسه الكبير بين ركبتيه وراح يفكّر.

«أيّ غاية؟» سأل أخيراً، رافعاً عينيه نحوي.

«كيف يمكنني أن أعرف يا زوربا؟ إنك تسأل أسئلة صعبة. كيف يمكنني أن أوضّح ذلك؟».

«قلها بعبارات بسيطة كي أفهمها. حتى الآن وأنا أدع شياطيني تفعل دائماً ما تشاء، وتسلك الطريق الذي تريده ـ ولهذا السبب يعتبرني البعض محتالاً، ويعتبرني آخرون صادقاً، ويظن البعض بأنني مجنون، ويقول آخرون إنني حكيم مثل سليمان. أنا كلّ هذه الأشياء، بل وأكثر بكثير ـ سَلَطَة روسية حقيقية. لذلك وضّح لي ما تقوله يا معلّم. .أيّ غاية تقصد؟».

«أظن يا زوربا ـ لكنني ربما أكون مخطئاً ـ أنه يوجد ثلاثة أنواع من الرجال: أولئك الذين يجعلون هدفهم، كما يقولون، أن يعيشوا حياتهم: أن يأكلوا ويشربوا ويمارسوا الجنس، ويصبحوا أغنياء ومشهورين؛ وهناك الذين يجعلون هدفهم ألا يعيشوا حياتهم، بل أن يشغلوا أنفسهم بحياة جميع البشر ـ فهم يشعرون أن البشر جميعهم شيء واحد ويحاولون تبصيرهم وتنويرهم، وأن

يحبوهم بقدر ما يستطيعون وأن يحسنوا صنعاً معهم؛ وأخيراً هناك الذين يكون هدفهم أن يعيشوا حياة الكون بكامله ـ كل شيء، الرجال، الحيوانات، الأشجار، النجوم، كلنا واحد، كلنا مادة واحدة نشارك في الكفاح الفظيع نفسه. أي كفاح؟ ويحولون المادة إلى روح».

حكّ زوربا رأسه.

«إن جمجمتي سميكة يا معلّم، لذلك فإني لا أفهم هذه الأشياء بسهولة. كنت أتمنى لو كنت تستطيع أن تعبّر عن كل ذلك بالرقص لفهمت ما تقوله بسهولة».

عضضت على شفتي بذعر. كم أتمنى لو كنت أستطيع أن أرقص كلّ تلك الأفكار البائسة! لكنّي لم أكن أستطيع؛ لقد ذهبت حياتي هدراً.

«أو لو كان بإمكانك أن تحكي لي كلّ ذلك في حكاية، يا معلّم. كما كان يفعل حسين آغا. كان تركياً عجوزاً، كان جاراً لنا، مسناً هرماً، مدقعاً في الفقر، لا زوجة له ولا أطفال، وحيد تماماً. وكانت ثيابه رثة، لكنها كانت تشع نظافة. كان يغسلها بنفسه، ويطهو طعامه بنفسه، ويفرك وينظف أرضية البيت، وفي الليل، كان يأتي لزيارتنا. كان يجلس في الفناء مع جدتي وعدد آخر من النساء العجائز ويحكن الجوارب».

«وكما كنت أقول، فقد كان حسين آغا هذا قديساً وذات يوم أجلسني على ركبته ووضع يده على رأسي وكأنه يباركني، وقال أليكسيس، سأقول لك سراً. فأنت صغير جداً لكي تفهم الآن، لكنك ستفهم عندما تكبر. اسمع يا صغيري: إن طبقات السماء السبع وطبقات الأرض السبع لا تكفي لكي تحتوي الله، أما قلب الإنسان فيستطيع أن يحتويه. لذلك احرص تمام الحرص يا أليكسيس ـ ولتصحبك مباركتي ـ على ألا تجرح قلب إنسان».

استمعت إلى زوربا بصمت. وقلت لنفسي كم أتمنى ألا أفتح فمي، حتى تصل الفكرة المجرّدة إلى ذروتها ـ وتصبح قصة! لكن الشعراء العظماء فقط هم

الذين يتمكنون من الوصول إلى هذه النقطة، أو الشعب، بعد قرون من الجهد الصامت.

استوى زوربا واقفاً.

«سأرى ماذا يريد جمرتنا ذاك أن يفعل، وأغطيه ببطانية كي لا يبرد. سآخذ مقصاً أيضاً. لن يكون عملاً صعباً»

انطلق وهو يضحك وسار على حافة البحر، وهو يحمل مقصاً وبطانية. كان القمر قد بزغ لتوه وراح ينشر نوراً باهتاً فوق الأرض.

وحيداً، بجانب النار التي أخذت تذوي، رحت أزن كلمات زوربا ـ كانت غنية في معناها وفيها رائحة تراب دافئة. كنت تشعر أنها تنبثق من أعماق كينونته ومع ذلك ففيها دفء إنساني. إن كلماتي مصنوعة من الورق. تأتي من رأسي، وقلما يكون فيها بقعة من الدم. وإذا كان لها أيّ قيمة على الإطلاق فهي تعزى إلى بقعة الدم فقط.

كنت مستلقياً على بطني، أحرّك الجمرات الدافئة عندما عاد زوربا، ذراعاه يلوحان إلى جانبيه، ونظرة دهشة ترتسم على وجهه.

«يا معلّم، لا تحزن كثيراً».

قفزت واقفاً.

قال: «لقد مات الراهب»

«مات؟»

«وجدته متكئاً إلى صخرة. كان تحت ضوء القمر تماماً. جثوت على ركبتي وأخذت أقص لحيته وما تبقى من شاربه. أخذت أقص وأقص لكنه لم يتزحزح. انفعلت وبدأت أحلقها له تماماً؛ لا بدّ أنني قصصت ما لا يقل عن رطل من الشعر من وجهه. وعندما رأيته هكذا، مجزوزاً مثل خروف، رحت أضحك بشكل هستيري! صحت: أقول يا سينيور زخريا! ورحت أهزّه وأنا

اضحك. استيقظ وشاهد المعجزة التي حققتها لك القديسة مريم! أفق أيها الملعون! لكنه لم يتزحزح! هزته ثانية. لم يحدث شيء! لا يمكن أن يكون قد أسلم الروح، هذا المسكين! قلت لنفسي. فتحت عباءته، وعرّيت صدره ووضعت يدي على قلبه. تك، تك، تك؟ لا شيء على الإطلاق! لقد توقف المحرّك!».

فيما كان يتكلم، استعاد زوربا حيويته. فقد أسكته الموت للحظة، لكنه سرعان ما أعاده إلى مكانه الصحيح.

«الآن، ما الذي سنفعله يا معلّم؟ أظن أننا يجب أن نحرقه. إن من يقتل الآخرين بالكيروسين يجب أن يهلك بالكيروسين هو نفسه. ألا يوجد شيء يشبه ذلك في الإنجيل؟ وبملابسه الوسخة والكيروسين فيها، سيشتعل مثل يهوذا نفسه في يوم الخميس المقدس!».

«افعل ما تشاء»، قلت، قلقاً

غرق زوربا في تأمل عميق، ثم قال أخيراً:

«إنه شيء مزعج حقاً. لو أضرمت النار فيه، فإن ثيابه ستشتعل مثل مشعل، لكنّه مجرد جلد وعظم هو نفسه، المسكين! بهذه النحافة سيستغرق وقتاً طويلاً كي يصبح رماداً. لا توجد في جسمه أونصة من الدهن تساعد النار».

وأضاف وهو يهزّ رأسه:

«لو كان الله موجوداً، ألا تظن أنه كان يعرف كلّ ما سيحدث سلفاً وجعله بديناً وممتلئاً بالشحم ليساعدنا في مهمتنا؟ ما رأيك؟».

«لا تحشرني في هذه الأمور على الإطلاق. افعل ما تشاء، لكن بسرعة».

«إن أفضل شيء هو أن تحدث معجزة من نوع ما! إذ سيعتقد الرهبان أنّ الله نفسه قد أصبح حلاقاً، وحلق له لحيته ثم عاقبه على ما اقترفته يداه بالدير».

حكّ رأسه.

«لكن ما هي المعجزة؟ ما هي المعجزة؟ هنا تدعو الحاجة إليك يا زوربا!».

كان هلال القمر على وشك أن يغيب تحت الأفق وكان لونه بلون النحاس المصقول.

كنت منهكاً، فأويت إلى الفراش. عندما صحوت عند الفجر، رأيت زوربا يصنع قهوة بالقرب مني. كان وجهه أبيض وعيناه منتفختين وحمراوين لأنه لم ينم. لكن ارتسمت على شفتيه الكبيرتين اللتين تشبهان شفتيّ العنزة ابتسامة خبيثة.

«لم يغمض لي جفن يا معلّم، لقد أديت بعض الأعمال».

«أي أعمال أيها الوغد؟».

«كنت أفعل المعجزة».

ضحك ووضع إصبعه على شفتيه وقال: «لن أخبرك! غداً حفل افتتاح سكة الحديد المعلقة. ستأتي جميع تلك الخنازير السمينة لتقدم بركاتها. عندها سيعرفون المعجزة الجديدة التي فعلتها عذراء الانتقام ـ قوتها العظيمة!».

قدّم لي القهوة. ثم قال:

«أظن أنني أستطيع أن أكون رئيس دير جيد. لو أقمت ديراً، فإني أراهنك بأني سأغلق جميع الأديرة الأخرى وآخذ جميع زبائنها. ما رأيك ببعض الدموع؟ إسفنجة مبللة صغيرة وراء الأيقونات وعندها يبكي القديسون عندما ترغب. تصفيق كالرعد؟ سأضع آلة تحت المنضدة المقدّسة ينبعث منها ضجيج يصمّ الآذان. أشباح؟ راهبان من أكثر الرهبان وفاء يطوفان في الليل فوق سطح الدير متدثرين بالشراشف. وفي كلّ سنة سأجمع حشداً من العجزة والعميان والمشلولين في يوم عيدها ليؤكدوا أنهم رأوا جميعهم نور النهار ثانية ويقفوا على أرجلهم ويرقصوا تمجيداً لها!».

«مم تضحك يا معلّم؟ كان لي عمّ عثر على بغل عجوز على وشك أن

يموت. كان قد تُرك في الجبال ليموت. فأخذه عمّي إلى البيت. وفي صباح كلّ يوم كان يأخذه إلى المرعى ويعيده في الليل. يا هارالامبوس! كان سكان القرية يقولون له وهو يمرّ بهم، ماذا تظن أنك فاعل بهذا البغل العجوز؟ إنه مصنعي لصناعة الروث! كان يجيب عمّي. حسناً يا معلّم، سيكون الدير في يدي مصنعاً للمعجزات».

[25]

لن أنسى ما حييت عشيّة اليوم الأول من شهر أيار. فقد أصبحت سكة الحديد المعلقة جاهزة، وأخذت الأبراج والكابل والبكرات تلمع في شمس الصباح، ووضعتِ أكداس من جذوع أشجار الصنوبر الضخمة عند قمة الجبل، ووقف العمّال هناك ينتظرون إشارة البدء لربط جذوع الأشجار بالكابل وإطلاقها لتصل إلى البحر.

وعند نقطة الانطلاق على سفح الجبل كان يرفرف علم يوناني ضخم فوق سارية، وعلم آخر مماثل في الأسفل بالقرب من البحر. ووضع زوربا أمام الكوخ برميلاً صغيراً من النبيذ، يقف إلى جانبه أحد العمّال يشوي خروفاً سميناً على السفود. وبعد الانتهاء من مراسم الافتتاح وتقديم التهاني والتبريكات، ستقدم كؤوس النبيذ إلى الضيوف الذين سيقدمون بدورهم أمنياتهم بالنجاح.

وكان زوربا قد أخذ قفص الببغاء ووضعه فوق صخرة عالية إلى جانب أول برج.

«كأنني أرى صاحبته»، دمدم وهو ينظر بولع إلى الطير، ثم أخرج من جيبه حفنة من الفستق وقدمها للببغاء.

كان زوربا يرتدي أفضل ما لديه من ثياب: قميصاً أبيض محلول الأزرار، وسترة خضراء، وبنطلوناً رمادياً وحذاء ذا حواف مطاطية. كما كان قد حلق شاربيه اللذين بدأت الصبغة تزول عنهما.

ومثل نبيل عظيم يستقبل نبلاء مثله، هرع للترحيب بوجهاء القرية لدى

وصولهم، وشرح لهم كيف ستعمل سكة الحديد المعلقة، وراح يعدد الفوائد التي ستعم الريف بأكمله، وكيف أن القديسة مريم ـ ذات النعم اللامتناهية ـ ساعدت بحكمتها في تنفيذ هذا المشروع.

فقد قال: «إنه عمل هندسي عظيم. إذ كان عليّ أن أعثر على درجة الانحدار بدقة، وقد تطلب مني ذلك جهداً كبيراً، وصدّع رأسي لشهور عديدة، لكني لم أصل إلى نتيجة. فمن الواضح أن عقل الإنسان قاصر أمام هذه الأعمال العظيمة، لذلك فإننا نحتاج إلى مساعدة الرب. حسناً، رأت القديسة مريم المحنة التي أمرّ بها، فأشفقت عليّ وقالت لي: إن زوربا المسكين ليس شخصاً سيئاً، فهو يعمل كلّ هذا لمصلحة القرية. أظن أنني سأذهب وأساعده. وبعدها حدثت معجزة من الله. . ».

توقّف زوربا ليرسم شارة الصليب ثلاث مرات متتابعة.

«يا لها من معجزة! ففي ذات ليلة جاءتني في المنام امرأة تتشح بالسواد ـ كانت القديسة مريم، وكانت تمسك بيدها نموذجاً مصغراً عن الخطّ، لا يزيد حجمه على هذا. وقالت: زوربا، لقد أحضرت لك المخططات. لقد أتت من السماء، وها هي درجة الانحدار التي تحتاجها، وإني أباركك واختفت! استيقظت مجفلاً، وركضت إلى المكان الذي كنت أجري فيه اختباراتي آنذاك، وماذا رأيت؟ كان الكابل قد عُلّق في الزاوية الصحيحة من تلقاء نفسه. كانت تفوح منه رائحة العنبر أيضاً، مما يثبت أن يد القديسة مريم قد لمسته!».

كان كوندومانوليو على وشك أن يفتح فمه ليسأل شيئاً عندما ظهر خمسة رهبان يمتطون بغالاً على طول درب الجبل الصخري. وكان راهب سادس يحمل صليباً خشبياً كبيراً على كتفه، يجري أمامهم ويصيح بأعلى صوته. حاولنا أن نتبين ماذا كان يقول، لكنّنا لم نفهم شيئاً.

بدأت تتناهى إلينا أصوات تراتيل. كان الرهبان يلوّحون بأيديهم في الهواء،

ويرسمون شارة الصليب. كانت شرارات تنطلق من الأحجار عندما تضربها بغالهم بحوافرها.

اقترب منا الراهب الذي كان يجري على قدميه، ووجهه يتصبب عرقاً. رفع الصليب إلى الأعلى.

وصاح: «أيها المسيحيون! معجزة! أيها المسيحيون! معجزة! إن الآباء يجلبون القديسة مريم نفسها! هيا اركعوا وقدّسوها».

جرى القرويون والأعيان والعمّال وتحلقوا حول الراهب ورسموا شارة الصليب. انتحى زوربا جانباً ونظر إليّ. كانت عيناه تلمعان.

قال ليَ: «اقترب أيضاً يا معلّم. اقترب واسمع معجزة القديسة مريم!».

وبسرعة بدأ الراهب يحكي قصته وهو يلهث.

«اركعوا أيها المسيحيون، واستمعوا إلى المعجزة الإلهية! اسمعوا أيها المسيحيون! فقد استولى الشيطان على روح زخريا اللعين وجعله منذ يومين يرش الدير المقدّس بالكيروسين. رأينا النار تشتعل في منتصف الليل، فأسرعنا وغادرنا فراشنا. كانت النار تشتعل في الدير والأروقة والغرف كلها. قرعنا جرس الدير وصحنا: النجدة! النجدة! يا عذراء الانتقام المقدّسة! وهرعنا لنطفئ الحريق بالأباريق ودلاء الماء! وفي صباح اليوم التالي، أُخمدت النار، ليتمجد اسمها المقدّس!».

«توجهنا إلى المصلى وجثونا أمام أيقونتها الخارقة، وأخذنا نصيح: يا عذراء الانتقام المقدّسة! أشهري رمحك واضربي الجاني ثم تجمّعنا في الفناء ولاحظنا أن زخريا، يهوذانا، لم يكن موجوداً. صحنا: إنه هو الذي أضرم النار فينا! لا بد أن يكون هو، ورحنا نجري خلفه. بحثنا عنه طوال اليوم لكننا لم نعثر عليه. وفتشنا عنه الليل بطوله، ولم نر شيئاً. لكن في فجر هذا اليوم، ذهبنا مرة أخرى إلى المصلى، وماذا رأينا أيها الأخوة؟ لقد حدثت معجزة عظيمة! كان زخريا مستلقياً ميتاً تحت الأيقونة المقدّسة، ورأينا على رأس رمح العذراء بقعة دم كبيرة!».

«يا إلهي ارحمنا! يا إلهي ارحمنا!» همهم القرويون مذعورين.

«هذا ليس كلّ شيء»، أضاف الراهب وهو يبلع ريقه، «فعندما انحنينا لنحمل زخريا الملعون وقفنا وأفواهنا فاغرة: فقد حلقت له العذراء شعره وشاربه ولحيته وأصبح مثل كاهن كاثوليكي!».

التفت إلى زوربا محاولاً أن أكتم ضحكتي.

«وغدا!» قلت بصوت منخفض.

لكنه كان ينظر إلى الراهب بعينين مفتوحتين على وسعهما بدهشة شديدة، وكان طوال الوقت يرسم شارة الصليب بتأثر شديد، مبدياً شدة ذهوله.

وأخذ يغمغم: «إنك عظيم يا إلهي! إنك عظيم، يا إلهي! وأعمالك رائعة!».

في هذه اللحظة، وصل الرهبان الآخرون وترجّلوا عن داباتهم. كان الراهب المضيف يحمل الأيقونة بيديه. تسلّق صخرة، وهرع الجميع وسجدوا أمام العذراء المعجزة. وأخيراً وصل ديميتريوس البدين، يحمل صحناً، ويجمع تبرعات، ويرشّ رؤوس الفلاحين الصلبة بماء الورد. وقف حوله ثلاثة رهبان يرتلون، وأيديهم معقودة على بطونهم، وتكسو وجوههم حبات كبيرة من العرق.

«سنسير بها في موكب حول قرى كريت»، قال ديميتريوس البدين، «كي يجثو المؤمنون أمام قداستها ويقدموا لها عطاياهم. إننا بحاجة إلى مال، إلى مال كثير، لنعيد بناء الدير المقدّس. . ».

«الخنازير السمينة!» همهم زوربا، «إنهم سيستغلون هذا الأمر».

ثم التفت إلى رئيس الدير وقال:

«أيها الأب الورع، كلّ شيء جاهز لحفل التدشين. فلتبارك القديسة مريم عملنا!».

كانت الشمس قد أصبحت في كبد السماء، وكانت الحرارة شديدة، ولم تكن

تهبّ نسْمة واحدة. تحلّق الرهبان حول البرج الذي يرفرف فوقه العلم. مسحوا جباههم بأكمامهم الواسعة وأخذوا يرتلون الصلاة من أجل «أسس البناء».

«إلهنا، إلهنا، لتقم هذه الآلة المخترعة على أسس صلبة لا تهزها ريح ولا تجرفها ماء .» وغطسوا مرّشة الماء المقدّس في الزبدية النحاسية وراحوا يرشّون الأشياء والأشخاص ـ البرج والكابل والبكرات وزوربا وأنا، ثم الفلاحين والعمّال وأخيراً البحر نفسه.

ثم، وبحرص شديد، وكما لو كانوا يعالجون امرأة مريضة، رفعوا الأيقونة ووضعوها بالقرب من البغاء، وتحلقوا حولها. وقف الأعيان على الطرف الآخر، ووقف زوربا في الوسط، أما أنا فقد انتحيت جانباً ووقفت بجانب البحر ورحت أنتظر.

كان الخطّ سيبدأ العمل بثلاث أشجار: ثالوث مقدّس، لكن أضيفت شجرة رابعة تمجيداً لعذراء الانتقام المقدّسة.

رسم الرهبان والقرويون والعمّال شارة الصليب.

وأخذوا يدمدمون: «باسم الآب والابن والروح القدس والقديسة مريم».

وبوثبة واحدة، أصبح زوربا عند البرج الأول، وسحب الحبل وأنزل العلم. كانت تلك الإشارة للرجال المنتظرين عند قمة الجبل. تراجع الحاضرون جميعهم ورفعوا أبصارهم نحو قمة الجبل.

«باسم الأب!» صاح رئيس الدير.

يتعذر وصف ما حدث بعد ذلك. فقد وقعت علينا الكارثة مثل صاعقة، ولم يكد يتاح لنا الوقت لكي نهرب. فقد أخذ الهيكل كله يترنح. وتلّبس جذع شجرة الصنوبر، الذي ربطه العمّال بالكابل، قوة شيطانية، فتطايرت الشرارات، وتناثرت في الهواء شظايا خشبية كبيرة، وعندما هبطت الشجرة بعد بضع ثوانٍ، لم تكن سوى قطعة متفحمة من الخشب.

رماني زوربا بنظرة مليئة بالخزي، وتراجع الرهبان والقرويون بحذر، وأخذت البغال المربوطة تشب على أطرافها الخلفية، وانهار ديميتريوس العجوز، وأخذ يلهث.

«يا إلهي ارحمني!» غمغم مذعوراً.

رفع زوربا يده، وقال بثقة:

«هذا لا شيء. إن ذلك يحدث دائماً في الشجرة الأولى. الآن الآلة ستدور. انظروا!».

رفع العلم، وأعطى إشارة ثانية وهرب.

«والابن!» صاح رئيس الدير بصوت مرتعش.

انطلق جذع الشجرة الثاني. ارتجّت الأبراج، وازدادت سرعة الجذع، وأخذ يترنح ويتأرجح مثل دلفين، واتجه نحونا مباشرة بسرعة كبيرة. لكنه لم يقطع مسافة طويلة، فتهشم في منتصف الطريق على المنحدر.

«فليأخذه الشيطان»، همس زوربا، وعضّ على شاربه، «إن زاوية المنحدر ليست صحيحة!».

قفز إلى البرج ولوّح بالعلم مرة أخرى، غاضباً، للمحاولة الثالثة. ووقف الرهبان الآن وراء بغالهم، ورسموا شارة الصليب. ووقف أعيان القرية ينتظرون، ورفع كل واحد منهم إحدى قدميه استعداداً للهرب.

«والروح القدس!» قال رئيس الدير متلعثماً، ممسكاً بردائه متأهباً للهرب.

كان جذع الشجرة الثالث ضخماً. ولم يكد يُطلق من القمّة، حتى سُمع صوت ضجيج هائل.

«انبطحوا، بحق الله!» صاح زوربا، وأطلق ساقيه للريح.

ألقى الرهبان أنفسهم على الأرض، وأخذ القرويون يركضون بأسرع ما يمكنهم.

قفز جذع الشجرة قفزة واحدة، ووقع فوق الكابل، فانبعث منه سيل من الشرارات، وقبل أن نتمكن من رؤية ما حدث، جرينا بسرعة نهبط سفح الجبل إلى الشاطئ وغصنا إلى مسافة بعيدة في البحر، مخلفين دفقاً عظيماً من الرغوة.

راحت الأبراج تهتز بطريقة تثير الرعب، وانحنى عدد منها، وفكت البغال الحبال التي تقيدها، وأخذت تعدو هاربة.

«هذا لا شيء! لا تقلقوا!» قال زوربا لنفسه، «الآن بدأت الآلة تعمل حقاً، لذلك يمكننا أن نبدأ بداية صحيحة!».

رفع العلم مرة أخرى. شعرنا كم كان مستميتاً ومتلهّفاً لرؤية نهاية كلّ ذلك.

«وعذراء الانتقام المقدّسة!» تلعثم رئيس الدير وقد أطلق ساقيه باتجاه الصخور.

أُطلق الجذع الرابع، ودوّى صوت مجلجل مرّتين في الهواء وتهاوت الأبراج جميعها، الواحد تلو الآخر، مثل مجموعة من أوراق اللعب.

«ليرحمنا الله! ليرحمنا الله!» صاح القرويون والعمّال والرهبان، بعد أن أطلقوا سيقانهم للريح.

جرحت شظية متطايرة فخذ ديميتريوس، وكادت شظية أخرى أن تصيب عين رئيس الدير. اختفى القرويون، وبقيت العذراء وحدها منتصبة فوق صخرتها، تمسك الرمح بيدها، وهي تنظر إلى الرجال في الأسفل بعين باردة وحادّة، وكان إلى جانبها الببغاء الذي كان ميتاً أكثر منه حياً، يرتعش، وانتصب ريشه الأخضر على جسمه.

أمسك الرهبان العذراء ورفعوها على أذرعهم، وساعدوا ديميتريوس الذي كان يئنّ من الألم، وجمعوا بغالهم، وامتطوها وانسحبوا بسرعة. أما العمّال الذين كانوا يديرون السفود فقد اعتراهم خوف حتى الموت، فتركوا الخروف وهربوا وبدأ اللحم يحترق.

«سيحترق الخروف تماماً»، صاح زوربا قلقاً، وجرى نحو السفود.

جلست إلى جانبه. لم يبق أحد على الشاطئ غيرنا. التفت إليّ ورمقني بنظرة مترددة مريبة. لم يعرف كيف سأتقبل هذه الكارثة، أو كيف يمكن أن تنتهي هذه المغامرة.

أخذ سكيناً، ومال فوق الخروف مرة أخرى، تذوقه، وعلى الفور أبعد الخروف من فوق النار، وأسنده بالسفود إلى الشجرة.

قال: «تمام. تمام يا معلّم! هل تريد قطعة أيضاً؟».

قلت: «أحضر الخبز والنبيذ أيضاً. إني جائع».

جرى زوربا نحو البرميل، ودحرجه حتى أصبح بجانب الخروف، وأحضر رغيف خبز أبيض وكأسين. تناول كلّ منا سكيناً، وقطعنا شريحتين من اللحم وقليلاً من الخبز، وبدأنا نأكل.

«انظر كم هو لذيذ يا معلّم؟ إنه يذوب في فمك! هنا لا توجد مراع جيدة، فالحيوانات تقتات هنا على العشب الجاف دائماً، لذلك فإن طعم لحمها لذيذ. أتذكّر أنني تناولت ذات يوم لحماً رياناً لذيذاً مثله في حياتي كان ذلك عندما طرّزت القدّيسة صوفيا بقليل من شعري وجعلته تعويذة. إنها قصة قديمة. . ».

«تابع، حدّثني».

«إنها قصة قديمة يا معلّم! فكرة يونانية مجنونة».

«تابع يا زوربا، أريد أن أسمعك وأنت تروي القصة».

«حسناً، هكذا كانت. كان البلغاريون قد ضربوا طوقاً حولنا. كان الوقت مساء، واستطعنا أن نراهم وهم يضرمون النار حولنا على منحدرات الجبال. دبّ الرعب في نفوسنا، وبدأوا يقرعون الصنج النحاسي ويعوون كقطيع من الذئاب. لا بد أنه كان هناك قرابة ثلاثمائة شخص منهم، في حين كان عددنا

ثمانية وعشرين، وكان روفاس قائدنا، رحم الله روحه إذا كان قد مات، رجلاً لطيفاً! وقال: هيا يا زوربا ضع الخروف على السفود! قلت: إنه يصبح أطيب مذاقاً وأشهى بكثير عندما يشوى في حفرة تحت الأرض أيها القائد، فقال: اشوه بالطريقة التي تحب، لكن بسرعة لأننا نتضور جوعاً. وهكذا حفرنا حفرة، ووضعنا فيها الخروف، وألقينا فوقه طبقة من الفحم وأشعلناها. ثم أخرجنا الخبز من أحزمتنا وجلسنا حول النار. قال قائدنا: ربما كان هذا آخر خروف نتناوله! هل يوجد أحد منكم خائف؟ فضحكنا جميعاً، ورفعنا كؤوسنا وقلنا: بصحتك يا رئيس. إذا أرادوا أن يصيبونا نرجو أن تكون طلقات جيدة! شربنا، وشربنا ثانية، ثم أخرجنا الخروف من الحفرة. أوه، يا معلّم، يا له من لحم لذيذ! كلما تذكرته يسيل لعابي! كان يذوب في الفم مثل حلوى اللقم! وعلى الفور غرزنا أسناننا فيه. قال الرئيس: لم أذق في حياتي لحماً ألذّ منه! ليحمنا الله جميعنا! ومع أنه لم يشرب في حياته من قبل، جرع كأسه دفعة واحدة، وقال آمراً: هيا لنغن أغنية من أغاني الكليفت! فهؤلاء يعوون هناك كالذئاب، أما نحن فسنغنّي كالرجال. هيا لنبدأ بديموس العجوز. جرعنا النبيذ بسرعة، أترعنا كؤوسنا ثانية وشربنا. ثم جعلنا نغني. تعالت أصواتنا أكثر وأكثر، وراح يتردد صداها في الوديان: *إني مقاتل في الكليفت منذ أربعين سنة، يا فتيان!* رحنا نغني بصوت عال وبإرادة. قال القائد: ليساعدنا الرب! هكذا هي المعنويات العالية! الآن، يا أليكسيس، عد وانظر إلى الخروف هناك. ماذا يقول؟ انحنيت فوق النار، وبدأت أقشط ظهر الخروف بسكيني».

صحت: «إني لا أرى قبوراً أيها القائد، ولا أرى أمواتاً. سننجو مرة أخرى، يا فتيان! فقال الرئيس: أرجو أن يسمعك الرب! لم يكن قد مضى على زواجه فترة طويلة، وأضاف، ليصبح لديّ ابن ولن أهتم بما يحدث بعد ذلك».

قطع زوربا لنفسه شريحة كبيرة من اللحم عند الكلية، ثم قال: «كان ذلك الخروف لذيذاً، وهذا أيضاً لا ينقصه شيء. إنه قطعة جميلة صغيرة».

قلت: «صبّ قليلاً من النبيذ يا زوربا. أترع الكاسين وسنجرعهما دفعة واحدة».

قرعنا كأسينا وتذوقنا طعم النبيذ، نبيذ كريتي ممتاز، لونه أحمر داكن، مثل دم الأرنب البري. عندما تشربه، تشعر وكأنك على صلة حميمة بدم الأرض نفسها، وتصبح شخصاً رهيباً. إذ تفيض عروقك بالقوة، وقلبك بالطيبة! وإن كنت حملاً أصبحت أسداً. يجعلك تنسى تفاهة الحياة، وتتساقط أمامك جميع القيود والعوائق، وتتحد مع الإنسان، ومع الحيوانات، ومع الله، وتشعر بأنك تتحد مع الكون.

قلت: «انظر إلى ظهر هذا الخروف واقرأ ماذا يقول»، وأردفت، «تابع يا زوربا».

أخذ يقطع بعناية شرائح من الظهر، يقشطها بسكينه، ثم يرفعها إلى الضوء ويحدّق فيها بدقة.

قال: «كلّ شيء جيد. سنعيش ألف سنة يا معلّم؛ لدينا قلوب من فولاذ!».

انحنى، وأخذ يتفحص ظهر الخروف ثانية في الضوء المنبعث من النار، ثم قال:

«إني أرى رحلة. رحلة طويلة. يوجد في نهايتها بيت كبير فيه أبواب كثيرة. لا بد أنها عاصمة مملكة ما، يا معلّم. أو الدير الذي سأكون فيه بواباً كما قلنا؟»

«صبّ قليلاً من النبيذ يا زوربا، ودع نبوءاتك جانباً. سأخبرك ما هو هذا البيت الكبير بتلك الأبواب: إنها الأرض وفيها جميع القبور. زوربا، إنها نهاية الرحلة الطويلة، والصحة الجيدة، إنك وغد!».

«الصحة الجيدة يا معلّم! إن الحظّ أعمى كما يقولون. إنه لا يرى الطريق الذي يسير فيه، ولا يتوقف عن الجري نحو الناس. ونقول عن الأشخاص الذين يصيبهم إنهم محظوظون! حسناً، بئس الحظ إذا كان كذلك، وأنا أقول إننا لا نريده، أليس كذلك يا معلّم؟».

«لا يا زوربا! الصحة الجيدة!».

شربنا، وأجهزنا على الخروف. أضحى العالم أكثر خفة ـ إذ بدا البحر سعيداً، وأخذت الأرض تتأرجح مثل طابق في سفينة، وسارت طيور النورس فوق الحصى تتحدث إلى بعضها كأنها بشر.

استويت واقفاً.

قلت: «هيا يا زوربا، علّمني الرقص!».

وثب زوربا واقفاً، وتألّق وجهه.

«هيا نرقص يا معلّم؟ لنرقص؟ جميل! هيا!».

«هيا إذن يا زوربا! لقد تغيّرت حياتي! هيا نرقص!».

«في البداية سأعلّمك رقصة الزيمبيكيكو. إنها رقصة عسكرية مجنونة. كنا نرقصها عندما كنت محارباً مع الثوار، قبل أن نبدأ أي معركة».

خلع حذاءه وجوربه الأرجواني، وظل بقميصه. لكنه كان يشعر بحرارة شديدة فخلعه أيضاً.

دفع إحدى قدميه إلى الأمام، وراح يمسّ الأرض مساً خفيفاً بأصابع قدميه، ثم دفع قدمه الأخرى. امتزجت الخطوات بشدة، بسعادة، وتذبذت الأرض مثل طبل.

ثم قال وهزّني من كتفي:

«إذن يا بني، لنفعل ذلك معاً!».

وانهمكنا في الرقص. كان زوربا يعطيني تعليماته، يصحح حركاتي بجدية وبصبر وبرقة بالغة. بدأت تتملكني شجاعة أكبر، وأحسست بأن قلبي يحلّق مثل طير.

«برافو! إنك رائع!» صاح زوربا، وهو يصفّق بيديه ليبرز الإيقاع، «برافو، أيها الشاب! ليذهب الورق والحبر إلى الجحيم! لتذهب السلع والأرباح إلى

الجحيم! لتذهب المناجم والعمّال والأديرة إلى الجحيم! والآن يا بني، بعد أن أصبح بإمكانك أن ترقص وتعلّمت لغتي، فماذا بقي مما لا يستطيع أحدنا أن يقوله للآخر؟».

أخذ يضرب بقدميه الحافيتين على الحصى بقوة ويصفق.

قال: «يا معلّم. لديّ عشرات الأشياء التي أريد أن أقولها لك. لم يسبق لأحدنا أن أحبّ الآخر أكثر من الآن. لدي مئات الأشياء التي أريد أن أقولها، لكن لساني لا يستطيع أن يقولها. لذلك سأرقصها لك! ها هي!»

ووثب في الهواء، وكأن أجنحة قد نبتت في قدميه وذراعيه. وعندما ألقى بنفسه في الهواء إزاء خلفية البحر والسماء، بدا مثل ملاك عجوز متمرد. فالرقص بالنسبة لزوربا مفعم بالتحدي والعناد. كان يبدو أنه يصرخ نحو السماء: «ماذا يمكنك أن تفعل لي، أيها القادر على كل شيء؟ لا تستطيع أن تفعل لي شيئاً إلا أن تقتلني. حسناً، اقتلني، لا يهمني! لقد نفسّت عن نفسي، وقلت كلّ ما أريد أن أقوله. لديّ وقت للرقص. ولم أعد بحاجة إليك!».

من رؤية زوربا وهو يرقص، فهمت لأول مرة الجهود الرائعة التي يبذلها الإنسان لكي يتغلب على وزنه. لقد أعجبت بقدرة زوربا على التحمّل، رشاقته، حركته، سلوكه المتعجرف. كانت خطواته الذكية والعنيفة تكتب على الرمل تاريخ البشرية الشيطاني.

توقّف، تأمّل خطّ الكابل المحطّم والركام الذي سببّه. كانت الشمس تميل للغروب، وبدأت الظلال تطول. التفت زوربا إليّ، وبحركة مألوفة لديه، غطّى فمه براحة يده.

قال: «أقول يا معلّم. هل رأيت زخّات الشرارات التي كانت تطلقها؟».

وانفجرنا في الضحك.

ألقى زوربا بنفسه عليّ، ضمني إليه وقبّلني.

«هل يضحكك أنت أيضاً؟» قال برقة، «أتضحك أيضاً؟ إيه، يا معلّم؟ جيد».

فيما كنا غارقين في الضحك، رحنا نتصارع عابثين لفترة من الوقت. ثم هوينا على الأرض، وتمددنا فوق الحصى، وغططنا في النوم وقد لف أحدنا الآخر بذراعه.

استيقظت عند الفجر ورحت أسير بسرعة على الشاطئ باتجاه القرية. كان قلبي يخفق بقوة في صدري. لم أشعر بأنني مفعم بالبهجة في حياتي كلها كما شعرت الآن. لم تكن بهجة عادية، بل فرحاً سامياً غريباً لا مبرر له، يخالف جميع التبريرات. هذه المرة فقدت كلّ شيء ـ مالي ورجالي والخطّ والعربات. كنا قد أقمنا ميناء صغيراً ولم يعد لنا الآن شيء نصدره. لقد ضاع كلّ شيء.

حسناً، في تلك اللحظة بالذات اعتراني إحساس غير متوقّع بالخلاص. وكأنني في متاهة الضرورة الكئيبة، اكتشفت الحريّة ذاتها وهي تلعب بسعادة في إحدى الزوايا، ورحت ألعب معها.

عندما يفشل كلّ شيء، كم من الممتع أن تختبر روحك لترى إن كانت تتمتع بالقدرة على التحمّل والشجاعة! عدو غير مرئي وكليّ القدرة ـ يطلق عليه البعض اسم الله، ويطلق عليه آخرون اسم الشيطان، يبدو أنه ينقضّ علينا ليحطمنا، لكنّنا لا نتحطم.

وفي كلّ مرة نكون فيها منتصرين في داخلنا، مع أننا نكون مهزومين من الخارج تماماً، نشعر نحن البشر بفخر وبهجة لا يمكن وصفهما. إذ تتحول الفاجعة الخارجية إلى هناءة سامية وثابتة.

أذكر شيئاً قاله لي زوربا ذات يوم:

«في إحدى الليالي، كنت فوق قمة جبل في مقدونيا تكسوه الثلوج، فهبّت ريح عاتية، وهزّت الكوخ الصغير الذي لجأت إليه وكادت أن تقلبه. لكنني قويّت دعائمه. كنت أجلس وحيداً بالقرب من النار، أسخر من الريح وأتهكم منها وأقول: لن تدخلي كوخي الصغير! لن أفتح لك الباب، ولن تطفئي ناري، ولن تحطمي كوخي.

بهذه الكلمات القليلة التي قالها زوربا، فهمت كيف ينبغي للرجال أن يتصرّفوا، والنبرة التي ينبغي أن يستخدموها عندما يتناولون شيئاً ضروريا قوياً، لكنه أعمى.

رحت أغذّ الخطى على طول الشاطئ، أكلّم العدو غير المرئي. صحت: «إنك لن تدخل روحي! لن أفتح لك الباب. لن تطفئ ناري، ولن تزحزحني من مكاني.

لم تكن الشمس قد بزغت على الجبل بعد، وكانت الألوان في السماء تتلاعب فوق الماء ـ زرقاء، خضراء، وردية، ولؤلؤية، وعلى اليابسة، بين أشجار الزيتون، بدأت العصافير تستيقظ وتغرد متنشية بنور الصباح.

مشيت على حافة الماء لأودّع هذا الشاطئ المنعزل، لأحفره في عقلي وأحمله معي.

فقد شهدت بهجة ومتعاً كثيرة على هذا الشاطئ. إن حياتي برفقة زوربا وسّعت قلبي، وبعض كلماته سكنّت روحي. لقد اختصر هذا الرجل بغريزته المعصومة عن الخطأ، ونظرته البدائية الشبيهة بنظرة النسر، الطريق بثقة، حتى دون أن يفقد أنفاسه، ووصل إلى الذروة، بل إنه ذهب شأواً أبعد من ذلك.

مرّت مجموعة من الرجال والنساء يحملون سلالاً مليئة بالطعام وقناني نبيذ كبيرة. كانوا متجهين إلى البساتين ليحتفلوا بيوم الأول من أيار. كانت ثمة فتاة تغني. كان صوتها رقراقاً كمياه الغدير مرت بجانبي فتاة صغيرة، بدا صدرها الصغير يتكور وينهد، وراحت تتسلق صخرة عالية وهي تلهث، وكان هناك رجل شاحب وغاضب ذو لحية سوداء يجري وراءها، ويصيح بصوت أجش: «انزلي، انزلي .».

لكن الفتاة ذات الوجنتين المتقدتين، رفعت ذراعيها وشبكتهما خلف رأسها، وراحت تتمايل بجسدها بلطف ورقة، وجعلت تغني:

قل لي وأنت تضحك، قل لي وأنت تبكي،

قل لي إنك لا تحبّني،

وماذا يهمني؟

«انزلي، انزلي. . .»، لم يتوقف الرجل الملتحي عن الصياح، مهدداً إياها تارة، ومتوسلاً إليها تارة أخرى بصوته الأجش. وبغتة، وثب عليها، وأمسكها من قدمها بقوة. انفجرت في البكاء كما لو كانت تنتظر هذه الحركة الفظة حتى تفرغ مشاعرها.

رحت أغذّ الخطى. لقد حرّكت مظاهر الفرح المفاجئة هذه قلبي. وتذكرت الغانية العجوز. عادت إلى مخيلتي ـ بدينة، تتضوع عطراً، ومشبعة بالقبل. إنها ترقد الآن تحت الأرض. لا بد أن جسدها قد انتفخ الآن، واخضّر، ولا بد أن جلدها قد تشقق، ونزّت سوائل جسمها وأخذ الدود يزحف عليها.

هززت رأسي مذعوراً. ففي بعض الأحيان تصبح الأرض شفافة ونرى اليرقة، حاكمتنا المطلقة، وهي لا تتوقف عن العمل ليلاً نهاراً في ورشاتها تحت الأرض. لكننا سرعان ما نشيح عنها ببصرنا، لأن الإنسان يستطيع أن يتحمّل رؤية كلّ شيء، ما عدا رؤية تلك الدودة البيضاء الصغيرة.

عندما دخلت القرية، التقيت بساعي البريد وهو يتهيأ لينفخ في بوقه.

«رسالة، يا معلّم»، قال ومدّ لي مغلفاً أزرق اللون.

قفزت من الفرح عندما عرفت الخط الرهيف المكتوب على المغلف. أسرعت إلى بستان الزيتون، وبسرعة فضضت الرسالة. كانت رسالة قصيرة ومكتوبة على عجل. قرأتها على الفور.

لقد وصلنا إلى حدود جورجيا. تمكنا من الهرب من الأكراد وأصبح كلّ شيء على ما يرام. لقد عرفت أخيراً معنى السعادة الحقيقية. لأنه أصبحت لديّ الآن

تجربة حقيقية من الحكمة القديمة القائلة: السعادة هي أن تؤدي واجبك، وكلما ازداد الواجب صعوبة، كانت السعادة أعظم.

بعد أيام قليلة، ستصل هذه المخلوقات المحتضرة المطاردة إلى باطوم، وقد تلقيت للتو برقية تقول: «أصبحت السفن الأولى على مرأى البصر!».

آلاف اليونانيين، هؤلاء الأذكياء الذين يعملون بجد، مع زوجاتهم ذوات الأرداف العريضة، والأطفال ذوي العيون النارية، سُينقلون قريباً إلى مقدونيا وثراسيا. إننا سنضخ دماً جديداً وشجاعاً في عروق اليونان القديمة.

أعترف أني أرهقت نفسي بعض الشيء، لكن ماذا يهم؟ لقد حاربنا يا سيدي العزيز، وانتصرنا. إنني سعيد.

خبأت الرسالة وأسرعت الخطى. كنت أنا أيضاً سعيداً. سلكت الدرب الوعر على سفح الجبل، وأنا أفرك بين أصابعي غصيناً من الزعتر تفوح منه رائحة طيبة. كانت الظهيرة تقترب، وتركّز ظلّي الأسود حول قدميّ. كان طائر العاسوق يحوم في السماء، يصفق جناحيه بسرعة إلى درجة أنه بدا ثابتاً في مكانه لا يتحرك. وسمع حجل وقع خطواتي، فانطلق وطار من فوق الأجمة، وحلّق في الهواء.

كنت سعيداً. لو كان بوسعي، لرفعت عقيرتي وغنيت حتى أنفّس عما يجيش في صدري، لكنني لا أستطيع إلا أن أصدر أصواتاً لا معنى لها. ما خطبك؟ سألت نفسي هازئاً. هل كنت وطنياً متحمساً آنذاك وأنت لا تعرف؟ أم أنك تحبّ صديقك كثيراً؟ يجب أن تخجل من نفسك! تمالك نفسك وهدئ من روعك!

لكن الطرب كان قد تملكني، وواصلت سيري على الدرب. كنت أصرخ وأنا أمشي. سمعت رنين أجراس ماعز. وظهرت على الصخور عنزات رمادية وبنية وسوداء تحت أشعة الشمس. كان التيس يسير في المقدمة، رافعاً رقبته بتصلب، وقد ملأت رائحته الكريهة الهواء.

«مرحباً يا أخ! إلى أين أنت ذاهب؟ من تلاحق؟» قفز راعي ماعز فوق صخرة وأخذ يصفّر لي وأصابعه في فمه.

«لديّ أمر عاجل يجب أن أقوم به!» أجبت وواصلت تسلقي.

«توقّف دقيقة. تعال واشرب قليلاً من حليب الماعز كي تنتعش وتجدد طاقتك»، صاح راعي الماعز، وهو يقفز من صخرة إلى أخرى.

«أقول لك لديّ شيء عاجل يجب أن أقوم به!» أجبته.

لم أشأ أن أقطع بهجتي بالتوقّف والتكلم.

«هل تقصد أنك تكره حليبي؟» قال راعي الماعز بنبرة تشي بالانزعاج، «واصل سيرك إذن، وأرجو لك حظاً سعيداً!».

وضع أصابعه في فمه ثانية، وأطلق صافرة، فاختفت العنزات والكلاب وراعي الماعز خلف الصخور.

بعد قليل وصلت إلى قمّة الجبل. هدأت على الفور، وكأن هذا ما كنت أصبو إليه. تمددت على صخرة في الظلّ، ورحت أنظر إلى السهل والبحر البعيدين. أخذت نفساً عميقاً. كان الهواء يعبق برائحة الميرميّة والزعتر.

استويت واقفاً، جمعت قليلاً من الميرميّة، وجعلت منها وسادة واستلقيت ثانية. لقد تعبت. وأغمضت عينيّ.

ولوهلة حلّق عقلي بعيداً فوق تلك الهضاب العالية البعيدة المكسوة بالثلج. حاولت أن أتخيّل تلك المجموعة الصغيرة من الرجال والنساء والماشية وهي تشق طريقها شمالاً، وصديقي يسير في الأمام، مثل كبش في مقدمة القطيع. لكن سرعان ما تشوش عقلي، وأحسست برغبة قوية في النوم.

أردت أن أقاوم. لم أكن أرغب في أن أستسلم للنوم. فتحت عينيّ. طائر يشبه الغراب، غراب ألبي، وقف فوق صخرة على قمّة الجبل أمامي مباشرة. كان ريشه الأزرق الداكن يشعّ تحت أشعة الشمس، ورأيت بدقة منقاره الأصفر

الكبير المعقوف. انزعجت، فقد بدا لي هذا الطير طالعاً سيئاً. التقطت حجراً ورميته به. فتح الغراب جناحيه بهدوء وبطء.

أغمضت عينيّ ثانية، غير قادر على المقاومة أكثر من ذلك، وغلبني النوم على الفور.

لا يمكن أن أكون قد نمت أكثر من ثوان قليلة عندما انطلقت مني صيحة، واستويت جالساً مجفلاً. كان الغراب في تلك اللحظة بالذات يمّر فوق رأسي. اتكأت إلى صخرة، وجسمي كله يرتعش. فقد شطر حلم عنيف عقلي كالسيف إلى شطرين.

رأيت نفسي في أثينا، أمشي وحدي في شارع هيرميس. كانت الشمس قائظة، والشارع مهجور يخلو من المارة، وجميع المحلات مغلقة. كانت العزلة تامة. عندما اجتزت كنيسة كابنيكاريا، رأيت صديقي، شاحباً منقطع الأنفاس، يجري نحوي من جهة ميدان الدستور. كان يتبع رجلاً نحيفاً طويلاً، يمشي بخطوات واسعة عملاقة. كان صديقي يرتدي بدلة دبلوماسية. رآني وصاح من بعيد، بصوت متهدج:

«مرحباً، ماذا تفعل هذه الأيام؟ لم أرك منذ زمن بعيد. تعال وزرني الليلة لنتحدث قليلاً».

«أين؟ »صحت بدوري، بصوت مرتفع جداً، وكأن صديقي كان بعيداً جداً وكان عليّ أن أرفع صوتي بكلّ ما أوتيت من قوة كي يسمعني.

«ساحة الكونكورد أو أومونيا، الساعة السادسة هذا المساء في مقهى ينبوع الجنة».

«حسناً» أجبت، «سأكون هناك».

«إنك تقول إنك ستأتي»، قال بنبرة عتاب، «لكنك لن تأتي».

«أؤكد لك أني قادم» صحت، «ها هي يدي».

«أنا في عجلة من أمري».

«لماذا أنت مستعجل؟ أعطني يدك».

مدّ يده، وفي الحال، انفصلت ذراعه عن كتفه وطارت في الهواء لتمسك بيدي.

اعتراني فزع شديد من قبضته الباردة جداً، واستيقظت مجفلاً وأنا أصيح.

في تلك اللحظة.اكتشفت أن الغراب يحوم فوق رأسي. كان يبدو أن شفتيّ تنضحان سماً.

استدرت نحو الشرق، وثبّت عينيّ على الأفق وكأني كنت أتمنى أن أخترق البعد وأرى. كنت واثقاً من أن صديقي في خطر. ناديت اسمه ثلاث مرات:

«ستافرداكي! ستافرداكي! ستافرداكي!».

وكأني كنت أريد أن أمنحه الشجاعة. لكن صوتي تلاشى على مسافة بضعة أمتار أمامي، وتبّخر في الأثير.

انطلقت أجري في الدرب هابطاً سفح الجبل، محاولاً أن أقتل حزني بالتعب. وحاول عقلي جاهداً، لكن عبثاً، أن يجمع تلك الرسائل الغامضة التي تستطيع أحياناً أن تخترق الجسد وتصل إلى الروح. وملأ الخوف أعماق كياني، أكثر عمقاً من العقل، حقيقة غريبة ذات صفة حيوانية خالصة. الحقيقة ذاتها التي تستشعرها بعض الحيوانات ـ الخراف والجرذان ـ قبل وقوع زلزال. واستيقظت في داخلي روح الرجال الأوائل على الأرض، مثلما كانت قبل أن تنفصل تماماً عن الكون، عندما كانت لا تزال تشعر بالحقيقة مباشرة، دون تأثير العقل المشوّه لها.

«إنه في خطر! إنه في خطر!» أخذت أدمدم، «إنه سيموت! ربما لا يعرف ذلك هو نفسه بعد، لكنني أعرفه، إنني متأكّد من ذلك. .».

أخذت أجري هابطاً الممر الجبلي، وتعثّرت بكومة من الأحجار فوقعت على

الأرض، وتبعثرت الأحجار. وثبت واقفاً ثانية، وقد سحجت ونزفت يداي وساقاي.

«سيموت! سيموت!» قلت، وشعرت بغصة في حلقي.

لقد بنى الإنسان المنكود الحظ ما يظنه حاجزاً منيعاً حول وجوده الصغير السيء. وقد لجأ إليه محاولاً أن يجلب قليلاً من الأمن والنظام إلى حياته. سعادة صغيرة. يجب أن يتبع كلّ شيء الدرب المطروق، الروتين المقدس، والامتثال لقواعد آمنة وبسيطة. وداخل هذا السياج، محصناً من هجمات المجهول العنيفة، وحقائقه التافهة، تزحف حشرة أم أربع وأربعين، دون أن يعترضها أحد. ثمة عدو هائل واحد فقط، مخيف ومكروه حتى الموت: إنها الحقيقة العظيمة. الآن، لقد اخترقت هذه الحقيقة العظيمة جدران وجودي الخارجية، وأصبحت مستعدة لتنقضّ على روحي.

عندما وصلت إلى شاطئنا، توقّفت لألتقط أنفاسي للحظة. كنت وكأني وصلت إلى خطّ دفاعاتي الثاني واستجمعت قوتي. قلت في نفسي إن جميع هذه الرسائل ولدت من قلقنا الداخلي، وتأخذ في نومنا شكلاً رمزياً رائعاً. لكننا نحن الذين نخلقها   ازداد هدوئي. هدأ عقلي من جيشان قلبي، وراح يقصّ جناحي ذلك الخفاش الغريب الخافق، وراح يقصّ ويقصّ حتى لم يعد يستطيع أن يطير.

عندما وصلت إلى الكوخ، ابتسمت من سذاجتي. وخجلت لأن الذعر تملك عقلي بسرعة كبيرة. وعدت إلى الحقيقة اليومية. كنت جائعاً وعطشاً، شعرت بالإنهاك، وبدأت أشعر بألم الجروح التي أصابتني عندما وقعت على الأحجار. بدا قلبي مطمئناً: فقد تم صدّ العدو الفظيع الذي اخترق الجدران الخارجية لخطّ الدفاع الثاني الذي يحيط بروحي.

[26]

انتهى كلّ شيء. جمع زوربا الكابل والمعدات والعربات وما تبقى من قطع الحديد والخشب، وكدّسها جميعها بالقرب من الشاطئ، ريثما يتم تحميلها على المركب.

قلت: «سأقدمها لك هدية يا زوربا جميعها لك. أتمنى لك حظاً سعيداً».

ابتلع زوربا ريقه وكأنه يحاول أن يتمالك نفسه من البكاء.

«هل سنفترق؟» همهم، «إلى أين ستذهب يا معلّم؟».

«سأسافر إلى الخارج يا زوربا، فلا يزال للعنزة العجوز في داخلي أوراق كثيرة عليّ أن ألوكها».

«ألم تتعلم شيئاً أفضل من هذا بعد يا معلّم؟».

«نعم يا زوربا، وهذا بفضلك. لكنني سأتبع أسلوبك. سأفعل بكتبي ما فعلته أنت بالكرز. سآكل الكثير من الأوراق حتى أمرض، ثم أتقيأها، وعندها أتخلّص منها إلى الأبد».

«وماذا سيحّل بي بدون رفقتك يا معلّم؟».

«لا تخف يا زوربا، سنلتقي مرة أخرى، فمن يدري. إذ إن قوّة الإنسان هائلة! ففي ذات يوم، سنضع خطتنا العظيمة موضع التنفيذ: سنبني ديراً لنا، بدون رب، وبدون شيطان، بل برجال أحرار، وستكون أنت البوّاب يا زوربا، وتمسك المفاتيح العظيمة لتفتح البوابة وتغلقها ـ مثل القديس بطرس. . ».

كان زوربا جالساً على الأرض وظهره مستنداً إلى طرف الكوخ، يملأ ويعيد ملء كأسه، يشرب ولا يقول شيئاً.

هبط الليل. كنا قد أنهينا وجبة طعامنا. كنا نرشف النبيذ ودار آخر حديث بيننا. فقد كان علينا أن نفترق في وقت مبكر من صباح اليوم التالي.

«نعم، نعم. . .» قال زوربا، وهو يرشف من كأسه. «نعم، نعم. . .».

كانت النجوم تضيء الليل فوقنا. في داخلنا كانت قلوبنا متلهفة للخلاص، لكنها كانت لا تزال تمتنع عن القيام بذلك.

قلت في نفسي، ودّعه إلى الأبد. انظر إليه ملياً، فلن تقع عيناك على زوربا ثانية!

كان بإمكاني أن أرتمي على صدره وأبكي، لكنني خجلت من عمل ذلك. حاولت أن أضحك لأخفي حقيقة مشاعري، لكنني لم أستطع. أحسست بغصة في حلقي.

نظرت إلى زوربا وهو يمطّ رقبته مثل طير جارح وأخذت أشرب بصمت. جعلت أنظر إليه وأفكّر كيف أن هذه الحياة سر محيّر. إذ يلتقي الرجال ثم يفترقون مثل أوراق الأشجار التي تذروها الرياح. وتحاول عيناك عبثاً أن تحافظ على صورة الوجه أو الجسم أو قسمات الشخص الذي أحببته. فبعد بضع سنوات، لن تتذكر حتى إن كانت عيناه زرقاوان أم سوداوين.

يجب أن تكون الروح الإنسانية مصنوعة من النحاس! يجب أن تكون مصنوعة من الفولاذ! صحت في داخلي، لا بل من الهواء فقط!

كان زوربا يشرب، ورأسه الكبير منتصب، لا يتحرك. كان يبدو أنه ينصت إلى وقع خطوات تقترب في الليل أو تتراجع إلى أعمق أعماق كينونته.

«بماذا تفكّر يا زوربا؟»

«بماذا أفكّر يا معلّم؟ لا شيء. لا شيء، أقول لك! لم أكن أفكّر بأيّ شيء».

بعد لحظة أو لحظتين، ملأ كأسه ثانية وقال: «بصحتك يا معلّم».

قرعنا كأسينا. كنا نعرف أن حزناً بهذه المرارة لا يمكن أن يدوم طويلاً. فإما أن ننفجر في البكاء، أو أن نسكر، أو أن نرقص كمجنونين.

«اعزف يا زوربا»، اقترحت عليه.

«ألم أقل لك يا معلّم؟ إن السنتوري بحاجة إلى قلب سعيد. سأعزف بعد شهر، ربما بعد شهرين ـ كيف يمكنني أن أعرف؟ عندها سأغنّي كيف يمكن أن يفترق شخصان إلى الأبد».

«إلى الأبد»، صحت مذعوراً. جعلت أردد هذه الكلمة التي لا براء منها، لكنني لم أتوقّع أن أقولها بصوت مرتفع. كنت خائفاً.

«إلى الأبد»، كرّر زوربا، مبتلعاً ريقه بشيء من الصعوبة، «هكذا هو الأمر ـ إلى الأبد. إن ما قلته الآن عن اللقاء مرة أخرى، وعن بناء ديرنا، هو ما تقوله لرجل مريض كي تشجعه. لا أقبله. لا أريده. هل نحن ضعفاء كالنساء كي نعزيّ أنفسنا هكذا؟ بالطبع لسنا كذلك. ومع ذلك، فإلى الأبد».

«ربما بقيت هنا معك. . .» قلت، وقد أفزعتني مودّة زوربا البائسة تجاهي، «ربما جئت معك. فأنا حرّ».

هزّ زوربا رأسه، وقال:

«لا، أنت لست حرّاً. فربما كان الحبل الذي يقيدك أطول من حبل الآخرين. هذا كلّ ما في الأمر. إنك مقيد بقطعة حبل طويلة يا معلّم. إنك تذهب وتأتي وتظن أنك حرّ، لكنّك لا تستطيع أبداً أن تقطع الحبل إلى قطعتين. وعندما لا يقطع أولئك الناس الحبل. . .».

«سأقطعه ذات يوم»، قلت بتحد لأن كلمات زوربا لمست جرحاً ناكئاً فيّ وآلمني.

«من الصعب أن تفعل ذلك يا معلّم، صعب جداً. إنك بحاجة إلى لمسة من

الحماقة كي تفعل ذلك. حماقة، هل ترى؟ يجب أن تجازف بكلّ شيء! لكنك عنيد ورأسك صلب يا معلّم، وسيتغلب عليك دائماً. إن رأس الرجل أشبه ببقال، لا يتوقف عن الحساب: لقد دفعت كذا وربحت كذا، وهذا يعني ربحاً مقداره كذا أو خسارة مقدارها كذا! إن الرأس هو صاحب دكان صغير حذر، وهو لا يجازف بكل ما يملكه، بل يحافظ دائماً على شيء كاحتياط. إنه لا يقطع الحبل أبداً. لا! بل يحكم قيده ذلك اللقيط! فإذا أفلت الحبل من قبضته، فإن الرأس، ذلك الشيطان المسكين، يضيع، ينتهي! لكن قل لي إذا لم يقطع الرجل الحبل، فماذا يبقى من نكهة في الحياة؟ نكهة البابونج، شاي بابونج خفيف! لا يوجد شيء مثل شراب الرم ـ الذي يجعلك ترى الحياة بكل دواخلها».

لاذ بالصمت، رشف جرعة أخرى من النبيذ، ثم واصل كلامه.

«يجب أن تغفر لي يا معلّم، فأنا لست إلا حذاء غليظاً ثقيلاً. تعلق الكلمات بين أسناني كما يعلق الطين في حذائي. لا أستطيع أن أقول عبارات وإطراءات جميلة. لا أستطيع. لكن أعرف أنك تفهمني».

أفرغ كأسه ونظر إليّ.

«إنك تفهم»، صاح وكأنه امتلأ فجأة بالغضب.

«إنك تفهم، لذلك فلن تنعم بالهدوء والسكينة في حياتك. وإذا لم تكن تفهم، فستكون سعيداً! ماذا ينقصك؟ إنك شاب، ولديك المال، وتنعم بالصحة، وإنك رجل طيب، لا ينقصك شيء. لا شيء، بحق الرعد! إلا شيء واحد ـ الحماقة! وعندما لا يملكها المرء يا معلّم، حسناً. .».

هزّ رأسه الكبير وعاد إلى صمته.

كدت أن أبكي. فكلّ ما قاله زوربا صحيح. فعندما كنت طفلاً، كانت تعتريني نوازع مجنونة، رغبات تفوق طاقة البشر، لم أكن قانعاً بالعالم. ورويداً رويداً، ومع مرور الزمن، أصبحت أكثر هدوءاً. رسمت لنفسي حدوداً،

وأصبحت أميّز بين الممكن والمستحيل، بين الإنساني والإلهي، وأمسكت بطائرتي الورقية بإحكام، كي لا تفلت مني.

رسم شهاب كبير خطاً في السماء. نظر زوربا إليه وفتح عينيه على وسعيهما وكأنه يرى شهاباً لأول مرة في حياته.

سألني: «هل رأيت تلك النجمة؟».

«نعم».

لذنا بالصمت.

فجأة مطّ زوربا رقبته الهزيلة، ونفخ صدره وأطلق صيحة يائسة عنيفة. وعلى الفور تحولت الصيحة إلى كلام بشري، وانبثقت من أعماق كيان زوربا نغمة رتيبة قديمة، مفعمة بالحزن والعزلة. وانشق قلب الأرض نفسه إلى شقين وانبعث سمّ الشرق الجميل. وأحسست في داخلي أن جميع الخيوط التي لا تزال تربطني بالشجاعة والأمل بدأت تهترئ ببطء.

Iki kiklik bir tepende otiyor
Otme de, kiklik, bemin dertim yetiyor, aman, aman

الصحراء، الرمل الناعم، على مد البصر الهواء يلمع، وردياً، أزرق، أصفر صدغاك ينفجران. وتطلق الروح صيحة مدوية وتغتبط لأنه لا تُسمع صيحة رداً عليها. اغرورقت عيناي بالدموع.

كان طائرا حجل ساقاهما حمراوان يغردان فوق رابية؛
أيها الحجلان توقفا عن التغريد. يكفيني ما أعانيه، أمان أمان

صمت زوربا وبحركة صارمة بأصابعه جفف حبات العرق من حاجبه. انحنى إلى الأمام وحدّق في الأرض.

«ما هذه الأغنية التركية يا زوربا؟» سألته بعد لحظات.

«إنها أغنية سائق الهجن. الأغنية التي يغنيها في الصحراء. ولم أغنها أو أتذكّرها منذ سنوات. فقط الآن. . ».

رفع رأسه. كان صوته حاداً، وانكمشت حنجرته، ثم قال:

«يا معلّم. حان وقت النوم. يجب أن تستيقظ عند الفجر لتأخذ المركب من كنديا. طابت ليلتك».

«لا أشعر بالنعاس. سأسهر معك. فهذه آخر ليلة لنا معاً».

«لذلك يجب أن ننهي الأمر بسرعة»، قال، وقلب كأسه الفارغة إلى الأسفل دلالة على أنه لم يعد يرغب في أن يشرب المزيد، كما يقلع الرجال عن التدخين وعن شرب النبيذ وعن لعب الورق، مثل بطل شجاع يوناني حقيقي.

قال: «كان أبي شجاعاً حقيقياً. لا تنظر إليّ هكذا، فأنا لا أساوي سوى نفحة هواء بالمقارنة به، لم أكن أكد أصل إلى كاحله. كان واحداً من هؤلاء الإغريقيين القدامي الذين لا يستطيع الكلام أن يفيهم حقهم. وعندما كان يصافحك، يكاد يسحق عظامك ويجعلها قطعة من العجين. إني أتكلّم أحياناً، لكن أبي كان يزأر ويصهل ويغني. وقلما خرجت من فمه كلمة إنسانية واحدة».

«حسناً، كانت لديه جميع العيوب. فمثلاً كان يدخّن مثل مدخنة. وذات صباح نهض وذهب إلى الحقل ليحرثه. وصل إلى الحقل. استند إلى السياج، وأدخل يده في حزامه ليخرج كيس التبغ ليلف سيكارة قبل أن يبدأ عمله، أخرج الكيس ووجده فارغاً. فقد نسي أن يملأه قبل أن يغادر البيت».

«أرغى وأزبد. زأر ثم اتجه إلى القرية. كان تعلّقه بالتدخين قد أخلّ بتوازن تفكيره تماماً. لكن فجأة ـ كنت أقول دائماً إن الإنسان لغز ـ توقّف، وأحس بالخجل، وأخرج كيسه ومزّقه بأسنانه، ثم ألقى به على الأرض وبصق عليه، وأخذ يجأر: قذارة! قذارة! قحبة قذرة!»

«ومنذ تلك الساعة، وحتى أيامه الأخيرة، لم يضع سيكارة أخرى بين شفتيه».

«هكذا يتصرف الرجال الحقيقيون يا معلّم. طابت ليلتك!».

نهض ومشى نحو الشاطئ. لم ينظر إلى الوراء أبداً. ذهب إلى حافّة البحر وتمدد على الحصى.

لم أره بعد ذلك أبداً. فقد وصل البغّال قبل صياح الديك. ركبت الدابة وغادرت. ربما كنت مخطئاً، لكني أظن أنّ زوربا كان مختبأ في مكان ما ويراقبني وأنا أغادر، لكنه لم يندفع نحوي ليسمعني عبارات الوداع المألوفة حتى نحزن ونذرف الدموع ونتصافح ونلوّح بالمنديل ونتبادل العهود والوعود.

كان فرّاقنا نظيفاً كحد السيف.

تلقيت في كنديا برقية. أخذتها ويداي ترتعشان ونظرت إليها قليلاً قبل أن أفتحها. كنت أعرف ما بداخلها. استطعت أن أرى بثقة مخيفة، عدد الكلمات، لا بل عدد الأحرف فيها.

اعترتني الرغبة في أن أمزقها وألا أفتحها، فلماذا أقرأها وأنا أعرف محتواها؟ لكن للأسف لم نعد نؤمن بأرواحنا. إن العقل، ذلك البقال الأبدي، يسخر من الروح، كما نسخر نحن أنفسنا من الساحرات والنساء العجائز اللاتي يلقين السحر، أو من السيدات المسنات الغريبات الأطوار. لذلك فتحت البرقية. كانت من تفليس. لوهلة أخذت الأحرف تتراقص أمام عينيّ، لم أميّز ولا كلمة. لكن الكلمات هدأت ورحت أقرأ:

بعد ظهر البارحة توفي ستافرداكي بسبب إصابته بذات الرئة

مضت خمس سنوات، خمس سنوات طويلة من الرعب، ازداد خلالها الزمن سرعة، وانضمت الحدود الجغرافية إلى الرقصة، وتوسّعت الحدود الوطنية وتقلّصت مثل أكورديونات عديدة صغيرة. لقد جرفتني العاصفة أنا وزوربا، مع أنني خلال السنوات الثلاث الأولى كنت أتلقى بطاقة قصيرة منه بين الحين والآخر.

بطاقة من جبل أثوس ـ بطاقة عليها صورة العذراء، حارسة البوابات، بعينيها الحزينتين الكبيرتين، وذقنها القوية الصلبة. وكتب زوربا بقلمه الثقيل السميك، الذي يخدش الورق دائماً تحت صورة العذراء: «لا توجد إمكانية للعمل هنا يا معلّم! حتى أن الرهبان هنا يفلّون براغيثهم! سأغادر!» وبعد بضعة أيام تلقيت بطاقة أخرى: «لا أستطيع أن أزور كلّ هذه الأديرة وأنا أحمل الببغاء بيدي مثل مهرج جوّال». لذلك قدمته هدية إلى كاهن مضحك مسلٍ، كان قد علّم شحروراً كيف يصفر «يا ربّ ارحمنا» على نحو جميل. إن هذا الشيطان الصغير يغني مثل راهب حقيقي. إنه يدهشك عندما تسمعه. وسيعلّم ببغاءنا المسكين الغناء أيضاً. آه! الأشياء التي رآها ذلك الوغد في حياته! والآن أصبح ببغاؤنا الأب المقدس! أتمنى لك التوفيق أيها الأب أليكسيوس، الراهب المقدّس.

وبعد ستة أو سبعة أشهر تلقيت بطاقة من رومانيا فيها صورة امرأة كبيرة الصدر ترتدي ثوباً مفتوح الصدر.

لا أزال حياً أرزق، أتناول مماليغا وأشرب الفودكا. أعمل في حقول النفط وأصبحت قذراً ونتناً مثل أيّ جرذ بالوعة. لكن من يهتمّ بذلك؟ هنا يمكنك أن تجد الكثير مما يشتهيه قلبك وبطنك. جنة حقيقية للأوغاد العجائز مثلي. هل تفهم يا معلّم؟ إنها حياة رائعة. الكثير من الحلويات والحسناوات، الحمد لله! أتمنى لك كلّ التوفيق.

اليكسيس زوربيكو، جرذ البالوعة.

وبعد سنتين وصلتني بطاقة أخرى، هذه المرّة من صربيا.

لا أزال على قيد الحياة. الطقس شديد البرودة، لذلك اضطررت لأن أتزوج إقلب البطاقة وسترى وجهها ـ قطعة أنثوية جميلة. إنها بدينة قليلاً في الوسط لأنها تستعد لجلب زوربا صغير لي. إني واقف إلى جانبها أرتدي البدلة التي

أعطيتها لي، وخاتم الزواج الذي تراه في يدي هو خاتم بوبولينا العجوز المسكينة ـ لا شيء مستحيل! فليبارك الله رفاتها! اسم زوجتي هذه ليوبا. إن المعطف ذا ياقة فرو الثعلب الذي أرتديه هو جزء من مهر زوجتي. كما قدمت لي فرساً وسبعة خنازير ـ إنها أمور مضحكة! ولها طفلان من زواجها الأول، لأني نسيت أن أقول لك إنها أرملة. لقد وجدت منجم نحاس في أحد الجبال القريبة من هنا. تعرفت على رأسمالي آخر وأعيش حياة رغدة الآن، مثل باشا أتمنى لك كلّ النجاح.

اليكسيس زوربيتش، أرمل سابق.

«وعلى ظهر البطاقة توجد صورة لزوربا في هيئة رائعة، يرتدي بدلة وكأنه عريس جديد، يعتمر قبعة فراء ومعطفاً جديداً طويلاً ويحمل عصا بزهو. وتقف إلى جانبه امرأة سلافية جميلة لا يتجاوز عمرها خمسة وعشرين سنة، فرس بريّة وركاها ممتلئان، تبدو فاتنة وماكرة، تلبس حذاء طويلاً، وقد أنعم الله عليها بصدر عامر. وفي أسفل الصورة، توجد كلمات بخط زوربا المعقوف: أنا، زوربا، وهذا العمل الذي لا ينتهي، المرأة ـ هذه المرأة اسمها ليوبا».

أمضيت كلّ تلك السنوات وأنا مسافر في الخارج. وكانت لديّ أيضاً أشغال لا تنتهي، لكن لا يوجد فيها صدر عامر، ولا معطف جديد، ولا خنازير تقدم لي.

وذات يوم، عندما كنت في برلين وصلتني برقية تقول:

وجدت حجارة خضراء رائعة تعال على الفور زوربا.

كنا نمر في فترة المجاعة الكبيرة في ألمانيا فقد تدنت قيمة المارك كثيراً، لذلك كان يتعين عليك أن تحمل ملايين الماركات في حقيبتك لتشتري شيئاً

صغيراً، مثل طابع بريد. ففي كل مكان، كنت ترى المجاعة، والبرد، والثياب الرثة، والأحذية المليئة بالثقوب ـ وأصبحت خدود الألمان المتورّدة شاحبة. فإن هبت نسمة خفيفة، تساقط الرجال في الشارع مثل أوراق الشجر التي تذروها الريح. كانت الأمهات يعطين أطفالهن قطعاً من المطاط يمضغونها ليتوقفوا عن البكاء. وفي الليل، كانت الشرطة تقف على الجسور عبر النهر ليمنعوا الأمهات من أن يلقين بأنفسهن في النهر، وأطفالهن بين أذرعهن، ليضعن حداً لهذه الحياة.

كنا في فصل الشتاء، وكان الثلج يهطل، وفي الغرفة المجاورة لغرفتي، كان أستاذ ألماني يدرّس اللغات الشرقية يحاول أن يتدفأ وهو يحمل فرشاة طويلة بيده، مقلداً العادة المؤلمة التي يتبعونها في الشرق الأقصى، وهو ينسخ بعض القصائد الصينية القديمة أو أقوال كونفوشيوس. وكان رأس الفرشاة، ومرفق الكاتب المرفوع وقلبه، تشكل جميعها مثلثاً.

«وبعد بضع دقائق»، كان يقول لي بقناعة، «يبدأ العرق يتصبب مني. بهذه الطريقة أتدفأ».

وفي غمرة هذه الأيام المريرة تلقيت برقية من زوربا. في البداية، غضبت. إذ ينحدر ملايين البشر إلى الحضيض، لأنهم لم يكونوا يملكون ولا حتى كسرة خبز تقيم أود أجسامهم وأرواحهم، وجاءت البرقية لتطلب مني أن أذهب وأسافر آلاف الأميال لأرى حجارة خضراء جميلة! فليذهب الجمال إلى الجحيم! فليس لديه قلب ولا يكترث حتى مقدار ذرّة واحدة للمعاناة الإنسانية!

لكن سرعان ما ذعرت: فقد تلاشى غضبي وبدأت أدرك أن قلبي يستجيب للنداء اللا إنساني الذي أرسله لي زوربا. فقد أخذ طير برّي في داخلي يصفق بجناحيه ويحثني على الذهاب.

ومع ذلك فإنني لم أذهب. ومرة أخرى لم أجرؤ. ولم أطع الاصطخاب الإلهي والوحشي في داخلي. لم أفقد الإحساس بالتصرف النبيل.

استمعت إلى صوت المنطق الإنساني المعتدل، لذلك أخذت قلمي وكتبت لزوربا موضحاً.

فرد عليّ.

إنك كاتب يا معلّم، إذا سمحت لي أن أقول لك ذلك. فقد كان بإمكانك أيضاً أن ترى الحجارة الخضراء الجميلة على الأقل مرة في حياتك، أيها الروح المسكينة، لكنك لم ترها. يا إلهي، في بعض الأحيان، عندما لا يكون لديّ عمل، أطرح على نفسي هذا السؤال: هل للجحيم وجود أم لا؟ لكن البارحة، عندما وصلتني رسالتك، قلت: بالتأكيد لا بد أنه يوجد جحيم لكاتب مثلك يا معلّم!

ولم يكتب لي زوربا منذ ذلك الحين. فقد فرّقنا المزيد من الأحداث الفظيعة. وظل العالم يترنح ويتمايل مثل رجل سكران، وانشقت الأرض وابتلعت الصداقات والهموم الشخصية.

كنت أحدّث أصدقائي في معظم الأحيان عن هذه الروح العظيمة. فقد أعجبنا بهذه الصلة الفخورة والواثقة، الأعمق من العقل، لهذا الرجل الذي لم يتعلم. الذرى الروحية التي استغرقت منا سنوات طويلة من الجهد المضني كي نبلغها، والتي بلغها زوربا بوثبة واحدة. وكنا نقول: «إن زوربا روح عظيمة»، أو إنه قفز إلى ما وراء تلك الذرى، ثم كنا نقول: «إن زوربا مجنون!».

وهكذا مضى الوقت، تسممه الذكريات بطريقة جميلة حلوة. وهبط ظلّ آخر، ظلّ صديقي أيضاً في روحي. ولم يتركني ـ لأنني أنا نفسي لم أكن أرغب في أن اتركه.

لكنني لم أحدّث أحداً عن ذلك الظلّ. كنت أكلّمه على انفراد، وبفضله بدأ يتصالح مع الموت. أصبح لديّ جسري السري الذي أعبر عليه إلى الجانب الآخر. وعندما كانت روح صديقي تجتاز الجسر، كنت أشعر أنها مرهقة وشاحبة. كانت ضعيفة إلى درجة أنها لا تقوى على مصافحتي.

في بعض الأحيان، كنت أقول لنفسي مذعوراً بأنه ربما لم يكن لدى صديقي الوقت على الأرض ليحوّل عبودية الجسد إلى حريّة، أو يطوّر أو يقوّي روحه، كي لا يتملكها الذعر وتتحطم في لحظة الموت السامية. لعلي كنت أظن أنه لا يوجد لديه الوقت ليّخلد ما يمكن تخليده فيه.

لكنه كان يصبح قوياً بين الحين والآخر ـ هل كان هو؟ أم أنها كانت مجرد الطريقة الأكثر حدّة التي أتذكرها؟ ـ فعندما كان يأتي، يكون شاباً وطالباً، بل كان يبدو لي أنني أسمع وقع خطواته يصعد الدرج.

في أحد فصول الشتاء، انطلقت في رحلة حجّ إلى جبال إنغادين، حيث أمضينا أنا وصديقي منذ سنوات عديدة، ساعات من النشوة مع امرأة أحببناها أنا وهو.

اقمت في الفندق ذاته الذي أقام فيه. ورأيت القمر يتربع صفحة السماء من خلال النافذة المفتوحة، وأحسست بروح الجبال، وروح أشجار الصنوبر المغطاة بالثلوج والليل الأزرق الهادئ تتسرب إلى عقلي.

اعتراني شعور بالهناءة وراحة البال يتعذر وصفه، وكأن النوم بحر عميق هادئ شفّاف، وغصت في الأعماق، سعيداً لا آتي بأي حركة. لكن أحاسيسي كانت متناغمة، إلى حدّ أنه إذا مر قارب على سطح الماء، يعلوني بآلاف القامات، كان يحدث جرحاً بليغاً في جسدي.

وبغتة سقط ظلّ فوقي، وعرفت من هو. جاء صوته مفعماً باللوم:

«هل أنت نائم».

فأجبت بالنبرة ذاتها:

«لقد جعلتني أنتظرك، ولم أسمع صوتك منذ شهور. أين كنت تتجوّل؟».

«كنت أقف إلى جانبك طوال الوقت، لكنك نسيتني. فليس لدي دائماً القوّة لكي أنادي، أما أنت، فإنك تحاول أن تهجرني. إنّ ضوء القمر جميل،

وكذلك الأشجار المكسوة بالثلج، والحياة على الأرض. لكن بحق الله لا تنسني!».

«أنا لا أنساك، وأنت تعرف ذلك جيداً. ففي الأيام الأولى عندما تركتني، رحت أجري فوق الجبال البرّية كي أرهق جسدي، وأمضيت ليالي مؤرقة أفكّر بك. بل وحتى كتبت قصائد لأنفّس عن مشاعري. لكنها كانت قصائد حزينة لا تستطيع أن تزيل ألمي. وقد بدأت إحداها هكذا:».

وفيما وطأت، مع ملاك الموت، الدرب الوعر
أعجبت بخفة أجسادكم، قوامكم
مثل بطّتين بريتين تستيقظان عند الفجر وتغادران.

وفي القصيدة الأخرى، التي لم تكتمل أيضاً، صحت:

أطبق على أسنانك، أيها الحبيب، كي لا تهرب روحك

ابتسم بمرارة، ومال بوجهه عليّ واعترتني رعشة عندما رأيت شحوبه.

نظر إليّ طويلاً بمحجريّ عينيه الخاويين حيث كانت توجد عينان ذات يوم. أما الآن فلم يعد فيهما سوى كرتين صغيرتين من التراب.

«بماذا تفكّر؟» دمدمت، «لماذا لا تقول شيئا؟».

جاء صوته ثانية مثل تنهيدة بعيدة:

«ماذا يبقى لروح يكون فيها العالم صغيراً جداً!».

«بضعة أبيات من قصيدة لشاعر آخر، أبيات مبعثرة وممزقة ـ ليست حتى رباعية كاملة! آتي وأذهب إلى الأرض، أزور أولئك الذين كانوا أعزاء على قلبي، لكن قلوبهم مغلقة. أين يمكنني أن أدخل؟ كيف يمكنني أن أعود إلى الحياة؟ أدور وأدور مثل كلب في بيت جميع أبوابه موصدة. كم أتمنى لو أني

أعيش حراً، ولا أضطر إلى أن أتعلّق مثل غريق بأجسادكم الدافئة والحيّة!».

وطفرت الدموع من محجريه. حبيبات من التراب تتحول إلى طين.

لكن سرعان ما يعلو صوته وقال:

«إن أعظم بهجة قدمتها لي على الإطلاق، عندما حضرنا ذات يوم مهرجاناً في زيوريخ. هل تذكر؟ رفعت كأسك لتشرب نخب صحتي. هل تذكر ذلك؟ وكان معنا شخص آخر . . .».

فأجبت: «أتذكّر، وقد أطلقنا عليها اسم سيدتنا الرقيقة، السمحة. . .».

لذنا بالصمت. كم قرناً يبدو أنه مضى منذ ذلك الحين! زيوريخ! كان الثلج يهطل في الخارج. وكانت هناك أزهار على الطاولة. كنا ثلاثة أشخاص.

«بماذا تفكّر، يا سيدي؟» سأل الظلّ، بنبرة ساخرة.

«بعدد من الأشياء، بكلّ شيء. . .».

«إني أفكّر بكلماتك الأخيرة. لقد رفعت كأسك وقلت بصوت مرتعش: صديقي العزيز، عندما كنت طفلاً صغيراً، أجلسك جدّك العجوز على إحدى ركبتيه، ووضع على الركبة الأخرى القيثارة الكريتية، وراح يعزف ألحاناً يونانية قديمة. وهذه الليلة فإني أشرب نخبك. وأرجو أن يجعلك القدر تجلس دائماً في حضن الله».

«لقد استجاب الله لدعائك بسرعة، للأسف».

صحت: «وماذا يهمّ؟ الحبّ أقوى من الموت».

ابتسم ثانية بمرارة، لكنه لم يقل شيئاً. وشعرت بأن جسده يتحلل في الظلام، ويصبح مجرّد شهقة، تنهيدة، دعابة.

ولأيام عديدة، بقي طعم الموت في شفتيّ. لكن قلبي أحسّ بالراحة. فقد دخل الموت حياتي بوجه مألوف ومحبوب، مثل صديق يأتي لزيارتك وينتظر بأناة في زاوية حتى تفرغ من عملك.

لكن ظلّ زوربا لم يتوقف عن الطواف حولي بشيء من الغيرة.

وذات ليلة كنت وحدي في بيتي على شاطئ البحر في جزيرة أيجينا. كنت سعيداً. وكانت نافذتي مشرعة على البحر، وكان القمر يتربع صفحة السماء، والبحر يتنهّد سعيداً أيضاً. كان جسدي مرهقاً بلذة حسيّة بعد أن سبحت كثيراً، وبدأ النعاس يغالبني.

وفجأة، وقبل بزوغ الفجر، وفي غمرة تلك السعادة، جاءني زوربا في الحلم. لا أستطيع أن أتذكّر ماذا قال أو لماذا جاء. لكنني عندما صحوت كان قلبي جاهزاً ليتحطم.

ودون أن أعرف السبب، اغرورقت عيناي بالدموع. واعترتني رغبة جامحة في أن أعيد تشكيل الحياة التي عشناها معاً على ساحل كريت، وأن أدفع ذاكرتي لتعمل وأجمع كلّ الأقوال، والصيحات، والحركات، والدموع، والرقصات التي بعثرها زوربا في عقلي ـ أن أنقذها من الضياع.

كانت هذه الرغبة جامحة إلى درجة أني شعرت بالخوف. فقد رأيت فيها إشارة إلى أن زوربا، في مكان ما على سطح الأرض، يحتضر، حتى أني أحسست بأن روحي قد اتحدت بروحه إلى حد كبير، وبدا لي أنه يتعذر لإحداهما أن تموت دون أن ترتعش الأخرى وتصرخ بألم.

ولوهلة تردّدت في أن أجمع كلّ ذكرياتي عن زوربا، وأضعها في كلمات. وتملكني رعب طفولي. قلت في نفسي: إذا فعلت ذلك، فإن هذا يعني أن زوربا معرض حقاً لخطر الموت. ويجب أن أحارب اليد الغامضة التي يبدو أنها تحثّ يدي لأن تفعل ذلك.

قاومت يومين، ثلاثة أيام، أسبوعاً. وانغمست في كتابة أشياء أخرى، وخرجت في نزهات طوال اليوم وقرأت الكثير هذه هي الحيل التي اتبعتها لأتحاشى الوجود الخفي. لكن إحساساً قوياً من القلق تملّك عقلي بالنيابة عن زوربا.

في ظهيرة أحد الأيام كنت جالساً في شرفة بيتي على شاطئ البحر. كانت الشمس شديدة الحرارة، وكنت أحدّق في سهول سالامي العارية الجميلة أمامي. وبغتة، وبدافع قوي من تلك اليد الإلهية، تناولت ورقة، وتمددت على بلاط الشرفة اللاهب وبدأت أدوّن أقوال زوربا وتصرفاته.

رحت أكتب بسرعة كبيرة، مستعجلاً لكي أعيد الحياة إلى الماضي، محاولاً أن أتذكر زوربا وأن أبثّ فيه الحياة تماماً كما كان. وأحسست أنه إذا اختفى، فإن ذلك سيكون خطأي، وعملت ليلاً نهاراً لأرسم صورة كاملة بقدر الإمكان عن صديقي القديم.

عملت كما يعمل سحرة القبائل المتوحشة في أفريقيا عندما يرسمون على جدران كهوفهم الأسلاف الذين رأوهم في أحلامهم، سعياً منهم لجعلها تشبه حياتهم بقدر ما يستطيعون كي تتمكن روح السلف من أن تتعرف على جسدها عندما تدخله.

وبعد أسابيع قليلة، أنهيت تسجيل تاريخ زوربا بالكامل. وبعد ظهر أحد الأيام، كنت جالساً في الشرفة ثانية، أحدّق في البحر، وتقبع في حضني المخطوطة المنتهية. أحسست بالسعادة وراحة البال، وكأن عبئاً ثقيلاً قد أزيح عن كاهلي. كنت مثل امرأة تضم وليدها.

ووراء جبال بيلوبونيسوس، كانت الشمس الحمراء آفلة إلى الغروب، عندما جاءت سولا، الفتاة الفلاحة الصغيرة التي كانت تجلب لي البريد من البلدة، إلى الشرفة. مدت إليّ الرسالة وراحت تجري. فهمت. على الأقل، بدا لي أني فهمت لأنني عندما فضضت الرسالة وقرأتها، لم أقفز وأصرخ، ولم يتملكني الذعر. كنت متأكداً. كنت أعرف أنني في هذه اللحظة بالذات، وفيما أضع المخطوطة في حضني وأراقب غروب الشمس، سأستلم هذه الرسالة.

بهدوء، وبتمهل، قرأت الرسالة. كانت مرسلة من قرية قريبة من سكوبليجي في صربيا، وكُتبت بلغة ألمانية ركيكة. وقد ترجمتها:

أنا مدير مدرسة هذه القرية، وإني أكتب إليك لأنقل إليك النبأ الحزين بأن أليكسيس زوربا، صاحب منجم النحاس هنا، قد توفي في الساعة السادسة من مساء يوم الأحد الماضي. وقد استدعاني وهو على فراش الموت.

وقال: «تعال إليّ يا مدير المدرسة، فلدي صديق في اليونان. عندما أموت اكتب له وأخبره بأنني حتى آخر لحظة كنت أتمتع بكامل حواسي وأني كنت أفكّر به. وأخبره أني لست نادماً على كل ما فعلته. وقل له إني أتمنّى له صحة جيدة وإنه حان الوقت ليظهر شيئاً من الإحساس»

«اسمع، دقيقة أخرى فقط. إذا جاء كاهن أو آخر ليأخذ اعترافاتي ويمنحني السر المقدس، قل له أن يغرب عني، بسرعة، وأن يترك لي لعنته! فقد فعلت أكداساً وأكداساً من الأشياء في حياتي، لكنني مع ذلك لم أفعل ما يكفي. فالرجال من أمثالي يجب أن يعيشوا ألف سنة. طابت ليلتك»

كانت تلك كلماته الأخيرة. ثم استوى جالساً في سريره، وألقى الملاءات وحاول أن ينهض. ركضنا لنمنعه من ذلك ـ ليوبا، زوجته، وأنا، مع عدد من الجيران الأقوياء. لكنّه دفعنا جميعنا بقوة، وقفز من السرير وتوجه إلى النافذة. وهناك أمسك إطار النافذة، وراح يحدق بعيداً في الجبال، وفتح عينيه على وسعهما وبدأ يضحك، ثم أخذ يصهل مثل حصان. وهكذا، واقفاً، وقد انغرزت أظافره في إطار النافذة، جاءه الموت.

وطلبت زوجته ليوبا مني أن أكتب لك، وأن أرسل لك تحياتها. وتقول إن المتوفى كان يتحدث عنك في معظم الأحيان، وأوصى بأن يعطى السنتوري لك بعد وفاته ليساعدك على تذكره.

لذلك ترجوك الأرملة، إذا مررت بقريتنا، أن تتفضل وتمضي الليلة في ضيافتها في بيتها، وعندما تغادر في الصباح، أن تأخذ السنتوري معك وتحتفظ به.

هذا الكتاب

أذكر شيئاً قاله لي زوربا ذات يوم:

«في إحدى الليالي، كنت فوق قمة جبل في مقدونيا تكسوه الثلوج، فهبّت ريح عاتية، وهزّت الكوخ الصغير الذي لجأت إليه وكادت أن تقلبه. لكنني قوّيت دعائمه. كنت أجلس وحيداً بالقرب من النار، أسخر من الريح وأتهكم منها وأقول: لن تدخلي كوخي الصغير! لن أفتح لك الباب، ولن تطفئي ناري، ولن تحطمي كوخي».

بهذه الكلمات القليلة التي قالها زوربا، فهمت كيف ينبغي للرجال أن يتصرّفوا، والنبرة التي ينبغي أن يستخدموها عندما يتناولون شيئاً ضرورياً قوياً، لكنه أعمى.